



عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

شعر النّقد المجتمعي في العصر المملوكي الأوّل: دراسة
موضوعية وفنّيّة.

محمد موسى حسين العويسات

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين
1429هـ - 2008م

شعر النّقد المجتمعي في العصر المملوكي الأوّل: دراسة
موضوعية وفتنيّة.

مقدّمة من الطالب

محمد موسى حسين العويسات

بكالوريوس اللغة العربية وآدابها
من جامعة بيت لحم/ كلية الآداب

المشرف

د. مشهور الحبّازي

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلّبات درجة الماجستير في اللغة العربية
وآدابها

جامعة القدس

1429هـ - 2008م

برنامج اللغة العربية وآدابها



عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

إجازة رسالة

شعر النقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول: دراسة
موضوعية وفنيّة.

اسم الطالب: محمد موسى حسين العويسات

الرقم الجامعي: 20511550

المشرف: د. مشهور الحبّازي

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 30 / 8 / 2008م من لجنة المناقشة المدرجة
أسمائهم، وتواقيعهم:

- | | |
|---------------|--|
| التوقيع:..... | 1- د. مشهور الحبّازي رئيس لجنة المناقشة |
| التوقيع:..... | 2- أ. د. إبراهيم الخواجه ممتحناً داخلياً |
| التوقيع:..... | 3- د. حسن فليفل ممتحناً خارجياً |

القدس - فلسطين

1429هـ - 2008م

فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
أ	إقرار
ب	الإهداء
ج	شكر وتقدير
د	المخلص بالعربية
ز	Abstract
1	المقدمة
3	التمهيد - الحياة في العصر المملوكي الأول
4	أولاً- الحياة السياسية
7	ثانياً- الحياة الاجتماعية
9	ثالثاً- الحياة الاقتصادية
10	رابعاً- الحياة الثقافية
13	الفصل الأول- النقد المجتمعي نشأته ومفهومه وتطوره.
14	أولاً- شعر النقد المجتمعي
14	١ - نشأته
15	٢ - مفهومه
20	٣ - أصله
21	ثانياً- تطور شعر النقد المجتمعي
21	١ - في العصر الجاهلي
28	٢ - في عصري صدر الإسلام وبنى أمية
32	٣ - في العصر العباسي
38	الفصل الثاني- شعر النقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول، دراسة موضوعية
39	أولاً- شعر النقد السياسي

41	١ - صراع المماليك على الحكم
48	٢ - السياسات الجائرة والسلوك الفاسد
59	٣ - تحصيل المناصب بالرشوة
60	٤ - الظلم في النفس والمال
70	٥ - التقصير في رعاية الشؤون
77	٦ - الخارجون على الدولة
78	٧ - العملاء
79	٨ - الفساد الوظيفي
85	ثانياً- شعر النقد الاقتصادي
85	١ - تسلط الحكام وموظفي الدولة على أموال الرعية
91	٢ - الفقر
97	٣ - حال المهن
100	٤ - التكسب بالشعر
103	٥ - أثر الحالة الاقتصادية في أخلاق الناس
107	ثالثاً- شعر النقد الاجتماعي
107	١ - الناس
107	أ - المرأة
108	١ - الزوجة
111	٢ - زوجة الأب
111	٣ - البنات
112	ب - الآباء والأبناء
113	ج - القوم
114	د - الخدم والعبيد
119	هـ - الأصحاب
122	و - الجار
123	٢ - الأخلاق السيئة
124	أ - البخل
126	ب - التكبر
126	ج - الحمق وطول اللسان

126	د - مطل الوعد
127	٣ - انتقاد الشاعر نفسه
132	٤ - نقد بعض الظواهر الاجتماعية الطارئة
132	أ - اللواط
133	ب - الحشيشة
134	ج - الخمر
136	رابعاً- شعر النقد الثقافي
137	١ - حالة العلم والدرس العلمي
137	أ - الدرس والمدرس
141	ب - المدارس
143	٢ - الشعر والشعراء
145	أ - كساد الشعر
148	ب - نقد الشعر فنياً
148	١ رداءة الشعر وثقله
149	٢ مخالفة بعض أعراف الإخوانيات
150	٣ نقد الوقوف على الأطلال
151	٤ نقد الإغراب في اللغة
154	خامساً- شعر النقد الديني
154	١ - ما تعلق بأهل الدين من وعاظ وقضاة وفقهاء
154	أ - في الواعظ
154	ب - في فقيه معتكف
155	ج - في مدعي فقه
155	د - في نقد عالم في مسألة فكرية
156	هـ - في قاض عرف عنه الجهل والظلم
159	و - في شيخ نقض توبته
161	٢ - في الفرق المنتسبة لأمة الإسلام
161	أ - الروافض
161	ب - العلويين
162	ج - الزنادقة

162	د - المتشعبة
162	هـ - المتصوفة
166	٣ - ما تعلق بأحكام الدين والعقيدة
166	أ - تسجيل مظاهر الفساد
169	ب - في قاض حكم بغير ما أنزل الله
169	ج - في ذم التتجيم
170	د - في أهل الذمة
175	سادساً- شعر النقد العمراني
175	١ - البيوت
179	٢ - الحمام
181	٣ - السوق
185	٤ - المدن
189	سابعاً- شعر نقد متعلقات الانسان
189	١ - اللباس
190	٢ - الدواب
191	أ - انتقاد الركوبة
193	ب - شكوى الدواب من اصحابها وغيرهم
194	٣ - الطعام
195	٤ - المرض
199	٥ - الطب والأطباء
201	٦ - البرد وأحوال الجو
201	أ - الامطار
201	ب - الضباب
201	ج - الثلج
202	د - البرد
205	الفصل الثالث- شعر النقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول دراسة فنية
206	اولاً- شكل القصيدة وبنائها
206	١ - شكل القصيدة

208	٢ - بناء القصيدة
212	ثانياً- اللغة
212	١ - اللغة بين الركابة والجزالة
212	أ - الركابة
213	ب - الجزالة
214	ج - العامية
214	٢ - شيوع المعرب والدخيل في لغة الشعر
217	٣ - توظيف المصطلحات المتعلقة بالمهن والعلوم
220	٤ - تأثير الشعر بلغة القرآن
223	ثالثاً- الموسيقى
223	١ - البحور
225	٢ - القافية
226	أ - القوافي المطلقة
226	ب - القوافي المقيدة
227	ج - الوصل
228	د - الرفع
229	هـ - إشباع حركة هاء الوصل
229	و - التأسيس
230	ز - التصريح
233	٣ - عيوب القافية
233	أ - الإقواء
233	ب - الإيطاء
234	ج - التضمين أو المبتور
235	٤ - المحسنات اللفظية
235	أ - الجناس
236	١ - الجناس التام
237	٢ - الجناس الناقص
238	ب - رد العجز على الصدر
242	رابعاً- الصنعة البديعية

243	١ - التورية
247	٢ - التضمين (الإبداع)
251	خامساً- الصورة الشعرية
251	١ - التشخيص
253	٢ - التجسيم
255	٣ - عناصر الصورة الشعرية
260	سادساً- أسلوب الفكاهة
268	الخاتمة
271	فهرس المصادر والمراجع
271	اولاً- المصادر
276	ثانياً- المراجع
278	فهرس الأعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلال وجهه، وعظيم شأنه، حمداً يملأ السموات والأرض وما بينهما وما شاء ربي بعد، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد المرسلين، وإمام المتقين، محمد بن عبد الله، نبي هذه الأمة، ورسول الناس كافة، الذي أوتي جوامع الكلم، فكان أفصح وأبلغ من نطق بالعربية، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغر الميامين، وبعد؛

فهذا بحث مقدّم لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، موضوعه شعر النّقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول، الواقع ما بين عامي 648هـ و 784هـ، حيث درسته من الجانبين الموضوعي والفني.

وتعود صلتني بهذا الموضوع، إلى دراستي مساق "موضوع خاص في الأدب المملوكي والعثماني" في مرحلة الدراسات العليا، إذ لفت انتباهي أمور ثلاثة، الأول: اختلاف الآراء وكثرة الأقوال في هذا العصر، فمنهم من يتهمه بالانحطاط والتخلف، ومنهم من يدفع عنه ويبرّئه، ومنهم من يعده عصراً، كالعصور التي سبقته، له ظروف خاصة، وذوق معين، فيه الشاعر والمتشاعر، وفيه الفحل ومن دون ذلك، والثاني: قلة الدراسات التي تتناول قضايا معينة فيه، إذ معظم الدراسات تتناول هذا العصر تحت عنوان تاريخ الأدب من مثل: الأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام، وتاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي لعمر موسى الباشا، وغيرها، وأما الثالث فهو شعر الشاعر البوصيري، الذي يظنّ بعض طلاب العلم أنه شاعر المديح النبوي فقط، فوجدت، في بحث كتبتّه متطلباً لذلك المساق، أنّ ما يقرب من شطر شعره كان في النّقد المجتمعي، فكان أن دفعتني هذه الأسباب الثلاثة إلى اختيار هذا الموضوع "شعر النّقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول" عنواناً لرسالتي.

وقد جاء بحثي هذا في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، أما التمهيد فتناولت فيه الحياة في العصر المملوكي الأول في جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، بشكل موجز ومركّز، وأمّا الفصول الثلاثة، فكانت كما يأتي، في الفصل الأول، تناولت مفهوم النّقد المجتمعي ونشأته في العصر الحديث، وشعر النّقد المجتمعي في عصور ثلاثة، هي: العصر الجاهلي، والإسلامي، والعباسي، واستشهدت على وجوده في تلك العصور بجملة من شعر كبار شعرائها. وفي الفصل الثاني، وهو الدراسة الموضوعية، تناولت مواضيع شعر النّقد المجتمعي في العصر المملوكي، فكانت سبعة مواضيع: السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والديني،

والعمراني، وما تعلق بحياة الإنسان كفرد من لباس ومركب ومرض، وغيرها. وقد ضم كل جانب قضايا أو ظواهر استقرأتها من مجمل الأشعار التي حصّلتها. والفصل الثالث، جعلته للدراسة الفنيّة، وتناولت بنية القصيدة، ولغة الشعر، والموسيقى الشعرية، والصنعة البديعية، والصورة الشعرية، وأسلوب الفكاهة، وفي الخاتمة وضعت ما خلصت إليه من نتائج وتوصيات.

وقد اعتمدت في بحثي هذا المنهج التكاملي، حيث اتبعت المنهج التاريخي في التمهيد، وفي تتبع مفهوم النّقد المجتمعي ونشأته، وتتبع هذا الغرض الشعري في عصور سبقت العصر المملوكي، والمنهج الوصفي التحليلي في الفصلين الأول والثاني، أي في الدراسة الموضوعية والفنيّة، إضافة الى المنهج الجمالي في الدراسة الفنيّة.

أما مادة البحث، أي أشعار ذلك العصر، فاستقيتها من تسعة دواوين، لم أستطع تحصيل غيرها، هي دواوين كلّ من: الجزار (ت 679هـ)، ومجير الدين بن تميم (ت 684هـ)، والشاب الظريف (ت 688هـ)، والبوصيري (ت 696هـ)، وابن دقيق العيد (ت 702هـ)، وابن دانيال (ت 711هـ)، وابن الوردي (ت 749هـ)، وصفي الدين الحلي (ت 755هـ)، و ابن نباتة (ت 768هـ)، أمّا أشعار غيرهم من الشعراء الذين استشهدت بأشعارهم، فكانت مصادرها، كتب التراجم والتاريخ، من مثل: الوافي بالوفيات للصفدي (ت 764هـ)، وفوات الوفيات للكتبي (ت 764هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير (ت 774هـ)، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (ت 845هـ)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (ت 874هـ)، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ)، ومن كتب متخصصة من مثل مطالع البدر في منازل السرور للغزولي (ت 815 هـ) وغيرها.

وقد واجهتني في بحثي هذا صعوبتان، الأولى: تمثلت في ندرة دواوين شعراء ذلك العصر، وصعوبة تحصيل المطبوع منها، والثانية، ذلك العدد الكبير من الأعلام والألقاب، لشعراء وساسة وعلماء وقضاة، منهم من كانت ترجمته في متناول اليد في كتب التراجم والتاريخ، لشهرته، وأثره الأدبي أو الثقافي أو السياسي، ومنهم من قلت تراجمه، ومنهم من تعسرت الترجمة له، وهم بفضل الله تعالى، قلة قليلة، أرجو أن أعذر فيها.

وأسأل الله العليّ القدير أن أكون قد وفقته، والله من وراء القصد، وهو وليّ في الأولى والآخرة، نعم المولى ونعم النصير.

تمهيد - الحياة في العصر المملوكي الأول

أولاً - الحياة السياسية

ثانياً - الحياة الاجتماعية

ثالثاً - الحياة الاقتصادية

رابعاً - الحياة الثقافية

أولاً- الحياة السياسية

المماليك هم أرقاء، جلبوا إلى مصر والشام بوساطة النخّاسين، الذين كانوا يأتون بهم من أواسط آسيا ومن بلاد أوروبية أخرى، وبعضهم من أسرى الحروب التي كان المسلمون يخوضونها في بلاد مختلفة. ويعود تاريخ هذه الظاهرة إلى العصور العباسية الأولى، إذ لم يقتصر جلبهم على الأيوبيين فقط، بل أسهم في ذلك من قبل الطولونيون والإخشيدون والفاطميون. ولكن الأيوبيين كانوا أكثر من اعتمد عليهم في الحكم والجيش وحماية الحكام فساعد ذلك على انتشارهم، وبخاصة بعد وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام 589هـ، حيث أخذت الفتنة تدب في صفوف الأيوبيين، فكان كل حاكم يتقوى بمماليكه، واستكثر منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت 647هـ)، آخر حكام بني أيوب في مصر⁽¹⁾، حتى ضاقت بهم القاهرة، فاضطر أن ينقلهم إلى جزيرة الروضة، وكان معظمهم من الأتراك، وعرفوا بالمماليك البحرية، وقد حكموا مصر بعد وفاة نجم الدين أيوب ومن ثمّ الشام، واستمر حكمهم حتى عام 784هـ، وهو ما يطلق عليه العصر المملوكي الأول. أمّا العصر الثاني، الذي انتهى على أيدي العثمانيين عام 922هـ، فكان مماليكه جراكسة وعرفوا بالمماليك البرجية⁽²⁾.

وكان أول حكام دولة المماليك شجرة الدر بنت عبدالله، المكتاة أم خليل، زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب، بعدما اختلفت مع ابن زوجها توران شاه، فقنتته، يقول المقرئزي: "وبقلى المعظم توران شاه انقضت دولة بني أيوب من أرض مصر، وكانت مدتهم إحدى وثمانين سنة، وعدد ملوكهم ثمانية"⁽³⁾.

حكمت شجرة الدر المسلمين بصورة مباشرة ثلاثة أشهر، ضرب فيها اسمها على الدنانير وخطب لها على المنابر، ولكنها بعد أن بعث الخليفة العباسي المستعصم بالله⁽⁴⁾ كتاباً إلى مصر أنكر فيه تولي امرأة للحكم قائلاً: "إن كانت الرجال قد عدت عندكم، فأعلمونا حتى نسري إليكم رجلاً"⁽⁵⁾. خلعت نفسها لزوجها عز الدين أيبك التركماني⁽⁶⁾، الذي كان قائداً لعسكرها، ومكث هذا

(1) هو نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، مات عام 647هـ عن أربعة وأربعين عامًا، وكانت مدة ملكه عشر سنين إلا خمسين يومًا، فساد البلاد في عصره الأمن، وعرف بالوقار والحزم وعلو الهمة. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 59/9-60؛ المقرئزي، السلوك، 10/441-443؛ الزركلي، الأعلام، 2/38.

(2) ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11/181؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 8/153-155.

(3) المقرئزي، م.س، 1/459.

(4) هو الخليفة العباسي المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله، قتله المغول بعد دخولهم بغداد 656هـ، كان فيه لين، أسند الأمر إلى وزيره ابن العلقمي، الذي تأمر مع التتار، ينظر: ابن كثير، م.س، 9/86-87؛ المقرئزي، م.س، 1/501؛ الزركلي، م.س، 4/140.

(5) المقرئزي، م.س، 1/463 - 464.

(6) المعز التركماني، أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي، أول سلاطين المماليك البحرية، كان مملوكًا للصالح نجم الدين أيوب، تزوج من شجرة الدر فتولى الحكم 648، قتل 655هـ. ينظر: ابن كثير، م.س، 9/81. المقرئزي، م.س، 12/493-494. ابن العماد، م.س، 5/399-400.

في الملك نحوًا من سبع سنين، ثم دبّرت شجرة الدر قتلها، بعدما علمت أنه يريد الزواج بغيرها فخلفه نور الدين علي الملقب بالمنصور، ومكث سنة، بعدها تغلب عليه مدبر مملكة أبيه سيف الدين قطز، وكانت شجرة الدر قد حبست بعد مقتل عز الدين أيبك في البرج الأحمر⁽¹⁾، إلى أن قتلت بتدبير من الملك المنصور، وكان ذلك عام 655هـ⁽²⁾.

وتوالى على حكم دولة المماليك البحرية، خمسة وعشرون سلطانًا، آخرهم الملك الصالح صلاح الدين أمير حاج ابن السلطان الملك الأشرف شعبين بن قلاوون الذي خلع عام 784هـ، ليحل محله أول ملوك البرجية، الظاهر برقوق الجركسي⁽³⁾.

ومن أشهر ملوك البحرية السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي حكم ما بين عامي 658هـ و 676هـ، وكانت له أعمال جليلة، أهمها إعادة الخلافة العباسية إلى الوجود، بعد أن قتل التتار الخليفة العباسي المستعصم بالله، وبقي الناس بلا خليفة نحوًا من ثلاث سنين، وله فتوحات عظيمة لمدن وحصون في ساحل بلاد الشام، تحصن فيها الصليبيون، منها: يافا، وقيسارية، وشقيف، وأنطاكية، وغيرها. ومنها تجديد بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد احتراقه سنة 654هـ، وهو الذي جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضي قضاة، وفي زمنه أبطلت الخمور، ونُفي الفساق من البلاد، يقول ابن كثير: "وبالجملة أقامه الله في هذا الوقت المتأخر عوناً ونصراً للإسلام وأهله وشجا في حلق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين"⁽⁴⁾.

ومن أشهرهم أيضاً السلطان المنصور قلاوون الألفي الذي حكم ما بين عامي 678هـ و 689هـ⁽⁵⁾، وابنه محمد بن قلاوون⁽⁶⁾، الذي حكم على ثلاث مراحل ما بين 693هـ-741هـ، وأطول مراحل حكمه كانت ما بين عامي 719هـ و 741هـ، ويعتبر من أعظم سلاطين المماليك وأطولهم حكماً، إذ بلغت مدة حكمه في المرات الثلاث ثلاثاً وأربعين عاماً، وقد استطاع تأديب التتار والفرنجية، ففي عصره دفع الخطر الخارجي، واستتب الأمن.⁽⁷⁾

(1) أحد أبراج قلعة جبل المقطم في القاهرة، بناه السلطان الكامل، ينظر: المقرئ، السلوك، 494/1.

(2) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 81/9-82.

(3) ينظر: المقرئ، م.س، 140/5-141.

(4) ابن كثير، م.س، 81/9-82.

(5) السلطان قلاوون الألفي، الصالحي النجمي، السلطان الملك المنصور أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر الشام، تولى الحكم 678هـ، لمدة أحد عشر عاماً، (ت 689هـ). ينظر: ابن كثير، م.س، 204/9-205، المقرئ، م.س، 122/2، الزركلي، الأعلام، 203/5.

(6) هو محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي أبو الفتح، تولى الحكم 693هـ، خلع منه ثم عاد إليه عام 709هـ، استمر حكمه 43 سنة،

(ت 741هـ). ينظر: ابن كثير، م.س، 445/9. المقرئ، م.س، 249/2. الزركلي، م.س، 11/7.

(7) ينظر: المقرئ، م.س، 302/3-319.

وفي حكم المماليك البحرية يقول المقرئزي: "ذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسية يبالبغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى".⁽⁸⁾

ويقول ابن تغري بردي، موازناً بين الدولتين البحرية والبرجية: "... وأعجب من هذا كله أنّ أولئك البحريين كانوا على حظ وافر من الأدب والحشمة، والتواضع مع الأكابر، وإظهار الناموس، وعدم الازدراء بمن هم دونهم"⁽¹⁾.

وكانت السمة الغالبة، على هذا العصر، هي الصراعات السياسية على الحكم، بين هؤلاء المماليك، فلا تكاد تجد ملكاً أو أميراً إلا قتل في مؤامرة، ومن أشد الصراعات الدموية على الحكم ما كان بين الأمير كتبغا⁽²⁾ نائب السلطان الناصر محمد على الديار المصرية -في ولايته الأولى والأمير علم الدين سنجر الشجاع⁽³⁾، وزير السلطان وأتابك العسكر، الذي انتهى بمقتل الأمير سنجر الشجاعي، وقطع رأسه ففوح الناس بذلك فرحاً عظيماً لما بدا منه من ظلم وتعسف، ثم دب الخلاف واحتد الصراع بين الأمير كتبغا والأمير حسام الدين لاجين⁽⁴⁾، حيث غلبه لاجين، وانتزع منه السلطنة عام 696هـ، ونصب نفسه سلطاناً على مصر إلى أن قتل عام 698هـ، على يد سيف الدين كرجي الأشرف، الذي أعاد الملك إلى الناصر محمد بن قلاوون.⁽⁵⁾ أما السمة الأخرى، فهي أنه عصر صراع مع الفرنجة والتتار، فقد ابتدأ بمواجهة الحملة الفرنجية التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا سنة 647هـ على مصر، فهزموا على أيدي المماليك، الذين قادهم الظاهر بيبرس البندقداري، وأسر لويس التاسع.⁽⁶⁾ أما التتار، الذين احتلوا بغداد ثم دمشق وقصدوا مصر، فقد التقى بهم المماليك، بقيادة الملك المظفر قطز في عين جالوت سنة 658هـ، وهزمهم هزيمة نكراء، كانت السريب في اندحار دولتهم واضمحلالها فيما بعد.⁽⁷⁾

(8) المقرئزي، الخطط، 214/2.

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 329/7.

(2) هو كتبغا المغلي المنصوري، أسر من عسكر هولوكو، ثم اشتراه الملك المنصور، تنقلت به الأحوال إلى أن أصبح نائباً للسلطان الناصر في سلطنته الأولى، تغلب على الشجاعي وتسلطن 694 هـ، وكان ديناً عادلاً، (ت 702 هـ أو 701 هـ)، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 348/3-350، المقرئزي، السلوك، 367/2 - 368، ابن كثير، البداية والنهاية، 272/9.

(3) هو علم الدين سنجر المنصوري نائب قلعة دمشق من أيام أستاذه المنصور. ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 220/8.

(4) حسام الدين لاجين: السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، المعروف بالصغير، تولى الحكم 695 هـ، قتل سنة 698. ينظر: ابن كثير، م. س، 237. المقرئزي، م. س، 274/2-275. الزركلي، الأعلام، 238/5..

(5) ينظر: ابن كثير، م. س، 243، 237، 224/9.

(6) ينظر: المقرئزي، م. س، 440-437/1.

(7) ينظر: المقرئزي، م. ن، 517-514/1.

وما يجدر ذكره أنّ عصر المماليك شهد ثورات عديدة للقبائل العربية، وتركزت تلك الثورات في أقاليم الشرقية والبحيرة والصعيد بمصر، وأشهر زعمائها حصن الدين بن ثعلب⁽⁸⁾، صاحب مقولة: "نحن أصحاب البلاد، وإنّا أحق بالملك من المماليك...".⁽¹⁾ وقد تمكن عز الدين أيبك التركماني من القضاء على الثورات، غير أن بعض القبائل كانت تعاود الثورة على المماليك كلما سنحت لها الفرصة.

ثانياً - الحياة الاجتماعية

يرى ابن خلدون أن المجتمع في العصر المملوكي تكوّن من طبقتين هما: الحكام والرعية.⁽²⁾ أما المقرئ فرأى أن المجتمع كان سبع فئات أولها، أهل الدولة من المماليك، وثانيها، أهل اليسار من التجار، وثالثها، متوسطو الحال من السوق والباعة، ورابعها: أهل الصلح (أهل الذمة). وخامسها، الفقهاء وطلاب العلم، وسادسها: أرباب الصنائع وأصحاب المهن، وآخرها، ذوو الحاجة والمسكنة.⁽³⁾ وهذا تقسيم يقوم على أسس اقتصادية، أي باعتبار الغنى والفقر، وقد أخذ به عمر موسى باشا، وأضاف إليه فئة الأعراب، ثم أجمل تلك الفئات في خمس طبقات عامة كبرى.⁽⁴⁾ وقد رأينا أن نبقي على تقسيم ابن خلدون: حكام ورعية؛ وذلك للتمايز الاجتماعي الواضح بين الفئتين.

والحكام هم المماليك الذين انقلبوا على الأيوبيين، وهم من أصول مختلفة، مثل: الأتراك والجرس، والروم وغيرهم، وكان لكل سلطان من هؤلاء أتباع من الأرقاء يشرف عليهم الطواشي⁽⁵⁾، ويتم تأهيلهم لخدمة مولاهم، وهؤلاء كانوا يربون، منذ نعومة أظفارهم، تربية دينية، وعند مرحلة البلوغ يربون تربية عسكرية، ثم يلتحقون بالجنود المحاربين، ومنهم من كان يتولى وظائف كثيرة في الدول، منها نيابة السلطنة أو الأتابكية⁽⁶⁾، ومنهم من كان ينقلب على السلطان فيخلعه أو يقتله وقد عاش المماليك في عزلة اجتماعية، فنقبوا غرباء ولم يحاولوا الاندماج في المجتمع.⁽⁷⁾

(8) حصن الدين: الشريف حصن الدين ثعلب بن الأمير الكبير نجم الدين علي بن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب، الجمدي، قائد ثورة العريان بصعيد مصر، ضد المماليك عام 651هـ، هزمه جيش المعز أيبك التركماني، ثم ألقى القبض عليه وسجن في الإسكندرية. ينظر: المقرئ، م.س، 1/479-480؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، 446/5.

(1) المقرئ، السلوك، 1/479-481.

(2) ابن خلدون، المقدمة، 188.

(3) ينظر: المقرئ، إغاثة الأمة في كشف الغمة، ص 72-75.

(4) ينظر: عمر موسى باشا، ابن نباته أمير شعراء المشرق، ص 33.

(5) الطواشي: هو المسؤول عن المماليك الخدام في قصر السلطان ويسمى أستاذًا، ينظر: الفلقشندي، صبح الأعشى، 3/477.

(6) الأتابكية، وصاحبها أتابك العساكر، والمقصود أبو العساكر أو أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء بعد النائب الكافل، ينظر: الفلقشندي، م.ن، 4/18.

(7) ينظر: قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ص 16-17.

وقد عرف في هذا العصر مصطلح "أولاد الناس" وهم أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم الرق، ومنهم من كان ينصرف عن الحياة السياسية والعسكرية، وقد ساهم بعضهم في النشاط الثقافي لعصره، وكانوا يعيشون حياة دعة ورفه، ولكن على هامش الطبقة الحاكمة، وبعيداً عن الاندماج بالحياة العامة، إلا أن أبناء هؤلاء وأحفادهم تمكنوا من الاندماج في الحياة العامة فيما بعد. (1)

أمّا الرعية، فكان منهم العلماء والفقهاء، وكانوا ينالون الاحترام من المماليك، فمنهم من تولى الوظائف العامة، ومنهم من عكف على التدريس والقضاء، ومنهم من كان يقف في وجه السلاطين آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، كما فعل الشيخ عز الدين بن عبد السلام (2) ت660هـ لما تولّى القضاء، حيث تصدّى لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وصرف أثمانهم في مصالح المسلمين (3)، يقول السيوطي: "وكان الظاهر ببيرس منقماً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره، حتى إنه قال لما مات الشيخ: ما استقر ملكي إلا الآن". (4)

ومنهم الفلاحون، وقد شكّلوا السواد الأعظم من الناس، وخضعوا لنظام الإقطاع، يقول المقرئزي: "لم يكن في الدولة الفاطمية، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية... لا يعرف هذه الأبهة التي يقال لها اليوم الفلاحة، ويسمى المزارع المقيم بالبلدة فلاحاً قراراً فيصير عبداً قتيلاً لمن أقطع تلك الناحية، إلا أنه لا يرجو أن يباع ولا أن يعتق، بل قنّ مابقي، ومن ولد له كذلك". (5)

ويعد من عامة الناس التجار وأرباب الصناعات والمهن، وقد ابتلوا بالضرائب، ومصادرة بعض أموالهم أحياناً لتجهيز الجيوش. ومنهم الأعراب المنتشرون في معظم أنحاء البلاد، وكانوا بغاراتهم على المدن والقرى والأرياف مصدر اضطراب وإخلال بالأمن، وكانوا يقطعون الطريق، ويروون المماليك غرباء عن البلاد، ولهم ثورات عليهم أشهرها ثورة قامت في صعيد مصر عام 651هـ، تغلب عليها عز الدين أيبك الفخري، وقد تفنن في قتلهم بعد أن استسلموا. (6)

أما أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، فاستخدم الأيوبيون كثيراً منهم في القيام على الدواوين، وتبعهم في ذلك المماليك، فتسلطوا على عامة المسلمين من فلاحين وتجار وغيرهم،

(1) ينظر: قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ص16-18.

(2) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الدمشقي من العلماء المجتهدين، (ت 660هـ) ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 520/18-522، ابن العماد، شذرات الذهب، 440-439/5. الزركلي، الأعلام، 21/4.

(3) ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، 153/2.

(4) السيوطي، م، ن، 103/2.

(5) المقرئزي، الخطط، 85/1.

(6) المقرئزي، م، س، 480/1-481.

إلى أن أصدر السلطان المنصور قلاوون سنة 689هـ أمراً بالآ يُستخدم أحد من أهل الذمة، وفي عهد

ابنه الناصر محمد أمر الأقباط بتغيير زيهم ليهيزهم من المسلمين،⁽¹⁾ يقول علاء الدين الوداعي⁽²⁾ في هذه المناسبة⁽³⁾:

(الطويل)

لقد ألزموا الكفار شاشات ذلةٍ تزيدهم من لعنة الله تشويشاً
فقلتُ لهم ما ألبسوكم عماناً ولكنهم قد ألبسوكم براطيشاً

وفي عام 754هـ، صدر أمر السلطان صلاح الدين ابن الملك الناصر بالزام أهل الذمة بالشروط العمرية، وزيادات أخرى منها: ألا يستخدموا في شيء من الدواوين السلطانية ولدى الأمراء. وألا تزيد عمامة أحدهم عن عشرة أذرع وغيرها.⁽⁴⁾

ثالثاً- الحياة الاقتصادية:

انتمت حياة الناس الاقتصادية في مجملها بالفقر والحرمان، وذلك لشيوع الإقطاع، وكثرة الضرائب، والكوارث البيئية من مثل: الفيضانات، والزلازل، والأوبئة، وغيرها. أما الإقطاع الذي ظهر في العصر الأيوبي، واستفحل أمره في عصر المماليك، فقد نظمت الأراضي في عصر سلاطين المماليك مرتين، المرة الأولى سميت بالزوك الحسامي، وكان ذلك في عهد المنصور حسام الدين لاجين سنة 697هـ، والمرة الثانية في عهد الناصر محمد ابن المنصور قلاوون سنة 715هـ، وكلاهما اقتصر على توزيع الإقطاعات على السلطان والأمراء والجنود، أما الشعب فلم يكن لهم في ذلك نصيب، يقول الشاعر شهاب الدين المؤدب:⁽⁵⁾

(الطويل)

وكيف يروم الرزق في مصر عاقلٌ ومن دونه الأترک بالسيف والترسِ
وقد جمعتهُ القبط من كلِّ وُجْهَةٍ لأنفسِهِم بالرُّبعِ والثُّمنِ والخُمسِ
فللهتوكِ والسلطانِ ثلثُ خراجها وللقبطِ نصفٌ والخلائقُ في السدسِ.

(1) ينظر: المقرئزي، الخطط، 2/34..

(2) هو علي بن المظفر بن إبراهيم الوداعي الكندي، (ت 716هـ)، اشتغل في الأدب، ومهر في العربية، وقال الشعر. ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 12/124. العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/205-207. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 9/167.

(3) ابن تغري بردي، م.س، 8/110.

(4) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 9/507.

(5) العسقلاني، م.س، 1/335-336. والشاعر هو شهاب الدين المؤدب أحمد بن يحيى بن مخلوف بن مزي، الأعرج السعدي، تعانى بالأدب ونظم الشعر وهو صغير، (ت 785هـ). ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 1/356. المقرئزي، م.س، 5/161. ابن العماد، شذرات الذهب، 7/30.

أما الكوارث البيئية فأهمها، الزلازل، وكان يعقبها تفشي الأوبئة، ومنها الطاعون، والقحط، والغلاء، ومن أهم زلازل هذا العصر زلزال 702هـ، والذي شمل الديار المصرية والشامية، فدفق أهل القاهرة للهروب إلى الصحراء. (1) ومن أشد الأمراض طاعون عام 749هـ، حيث كثر الموت في الناس، وتعطلت المصالح، واستمر سبع سنوات متواليات، (2) يقول الصفدي: (3) (المجتث)

لِمَ افترستَ صِحَابِي يَا عَامَ تِسْعَ اربَعِينَا
مَا كُنْتَ وَاللَّهِ تِسْعًا بَلْ كُنْتَ سَبْعًا يَقِينَا

أما أكبر الهجاعات فكانت عام 695هـ، إذ أكل الناس بسببها الميتة من المواشي والكلاب، وكثر موت الناس، وصاروا يدفنون دون غسل ولا كفن. (4)

وقد أحصى قاسم عبده عشرين كارثة من وباء وزلزلة وقحط وغلاء وغيرها، من سنة 662هـ إلى سنة 783هـ، ورأى أن أعظمها أثراً في البناء الاجتماعي، ما أسماه الفناء الكبير، أي طاعون عام 749هـ. (5)

وأشار المقرئزي إلى أسباب الترددي الاقتصادي في هذا العصر في كتابه إغاثة الأمة، فردّها إلى ضعف السلطة، واستبداد الأمراء، وتلاعب التجار بالأسواق، وهبوب الرياح الضارة بالقمح، ونقصان ماء النيل. أما الغلاء فأرجع أسبابه إلى ثلاثة، أولها: انتشار الرشوة بين طلاب الوظائف، فكانوا يستدينون الأموال للحصول عليها، ثم يرهقون الناس بجمع المال لتعويض ما بذلوه. وثانيها: ارتفاع إيجار الأراضي الزراعية نتيجة لرغبة خدام الأمراء في التقرب إليهم بهذا العمل الظالم، فهجر الفلاحون قراهم وتضاءلت الغلال. وثالثها: اضطراب العملة. (6)

وعلى أية حال فلا يسعنا في نهاية هذا الموجز عن الحال الاقتصادي، إلا الموافقة على ما خلص إليه عمر باشا من "أنّ هذا الوضع الاقتصادي يعتبر سيئة من سيئات هذا العصر". (7)

رابعاً- الحياة الثقافية

بسقوط بغداد يوم عاشوراء من شهر محرم سنة 656هـ، وما قام به المغول من تدمير للتراث الفكري والعلمي، وقتل للعلماء والفقهاء أو تهجير لهم. تحولت القاهرة، حاضرة المماليك

(1) ينظر : ابن كثير، البداية والنهاية، 271/9.

(2) ينظر: ابن كثير، م.ن، 482/9.

(3) الصفدي، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه ، ص 17، صلاح الدين الصفدي: خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي، أديب مؤرخ، تولى ديوان الإنشاء بحلب. (ت 764هـ). ينظر: ابن حجر، م.س، 176/2-177. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، 15/11-17. ابن العماد الحنبلي، م.س، 393/6-394.

(4) ينظر: المقرئزي، السلوك، 267/2-268.

(5) ينظر: قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ص167-169.

(6) ينظر: المقرئزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة، ص30.

(7) عمر باشا ، ابن نباته، ص 50.

إلى قبلة للعلم والعلماء، وكان الأيوبيون من قبل قد أولوا العلم والعلماء والأدب والأدباء، عناية خاصة، فقد بلغ عدد الشعراء من سلاطين بني أيوب وأولادهم خمسة عشر شاعراً.⁽⁸⁾

وقد سار المماليك في تشجيع الحركة العلمية، والحفاظ على الحياة الثقافية، على خطأ ساداتهم الأيوبيين، فحرصوا على أن تكون اللغة الرسمية للدولة هي اللغة العربية، وكانوا لا يُؤلّون الدواوين، وبخاصة ديوان الإنشاء، إلا خيرة الكتاب والبلغاء، حتى إنّ بعضهم بلغ مرتبة أمير السر السلطاني⁽¹⁾، من مثل محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (ت 692هـ)، والشهاب محمود الحلبي (ت 725هـ)، وابن فضل الله العمري (ت 749هـ)، ونجم الدين بن الأثير (ت 737هـ)، وغيرهم.

ومن مظاهر الحركة العلمية في عصر المماليك، رعايتهم الفائقة للمدارس فقد بنوا عدداً كبيراً منها، فقد أحصى محمد كامل الفقي خمساً وأربعين مدرسة في مدينة القاهرة وحدها، مقابل خمس وعشرين كانت منها في العصر الأيوبي⁽²⁾، وقد أشاد الشعراء ببناء المدارس وبنائها، يقول الجزار في الظاهرية:⁽³⁾

(الطويل)

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا
تجمّع فيها كلُّ حسنٍ مُفوّقٍ فراقَتْ قلوباً للأنامِ وأعيناً

ولم يكن أمر المدارس مقصوراً على القاهرة أو مصر، بل كانت منتشرة في كل المدن التي دانت للمماليك، ومنها دمشق، حيث كان لمدرسة الجامع الأموي شأن كبير، فقد استقطبت كبار العلماء والفقهاء من مثل الخطيب القزويني (ت 739هـ)، ونقي الدين السبكي (ت 756هـ)، وابن كثير (ت 774هـ).

وفي هذا العصر كثرت خزائن الكتب سواء في المدارس، أو الجوامع، أو بيوت العلماء، يقول ياسين الأيوبي: "فلم تكن تبني مدرسة، أو جامع، أو أي صرح من صروح الإدارة إلا وكان للكتاب نصيب وافر في خريطة البناء، فكثرت الخزائن، وأنفق في سبيلها أبهظ الأثمان، كما يخبرنا بذلك المؤرخون".⁽⁴⁾

(8) ينظر: أحمد بدوي، الحركة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص 27-33.

(1) هي وظيفة موضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتفسيرها. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 30/4..

(2) ينظر: محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ص 43.

(3) المقرئزي، السلوك، 3/2. والجزار هو يحيى بن عبد العظيم، أبو الحسين الجزار، (ت 679هـ) شاعر مصري طريف، كان جزّاراً بالفسطاط. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 180/9. السيوطي، حسن المحاضرة، 463/1. ابن العماد، شذرات الذهب، 20/6-21.

(4) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، 69-70.

أما حركة التأليف في شتى أصناف العلم والأدب، فللعصر المملوكي لم يكن عصر تأليف وحسب، بل كان عصر التأليف الموسوعي بلا منازع، فابن منظور (ت 711هـ) ألف أكبر معجم في اللغة العربية وسمّاه "لسان العرب"، والنويري (ت 733هـ) وضع "تهاية الأرب في فنون العرب"، في ثلاثين جزءاً، أما صلاح الدين الصفدي (ت 764هـ)، فقد كان وافر النتاج، كثير التأليف، ألف العشرات من الكتب منها: "الوافي بالوفيات" ترجم فيه لخلق كثير من الأعيان والقضاة والأدباء والفقهاء وغيرهم، وابن فضل الله العمري (ت 749هـ)، ألف "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وجمع فيه بين الجغرافيا والتاريخ والأدب والعمارة، وغير ذلك كثير. يقول مصطفى الشكعة: "لم يكن هذا العصر مجرد عصر إحياء ما ذوى ولمّ شتات ما اندثر من آثارنا الفكرية، وتسجيل ما هو مهدد بالزوال من أدبنا... وإنما كان عصر عطاء وبناء وابتكار، آية ذلك ظهور العالم الجليل، والمفكر الأديب، والمؤرخ الدقيق، والفيلسوف العميق، والسياسي العظيم عبد الرحمن ابن خلدون، إن الظاهرة الخلدونية لا يمكن أن تتوافر لها أسباب الظهور في مجتمع متخلف الفكر جامد العطاء".⁽¹⁾

والظاهرة الرابعة من الظواهر الثقافية في هذا العصر هي كثرة الشعراء والأدباء، كثرة دفعت بعض المؤرخين للأدب العربي إلى الادعاء بأن الشعر في هذا العصر قد أصبح مبتدلاً، غير صادر عن قريحة فطرية، فلكثرتهم ظنّ أنّ كلّ الناس قد تعاطوا قول الشعر. بل راح بعض المستشرقين إلى تعليل ذلك بدافع المحافظة على سنة البديع، يقول أندريه ميكال: "فإنّ كثرة الناظمين أو الناثرين من أصحاب البديع تشهد بحيوية سنّة يجب المحافظة عليها... وعلينا فعلاً أن نجهد أنفسنا لنسلّ من بين مجموعة الشعراء الغفيرة شاعراً مثل ابن نباته أو شاعراً مثل ابن الوردى، أو ناثراً مثل الخفاجي".⁽²⁾ وهذه مغالطة كبيرة، فليس المحافظة على سنّة البديع هي السبب في كثرة الشعراء، ولا تعني كثرة الشعراء ضعف الشعر وقلة المجيدين منهم. ومثل هذا الحكم العام يحتاج إلى دراسة موسعة، تشمل إحصاء للشعراء ودراسة شعرهم، ثم إصدار الحكم، وهذا غير متوافر.

وعلى أية حال فإنّ هذه الظواهر الأربع: المدارس، وخزائن الكتب، وكثرة التأليف الموسوعي، وكثرة العلماء والشعراء والأدباء، تعني أنّ هذا العصر كان عصر العطاء العلمي والأدبي، وعصرًا حفظ فيه تراث الأمة الذي أحذقت به الأخطار من الشرق والغرب.

(1) مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، ص 592.

(2) نقلا عن عمر باشا، تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي، 21-22.

الفصل الأول - النّقد المجتمعي: نشأته، ومفهومه، وتطوره.

أولاً- شعر النّقد المجتمعي

1- نشأته

2- مفهومه

ثانياً- تطور شعر النّقد المجتمعي

1- في العصر الجاهلي

2- في عصري صدرالإسلام وبنو أمية.

3- في العصر العباسي

الفصل الأول- النقد المجتمعي: نشأته، و مفهومه، وتطوره

أولاً- شعر النقد المجتمعي: نشأته، ومفهومه، وأصله.

١ نشأته

عرف الشعر العربي منذ نشأته في جزيرة العرب هذا الغرض الشعري، أي النقد المجتمعي، وشواهد فيه كثيرة، سواء أكان في أشعار الفحول أم في أشعار غيرهم، وسواء أكان في أشعار شعراء القبائل أم في أشعار الصعاليك، بل إنَّ الباحثين أجمعوا على أنَّ شعر ذلك العصر عبَّرَ أصدق تعبير عن حياة المجتمع والقبيلة، وصور حياة النَّاس في جوانبها المختلفة، ولازم هذا الغرض مسيرة الشعر عبر العصور الإسلامية المختلفة، فلم يخلُ منه عصر، وإن اختلف كمًّا وكيفًا تبعاً للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي سادت أو أثَّرت في كل عصر، وكان النقاد وعلماء الشعر يدرجونه في إطار شعر الهجاء، ولم يسمّوه بهذا الاسم "النقد المجتمعي"، بل إن كثيراً من الباحثين المعاصرين، ما زالوا يسمونه هجاءً، ويتناولونه ضمن هذا الغرض، ومنهم من استخدمه على أنه مرادف للهجاء، كل هذا على الرغم من أنه مصطلح شائع في العصر الحديث، ومن هنا كان لا بد من وضع حدٍّ لهذا المصطلح، للتفريق بينه وبين الهجاء، ولا بدَّ أيضاً من تتبع هذه التسمية عبر التاريخ لعَلَّنا نقف على عصرها ومصدرها.

يقول ابن رشيقي: "يجمع أصناف الشعر أربعة: المديح والهجاء والحكمة واللهم، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون من الهجاء والذم والعتاب والاستبطاء"⁽¹⁾. ولم يكتفِ ابن رشيقي برد أغراض الشعر إلى هذه الأصول الأربعة، حتى يورد قول قوم ردّوها إلى أصليين هما المدح والهجاء، يقول: "وقال قوم: الشعر كله مدح وهجاء"⁽²⁾، ثم يورد ابن رشيقي كذلك قول من ردّها إلى أصناف أو أصول خمسة، يقول: "أكثر ما يجري عليه أغراض الشعر خمسة: النسيب والمدح، والهجاء، والفخر، والوصف، ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف"⁽³⁾. وبتلخيص ابن رشيقي هذا لأقوال القدماء في أغراض الشعر، نستطيع أن نقول إنَّهم -أي النقاد- لم يحاولوا في العصور الأدبية الأولى، أن يقسموا الهجاء، ويفرّعوا عليه على أساس الموضوعات التي يتناولها الهاجي، سوى الثلاثة التي رواها ابن رشيقي، وهي الذم والعتاب والاستبطاء، وغيرهم أخرج العتاب فجعله منزلة بين الهجاء والمدح، وأكثر ما عرف عن السابقين أنهم قسموا الهجاء إلى مقبول وغير مقبول، مؤثر وغير مؤثر، معتمدين في ذلك على الذوق والأسلوب، يقول أبو هلال العسكري: "والهجاء أيضاً إذا لم يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها أيضاً لم يكن مختاراً، والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشرة، وما أشبه ذلك، وليس بالمختار في الهجاء أن ينسب إلى قبح الوجه وصغر الحجم

(1) ابن رشيقي القبرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 121/1.

(2) ابن رشيقي، م.ن، 121/1.

(3) ابن رشيقي، م.ن، 120/1.

وضؤل الجسم...⁽¹⁾، ويقول الجرجاني: "فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب، ولصوقه بالنفس، فأما القذف والإفحاش فسباب محض، ليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن"⁽²⁾.

والحق أنّ هذا لا يعدّ تقسيماً، بقدر ما هو حكم فني على الهجاء، يعتمد المعنى والأسلوب في قبول هجاء ما ورفض هجاء آخر، ومن هذا القبيل جاء تقسيم ابن بسام صاحب الذخيرة، فالهجاء عنده قسمان: "قسم يسميه العرب هجو الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباً مقذعاً، ولا هجوا مستبشعاً، وإنما هو توبيخ وتعيير... والقسم الثاني من الهجاء: هو السباب الذي أحدثه جرير وطبقته، وكان يقول: "إذا هجوتم فأضحكوا"⁽³⁾.

وهكذا لم نجد لهؤلاء النقاد أية إشارة إلى هذا المصطلح أو إلى مفهومه.

٢ - مفهومه

أمّا النقاد والباحثون ومؤرخو الأدب في العصر الحديث، فمنهم من تجاهله، ومنهم من تناوله وجاء على ذكره، ولكن على تفاوت، فبعضهم خلطه بالهجاء، ولم يجعل بينهما حدوداً، وبعضهم جعله غرضاً قائماً بذاته، ووضع أو كاد أن يضع له حداً، يُعرف به فيفارق الهجاء، ونبدأ حديثنا بشوقي ضيف، الذي لم يأت على ذكر هذا المصطلح في بعض كتبه، وإنما أشار إلى مفهومه ومعناه، وعده متطوراً عن الهجاء، يقول: "وإذا تركنا المديح إلى الهجاء، وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منه في المديح الخالص، إذ كان يتصل بحياة الشعب والعامّة اتصالاً، لعله أدق من اتصال المديح، وهي حياة لم يعد أساسها العصبية القبلية، كما هو الشأن في العصر الأموي، ومن أجل ذلك ضعف فنّ النقائض لقيامه عليها، إلا أسراباً قليلة كانت تظهر من حين إلى حين، ولكن إذا كان هذا الفن ضعفاً، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عمّت فيه روح جديدة، إذ أخذوا يريشونه سهاماً مصمّية، ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء، كلّمًا رأهم ينحرفون عن الجادة، على نحو ما هو مشهور عن دعبل، وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح، يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوي الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد"⁽⁴⁾، وهكذا نرى شوقي ضيف قد أشار إلى مفهوم جديد، عدّه متطوراً عن الهجاء، بل اعتبره نقلةً نوعيةً في فن الهجاء، هو أنّه أصبح صحيفةً تربويةً ترسم مساوي

(1) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 120.

(2) الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 24.

(3) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق، 1، ج 544-546.

(4) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 167.

فردية واجتماعية ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد، والسؤال الذي يثيره قول ضيف هذا هو: ألم يكن هذا الشكل أو هذه الصحيفة التربوية موجودة في عصور سبقت العصر العباسي، وبخاصة في العصر الجاهلي، ألا يعد شعر بعض الصعاليك أو بعض أصحاب المعلقات، مثل زهير، مما يدرج في إطار هذا المفهوم. بمعنى آخر: ألم يتناول بعض الشعر الممدود هجاءً، مساوئ فردية واجتماعية، نادى قائلوه بالتخلص منها؟ وسؤال آخر: هل انتهت صور الهجاء التقليدي، الذي هو سلب الصفات الحميدة من المهجو والصاق الصفات المذمومة به، في هذا العصر؟

ويقول شوقي ضيف في موضع آخر: "ويظل الشعراء طوال عصر المماليك يريشون سهام الهجاء، ويلقانا في أوائله الجزار والوراق، ولهما أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير موضع، وكان يعاصرهما البوصيري شاعر المديح النبوي الرائع، وكان يعمل موظفاً في دواوين الأقاليم، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعاً، أو كما يسميهم المستخدمين من كتاب خراج وقضاة وغير قضاة"⁽¹⁾، وهنا يسميه أيضاً هجاءً، رغم أنه في مفهومه يندرج في الصحيفة التربوية التي ذكرها في العصر العباسي، فشعر البوصيري في الموظفين خاصة يحمل أبعاداً سياسية واجتماعية واقتصادية تعدّ قضية المجتمع في عصره.

ولكنه عندما تناول شعر أبي العلاء المعري، وبخاصة لزومياته، أشار صراحة إلى النّقد المجتمعي، مستخدماً مصطلح النّقد المجتمعي، ولم يعدّه هجاءً، يقول: "وهي (اللزوميات) من طراز جديد، إذ نراها تتضمن نقداً للحياة الاجتماعية مع دعوة واسعة إلى الزهد والنقش ورفض الدنيا"⁽²⁾، ويقول: "وقد ذهب يستعرض الحياة فيها من جميع جوانبها وينقدها نقداً ساخراً في جرأة وصراحة صريحه، كأن يقول في نقد الحياة السياسية:

(الكامل)

وأرى ملوكاً لا تحوط رعيّة
فعلام تُؤخذُ جزيّة ومكوس⁽³⁾

أما محمد زغلول سلام فيميز بين الهجاء والنّقد المجتمعي، ويعتبر الهجاء وسيلة للنقد المجتمعي، يقول: "واتخذ الهجاء وسيلة للنقد الاجتماعي، يحاول فيه الشعراء أن يظهروا عيوب الموظفين أو العمال، والذين يتولون الأعمال العامة، فيكشفون عن انحرافاتهم في أخذ الرشاوي وظلم الرعية والمغالاة في أخذ الأموال من المكوس وغيرها"⁽⁴⁾، ولكنّه يعود في السياق نفسه إلى اعتبار بعض صور النّقد المجتمعي من الهجاء، حيث يقول: "وكذلك نجد من صور الهجاء ما يتناول فيه الشعراء بعض نقائص

(1) شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات في مصر، ص 103.

(2) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 382.

(3) شوقي ضيف، م.ن، ص 382.

(4) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 38/3.

السلوك العام في الشارع والسوق"⁽¹⁾. من هنا لم نرَ فصلاً أو تفريقاً بين النَّقد المجتمعي والهجاء، بمعنى آخر لم نجد زغلول سلام وضع حداً، أو بيّن مفهوماً للنقد المجتمعي.

أما عبد العزيز عتيق، فيجعل الهجاء في الشعر الأندلسي اتجاهات ستة، يرى بعضها قريباً من النَّقد المجتمعي، يقول: "فمن هذه الاتجاهات هجاء الفقهاء والمرائين والمتكسبين بالعلم والزهد، وهذا النوع من الهجاء، أقرب إلى النَّقد الاجتماعي، وممن قال فيه أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالأبيض الإشبيلي، وابن خفاجة الأندلسي"⁽²⁾.

ويقول: "واتجاه ثالث يتمثل في هجاء الملوك والحكام، وإن كان أقرب إلى النَّقد الاجتماعي منه إلى الهجاء، وزعيم هذه الاتجاه هو أبو القاسم خلف بن فرج السميسر السابق الذكر"⁽³⁾.

ويذكر عبد العزيز عتيق اتجاهاً آخر هو: هجاء شخصيات عامة، ولكنه لم يذكر قربه من النَّقد المجتمعي، كما في الاتجاهين السابقين، ويمثل عليه بهجاء الشاعر محمد بن مسعود المعروف بالبجاني، لجليس معه في السجن:

(السريع)

ولي جليسٌ قُرْبُهُ مَنِّي بُعْدُ الأمانِي كُلِّها عَنِّي

قَدْ قَدَيْتُ مِنْ لِحْظِهِ مَقْلَتِي وَقَرَّحْتُ مِنْ لَفْظِهِ أذْنِي

نَادَمْنِي فِي السَّجْنِ مِنْ قُرْبِهِ أَشَدُّ فِي السَّجْنِ مِنَ السَّجْنِ⁽⁴⁾

ويبدو أن لمصطلح النَّقد المجتمعي، عند عبد العزيز عتيق مفهوماً معيناً، فهو عندما يتعلق بالفقهاء والمرائين والمتكسبين بالعلم والزهد نوع من الهجاء قريب من النَّقد المجتمعي، وعندما يتعلق بهجاء الملوك والحكام أقرب إلى النَّقد المجتمعي منه الى الهجاء، وربما يكون التقارب بين الهجاء والنَّقد المجتمعي، في الاتجاه الأول هو تقارب في الموضوع من حيث تناول الهجاء موضوعاً قريباً من النَّقد المجتمعي، أما في الاتجاه الثاني فالتقارب هو في أنّ كلاهما ذم وسلب للفضائل النفسية، والغالب على الظن أنّ عبد العزيز عتيق يرى النَّقد المجتمعي، متعلقاً بالسلطة السياسية ومن حولها من المتنفذين، ويدل على ذلك ذكره لاتجاه ثالث أسماه هجاء الشخصيات العامة، ولم يذكر علاقته أو موقعه من النَّقد المجتمعي، مع أن المثال الذي جاء به لا يتعلق بذات الجليس، بقدر ما هو متعلق بسلوك اجتماعي انتقده الشاعر، وهو سوء المجالسة .

أما أحمد فوزي الهيب، فيقول في النَّقد المجتمعي: "إنه نوع إيجابي من الهجاء تجاوز حدود الفردية الضيقة، ليتناول ما يراه من مثالب ذات آثار سلبية على المجتمع، سواء أكانت صادرة عن الفرد

(1) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 38/3.

(2) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص245.

(3) عبد العزيز عتيق، م.ن، ص249.

(4) عبد العزيز عتيق، م.ن، ص252.

أم عن المتجمع، ويسلط عليه أضواء النقد والتجريح رافعاً بذلك صوته، لعله يجد أدناً صاغية تستجيب، وإذا لم يجد فحسبه أنه قال كلمة الحق، وألقى من فوق كاهله تبعة السكوت عنها، وعبر عما في نفسه من ألم وغضب، ووجد بعد ذلك بعض الراحة مما يعانیه" (1). ولعل قول الهيب هذا من أدق الأوصاف لمفهوم النقد المجتمعي، وزيادة في تفصيل واقعه يقول الهيب: "ولقد اعتمد هذا النقد أو الهجاء على سلب الفضائل والصاق الرذائل بعامه، وتميز بالجدية، وبأنه ذو سمة جماعية في أغلب الأحيان، وهذا طبيعي لأنه نقد اجتماعي عام، ومع ذلك فإننا نلمح فيه صفة الفردية في هجاء بعض المهجوين، إلا أن الفردية هنا ذات طابع جماعي، بمعنى أن الهجاء لم يكن منصباً على ذوات المهجوين بقدر ما هو منصب على صفاتهم السيئة التي تضر بالمجتمع، والتي من أجلها هجأهم الشعراء ونالوا منهم" (2). لعل هذه السمة الجماعية التي تحدث عنها أحمد الهيب من أهم ما يفرق النقد المجتمعي عن الهجاء، والجماعية هذه إن لم تبرز في الصفة أو السلوك المنتقد، فإنها تبرز وتتجلى في الدافع الذي دفع الشاعر لتناول هذه الصفة أو هذا السلوك، وإن بدا أحياناً مدفوعاً بضرر لحقه، إلا أنه يبقى فرداً في مجتمع، عبر عن مثل هذا الضرر بوسيلة لا يمتلكها غيره هي الشعر. فيقاس عند الدراسة غيره عليه، فيحسب نقده نقدهم.

ومع أن الهيب عرّف النقد المجتمعي، وفصل في مفهومه، وحاول أن يضع له حداً، إلا أنه كثيراً ما أطلق عليه في ثنايا بحثه مصطلح "الهجاء"، يقول: "وتركت العقيدة الإسلامية أثرها على هذا الغرض الشعري، إذ هجا ابن الوردي المنجمين وعلم التنجيم، وكذلك هجا ابن الوردي مدينة شيزر لزفرة هوائها وسوء مناخها..." (3)، بل إنه جعل الهجاء مرادفاً للنقد الاجتماعي حيث يقول: "ولقد اعتمد هذا النقد أو الهجاء على سلب الفضائل والصاق الرذائل بعامه..." (4).

وإذا ما انتقلنا إلى ياسين الأيوبي وجدناه يقسم الهجاء إلى أنواع خمسة هي: الهجاء القبلي، والسياسي، والمذهبي، والشخصي، والعبثي الساخر، ويجعل تحت النوع الأول الهجاء في الخلق، وفي الثاني المجتمع، وفي الثالث الانحراف الديني، وفي الرابع الهيئة والقوام، وفي الأخير مختلف المظاهر غير السوية خلقاً وخُلُقاً (5). وهو في تقسيمه هذا لا نراه اعتمد أصلاً له، بل خلط بين موضوع الهجاء وأسلوبه، ولا نراه قد وقّف في التمثيل على هذه الأنواع الخمسة، فمثلاً وضع الهجاء في الخلق تحت قسم الهجاء القبلي، وهجاء المجتمع تحت عنوان الهجاء السياسي، وجعل من الهجاء العبثي الساخر هجاء المظاهر غير السوية خلقاً وخُلُقاً، ولا نخالفه في أن الهجاء في مظهر خُلُقي شاذ هو من العبث

(1) أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، ص 164-165.

(2) أحمد فوزي الهيب، م. ن، ص 178.

(3) أحمد فوزي الهيب، م. ن، ص 176-177.

(4) أحمد فوزي الهيب، م. ن، ص 178.

(5) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، ص 182.

بل إن القدماء لم يعدّوه هجاء ذا قيمة يلتفت إليه، أما الهجاء في مظهر خُلقي غير سويّ فليس بالهجاء العبيثي، وإن جاء في أسلوب ساخر، لأنّ الخُلُق ابتداء هو سلوك اجتماعي، أي متعلق بعلاقة الإنسان مع الآخرين، وهذا تعلق بالمجتمع الذي تمثّل به الهجاء السياسي.

وعلى الرغم من هذا التصنيف للهجاء الذي لا يقوم على قاعدة أو أصل، نجد ياسين الأيوبي، ينفرد من دون غيره من الباحثين المعاصرين، في الأدب المملوكي، بعقد فصل مستقل للنقد المجتمعي، فيصور واقعه ويكشف حقيقته، فيما يشبه وضع حدّ له، يقول: "ونصل إلى العصر المملوكي فنفاجاً بقدر لا بأس به من الوعي السياسي والأخلاقي والاجتماعي تمثّل بمواقف عدد كبير من الشعراء، والكتاب، تحسّسوا مواضع الخلل في مجتمعهم، فرصدوها وتصدوا لها، كل من زاويته وطاقته ودرجة إحساسه بالمسؤولية، وليس صحيحاً ما شاع من آراء و أفكار مفادها غياب النّقد الاجتماعي عن واجهة العصر، و انعدام الحس النقدي لكل أشكال الظلم والخزي والعار...".⁽¹⁾ ويقول أيضاً: "توقف الشعراء أمام الظواهر الاجتماعية والسياسية، فعرضوا لمعالمها السلبية والإيجابية فعاابوا الأولى، وامتنحوا الثانية، بعضهم اكتفى بتصوير المعالم وإبداء الأسف، وبعضهم الآخر رفع الصوت واحتج، ونقم وذم، وسخر، ونقد نفدأ لاذعاً... فكان لنا شعر كثير في النّقد الاجتماعي والسياسي، وإن لم يؤدّ إلى تقويم الاعوجاج وتصويب المسار العام، فقد نكأ الجراح وأثار المشاعر، وأيقظ طاقات الوعي وسجل نقاط اعتراض، وبرزاً العصر من وصمة الصمت والتجاهل، أو التعامي كما يحلو لبعضهم نعتة وتقويمه"⁽²⁾. وأما عمر موسى باشا فقد عدّ النّقد المجتمعي جزءاً من الوصف، لا من الهجاء، مخالفاً بذلك غيره من الباحثين ممّن سبق ذكرهم، وذلك عند حديثه عن البوصيري، حيث قسّم أغراضه الشعرية إلى ثلاثة، منها الوصف الذاتي والاجتماعي، يقول: "استطاع الشاعر البوصيري أن يعطينا أدق صورة عن حياته الخاصة، وعن أحوال المجتمع السياسية والاجتماعية والخلفيّة"⁽³⁾. ويقول في ختام حديثه عن الوصف: "تكتفي بهذا القدر في التحدث عن وصف الشاعر البوصيري، فقد استطعنا أن نلمّ ببعض أحواله الخاصة، وهي بالتالي تدلنا على بعض جوانب الحياة الاجتماعية، وما فيها من تفاوت بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة، والبوصيري ذلك الشاعر، الذي أجمع معاصروه على أهميته، كان يشكو دوماً من الحرمان والفقر"⁽⁴⁾.

وبعد هذا الموجز في تتبع استخدام مصطلح النّقد المجتمعي، نخلص إلا أنه مصطلح حديث، لم يعرفه القدماء من علماء الشعر ونقاده، وكانوا يدرجون شعره في إطار الهجاء، أمّا المعاصرون من الباحثين ومؤرخي الأدب فقد اختلفوا في استخدامه وتحديد مفهومه، والفصل بينه وبين الهجاء، ولكن

(1) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، ص 238.

(2) ياسين الأيوبي، م.ن، ص 240.

(3) عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي، ص 182.

(4) عمر موسى باشا، م.ن، ص 184.

من مجمل قولهم فيه وتفصيل بعضهم في واقعه نستطيع أن نخلص إلى حدٍّ، يغلب على الظن أن يكون جامعاً مانعاً، لا يختلط به هجاء أو وصف أو حكمة، ولا يندّ منه جانب، فنقول إنَّ شعر النِّقد المجتمعي هو: وقوف الشاعر على سلوك سلبي، ينكره الدين أو العرف أو الطبع، يقع من الفرد أو الجماعة أو الدولة، أو ما يتعلق بهذا السلوك من أشياء ذات علاقة بحياة النَّاس، فيشخصه الشاعر مبدياً معالمه السلبيّة، ويتناوله بالذم، محتجاً عليه، مطالباً بتغييره صراحةً أو تلميحاً.

3- أصله

وأخيراً يبقى هناك سؤال ملح هو من أين جاء هذا المصطلح؟ وللإجابة عليه نقول إنّه من المعلوم أنّ الاتصال والتواصل بين الأمم والحضارات المختلفة، تأثراً وتأثيراً، في جوانبه الإيجابية والسلبيّة، أمر حاصل لا ينكره أحد، ومن المعلوم أيضاً أنّ الأمة الإسلاميّة، ومنها العرب، تواصلت واتصلت بغيرها من الأمم، في حالتها القويّة والضعف، فأثرت وتأثرت في جوانب عديدة، ربما يكون لجانب الأدب والفن فيه نصيب وافر، ومن أكثر الأمم التي اتصلت بها الأمة وتواصلت معها أوروبا، وقد اشتدّ هذا التواصل، وبخاصة في الجانب الأدبي، منذ مطلع القرن التاسع عشر للميلاد، فعلى سبيل المثال لا الحصر، لم يعرف الأدب العربي شعر التفعيلة إلا عبر أوروبا، يقول محمد غنيمي هلال بعد استعراض المذاهب الفنيّة التي ظهرت في أوروبا: "وواضح أنه لم يبق في أدبنا القديم نظائر لهذه المذاهب، على حسب ما شرحنا لها من معنى... ومن المقطوع به كذلك أننا في أدبنا الحديث لم نعتق مذهباً من المذاهب السابقة، ولكننا تأثرنا بها جميعاً تأثراً عميقاً وغير منهجي" (1). ومن أشهر النظريات التي وجدت صدى لدى أدباء العرب من شعراء وكتاب، ما أطلقوا عليه نظرية الالتزام، يقول شوقي ضيف: "كان من أثر ظهور النظريات الفلسفية الحديثة في هذا القرن أن ظهر مقياس جديد هو مقياس الالتزام في الأدب، فالأدب ينبغي أن تكون له دعوة اجتماعية يلتزمها، بل إنه هذا هو واجبه الذي ينبغي ألا يتخلّى عنه، حتى يصبح دعامة من دعائم المجتمع" (2). ويقول عز الدين إسماعيل: "والحديث عن العلاقة بين الأدب والحياة لم يعرفه النقد القديم، أو هو لم يعرفه في صورة نظرية مبلورة، وربما كانت أول عبارة في تاريخ النظر النقدي قد أحكمت الربط بين الأدب والحياة هي العبارة المأثورة عن الناقد الإنجليزي كولردج، التي يقرر فيها أن الأدب نقد للحياة" (3). ويقول أيضاً: "لقد نشأت فكرة الالتزام إن في العصور الحديثة نتيجة لاحتكاك الأديب بمشكلات الحياة التي يعيشها وإدراكه لخطورة الدور الذي يقوم به إزاء هذه المشكلات" (4). ويحاول عز الدين إسماعيل أن يحدّد مفهوم الالتزام تحديداً أكثر

(1) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص 409.

(2) شوقي ضيف، النقد الأدبي، ص 50.

(3) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر - قضاياها وظواهره الفنيّة، ص 373.

(4) عز الدين إسماعيل، م، ن، ص 374.

وضوحًا، فيقول: "ومن ثمَّ يتحدد الالتزام في الأدب بمدى ارتباط الأديب بقضايا النَّاس في مجتمعه، وما يتقدم به من حلول لهذه القضايا، أو بمجرد التنبيه إليها..."⁽¹⁾.

وقد تبنت دعوة الالتزام هذه عدة مذاهب أدبية ظهرت في أوروبا، وكان لها صدى غير قليل في بلاد العرب، وخصوصاً مصر، التي تزعمت النهضة الأدبية، وكان أول المذاهب التي نصت على الالتزام المذهب الرومانتيكي، فهذا كولردج أحد رموزه، يقرّر أن الأدب نقد للحياة، ثم جاء الأدب الوجودي القائم على الفلسفة الوجودية، الذي يسميه أدب الالتزام أو أدب المواقف، "والذي يحدد فيه الكاتب موقفه من مسائل قومه ومسائل العالم من حوله، وبحسب هذا المذهب لا قيمة لجمال أدبي ليس له مضمون اجتماعي ملتزم"⁽²⁾، ولم يغفل أصحاب الواقعية الاشتراكية عن مثل هذه الدعوة، يقول غنيمي هلال: "وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهر في الواقعية الاشتراكية اتجاه جديد يرقى إلى التزام الشاعر برسالة اجتماعية..."⁽³⁾، وصاحب هذه الدعوة هو "ماياكوفسكي" شاعر الثورة البلشفية، وعنده أن الشعر الغنائي ذو رسالة اجتماعية واقعية محددة، والشرط الأساسي لإنتاج الشاعر هو: "ظهور مسألة من مسائل المجتمع لا يتصور حلّها إلا بإسهام الشعر في حلّها"⁽⁴⁾، ومن هنا، يغلب على الظن أننا لا نجانب الصواب إن قلنا إن هذا المصطلح أي "شعر النّقد المجتمعي" كان وليداً لمثل هذه الدعوة، دعوة الالتزام، التي جاءت بها عدة مذاهب أدبية أو نقدية، تأثر بها أدبنا المعاصر، فتبلور لدينا هذا الاسم، وأخذنا نبحث عن واقع ينطبق عليه في تراثنا الشعري، منذ الجاهلية، ولا نرى ضيراً في استخدامه، وجعله غرضاً قائماً بذاته، تندرج تحته أشعار معينة طالما اعتبرناها هجاء، وهي تفارق الهجاء في جوانب عدة، ولا تلتقي معه إلا في الذم، أي سلب الفضائل والصاق الرذائل، والعبرة ليست بالاسم أو المصطلح، وإنما بالواقع الذي ينطبق عليه هذا الاسم أو المصطلح، يقول عز الدين إسماعيل: "وارتباط الأديب بقضايا عصره على اختلاف أنواعها، وبمشكلات الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه، مهما يكن لها من طابع محلي، ليس شيئاً غريباً على طبيعة الأديب"⁽⁵⁾.

ثانياً - تطور شعر النّقد المجتمعي

١ في العصر الجاهلي

لم يكن هذا الغرض مغيباً في الشعر الجاهلي، والمتتبع له في شعر شعراء هذا العصر يقع على نصيب وافر له، ونبدأ بأعظم ما قيل من شعر في هذا العصر، أي المعلمات، وأكتفي

(1) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر - قضاياها وظواهره الفنية، ص 376.

(2) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص 409..

(3) محمد غنيمي هلال، م.ن، ص 397.

(4) محمد غنيمي هلال، م.ن، ص 397.

(5) عز الدين إسماعيل، م.س، ص 374.

منها بمعلقة زهير بن أبي سلمى،⁽¹⁾ التي هي في ظاهرها مدح لهرم بن سنان والحارث بن عوف، اللذين سعيا بالصلح بين عيس وذبيان إثر حرب طاحنة دارت بين القبيلتين في أمر صغير، وبعيداً عن مقدمتها الطليّة وما تبعها من مدح الرجلين، وما ختمت به من حكمة، استوجبت وصف زهير بالشاعر الحكيم، نجد زهيراً يتناول الحرب بالنقد والذم، نقداً وذكماً يكشفان حقيقة الإنسان العربي وطبعه، الذي يأنف الحرب والقتل، ويميل بطبعه البشري إلى حياة الدعة والسلم، هذا الطبع الذي لم تغيره كثرة الحروب وما فيها من بطش وإراقة دماء، يقول زهير مخاطباً المتحاربين، ذاماً الحرب، ومنبهاً إلى نتائجها الخطيرة في الحاضر والمستقبل، حيث يرى أن أخطر ما فيها هو أن ينشأ عليها أجيال لا تعرف إلا الحرب والقتل، يقول:⁽²⁾

(الطويل)

وما هو عنها بالحديث المرجم	وما الحرب إلا ما علمتم ودقتم
وتضر إذا ضريرتموها فتضرم	متى تبعوها تبعوها ذميمة
وتلقح كشافاً ثم تنتج فتنتج ⁽³⁾	فتعركم عرك الرحي بنفالهها
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم ⁽⁴⁾	فتنتج لكم غلمان أشام كلهم
قرى بالعراق من قفيز ودرهم	فغلل لكم ما لا تغل لأهلها
بما لا يواتيهم حصين بن	لعمرى لنعم الحي جر عليهم
ضمضم ⁽⁵⁾	
غماراً تفرى بالسلاح وبالدم	رعوا ظمأهم حتى إذا تم أوردوا

ففي هذه الأبيات، ينتقد زهير ظاهرة اجتماعية خطيرة، هي كثرة الحروب الطاحنة في مسائل غير ذات بال، سادت جزيرة العرب، ويدعو صراحة إلى وقفها منفراً من نتائجها الخطيرة.

(1) شاعر جاهلي من شعراء المعلقات، من قبيلة مزنة، كان راوية أوس بن حجر، وأستاذ الحطيئة، عرف عنه تحبير الشعر، وسميت قصائده بالحوليات، أكثر شعره في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف. ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 153-137/1؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 165/2؛ الزركلي، الأعلام 52/3.

(2) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص 86-89.

(3) ثقال الرحي: خرقة أو جلدة تبسط تحتها ليقع عليها الطحين. تلقح كشافاً: أن تحمل النعجة في السنة مرتين. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: ثقل، وكشف.

(4) أحمر عاد: أحمر ثمود، عاقر الناقة. ينظر: الزوزني، م.س، ص 87.

(5) حصين بن ضمضم: أحد بني ذبيان، أخذ بثأر أخيه هرم بن ضمضم بعد الصلح. ينظر: الزوزني، م.س، ص 87.

أما شعر الصعاليك، وهم الفقراء المشردون، الخارجون على قبائلهم، ف شعرهم زاخر بمثل هذا اللون من النقد، بل لا نجانب الصواب إن قلنا إنَّ جَلَّ شعرهم يندرج تحت هذا الغرض، فهذا الشنفرى⁽¹⁾، صاحب لامية العرب، يميل عن قومه نأياً عن أذاهم، إذ يقول:⁽²⁾

(الطويل)

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزلاً
ويتخذ من دونهم أهلاً من حيوانات الصحراء، التي لا تذيع السر، ولا يخذل لديها الجاني، منتقداً قومه الذين أذاعوا سرّه وتخلّو عنه لجريرته، يقول⁽³⁾:

ولي دونكم أهلون سيّد عملس وأزقظ زهلول وعرفاء جيال⁽⁴⁾
هُم الأهل لا مستودع السرّ ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذل

ثم يأخذ الشنفرى في نفي صفات زميمة عن نفسه، كان يراها فيمن حوله من بني قومه، ويُعدّ نفيها لها عن نفسه نقداً وذماً لها، فهو ليس كراع يشتد عطشه، فيمنع صغار الإبل من رضع إمهاتها كي يبقى له الحليب ليشره:

ولست بمهيافٍ يعنّي سوامهٌ مجدعةٌ سقبانها وهي بهل⁽⁵⁾

وليس هو ك بعضهم جباناً يلزم البيت، يستشير زوجه فيما يصنع:

ولا جباً أكهى ربّ بعريه يطالغها في شأنه كيف يفعل⁽⁶⁾

ولا يتخلف في منزله يتكحل ويتعطر ويغازل النساء:

ولا خالف دارية متغزّل يروح ويغدو داهناً يتكحل

وليس بالرجل العاجز الضعيف الذي يسبق شره خيره، وإذا ما روع خرج إلى عدوه بغير سلاح:

ولست بعلّ شره دون خيره ألف إذا ما رعته اهتاج أعزل⁽¹⁾

(1) هو عمرو بن مالك الأزدي، من شعراء الصعاليك والعدائين في الجاهلية، والشنفرى لقب معناه عظيم الشفة، وصاحب قصيدة لامية العرب المشهورة. ينظر: الأصفهاني، الأغاني، 143-134/21؛ البغدادي، خزنة الادب، 18-16/2؛ الزركلي، الأعلام، 85/5.

(2) الشنفرى، الديوان، 55-57.

(3) الشنفرى، م.ن، ص 55-57.

(4) السيد العملس: الذئب قوي السير، أرقظ زهلول: النمر الأملس، عرفاء جيال: الضبع ذات العُرف، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، المواد: سيد، عملس، رقظ، زهلل، عرف، جال.

(5) المهيف: من اشتد عطشه، عثى سوامه: أي رعى البهائم ليلاً، المجدعة: سيئة الغذاء، السقبان: جمع سقب وهي ولد الناقة، البهل: جمع باهله، وهي النوق لا حرار لها، ينظر: ابن منظور، م.ن، المواد: هيف، سوام، جدع، سقب، بهل.

(6) الجباء: الجبان، الأكهى: الضعيف، مرب: مقيم أو ملازم، عريه: زوجته. ينظر: ابن منظور، م.ن، المواد: جبا، كها، ريب، عزين.

فكل هذه صفات ذميمة، رآها الشاعر فيمن حوله، فتبرأ منها ونفاها عن نفسه، وهذا من أساليب النقد البليغة.

ثم نأتي إلى صلوك آخر هو عروة بن الورد العبسي⁽²⁾، الذي تناول بعض المظاهر السلبية والقيم الممقوتة في مجتمعه، "ومن يقرأ شعر عروة في روية وتدبر يجد فيه مبادئ ثورة اجتماعية واقتصادية... فكما وقع نظره على مظهر من مظاهر الفساد الاجتماعي أو الاقتصادي تحركت نفسه إلى محاولة تعديل الأوضاع وتبديل الواقع"⁽³⁾، ومن هذا انتقاده لصورة صلوك ساقط الهمّة، لا يطلب قوته إلا في مجزرة أو عند صديق، يبيكّر إلى النوم، ويصبح جائعاً، وينام على الحصى، فيصبح متعزراً بالتراب، ولا يلتبس لنفسه قوتا، ويمضي يومه في الحي تسخره النساء في بعض شؤونهن، يقول⁽⁴⁾:

(الطويل)

لحا الله صلوكاً إذا جنّ ليله مضى في المشاش آلفاً كل مجرّر (5)
يعدُّ الغنى من نفسه كل ليلةٍ أصاب قراها من صديق مُيسر (6)
ينامُ عشاءً ثم يصبح طاوياً يحثُّ الحصى عن جنبه المتعزّر
قليل التماس المال إلا لنفسه إذا هو أمسى كالعريش المجور (7)
يعين نساء الحي ما يستعنه فيضحى طليحاً كالبعير المحسر (8)

ويقول عروة منتقداً وساخراً مما زعمته يهود خيبر من أنّ من دخل خيبر فنهق عشر

مرات وحبا على يديه ورجليه لم تضره الحمى: (9)

(الطويل)

وقالوا: احبُّ وانهق لا تضرّك خبيرٌ وذلك من دين اليهود ولوع
لعمري لئن عَشَرْتُ من حَشِيَةِ الردى نهاق الحمير إتني لجزوع
فلا وألت تلك النفوس ولا أتت على روضة الأجداد وهي جميع
فكيف وقد نكيتُ واشتدّ جانبي سُليمي وعندي سامعٌ ومطيغ
لسان وسيفٌ صارمٌ وحفيظةٌ ورأيي لآراء الرجال صروع

(1) العل: قراد الخيل، الألف: العاجز لا يقوم لحرب أو ضيف، أعزل: بغير سلاح، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: لفف، عزل.

(2) عروة بن الورد بن زيد العبسي، من شعراء الصعاليك، كان يلقب بعروة الصعاليك، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 2/675-677؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 2/190-197؛ الزركلي، الأعلام، 4/227.

(3) إبراهيم الخواجة، عروة بن الورد، حياته شعره، ص180-181.

(4) عروة بن الورد، الديوان، ص46.

(5) المشاش: رؤوس العظام اللينة التي يمكن مضغها. ينظر: ابن منظور، م.س، مادة مشش.

(6) الميسر: الذي سهلت ولادة إبله وغنمه ولم يعطب منها شيء. ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة يسر.

(7) العريش المجور: خيمة من خشب أو جريد، والمجور: المتهدم، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: عرش وجور.

(8) الطليح: المعبي، المحسر: المعبي أيضاً، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: طلح، وحسر.

(9) عروة بن الورد، م.س، ص46

ومن النَّقد المجتمعي، ما قاله طرفة⁽¹⁾، وقد مات والده وهو صغير ورفض أعمامه أن يقسموا ماله، فظلموا أمه حقها، وكان اسمها وردة، فقال متظلماً ومطالباً بحقها، ومحذراً من عواقب الظلم⁽²⁾؛

(الكامل)

صَعْرُ البَنُونِ ، ورهطُ وردةٍ غُيِّبُ	ما تنظرون بحقَّ وردة فيكم
حتى تظللَّ له الدماءُ تصبَّبُ	قد يبعثُ الأمرُ العظيمَ صغيره
بكرٌ تُساقِيها المنايا تغلبُ	والظلمُ فرقَ بينَ حييِّ وانلي
ملحاً، يُخالطُ بالدُّعافِ ويُقشِبُ ⁽³⁾	قد يوردُ الظلمُ المبيِّنُ آجناً
والبرَّ برءٌ ليس فيه مَعْطَبُ	والإثمُ داءٌ ليس يُرْجى بُروه
والكذبُ يألفه الدنيءُ الأخبِيبُ	والصدقُ يألفه الكريمُ المُرتجى
إنَّ الكريمَ إذا يُحْرَبُ يغضبُ ⁽⁴⁾	أدوا الحقوقَ تفرُّ لكم أعراضكم

ومن هذا القبيل قول الجميح⁽⁵⁾ في زوجته، وقد ذكر نفارها منه، وأنها سمعت لرجل من أعدائه حرصها على مضارَّته، وتحدث عن جرأتها عليه، على حين أنها في الشدائد لا تغني شيئاً، ويتهمها بأن لفقره أثراً في نشوزها، ويأمرها بالصبر، ويؤمِّلها الميسرة، يقول:⁽⁶⁾

(البيسط)

أَمَسَتْ أُمَامَةٌ صُمْتًا مَا تَكَلَّمْنَا	مجنونةٌ أم أحست أهلَ حُرُوبِ
مرت براكبٍ ملهوزٍ فقال لها	ضُرِّي الجُميحَ ومسيه بتعذيب ⁽⁷⁾
ولو أصابت لقاتل، وهي صادقةٌ	إنَّ الرياضةَ لا تُنصِبُكَ للشيبِ
يأبى الذكاءُ ويأبى أنَّ شيخَكُمُ	لن يعطي الآن عن ضربٍ وتأديبِ

(1) هو عمرو بن عبد بن سفيان بن سعد، كنيته أبو إسحاق، لقب بطرفه لبيت قاله، قتله المكعبر بالبحرين بكتاب من عمرو بن هند، وله بضع وعشرون سنة، شاعر جاهلي له معلقة، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/185-196. المرزباني، معجم الشعراء، ص21. الزركلي، الأعلام، 3/225.

(2) طرفة بن العبد، الديوان، ص 129-130.

(3) آجناً: متغير الطعم، الذعاف: السم القاتل، يُقشِبُ: يخلط السم بالطعام، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: آجن، وذعف، وقشِب.

(4) يُحْرَبُ: يُغضب، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة حَرَب.

(5) هو منقذ بن الطماح بن قيس، من فرسان بني أسد، قتل يوم جبلة قبل الإسلام ب 45 سنة، وأبو الطماح صاحب امرئ القيس، والجميح لقبه، ينظر: المرزباني، م.س، 403؛ النويري، نهاية الأرب، 15/353؛ الزركلي، الأعلام، 7/308.

(6) المفضل الضبي، المفضليات، 34-36.

(7) ملهوز: وصف للجمل، وهو الموسوم في أصل لحيه، ينظر: ابن منظور، م.س، ص34.

أما إذا حردت حردِي فمجريَّةُ جرداءِ تمنع غيلاً غيرَ مقروبٍ⁽¹⁾

وهذه المرأة التي وصفها في البيت السابق باللبوة في موائبته، لا تغني في الشدائد، فهي كالصبي لا يهتدي أن يفرَّ من الذئب، بمعنى أنه لا رأي لها، يقول⁽²⁾:

(البيسط)

وإن يكن حادثٌ يُخشى فذو علقٍ تظلُّ تزبُرُهُ من خشيةِ الذئبِ⁽³⁾
لَمَّا رأتُ إبلي قَلَّتْ حلوبتُها وكلُّ عامٍ عليها عامٌ تجنِبِ⁽⁴⁾
فإن تقَرِّي بنا عيناً وتحفُضي فينا، وتنتظري كَرِّي وتغريبي⁽⁵⁾
فأنتي لعلِّك أن تحظي وتحتلبي في سَحْبِلٍ من مسوكِ الضأنِ مُنجوبِ⁽⁶⁾

وهذا المَزْرَدُ أخو الشَّمَاخ⁽⁷⁾، وهو من المخضرمين، يصف حالة صاحب له، كان صائداً، وله سهام وقوس، وأكلب صيد، تنسب إلى قرية باليمن اسمها سلوق، فماتت كلابه من شدة الجوع، فوسوس له الشيطان أنه بموتها مفتقر، فطاف على أصحابه يطلب نوالهم وعونهم، فردوه خائباً، فرجع إلى أطفال مثل السهام من ضعفهم وسوء حالهم، وعاد إلى امرأة حمقاء، روادٍ، أي طوافة ببيوت جاراتها لشرها، فسألها طعاماً، فأشارت إلى البئر ومائه ودلوه، فلما يئس من الطعام، وأخذ يعاني من الجوع، تغشى رداءه، يريد النوم، فلم يستطعه لكثرة همومه؛ يقول⁽⁸⁾:

(الطويل)

فعدَّ قريضَ الشعرِ إن كنتِ مُغرِراً فإنَّ غزيرَ الشعرِ ما شاء قائلُ
لنعتِ صُبَاحيَّ طويلِ شفاؤهُ له رقمياتٌ وصفراءُ ذابلُ⁽⁹⁾

(1) حردت حردي: قصدت قصدي، المجرية: ذات الجراء (جمع جرو) ، الغيل: الأجمة، ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادتي: حردَ وجرا.

(2) الضبي، المفضليات، 35-36.

(3) علق: جمع علقه وهو قميص لاكمي له، يتخذ للصغير، تزبُرُهُ: تزجره، ينظر: ابن منظور، م.س، مادتي: علقَ ورَبَرَ.

(4) التجنِب: أن لا يكون في إبل القوم لبن تلك السنة، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة جَنَّب.

(5) تحفُضي: تقيمي، التغريب: الإبعاد في البلاد، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: حفَضَ وغَرَبَ.

(6) اقتني: احفظي حياك، السحبِل: العظيم، المسوك: جمع مسك وهو الجلد، المنجوب: المدبوغ، ينظر: ابن منظور، م.ن، المواد: فنا، سحبل، مسك، نجَب.

(7) المَزْرَدُ أخو الشَّمَاخ، يزيد بن ضرار بن حرملة الذبياني الغطفاني، شاعر فارس مشهور، أدرك الإسلام فأسلم، وله صحبة، وكان هجاءً خبيث اللسان، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 315/1-319. البغدادي، خزنة الأدب، 117/2. الزركلي، الأعلام 211/7-212.

(8) الضبي، م.س، ص101-102.

(9) صباحي: رجل من بني صباح، رقميات: سهام منسوبة إلى صانع أو بلد، ينظر: الضبي ، المفضليات، ص101، الصفراء: القوس، الذابل: التي قطع عودها وطرحت في الشمس حتى ذبلت، ينظر: ابن منظور، م.ن ، مادتي: صَفَرَ وذبل.

بَقِينُ لَهُ مِمَّا يُبْرِي، وَأَكْلَبُ تَقْلُقُ فِي أَعْنَاقِهِنَّ السَّلَاسِلُ

سُحَامٌ وَمَقْلَأُ الْقَنْيِصِ وَسَلْهَبٌ وَجَدَلَاءُ وَالسَّرْحَانُ وَالْمَتَنَاوِلُ⁽¹⁾

بَنَاتٌ سَلُوقِيَّيْنِ، كَانَا حَيَاتَهُ فَمَاتَا فَأَوْدَى شَخْصَهُ، فَهُوَ خَامِلٌ⁽²⁾

وَأَيَقُنْ إِذْ مَاتَا بِجُوعٍ وَخَيْبَةٍ وَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: إِنَّكَ عَائِلٌ

فَطَوَّفَ فِي أَصْحَابِهِ يَسْتَثْبِيهِمْ فَآبٌ وَقَدْ أَكَّدَتْ عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ⁽³⁾

إِلَى صَبِيَةٍ مِثْلِ الْمَغَالِيِّ، وَخَزْمِلٍ رَوَادٍ، وَمَنْ شَرَّ النِّسَاءِ الْخِرَامِلُ⁽⁴⁾

فَقَالَ لَهَا: هَلْ مِنْ طَعَامٍ فَإِنِّي أَدَمُّ إِلَيْكَ النَّاسَ، أَمْكَ هَابِلٌ

فَقَالَتْ: نَعَمْ، هَذَا الطَّوِيُّ وَمَاوَهُ وَمَحْتَرِقٌ مِنْ حَائِلِ الْجَدْلِ قَاحِلٌ⁽⁵⁾

فَلَمَّا تَنَاهَتْ نَفْسُهُ مِنْ طَعَامِهِ وَأَمْسَى طَلِيحاً مَا يُعَانِيهِ بَاطِلٌ

تَغَشَى، يَرِيدُ النَّوْمَ، فَضَلَّ رَدَائِهِ فَأَعْيَا عَلَى الْعَيْنِ الرَّقَادَ الْبَلَائِلُ

وهذه القصيدة، وإن كانت في شكوى الفقر، فإنها في نقد رجل استسلم لفقد أدوات صيده، ووطن نفسه مفتقراً، وفي نقد أصحاب له منعه ما سألهم، وفي نقد زوجته الشريره، أيضاً.

ونختم هذا العصر بشاعرة جاهلية هي أم ثواب الهزانية⁽⁶⁾، تقول في ابن لها عقها، ريتته صغيراً مثل الفرخ، حتى إذا ما اشتد عوده، راح يضربها ليؤدبها، وتصف كذب وكيد زوجته، وهي تطلب منه أن يتوقف بها، لتسمعها، وإنما هي لو رأتها تحترق لزدتها حطباً، تقول⁽⁷⁾:

(البسيط)

رَبِّيْتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرِّخِ أَعْظُمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيْشِهِ رَعْبًا

حَتَّى إِذَا آضَ كَالْفُحَالِ شَدَّبَهُ أَبَارُهُ، وَنَفَى عَنِ مَتْنِهِ الْكِرْبَا⁽⁸⁾

أَنْشَأَ يَخْرُقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدُ سَتِينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدْبَا

(1) وهي أسماء كلاب الصباحي الستة، ينظر: الضبي، المفضليات، ص101.

(2) السلوقية: كلاب تنسب إلى سلوق، قرية باليمن، ينظر: الضبي، م.س، ص101.

(3) أكَّدت: امتنعت، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: كدا.

(4) المغالي: سهام يرمي بها لتبلغ الغاية، يشبه أبناءه بها في الضعف والخمول، الحرمل: الحمقاء، الرواد: الطوافة في بيوت جاراتها ولا تقعد في بيتها لشرها. ينظر: ابن منظور، م.ن، المواد: غلا، خرمل، رَوَدَ.

(5) الطوي: البئر، الحائل: ما أتى عليه الحول، الفاصل: الياض، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: طوى وحول.

(6) لم أعر لها على ترجمة، سوى ما أورده الكامل من أنها من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، ينظر: المبرد، الكامل 1 / 162، أبو العلاء المعري، شرح ديوان حماسة أبي تمام، 448/1-449.

(7) المبرد، م.ن، 162/1-163.

(8) آض: صار، والفعال: ذكر النخل، وشدَّ به: قطع أغصانه المتضمرمة، أبَّاره: مصلح الذي يقوم بعملية التأبير، وهي التلقيح. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، المواد: آض وفحل، وشدَّ، وأبر.

إِنِّي لأَبْصُرُ فِي تَرْجِيلِ لَمَّتِهِ وَخَطُّ لَحِيَّتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبًا

قَالَتْ لَهُ عَرِسُهُ يَوْمًا لَتُسْمَعَنِي رَفَقًا فَإِنَّ لَنَا فِي أَمْنًا أَرَبًا

وَلَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارٍ وَمُسْعَرَةٍ مِنَ الْجَحِيمِ، لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبًا

هذه بعض النماذج الشعرية، التي اخترتها من شعر الجاهليين، والمخضرمين، وهي غيوض من فيض، قد ترسم لنا صورة عن حجم هذا الغرض الشعري في العصر الجاهلي وموضوعاته، وإلا فهي دليل على وجوده في شعر شعراء هذا الزمان.

٢ في عصري صدر الإسلام وبني أمية

أما في عصر صدر الإسلام، فعلى الرغم من تشاغل العرب في هذه الفترة بالجهاد والفتوحات، ولهوها عن الشعر وروايته، إلا أنهم لم يكفوا عن قول الشعر، فهم أهله، وهو صنعتهم وشغلهم من قبل، بل تعتبر هذا الفترة الزمنية امتداداً طبيعياً للعصر الجاهلي، في كثرة شعرائها المخضرمين، وفي التقاليد والخصائص الفنية والأغراض الموروثة أيضاً، ولكن ما يغلب على الظن هو أنّ النّقد المجتمعي، بالمفهوم الذي حددناه فيما تقدم لم يبلغ الحجم الذي بلغه في الجاهلية، أو فيما بعد صدر الإسلام، ذلك لأنّ هذا المجتمع، مجتمع صدر الإسلام، عصر دولة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين، طبق فيه الإسلام تطبيقاً منقطع النظير، فقلت فيه الآفات المجتمعية في جوانبه المختلفة، بل انعدمت في بعض جوانبه وبخاصة الجانب السياسي، ومهما يكن فإن شاعراً مخضرمًا كالحطيئة⁽¹⁾، الذي عرف بكثرة الهجاء، حتى بلغ به الأمر أن يهجو أمّه، بل لم يتوان عن هجاء نفسه، لا يخلو شعره في هذا الغرض من النّقد المجتمعي، فمنه ما قاله في ضيف حلّ به، فخشى أن يفضحه، فأطعمه حتى ملأ جوانحه، ثم جاء على ذكر سلوك لامرأة أبغضت زوجها فأسفته سماً فمات، نافية عن نفسه مثل هذا التصرف البغيض، فهذا الرجل الكاهلي كان يتوود إلى زوجته ويبيغي رضاها، وهي له كارهة، وكانت تدعو الله الخلاص منه، فلما لم يُستجب دعاؤها، سفته سماً، فذلك فعل مخزٍ عند ذوي المروءة، ولكنّه هيّن على فاعله، يقول الحطيئة:⁽²⁾

(الطويل)

وَأَنَّ ابْنَ أُعْيٍ، لَا مَحَالَةَ، فَاضِحِي

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ مَا يَبْتَغِي الْقَرَى

(1) هو جرول بن أوس، أبو مليكة، (ت 45هـ)، شاعر مخضرم، هجاء مقدح، كان رقيق الإسلام لئيم الطبع، مفرط القصر، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/322-328؛ البغدادي، خزنة الأدب، 1/409؛ الزركلي، الأعلام، 2/118.

(2) الحطيئة، الديوان، ص 129-130.

على ظمأ سدت أصول الجوانح⁽¹⁾
 بغى الود من مطروفة العين، طامح⁽²⁾
 وغابت له غيب أمرئ غير ناصح
 ولا يغتدي إلا على حد بارح⁽³⁾
 سقتُهُ، على لوح، دماء الذراح⁽⁴⁾
 ولم يدر ما خاضت له بالمجادح⁽⁵⁾
 وهان بدا غرماً على كف جارح

شددت حيازيم ابن أعي بشرية
 وما كُنْتُ مثل الكاهلي وعرسه!
 غدا باغياً يبغي رضاها وودها
 دعت ربها ألا يزال بحاجة
 فلما رأت ألا يجيب دعاءها
 وقالت: "شرب بارد فاشربنه"
 فشدّ بدا خزيا على ذي حفيظة

ولو تُتبع هذا الغرض في شعر الحطيئة، لوجد منه الوافر الكثير، ذلك لأن الحطيئة، كان هجاءً بارعاً، وكان يتمتع بملكة نقدية عظيمة، ويستجلب النقد من كل سلوك أو مظهر يعرض له، وتعد مقطوعة الحطيئة هذه في الجانب الاجتماعي.

أما الجانب السياسي، فهذا أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي⁽⁶⁾، وكانت له صحبة، يقول في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، مستكراً قتله، ويعدها سنة جور فتحوها على الحكم، ويتوعددهم بالخسران في الدنيا والآخرة⁽⁷⁾:

(البسيط)

وأَيَّ قتلٍ حرامٍ، دَبَّحُوا، دَبَّحُوا
 يخشوا على مطمح الكف الذي طمحو
 وبابٍ جورٍ على سلطانهم فتحوا
 من سفح ذلك الدم الزاكي الذي سفحوا
 تمام ظمءٍ كما يستورد النضح⁽⁸⁾
 لا قوا أثاماً وخسراناً فما ربحوا

تفاقد الذابحو عثمان صاحبة
 ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ولم
 فأبي سنة جور سن أولهم
 ماذا أرادوا؟ أضل الله سعيهم
 فاستوردتهم سيوف المسلمين على
 إن الذين تولوا قتله سفهاً

(1) حيازيم: جمع حيزوم: وهو موضع الحزام أو الأضلاع، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حزم.

(2) مطروفة العين: طرفها حب الرجال فلا تثبت على واحد، فلا تغض طرفها ، طامح: تطمح ببصرها إلى غير زوجها، ينظر: ابن منظور، م.ن، ماتني: طرف وطمح.

(3) حد بارح: أمر فيه شدة وتشاؤم، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة برح.

(4) الذراح: جمع ذراح، وهو دويبة أعظم من الذباب، يتخذ من دمه سماً قاتل، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة ذرح.

(5) المجادح: جمع مجدح، وهو عود مجتح الرأس يساط به الأشربة، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة جدح.

(6) هو أيمن بن خريم بن فاتك الاسدي، شاعر من بني أسد، (ت 80هـ)، كان ذا مكانة عند عبد العزيز بن مروان في مصر، عرض عليه عبد الملك مالا ليقاتل ابن الزبير فأبى، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 541/1-543. الصفي، الوافي بالوفيات، 20/10-22. الرزكلي، الأعلام، 35/2.

(7) المبرد النحوي، الكامل، 241/2-242.

(8) النضح: جمع نضح: وهو الحوض، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة نضح.

وإذا ما تقدمنا نحو عصر بني أمية، الذي جاء على أنقاض فتنة مقتل عثمان، رضي الله عنه، لقينا الشاعر الصلتان العبدى⁽¹⁾، ينعى على المسلمين تلك الفتنة العظيمة التي وقعت فيهم، وشقت عصاهم حتى ذاق بعضهم بأس بعض، وبخاصة زمن يزيد بن معاوية، وينتقد تفرق الأمة على عقيدتها، فيقول⁽²⁾:

(المتقارب)

أرئى أمةً شهَّرت سيفها
بنجديةٍ وحروريةٍ
وقد زيدَ في سوطها الأصبَحِيَّ⁽³⁾
وأزرقٍ يدعو إلى أزرقِيَّ⁽⁴⁾

وهذا الصلت بن مزة⁽⁵⁾، ينتقد فرقة صف الخوارج، وما تركه عليهم طول الجدل والهزل وكثرة الخطب، وهو في خطابه متوجهٌ إلى قطري بن الفجاءة، يقول⁽⁶⁾:

قل للمحلِّين، قد قرَّت عيونكم
بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناساً على دين فغيرنا
طولُ الجدل وخط الجدِّ بالعب
ما كان أغنى رجالاً، ضلَّ سعيهم،
عن الجدل وأغناهم عن الخطبِ
إني لأهونكم في الأرض مضطرباً
مالي سوى فرسي والرمح من نشبِ

ويقول إسماعيل بن عمَّار الأسدي⁽⁷⁾ لما عزل ابن هبيرة وأمر خالد القسري، منتقداً بني أمية، وتضييعها لشؤون النَّاس، فشبَّههم بامرأة تترك أبناءها سفهاً لترعى شؤون أبناء غيرها⁽⁸⁾:

(الكامل)

عجِبَ الفرزدق من فزارة أن رأى
فلقَد رأت عجباً، وأحدثَ بعده
بكتِ المنابرُ من فزارة شجوها
عنها أمةٌ في المشارق تنزعُ
فاليومَ من قَسْرِ تَضجُ وتجزعُ
للهِ درّ ملوكنا ما تصنعُ!
وينو أمةً أضرعونا للعدى

(1) هو قثم بن خبيبة العبدى، من بني محارب بن عمرو بن عبد قيس، شاعر حكيم، له قصيدة في الحكم بين جرير والفرزدق، (ت 80هـ)، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 500/1-502؛ البغدادي، خزائن الأدب، 308/1؛ الزركلي، الأعلام، 190/5.

(2) المبرد، الكامل، 98/3.

(3) السوط الاصبحي: سباط تنسب لذي أصبح وهو ملك من ملوك حمير، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة صبح. والمعنى ازدادت شدة هذا الأمة بالفرق التي يذكرها في البيت التالي. ينظر: المبرد، الكامل، 241/2-242.

(4) فرق إسلامية ظهرت في العصر الإسلامي الأول، ينظر: أبو الفرج الجوزي، تلبيس إبليس، 90-95، والشهرستاني، الملل والنحل، 118/1، 125-118/1.

(5) لم تقع له على ترجمة.

(6) المبرد، م.س، 207/3.

(7) هو إسماعيل بن عمار بن عينية، الخزيمي، شاعر مقل، من خضرمي الدولتين الأموية والعباسية، (ت 157هـ)، ينظر: الأصفهاني، الأغاني، 135/1-143؛ ابن عبد البر، بهجة المجالس، 711/1؛ الزركلي، م.س، 320/1.

(8) الحمصي، طبقات فحول الشعراء، 341/2-342.

كانوا كتاركةً بنيتها جانباً
سَفَهَا، وَغَيْرُهُمْ تَصُونُ وَتُرْضِعُ
وشكى جرير ⁽¹⁾ إلى عمر بن عبد العزيز أمر ابن سعد الأزدي الذي تولى صدقات
الأعراب وأعطياتهم، فاستأثر بأموال النَّاسِ ⁽²⁾:

(الطويل)

وَإِنَّ عِيَالِي لَا فَوَاكَةَ عِنْدَهُمْ
عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ سَكَّرَ وَزَيَّبُ
فَقَدْ كَانَ ظَنِّي بَابِنِ سَعْدٍ سَعَادَةً
وَمَا الظَّنُّ إِلَّا مَخْطُؤٌ وَمَصِيبُ
فَإِنْ تُرْجِعُوا رِزْقِي إِلَيَّ فَإِنَّهُ
مَتَاعُ لَيَالٍ وَاللِّقَاءُ قَرِيبُ
تُحْنِي العِظَامُ الرَّاجِفَاتُ مِنَ البَلَى
وَلَيْسَ لِدَاءِ الرِّكْبَتَيْنِ طَيِّبُ
أَمَّا الفرزدق ⁽³⁾، فانتقد تولَّى ابن هبيرة العراق، لأنه خفيف اليد، يتنعم ويترفه بأموال

(الوافر)

اختلسها، ولم يكن من قبل راعي إبل، يقول ⁽⁴⁾:

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَأَنْتَ عَفٌّ
كَرِيمٌ، لَسْتَ، بِالطَّبِيعِ، الْحَرِيسِ
فَأَوْلَيْتَ الْعِرَاقَ وَرَافِدِيهِ
فِزَارِيًّا أَحَدُ يَدِ الْقَمِيصِ ⁽⁵⁾
تَفْتَقُ بِالْعِرَاقِ أَبُو المَثْنَى
وَعَلَّمَ أَهْلَهُ أَكَلَ الخَبِيصِ ⁽⁶⁾
وَلَمْ يَكْ قَبْلَهَا رَاعِي مَخَاضٍ
لِيَأْمَنَهُ عَلَى وَرَكِّي قُلُوصٍ ⁽⁷⁾

وقال رجل للخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، يشكو إليه عماله، الذين خالفوا
أمره لهم بالعدل، واستحلوا المحرمات من أموال النَّاسِ، ولا يتكلمون على المناير إلا بانتقاص
أموال المسلمين ⁽⁸⁾!

(الكامل)

إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا
نَبذُوا كِتَابَكَ، وَاسْتَحَلَّ الْمُحْرَمُ
وَأَرَدَتْ أَنْ يَلِيَ الأَمَانَةَ مِنْهُمْ
بِرَّ وَهِيَهَاتِ الأَبْرُ المُسَلَّمُ
طَلَسُ الثِّيَابِ عَلَى مَنَابِرِ أَرْضِنَا
كُلُّ بِنَقْصِ نَصِينَا يَتَكَلَّمُ

⁽¹⁾ هو جرير بن عطية الخطفي (ت 110هـ)، من شعراء النقائض، كان هجاء مرّاً تصدى للفرزدق والأخطل، وكان ديناً عفيفاً، مدح
الحجاج فأكرمه، وأوفده إلى عبد الملك بن مروان، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 464/1-470. ابن خلكان، وفيات الأعيان،
321/1-327. الزركلي، الأعلام، 2/119.

⁽²⁾ جرير، الديوان، 3/730.

⁽³⁾ هو همام بن غالب التميمي الدارمي، (ت 110هـ)، يكنى أبا فراس ويلقب بالفرزدق، من أهل البصرة، من شعراء النقائض، ينظر:
ابن قايبة، م.س، 1/471-482؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 27/224-228؛ الزركلي، الأعلام، 8/93.

⁽⁴⁾ الفرزدق، الديوان، 1/389.

⁽⁵⁾ أحد يد القميص، أراد أحد اليد فأضاف إلى القميص لحاجته، وأراد خفة يده في السرقة، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة حذذ.

⁽⁶⁾ التفنق: التنعم، الخبيص: الحلواء المخبوصة، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: فنق، وخبص.

⁽⁷⁾ المخاض: الحوامل من النوق، القلوص: الفتية من الإبل، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي مخض، وقلص.

⁽⁸⁾ المبرد النحوي، الكامل، 2/200.

وحسبنا من هذين العصرين هذه المقطوعات، التي أعطتنا بعض الصورة التي تدلّ على استمرار وجود هذا الغرض وتطوره.

٣ في العصر العباسي

وإذا ما جئنا إلى العصر العباسي، وجدنا شعر النّقد المجتمعي، قد انتقل نقلة نوعية وكميّة، وذلك تبعاً للنقطة النوعية التي انتقلها المجتمع الإسلامي في هذا العصر، وما تركته من آثار على حياة النّاس في جوانبها المختلفة، وسلوك الأفراد، وسياسة الحكام، وما تركته أيضاً من آثار على الحياة الثقافية والأدبية. يقول شوقي ضيف واصفاً شعر النّقد المجتمعي في هذا العصر، وإن لم يسمّه بهذا الاسم: "ويُخَيَّل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية، أو نفسية في شخص إلا صوروها، وكأنّما يريدون أن يطهروا المجتمع منها، ولم يتورّعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء، كلّما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل"⁽¹⁾. ونبدأ بحمّاد عمرو⁽²⁾ حيث يقف عند واجبات الأخوة والصدّاقة، منتقداً من صداقتهم زائفة، والمتصنّعين في ودّهم، وينصح بموادّة من لا تغيّره ظروف العسر، أو اليسر التي تحل بالصديق، يقول:⁽³⁾

(الكامل)

كم من أخٍ لك لست تنكره ما دمت من دنياك في يسر
متصنّع لك في مودّته يلقاك بالترحيب والبشر
يطري الوفاء وذا الوفاء ويلد حي الغدر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عدا والدهر ذو غير غير دهرٌ عليك عدا مع الدهر
فارفض بإجمالٍ مودّة من يُقلى المُقلّ ويعشّق المثرى⁽⁴⁾
وعليك من حالاه واحدة في اليسر إمّا كنت والعسر
لا تخلطنهم بغيرهم من يخلط العقيان بالصفر⁽⁵⁾؟

وهذه المقطوعة لا تعد من شعر الحكمة، بقدر ما تعدّ نقداً لسلوك اجتماعي شائع في كل عصر، وإن لم ينصّ فيه على شخص معين.

(1) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي؛ العصر العباسي الأول، ص167.

(2) هو حماد بن عمرو بن يوسف بن كليب السواتي، أبو عمرو، (ت 161هـ)، من الموالي، من أهل الكوفة، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان بينه وبين بشار أهاج فاحشة، قتل غيلة بالأهواز، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 779/2-781؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 210/2-214؛ الزركلي، الأعلام، 272/2.

(3) الأصفهاني، الأغاني، 90/13.

(4) المُقلّ: الفقير، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قلّ.

(5) العقيان: الذهب الخالص، الصفر: النحاس الجيد، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي عقا، وصفر.

أمّا ابن أبي كريمة⁽¹⁾ فيصف كنيفا (مكان قضاء الحاجة)، له ألوان من النتن كأنه وادي خبال في جهنم، لا يعرفها أحد إلا خازن النار، وتزداد ريحه الكريهة إذا ما زار الشاعر رجلاً بخيل، وقد هجره أصدقاؤه بسبب هذا الكنيف، بل إن جاره باع مسكنه، ومن أراد وجع صدره أو صداع رأسه، فليدخل دار الشاعر، وقد استكثف هذا الريح النتن في أنفه حتى ما يشمّ غيره، يقول⁽²⁾:

(البسيط)

ولي كنيفٌ بحمدِ الله يطرفني أرواحُ وادي خبالٍ غير فتّار⁽³⁾
له بدائعُ نتنٍ ليس يعرفها من البويّةِ إلا خازنُ النارِ
إذا أتاني بحيلٍ زادني بدعاً كأنّه له حجٌّ عمداً بإضمّاري
قد اجتواني له الخلائنُ كلُّهم وباعَ مسكنه من قُربه جاري
فمن أراد من البرسام أقتله أو الصّداعِ فمرّه يدخلنُ داري⁽⁴⁾
استكثفَ النتنُ في أنفي لكثرتِه فليس يوجدُ فيه غيرُ إضمّاري

وهذا أبو الشمقمق⁽⁵⁾، يصف خلو بيته من الطعام، إذ ألجأه إليه البرد، فلا نضارة عليه، ولا شيء فيه إلا النوى والنخالة، وقد هجرته الجرذان، وطار منه الذباب، حتى إن السنانير قد هربت منه، فهذا "ناز" رأس السنانير، يفرّ منه، كأنه شيخ سوء أخرج من الحبس بكفالة، يقول في أسلوب تغلب عليه الفكاهة والظرافة⁽⁶⁾:

(الخفيف)

ولقد قلتُ حينَ أبحرني البو دُ كما تجرُّ الكلابُ تُعاله⁽⁷⁾
في بُبيتٍ من الغضارِ قفو ليس فيه إلا النوى والنخالة
فارتدَّ الجرذانُ من قلةِ الخي وطارَ الذبابُ نحو زُبالة
هاربٍ منه إلى لئلٍ خصبٍ حينَ لم يرتجِبْ منه بلالُه
وأقام السرورُ فيه بشنٍّ يسألُ اللهَ ذا العلا والجلالة⁽⁸⁾
أن يري فلرةً، فلم يَرَ شيئاً ناكساً رأسه لطولِ المِلاله

(1) هو أحمد بن زياد بن أبي كريمة، ذكر له الطبري أبياتاً في رثاء جعفر بن يحيى البرمكي، وروى عنه الجاحظ أشعاراً، في أكثر من موقع في كتاب الحيوان، ينظر: ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 665/4.

(2) الجاحظ، الديوان، 1/133..

(3) فتّار: ساكن بعد حدة ولاتن بعد شدة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة فتّر.

(4) البرسام: مرض في الصدر، وهو التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب، وهي فارسية، ينظر: سعدي ضناوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص 80.

(5) هو مروان بن محمد، من موالى بني أمية، (ت 200هـ)، شاعر هجاء، كان منكر المنظر، ينظر: ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 125-129. الكتيبي، فوات الوفيات، 505/2-506. الزركلي، الأعلام، 7/209.

(6) الجاحظ، الحيوان، 5/256.

(7) أبحره: أي ألجأه إلى أن يدخل جحره. ثعاله: الثعلب إذا كان ذكراً، ينظر: ابن منظور، م.س، مادتي جحر، وثعل.

(8) السينور: بكسر السين الهر، من الفارسية أو السريانية، ينظر: سعدي ضناوي، م.س، باب السين، ص 292.

قَلْتُ صَبْرًا يَا نَازُ رَأْسِ السَّنَانِيدِ ، وَعَلَّلْتُهُ بِحَسَنِ مَقَالِهِ
قال: لا صبرَ لي، وكيف مقامي في قفلٍ كمنثقٍ بيدِ تباله
ثمَّ ولَّى كأنَّه شيخٌ سوءٍ أخرجوه من محبسٍ بكفلة

وهذا أبو تمام⁽¹⁾ يصور غيره شخص على طعامه ورغفانه، حتى لكان كسر رغيفه كسر
عظم من عظامه، يقول⁽²⁾؛

(البيسط)

صَدَّقْ أَلَيْتَهُ إِنْ قَالَ مَجْتَهِدًا لا والرغيفِ، فذاك البرُّ في قسمة⁽³⁾
قد كان يعجبني لو أن، غيرته على جرادقه كانت على حرمة⁽⁴⁾
إِنْ رُمْتَ قَتْلَتَهُ فافتك بخبزته فَإِنَّ مَوْقِعَهَا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمُهُ

وهذا أبو العتاهية⁽⁵⁾ يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار، يقول⁽⁶⁾:

(مجزوء الكامل)

مَنْ مَبْلَغٌ عَنِّي الإِمَا مِنْ نَصَائِحًا مِتَّالِيَهُ
إِنِّي أَرَى الْأَسْعَارَ أَسَدَ عَارِ الرَّعِيَّةِ غَالِيَهُ
وَأَرَى الْمُنَاسِبَ نَزْرَةً وَأَرَى الضَّرُورَةَ فَاشِيَهُ
مَنْ يُرْتَجَى لِلنَّاسِ غِي رُكَّ لِلْعِيُونِ الْبَلَكِيَهُ
مِنْ مُصْئِبَاتٍ جُوعٍ تُمَسِي وَتَصْبِحُ طَاوِيَهُ
مَنْ يُرْتَجَى لِدِفَاعِ كُرِّ بَ مَلَمَّةٍ هِيَ مَا هِيَهُ
مَنْ لِلْبَطُونِ الْجَائِعِ تِ وَلِلْجَسُومِ الْعَارِيَهُ
أَلْقَيْتُ أَخْبَارًا إِلَيَّ كَ مِنْ الرَّعِيَّةِ شَافِيَهُ

هذا وإن عدت هذه القصيدة شكوى، إلا أنها تحمل نقداً ضمناً لتقصير الحاكم في حق
الناس في هذا الجانب الاقتصادي أو إغفاله إياه.

(1) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (ت 213هـ)، ولد في جاسم من قرى حوران، شاعر وأديب، له تصانيف منها: ديوان

الحماسة، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 26-11/2؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 230-225/11؛ الزركلي، الأعلام، 2/165.

(2) أبو تمام: الديوان (شرح إيليا حاوي)، ص409.

(3) أليته: حلفه وقسمه، ينظر ابن منظور، اللسان، مادة ألا.

(4) جرادقة: مفردا جردق، وهو الرغيف من الخبز الغليظ، ينظر: سعدي ضناوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص150.

(5) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، (ت 221هـ)، مولى عنزة، نشأ بالكوفة، من الشعراء المطبوعين، ينظر: الأصفهاني،

الأغاني، 3/183-126؛ ابن خلكان، م.س، 1/219-226؛ الزركلي، م.س، 1/321.

(6) أبو العتاهية، الديوان، ص427.

وهذا دعبل الخزاعي⁽¹⁾، نختار له قصيدة في الجانب السياسي من التّقدّ المجتمعي، قالها في الخليفة العباسي المعتصم، يصفه فيها بالضلّال والجهل، ويستغرب أن يملك مثله يوماً، أو أن تدين له العرب، ويجعل عدة خلفاء بني العباسي كعدة أصحاب الكهف، سبعة وثامنهم المعتصم، كما أنّ عدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلب، بل إنّ الكلب ينزّه عن هذا التشبيه لأنّه ليس له ذنوب كالمعتصم، ويقرر بأنّه ما ملّك عليهم إلا لشقائهم، يقول دعبل⁽²⁾:

(الطويل)

بكى لشتات الدين مكتئب صبّ وفاض بفرط الدمع من عينه غرب⁽³⁾
 وقام إمام لم يكن ذا هداية فليس له دين وليس له لب
 وما كانت الأنبياء تأتي بمثله يملك يوماً أو تدين له الغرب
 ولكن كما قال الذين تتابعوا من السلف الماضي الذي ضمّه الترب
 ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتينا عن ثامن لهم كتب
 كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا غدوا وثامنهم كلب⁽⁴⁾
 وإنّي لأعلي كلبهم عنك رفعة لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
 كأنك إذ ملكتنا لشقائنا عجزت عليها التاج والعقد والإتب⁽⁵⁾

ويعدّ توليته للحكم ضياعاً لأمر الناس، وثملاً للدين، فهذا حاكم همّه الغلمان الأتراك، وهذا من أمارات قيام الساعة⁽⁶⁾؛

(الطويل)

لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملّكهم وصيفاً وأشناساً وقد عظم الكرب
 وفضل ابن مروان سيئتم ثلمة يظل لها الإسلام ليس له شعب
 وهمك تركي عليهمهانة فأنت لهما وأنت لهما أب

(1) هو دعبل بن علي الخزاعي، المكنى بأبي علي، (ت 246هـ)، وهو صديق البحري، هجر وطنه الكوفة، والتحق بقطاع الطريق، وكان هجاءً لم يسلم منه محسن أو مسيء، ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 849/2-852؛ الأصفهاني، الأغاني، 8/29-32؛ الزركلي، الأعلام، 2/339.

(2) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 40/18.

(3) غرب: الدلو العظيم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة غرب.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: "ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم"، سورة الكهف، آية 22.

(5) الإتب: بردة تُشقّ فتلبس من غير كمين ولا جيب، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة أتب.

(6) أبو الفرج الأصفهاني، م.س، 40/18.

وإنِّي لأرجو أن يُبَي من مغيبها مطالعُ شمسٍ قد يُعصُّ بها الشربُ

ونختم هذه النبذة من شعر النّقد المجتمعي في العصر العباسي، بشاعر كبير، يندرج جُلّ شعره، في إطار النّقد المجتمعي، وهو أبو العلاء المعري⁽¹⁾، الذي بدا وكأنه قد تخصص في هذا الجانب، وذلك لعوامل نفسية وثقافية وفكرية، جعلت منه شخصيّة ناقدة، بل ساخطة، على كل شيء في الحياة والمجتمع، و"لعل ديوان "لزوم ما لا يلزم" الوحيد، بين دواوين العرب القدماء، الذي ينطلق من حياة الإنسان وشؤون المجتمع، وإن من زاوية خاصة طغى عليها روح الزهد والتشاؤم. فأبو العلاء ، خلافاً لمن سبقه وعاصره ولحقه من زملائه القدماء، لم ينطلق في شعره من قصور الحكام وميادين المحاربين، بل من أوساط الشعب المغلوب على أمره، والرازح تحت وطأة الفقر والظلم والابتزاز فعالي في تصوير مآسيه"⁽²⁾.

يقول أبو العلاء منتقداً الحكام الذين ظلموا الرعية، واعتدوا على مصالحها، ومنتقداً الفرق السياسية والمذهبية، ويعدّ شعراءها شرارها، ويرى الدنيا امرأة طامناً لا تستقيم لناكح، وقع في هواها النَّاسُ، فتعب الغني، وفاز بالراحة الفقراء، وينتقد الفقهاء الذين يتجادلون في حبها، والقرّاء الذين ابتغوا بعلمهم نوالها⁽³⁾:

(الكامل)

مُهلّ المقامُ فكم أعاشرُ أمةً	أمرتُ بغيرِ صلاحها أمراً
ظلموا الرعيّة و استجازوا كيدَها	فَعَوّوا مصالحها وهم أجراؤها
فوقُ شعرتُ بأنّها لا تفتني	خيراً و أنّ شرارها شعراؤها
أثرتُ أحاديثَ الكرام بزعمِها	وأجادَ حبسَ أكفّها إثراؤها
ووجدتُ دنيانا تشابه طامناً	لا يستقيمُ لناكحِ أقرأؤها ⁽⁴⁾
هُويتُ و لم تُسعِفْ وراح غنيّها	تعباً و فاز براحةً فقرأؤها
و تجادلتُ من حُبِّها ففهاؤها	وتقرّأتُ لتنالها فقرأؤها

(1) هو أحمد بن عبد الله المعري (ت 449هـ)، شاعر متقشف، كان واسع العلم، فقد عينية في الثالثة من عمرة، وعاش حياته متشائماً كنيباً، اعتزل النَّاسُ وسمى نفسه رهين المحبسين أي رهين بيته وعماه ، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان ، 1/113-116؛ الصفيدي، الوافي بالوفيات، 7/62-75؛ الزركلي، الأعلام، 1/157.

(2) كمال البازجي، مقدمة ديوان لزوم ما لا يلزم، 7/1.

(3) أبو العلاء المعري، ديوان لزوم ما لا يلزم، 1/56-57.

(4) الطامث: الحائض، أقرأؤها: حيضها أو طهرها، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: طمّث، وقرأ.

وينتقد أبو العلاء، العرّاف، ويحدّر من ارتياد النساء له، بل ويوصي زوج المرأة أن يضربها إذا طلبت العرّاف، وأن يعنّفها إذا كشفت عنده ذراعها، وأن يهجرها إذا كشفت عنده عن ساقها، فالمنجم ذئب يشتاق إلى رؤية الضأن، فإن لم تجبه المرأة التي تلجأ إليه إلى فعل الفاحشة، نهب مالها، بزخرفة قول، وافتراءات مُغرية، وإن تمكّن منها فإنها ستحيا مضطربة لن ترى النوم، يقول⁽¹⁾:

(الوافر)

إذا ابتكرت إلى العرّاف، فاعرف	مكان عصا تصكّ بها قرّاه ⁽²⁾
وساورها، إذا أبهت سواراً	ويارئها متى كشفت برّاه ⁽³⁾
وحذّرها المنجم، فهو ذئب	تُشوّفه الضوائن أن يراها
فإن هي لم تُجبه إلى قبج	تحلبها المنافع، وامتهاها
يقول لها زخارف م غويات	فراها الأولون، أو افتواها
وقد يجفو الكرى منها جفوناً	إذا ما حلّ في ساق كراها

وخلاصة هذا الاستعراض لتطور شعر النّقد المجتمعي، أن الشعر العربي قد عرفه، واتخذه غرضاً، سواء أعتبر هجاء أم وصفاً أم شكوى أم غير ذلك، فقد وجدناه تنسحب عليه أوصاف النّقد المجتمعي انسحاباً لا يدانيه شك، وقد وصلنا منه ما استقلّ في مقطوعات، أو ضمّن في مطولات، وقد اختلف حجمه باختلاف الأعصر، فإن قلّ في صدر الإسلام فلأسباب أثرت في الشعر عامة، وإن ازدادت وتيرته في العصر العباسي، فلعوامل معينة، ترجع أحياناً لتطورات طرأت على حياة المجتمع في جوانبها المختلفة، وأحياناً آخر تعزى لشخص الشاعر، كما هو الحال في العصر العباسي، وكما هو لدى أبي العلاء المعري، أو دعبل الخزاعي والحطيئة من قبل، فلا شك أن له دواعي ودوافع عديدة تتعلق بحياة المجتمع، وحياة الشعر، وشخصية الشاعر، وعلى أية حال فإن هذا الغرض الشعري، لم يؤدّ رسالته التربوية فحسب، بل رسم ما عليه المجتمع وصوره في السياسة، والاقتصاد، والثقافة، والاجتماع، والأخلاق، وغيرها.

(1) أبو العلاء المعري، ديوان لزوم ما لا يلزم، 516/2.

(2) قراها: ظهرها أو دبرها، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة قرا.

(3) ساورها: قاتلها، بارئها: فارقها أو طلقها، برى: جمع البره: وهو الخلل ينظر: ابن منظور، م.ن، المواد: سور، برأ، برى.

الفصل الثاني - شعر النقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول: دراسة موضوعية.

أولاً- شعر النقد السياسي.

ثانياً- شعر النقد الاقتصادي.

ثالثاً- شعر النقد الاجتماعي.

رابعاً- شعر النقد الثقافي.

خامساً- شعر النقد الديني.

سادساً- شعر النقد العمراني.

سابعاً: شعر نقد متعلقات الإنسان.

أولاً- شعر النقد السياسي

المقصود بالجانب السياسي في مثل هذا المقام أمران: الأول، هو مجموعة الأنظمة والأحكام التي تطبقها الدولة على الناس، وترعى بها شؤونهم في مختلف جوانب الحياة السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، والقضائية، والثاني، هو الأجهزة التي تباشر تطبيق هذه الأنظمة والأحكام، أي الحاكم ومن حوله من معاونين، ومن اقتضاهم الجهاز الإداري من ولاة وعمال وغيرهم، وصولاً إلى أدنى المراتب الإدارية التي لها صلاحيات في القرار أو التنفيذ. ويعدّ الجانب الأول، الذي يسمى النظام السياسي، الركن الأول والأساس في المجتمع، فهو رأس الأمر، وعليه يتوقف صلاح المجتمع وفساده. وبالنظر في الجانب السياسي في العصر المملوكي، نرى أن الأنظمة والأحكام التي كانت الدولة تطبقها لم تخرج عن أحكام الإسلام وأنظمتها، ولكن اعترتها الكثير من الإساءات والانحرافات، التي جلبت الجور والظلم في أحيان كثيرة، وبخاصة فيما يتعلق بالأنظمة المالية.

أمّا شكل الدولة، فعلى الرغم من وجود الخليفة العباسي، وهو رأس الدولة في الإسلام، إلا أنه كان شكلاً شاذاً، إذ لا سلطان لهذا الخليفة -أغلب الأوقات- على باقي أطراف الدولة، وبخاصة الولايات التي تغلب فيها المماليك على الحكم، فقد كانوا هم الحكام الفعليين، ولم يخضعوا له في تنصيب، أو عزل، أو محاسبة، ولم يكن صاحب قرار في سلم أو حرب، ولم يكن له في هذه البلاد سلطان على جيش أو مال. وكلّ ماله هو مباركة ولاية هذا المملوك المتغلب، أو ذلك، الذي هو تنصيب صوري لا أكثر ولا أقل⁽¹⁾.

وقد كان المماليك حريصين على مباركة الخليفة لهم حكماً، كي يضيفوا على أنفسهم شيئاً من الشرعية، وينالوا بها بيعة العلماء والقضاة وطاعة الناس، وهذا ما يفسر استجابة شجرة الدر لاحتجاج الخليفة على توليها الحكم، فخلعت نفسها لزوجها الملك عز الدين أيبك التركماني. والحق أن المماليك لم يكونوا ولاة للخليفة كما كان الأمر في العهود السابقة، وإنما هم سلاطين وأمراء تفرّدوا بالجيش والأموال، حتى إنهم تلقبوا بألقاب توحى بأنهم أصحاب الشأن، منها لقب "الملك".

ولم يكن يضير الأمة آنذاك أن يتولى أمرها هؤلاء المماليك، الأرقاء الذين جلبوا من أقطار شتى، وذلك للأخطار الخارجية التي كانت تحرق بها من الغرب والشرق، والفرجة كانوا يوم أن تغلب المماليك على بني أيوب، ما زالوا يحتلون مدناً وقلاعاً وحصوناً كثيرة وخطيرة في سواحل الشام، وبخاصة ساحل فلسطين، وما زالوا يقاومون الهزيمة التي ألحقها بهم الأيوبيون،

(1) ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، 102/2-124.

ويجهزون الحملات ويسيرونها إلى بلاد الشام ومصر، ومنها هجوم الفرنج بقيادة لويس التاسع^(٢) على دمياط، سنة 647هـ،^(٢) حيث هزموا على يد الملك توران شاه آخر ملوك بني أيوب في مصر.

أما المغول فكانوا يتقدمون من الشرق في زحف مهيب، ليصلوا إلى بغداد عاصمة الخلافة، ويعيشوا فيها فساداً، ومنها أخذوا يزحفون إلى الشام فتساقطت مدنها في أيديهم مدينة تلو الأخرى، ولم يكن حظها من التدمير والخراب أقل من حظ بغداد، إلى أن يلقاهم الملك المظفر سيف الدين قطز، وكان قائد قواته الظاهر بيبرس، في عين جالوت، عام 658هـ^(٣) فيُهزموا هزيمة منكرة، لم تقم لهم بعدها قائمة.

وهكذا عرف عن هؤلاء المماليك شدة البأس، والإقبال على الجهاد في سبيل الله، وذلك للتربية الدينية والعسكرية التي كانوا يتلقونها منذ نعومة أظفارهم، فكانوا بحق درع الأمة أمام الأخطار الخارجية، وعلى الرغم مما وقع منهم من ظلم وتجبر، فلا يستغرب أن نجد شاعراً كالבוصيري^(٤)، عندما يتحدث عن ظلم الجباة والمستخدمين وعمال بيت المال، وخياناتهم وأكلهم أموال هؤلاء المستخدمين، يذكر ببطولات هؤلاء الجنود، وجهادهم للفرنجة والتتار، ودفعهم عن أهل مصر، بل لا يرى الشاعر أحقّ بهذه الأموال منهم، يقول^(٥):

(الوافر)

أمولانا الوزير غفلت عما	يُهمُّ من الكلاب الخائنا
أتطلق جامكيّات لقوم	و تنفقُ فيء قومٍ آخرينا
فلا تهملُ أمورَ الملكِ حتى	يذِلَّ الجنْدُ للمتعمِّينا
ومن قتلَ الفرنجَ أشدَّ قتلٍ	ومن أسرَ الفرنسيّ اللعينا
ومن خاض الهواجِرَ وهو ظامٍ	إلى أن أورث التتارَ المُنونا
ولاقوا الموتَ دونَ حريمِ مصرٍ	وصانوا المالَ منهم والبنينا
ولم تُؤخِّدْ كما أُخِّدَتْ دمشقُ	ولا حُصِرَتْ كَمَيّا فارقينا
وما أحدٌ أحقُّ بأخذِ مالٍ	من الأتراكِ والمتجنِّدنا

(١) هو ملك فرنسا الذي قاد الحملة على مصر عام 647هـ، وهزم جيشه في دمياط، ووقع في الأسر، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 60/9-61؛ المقرئ، السلوك، 455-459؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 56/2-58.

(2) ينظر: المقرئ، م.س، 455/1-456.

(3) ينظر: المقرئ، م.س، 515/1-517.

(4) محمد بن سعيد بن حماد الدلاصي المولد، البوصيري المنشأ، (ت 695هـ)، صاحب البردة. ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 90/3؛ السيوطي، م.س، 464/1؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 113/6.

(5) البوصيري، الديوان، 467-468.

وربما شفع لهم عند الأمة أيضاً صحة عقيدتهم ودينهم، فلم نجد العز بن عبد السلام، يتحقق من أمر قبل مبايعة الظاهر بيبرس، إلا كونه أعتق من عبوديته وغدا حراً، وعلى الرغم من هذا القبول من الأمة إلا أنه لم يخلُ من منتقِدٍ لوجود هؤلاء المماليك في الحكم، فهذا الشاعر ابن الوردي⁽¹⁾ يرى أن توليهم أمر المسلمين، أو أحرار العرب، عقوبة من الله، لذنوب اقترفتها الأمة، يقول⁽²⁾:

تعالى الله عن جورٍ وظلمٍ وجلَّ عن العقابِ بغيرِ ذنبٍ
فما عبثاً رأيتُ عبيداً تركٍ مُملَكَةً على أحرارٍ عُربٍ

ويكشف ابن الوردي أن هناك من يشكو دولة الترك هذه، أي المماليك، ويطلب منه أن يكفَّ عن هذه الشكوى، ويدعوه إلى الصبر والثبات، ويقرُّ ضمناً أنهم ظلمة، ولكنهم في ظلمهم لم يبلغوا معشار ما جاء به الحجاج بن يوسف النخعي، يقول⁽³⁾:

(السريع)

يا شاكياً من دولة التركِ مَهْ اثبتْ ثبوتَ الجبلِ الراسي
ما تفعلُ التركُ كمعشارٍ ما قدَّ فعلَ الحجاجُ بالنَّاسِ

ويرى ابن الوردي أنه لا يعرف فضل الترك إلا من عرف جور المغول، فهم ملح البلاد، ويشير هنا إلى تصديهم للهجمة المغولية، فجورهم أهون من فقدهم، وفقدهم لا يأتي إلا بتسلط المغول على هذه الأمة، يقول⁽⁴⁾:

(السريع)

الترك ملحُ الأرضِ في عصرنا والفلَكُ الدائرُ في سعدهم
تعرفُ من يعرفُ مقدارهم من ذاقَ جورَ المغلِ من بعدهم
اللهُ لا يوحشُ من أنسهم فجورهم أهونُ من فقدهم

وقد تناولنا في هذا الجانب عدة ظواهر سياسية، رصدها الشعراء في شعرهم، وتناولوها بالنقد والاحتجاج، منها: صراع المماليك على الحكم، وسياساتهم الجائرة، وسلوكهم الفاسد، وتحصيل المناصب بالرشوة، والظلم والتسلط على أموال النَّاسِ وأنفسهم، والتقصير في رعاية شؤون النَّاسِ وبخاصة في جانبها الأمني، والخارجون على الدولة، والمتواطئون مع الأعداء، وبعض الوظائف التي لحقها الفساد، وقد درست هذه القضايا على النحو الآتي:

(1) هو عمر بن المظفر بن الوردي زين الدين، توفي بالطاعون المشهور عام 749هـ، نشأ في حلب، وكان فقيهاً وتولى القضاء مرات عدة، ينظر: المقرئ، السلوك، 97/4؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 274-272/3؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 344-343/6.

(2) ابن الوردي، الديوان: 403.

(3) ابن الوردي، م.ن: 411.

(4) ابن الوردي، م.ن، 334.

١ صراع المماليك على الحكم

أول ظاهرة سياسية، وقف عندها الشعراء، وانتقدوها، هي كثرة الانقلابات والمؤامرات التي تودي بحاكم أو والٍ وتأتي بحاكم أو والٍ آخر، يقول ابن الوردي في تتابع هذه الانقلابات، مشبهاً تصرف الأقدار فيهم، بتصرف قاض خائن في أموال اليتامى، يقول⁽¹⁾: (الوافر)

عجائبُ عامِنَا عَظُمَتْ وَجَلَّتْ أَعَاماً كَانَ أُم مَائَتِينَ عَامَا
تَصُولُ عَلَى الْمَلُوكِ صِيَالٍ قَاضٍ قَلِيلِ الدِّينِ فِي مَالِ الْيَتَامَى

يرى الشاعر هذا العام وكأنه مئتا عام في كثرة تبدل حكامه.

ويقول ابن الوردي أيضاً⁽²⁾: (المجتث)

هَذِي أُمُورٌ عَظَامٌ مِنْ بَعْضِهَا الْقَلْبُ ذَائِبٌ
مَا حَالُ قُطْرٍ يَلِيهِ فِي كُلِّ شَهْرَيْنِ نَائِبٌ

ويبدو من هاتين المقطوعتين أنّ هذه التقلبات في الحكام ونوابهم كانت تترك آثاراً سيئة على أحوال الناس وحياتهم، وكان الناس يكفون بتزيين الأسواق بحلب لاستقبال النواب، أو احتفاء بالملوك الجدد، فتكرر هذا الأمر لكثرة تجدد النواب والملوك، حتى ملّ منه الناس، يقول ابن الوردي⁽³⁾: (السريع)

كَمْ مَلِكٍ جَاءَ وَكَمْ نَائِبٍ يَا زِينَةَ الْأَسْوَاقِ حَتَّى مَتَى
قَدْ كَرَّرُوا الزِينَةَ حَتَّى اللَّحَى مَا بَقِيَتْ تَلْحَقُ أَنْ تَنْبُتَا

ومن الأمور التي انتقدها الشعراء في مثل هذه التقلبات تولي الملك الأشرف ولي الدين كجك الحكم سنة 742هـ⁽⁴⁾، ولم يبلغ من العمر خمس سنين، فقال ابن الوردي، مستنكراً الخلاف على الحكم، وتولية هذا الطفل، ومتسائلاً لمن يرفع المظلوم مظلّمته، وكيف يبلغ حقّه والسلطان لم يبلغ الحلم بعد؟!⁽⁵⁾ (البسيط)

سُلْطَانُنَا الْيَوْمَ طِفْلٌ وَالْأَكَابِرُ فِي خُلْفٍ، وَبَيْنَهُمُ الشَّيْطَانُ قَدْ نَزَعَا
فَكَيْفَ يَطْمَعُ مِنْ تَعْشَاهُ مَظْلَمَةٌ أَنْ يَبْلُغَ السُّؤْلَ وَالسُّلْطَانَ مَا بَلِغَا

وقد رصد الشعراء ظاهرة التقلبات في الحكم، وأبدوا الشماتة فيمن راحَ ضحيتها من الحكام

(1) ابن الوردي، الديوان، 500.

(2) ابن الوردي، م.ن، 482.

(3) ابن الوردي، م.ن، 485.

(4) هو ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، نصب ملكاً وعمره خمس سنين عام 742، وبعد خمسة أشهر خلع على يد أخيه أحمد بن الناصر، (ت 746هـ). ينظر: المقرئ، السلوك، 338/3-339؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 19/10-40؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 119/2.

(5) ابن الوردي، م.س، ص 222.

والأمراء والظلمة، ومن هذا أنه لما ظفر قازان ⁽¹⁾ سنة 699هـ، وسيطر على دمشق واستتاب عليها، ثم عاد إليها سنة 702هـ، فتصدى له المماليك، فهزموه، فقال الشاعر نجم الدين القحفازي ⁽²⁾ في هذه الحادثة مشبهاً هزيمته بانكسار القدر، وقازان في لغة الترك اسم للقدر ⁽³⁾:

(الرجز)

لَمَّا غَدَا قَازَانُ فَخَارًا بِمَا قَد نَالَ بِالْأَمْسِ وَأَغْرَاهِ الْبَطْرُ
جَاء يُرْجِي مِثْلَهَا ثَانِيَةً فَانْقَلَبَ الدَّسْتُ ⁽⁴⁾ عَلَيْهِ فَاَنْكَسَرُ

ومن هذا القبيل أيضاً ما قاله الشاعر الشَّارمَسَاحِي ⁽⁵⁾ في الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري ⁽⁶⁾، الذي انقلب على الملك الناصر قلاوون سنة 708هـ، مستغلاً خروجه لأداء فريضة الحج، وقد تحالف مع بيبرس الشيخان زين الدين بن المرحل ⁽⁷⁾، وشمس الدين بن عدلان ⁽⁸⁾، حيث أشارا عليه أن يطلب عهداً بالتنصيب من الخليفة ففعل، ولما عاد الملك الناصر هرب ركن الدين، بعد أن نهب خزائن الدولة، ولكن ألقى القبض عليه فقتله الناصر خنقاً، يقول الشَّارمَسَاحِي ⁽⁹⁾:

(البيسط)

وَلَى الْمُظْفَرُ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفْرُ وَنَاصِرُ الْحَقِّ وَافِي وَهُوَ مُنْتَصِرُ
وَقَدْ طَوَى اللَّهُ مِنْ بَيْنِ الْوَرَى فِتْنًا كَادَتْ عَلَى عَصْبَةِ الْإِسْلَامِ تَنْتَشِرُ
فَقَلَّ لِبَيْبَرِسٍ إِنَّ الدَّهْرَ أَلْبَسَهُ أَثْوَابَ عَارِيَةٍ فِي طَوْلِهَا قَصْرُ

(1) هو قازان أو غازان أحد قادة المغول، احتل دمشق 699هـ، واستتاب عليها قتلوا شاه، ولما عاد عام 702هـ، تصدى له المماليك فهزموه. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 247/9، 267، 269؛ المقرئ، السلوك، 317/4-359؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 494-292/3.

(2) هو علي بن داود بن يحيى، نجم الدين القحفازي الدمشقي، (ت 745هـ)، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 91/2؛ ابن كثير، م.س، 470/9؛ العسقلاني، م.س، 218-216/3.

(3) م.ن، 118/3.

(4) الدست: تستخدمه العامة لقدر النحاس، وعبرة انقلب عليه الدست تعني: غلب، وتأتي بمعنى الحيلة، وبمعنى الوزارة، ينظر: سعدي ضناوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص251.

(5) هو أحمد بن عبد الدايم شهاب الدين الشارمَسَاحِي، أبو يوسف الشاعر، (ت 720هـ)، كان مشهوراً بالهجاء، ينظر: الكتبي، م.س، 131/1؛ العسقلاني، م.س، 174-171/1؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/9.

(6) هو ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الجاشنكير، من مماليك الملك المنصور، انقلب على الملك الناصر بعد خروجه للحج عام 708هـ، ولما عاد الملك الناصر قبض عليه وخنقه بيده عام 709هـ. ينظر: ابن كثير، م.س، 299-295/9؛ المقرئ، م.س، 427-423/2؛ ابن تغري بردي، م.س، 221-183/8.

(7) هو صدر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن مكي الشافعي العثماني، (ت 716هـ). ينظر: العسقلاني، م.س، 241-234/4. السيوطي، حسن المحاضرة، 359/1؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 164/6.

(8) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم، شيخ الشافعية، (ت 749هـ). ينظر: العسقلاني، م.س، 424-423/4؛ السيوطي، م.س، 359/1؛ ابن العماد، م.س، 164/6.

(9) ينظر: العسقلاني، م.س، 174/1.

لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الْخَيْرُ عَنْ أُمَّمِ لَمْ يَحْمَدُوا أَمْرَهُ فِيهَا وَلَا شَكَرُوا
 وَكَيْفَ تَمْشِي بِهِ الْأَحْوَالُ فِي زَمَنِ لَا النَّيْلُ أَوْفَى، وَلَا وَا فَاهُمْ قَطْرُ
 وَمَنْ يَقُومُ ابْنُ عَدْلَانَ بِنَصْرَتِهِ وَابْنُ الْمَرْحَلِ قَلُّ لِي: كَيْفَ يَنْتَصِرُ؟

ومن هذا أيضاً أَنَّ السلطان الملك الناصر قبض على النَّشو⁽¹⁾، وقد كان استخدمه مستوفياً عام 732هـ، ثم تسلم عام 739 الحاصلات السلطانية، وقد عرف عنه الظلم والتعسف بالرعيه، يقول المقرئزي: " وفيها (أي سنة 739)، كثرت مصادرة النَّشو للنَّاس من أهل مصر والقاهرة، والوجه القبلي والوجه البحري، حتى خرج ذلك عن الحد، وادغر النَّاس على اختلاف طبقاتهم"⁽²⁾، فقبض عليه السلطان، عام 740هـ، ورفعت إلى السلطان عدة أوراق، لم يُعرف كاتبها، كان في إحداها⁽³⁾؛

(السريع)

أَمَعَنْتَ فِي الظُّلْمِ وَأَكْثَرْتَهُ وَزِدْتَ يَا نِشُو عَلَى الْعَالَمِ
 تُرَى مِنَ الظَّالِمِ فَيَكْمُ لَنَا فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِ

وأُعدِم النَّشو ودفن في مقابر اليهود، وقال الشيخ كمال الدين جعفر الأدفوي في يوم الاثنين، يوم القبض على هذا الظالم⁽⁴⁾:

(الخفيف)

إِنَّ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ يَوْمٌ سَعِيدٌ فِيهِ لَا شَكَّ لِلْبَرِيَّةِ عِيدٌ
 أَخَذَ اللَّهُ فِيهِ فِرْعَوْنَ مِصْرَ وَغَدَا النَّيْلُ فِي رِيَاهِ يَزِيدُ

فعدَّ الأدفوي يوم الاثنين هذا يوم عيد للنَّاس، وبخاصة أن مقتل هذا الطاغية اقتزن بزيادة مياه نهر النيل.

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ⁽⁵⁾، في القبض على النَّشو، والإفراج عن موسى ابن التاج، الذي كان محبوساً، وفي زيادة النيل⁽⁶⁾:

(1) هو عيد الوهاب بن فضل الله الكاتب شرف الدين النَّشو القبطي، عينه الملك الناصر مستوفياً ثم ترقى إلى أن وصل إلى ولاية نظر الخاص، فبغى على النَّاس وظلم، فقبض عليه وقتل عام 740هـ. ينظر: المقرئزي، السلوك، 3/268-270؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/42-44؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/302.

(2) المقرئزي، م.س، 3/359. وادغر: من الدغر وهو الغصة، والضعط، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة دغر.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 9/101.

(4) ابن تغري بردي، م.ن، 9/104. والشاعر هو جعفر بن ثعلب كمال الدين أبو الفضل الأدفوي، (ت 748هـ)، كان يسمى وعد الله، له مصنفات في الأدب والتاريخ، له نظم ونثر حسن، ينظر: ابن حجر العسقلاني، م.س، 2/72-73؛ ابن تغري بردي، م.س، 187/10؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 1/454.

(5) هو محمد بن عبد الرحمن بن علي الزمردى، شمس الدين الصائغ النحوي (ت 776هـ)، اشتغل بالعلم وبرع في اللغة والفقه وله مولفات كثيرة، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 3/200-201؛ العسقلاني، م.س، 4/119-120؛ الزركلي، الأعلام، 6/192.

(6) ابن تغري بردي، م.س، 9/104.

(الطويل)

لقد ظهرت في يوم الاثنين آيةً
تزايد بحر النيل فيه وأغرقت
أزالت بُعماها عن العالم البوسا
به آل فرعون وفيه نجا موسى

(1) ويقول شهاب الدين بن فضل الله كاتب السر:

(البيسط)

في يوم الاثنين ثاني الشهر من صفرٍ
الفلكا
نادى البشيرُ إلى أن أسمع
يا أهل مصر نجا موسى ونيلكم
طغا وفرعون وهو النشو قد هلكا

وفي عام 742هـ، سُمِّرَ قَوَّصون وليّ الدولة صهر النشو على جمل وشهّر به، وفرح
الناس بذلك فرحاً شديداً، لأنّه كان ممن بقى من حواشي النشو وأصهاره، فقال إبراهيم المعمار⁽²⁾؛

(مخلع البيسط)

قد أخلف النشو صهرُ سوءٍ قبيحٍ فعلٍ كما تروه
أراد للشرّ فتحَ بابٍ فأغلقوه وسَمَّروه

وفي عام 748 قتل المماليك السلطان المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون⁽³⁾، فقال فيه

صلاح الدين الصفدي⁽⁴⁾؛

أيّها العاقلُ اللبيبُ تفكّرْ في المليكِ المظفرِ الضرغامِ
كم تمادى في البغي والغيّ حتى كان لعبُ الحَمَامِ جدَّ الحِمَامِ

فمقتله موضع تفكّر واعتبار، إذ لم يكن يُتصور أن يقتل هذا الضرغام المتجبر بهذه
السهولة، ثم يذكر الشاعر بقتله للأمراء وإزهاقه للنفوس البريئة ظلماً، ويعدّها ذنباً لا تكفّر⁽⁵⁾؛

(المجتث)

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 104/9. والشاعر هو احمد بن محيي الدين بن فضل الله العمري، توفي بالطاعون عام 749هـ في دمشق، برع في التاريخ والانشاء، وقال الشعر الجيد، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 485/9؛ المقرئ، السلوك، 94/4؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 465/1.

(2) ابن تغري بردي، م.س، 21/10. والشاعر هو ابراهيم بن علي بن ابراهيم مات بحلب بالطاعون عام 749هـ، وله الشعر الحسن، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 106/1؛ المقرئ، م.س، 93/4؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 43/1.

(3) هو السلطان المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون، عرف عنه البغي واللهو، قتل سنة 748هـ، ينظر: ابن كثير، م.س، 48/9؛ ابن تغري بردي، م.س، 118/1؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 334/6-335.

(4) ابن تغري بردي، م.س، 139/10..

(5) ابن تغري بردي، م.س، 139/10.

حان الردى للمظفر وفي التراب تعفر
كم قد أباد أميراً على المعالي توفّر
وقاتل النفس ظلماً ذنوبه ما تكفر

وخرج ببيغا⁽¹⁾ على السلطان، فاعتقل وقتل في قلعة حلب سنة 754هـ، وفي هذا يقول
عبد الرحمن بن الخضر السنجاري الحلبي
(الطويل)

بغى ببيغا بغى الممالك عنوة وما كان في الأمر المراد مؤفقا
أغار على الشقراء في قيد جهله لكي يركب الشهباء في الملك قطعا
فلما علا في ظهرها كان راكباً على أدهم، لكنه كان مؤثقا
فهذا مملوك ابتغى الوصول إلى حكم حلب بالسيف، ولكنه لم يوفق، فوقع في القيد،
وسمّر على فرسه الشقراء، فالشقراء فرسه، والشهباء حلب، والأدهم يطلق على الحصان ويطلق
على القيد.

ويقول ابن العطار⁽³⁾ في أئنيك⁽⁴⁾، الذي ألقى القبض عليه وسجن في الإسكندرية ومات
في السجن 780هـ⁽⁵⁾؛
(المنسرح)

من بعد عزّ قد ذلّ أئنيكا وانحطّ بعد السموّ من فتكا
وراح يبكي الدماء منفردا والناس لا يعرفون أين بكى
ويقول ابن العطار أيضاً في الأمير إينال⁽⁶⁾، الذي قبض عليه إثر مؤامرة للإطاحة
بالأمير برقوق⁽⁷⁾، وسجن بالإسكندرية عام 781هـ⁽⁸⁾؛
(الوافر)

(1) هو ببيغا أرس القاسمي، من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولي السلطنة بمصر، ثم نيابة حلب، وشدّد على من يشرب الخمر، وظلم، وخرج على طاعة السلطان فقتل سنة 754هـ. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 503-500/9؛ المقرئ، السلوك، 188/4؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 230-229/1.

(2) ابن تغري بردي، م.س، 222/10. والشاعر هو عبد الرحمن بن الخضر بن عثمان السنجاري الحلبي، (ت 744هـ)، كاتب الإنشاء بحلب، له النظم والنثر، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 124/23؛ المقرئ، م.س، 181/2؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 436-435/2.

(3) هو أحمد بن محمد بن علي الدنيسري، شهاب الدين ابن العطار الأديب، (ت 794هـ)، تولع بالأدب ونظم الشعر، ينظر: العسقلاني، م.س، 308-306/1؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 466/1؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 333/6.

(4) هو أئنيك البدري، متولي النظر في البيمارستان عام 779، ثم نائب السلطان بالديار المصرية، تسلط على الملك المنصور وحكم بما أراد، قبض عليه وسجن بالإسكندرية وقتل في السجن. ينظر: المقرئ، م.س، 34-30/5؛ ابن تغري بردي، م.س، 153/11.

(5) ابن تغري بردي، م.س، 128/11.

(6) هو إينال اليوسفي، أمير سلاح ركوب برقوق في الإسطنبول السلطاني، حاول الانقلاب على برقوق عام 781هـ، سجنه برقوق في الإسكندرية. ينظر: المقرئ، م.س، 72-71/5؛ العسقلاني، م.س، 462/1؛ ابن تغري بردي، م.س، 138/11.

(7) هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق الجركسي العثماني، القائم بدولة الجراكسة، كان اسمه أطنبغا، فسمي برقوق لنتوء عينه، تولى الحكم سنة 784هـ، ثم عزل عام 791هـ، ثم عاد إلى السلطنة عام 792هـ، (ت 801هـ). ينظر: المقرئ، م.س، 142-141/5؛ ابن تغري بردي، م.س، 181/11؛ السيوطي، م.س، 123-122/2.

(8) ينظر: ابن تغري بردي، م.س، 138/11.

بغى إينال واعتقد الأمانى
تساعده فما نال المؤمل
ومد لأخذ برقوق يديه
ولم يعلم بأن الخوخ أسفل

ويرى الشاعر ابن العطار ظاهرة الانقلابات هذه سنة في كل من ظلم وبغى، لذا نجده
يتوعد أمير المماليك الأشرفية طشتمُر (1) بهذا المصير إن طغى، فيقول (2):

(مجزوء الكامل)

إن كان طشتمُر طغى
وأتى بحربٍ مُسرِعُ
وبغى سيؤخذُ عاجلاً
ولكلِّ باغٍ مصرعُ

وقد كان النَّاسُ يتبرِّمون بمثل هذه الحال ويضيِّقون بها ذرعاً، لأنَّ مصالحهم تتعطل بها،
وحياتهم تتوقف، يقول طاهر بن حبيب (3) في فتنة حصلت سنة 782هـ بقيادة الأمير بركة انتهت
بالقبض عليه من قِبَل الأمير برقوق (4):

(مجزوء الرجز)

يا لومها من حالةٍ
وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنةٍ
فيها زوالُ بركة

وقد كان الشعراء، في بعض الأحيان، يعبرون عن امتعاضهم بصورة فيها شيء من
الاستهزاء والفكاهة، يقول ابن العطار في ابن عزام (5) الذي سمّر على جمل ثم قطع بالسيوف
عام 783هـ، وذلك لقتله الأمير بركة: (6)

(البسيط)

أيا بنَ عزامٍ قد سُمِّرتَ مشتهراً
وصار ذلك مكتوباً ومحسوباً
مازلت تجهدُ في التاريخِ تكتبه
حتى رأيناك في التاريخِ مكتوباً

(1) هو طشتمر العلاني الدوادار، (ت 784هـ)، قاد المماليك الأشرفية ضد الملك الأشرف، قاتله المصريون فهزموه، وألقي القبض عليه، وحبس بالقلعة سنة 778هـ. ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 321/2؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 63/11-74. (2) ابن تغري بردي، م.س، 63/11. (3) هو الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب، (ت 779هـ)، له مؤلفات منها درة الأسلاك في درة الأتراك، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 122/12-125؛ المقرئ، السلوك، 42/5؛ العسقلاني، م.س، 113/115. (4) ابن تغري بردي، م.س، 138/11. (5) هو صلاح الدين خليل بن أحمد بن عزام، نائب الإسكندرية، اتهم بقتل الأمير بركة في سجنه، فقتل عام 782هـ. ينظر: ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، 560/5؛ المقرئ، م.س، 91/5-92-99؛ ابن تغري بردي، م.س، 150/11-151. (6) ابن تغري بردي، م.س، 151/11. وهو بركة الجوياني، ناظر الأوقاف الحكومية، اختلف مع الأمير برقوق، فقبض عليه وسجنه في الإسكندرية، وهناك قتله خليل بن عزام. ينظر: ابن خلدون، م.س، 560/5-585؛ المقرئ، م.س، ص 81-84؛ ابن تغري بردي، م.س، 135/11-150.

ويقول فيه أيضاً⁽¹⁾:
بدأت أجزاء ابن عزام خليل
وأبدت أبحر الشعر المراثي
مقطعةً من الضرب الثقيل
محررةً بتقطيع الخليل
(الوافر)

٢ السياسات الجائرة، والسلوك الفاسد

كان لسياسات الحكام وإجراءاتهم، بل وسلوكهم أيضاً حظٌ كبير من النقد السياسي، فمنها أن السلطان الظاهر بيبرس أمر عام 667هـ، بإقامة الخمر، ومعاينة من يشربها، فألقي القبض على كاتب يقال له ابن الكازروني⁽²⁾ وهو سكران، فصلب، وفي عنقه جرة خمر، فاننقد هذا الحكم ابن دانيال⁽³⁾، وذلك لمخالفته حدّ الشرب في الإسلام، وهو الجلد، إذ لا يصل إلى حدّ القتل، يقول⁽⁴⁾:

(الطويل)

وقد كان حدُّ السكر من قبل صلبه
فلما بدا المصلوبُ قلتُ لصاحبي
خفيفَ الأذى إذ كان في شرعنا جلدًا
ألا تُب فإنّ الحدَّ قد جاوز الحدًّا

ويقول ابن حبيب في منع ببيغا رأس للخمر في حلب ومعاينته من يشربها، في شيء من السخرية منتقدًا تجاوز العقوبة التي جاء بها الشرع، وأخذ الناس بالشبهة⁽⁵⁾:

(الرجز)

أهل الطِّلا توبوا وكلُّ منكم
فمن بيتِ راووقه معلقًا
يعودُ عن ساقِ التقي مُسمراً⁽⁶⁾
أصبح ما بين الوري مُسمراً⁽⁷⁾

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 151/11.

(2) ابن كازروني: لم أعثر له على ترجمة.

(3) هو محمد بن دانيال بن يوسف الموصلّي الحكيم، (ت 710هـ)، من كبار شعراء عصره، وواضع كتاب "طيف الخيال"، كان يعمل كحالا، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 316/2-317؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 4/54-56؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/168.

(4) صلاح الدين الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 105.

(5) ابن تغري بردي، م.س، 229/10.

(6) أهل الطلا: أهل اللهب والطرب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة طلي.

(7) راووقه: المصفاة، أو الباطية التي يروق بها الشراب ليُصقى، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة روق.

وفي هذا يقول القاضي شرف الدين حسين بن زيان⁽⁸⁾، منتقداً التسمير هذا⁽⁹⁾:

(مجزوء الخفيف)

تُبُّ عن الخمرِ في حَلْبٍ والنزِمِ العقلَ والأدبِ
حدُّها عند بيبغا بالمساميرِ والخشبِ

ويروي ابن تغري بردي أنَّ السلطان حسن بن محمد بن قلاوون⁽¹⁾، كان محباً للنساء، فقال بعضهم فيه شعراً، معللاً زوال ملكه بإنتشغاله بالنساء⁽²⁾:

(الكامل)

لما أتى للعادياتِ وزلزلت حفظُ النساءِ وما قرأ للواقعه
فلأجلِ ذاكِ الملكِ أضحي لم يكن وأتى القتالَ وفُصِّلتْ بالقارعه
لو عاملَ الرحمنَ فازَ بكهفه وبنصره في عصره في السابعة
من كانت القيناتُ من أحزابه عطَّطُ به الدُّخانَ ناراً لامعه⁽³⁾
تبت يدا، من لا يخافُ من الدعا في الليلِ إذ يغشى يقَعُ في النازعه
فهذا حاكم تولَّى الحكم فانشغل بالنساء، والسهر مع القيان، ولم يكن ذا دين، فلم يستطع حفظ ملكه.

يقول مجير الدين بن تميم⁽⁴⁾، في معاودة الملك المنصور محمد بن محمود بن أيوب⁽⁵⁾، صاحب حماة المتوفى 683هـ، لشرب الخمر بعد أن تاب⁽⁶⁾:

(الكامل)

إنْ كان راووقُ المدامةِ عندما تاب الأميرُ بكى بدمعِ قانٍ
فاليومَ ينشدُ وهو يبكي عندما شرب المدامةَ من يدِ السلطان
يا عينُ صارَ الدمعُ عندك عادةً تبكين في فرحٍ وفي أحزانٍ

(8) هو الحسين بن سليمان بن زيان، (ت 770هـ)، موقع الإنشاء بحلب، وله قصيدة زهر الربيع في البديع، بلغت سبعمائة بيت، ينظر: الصفي، م.س، 234-228/12؛ العسقلاني، م.س، 142/2؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين، 4/11.

(9) ابن تغري بردي، م.س، 229/10.

(1) هو السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، (ت 762هـ)، ولي السلطنة بعد أخيه المظفر سنة 748هـ. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 532-480/9؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 125-124/2؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 121/2.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 247/10.

(3) عطط: تتابع الأصوات، وهو أيضاً حكاية أصوات المُجان، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة عطط.

(4) هو محمد بن يعقوب، مجير الدين بن تميم الحموي الدمشقي الأمير، (ت 684هـ)، كان شاعراً مجيداً، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 448/2؛ ابن كثير، م.س، 194/9؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 50/6.

(5) هو محمد بن محمود بن أيوب، تملك حماة سنة 642هـ، (ت 683هـ)، ينظر: ابن كثير، م.س، 192/9. المقرئ، السلوك، 186/2. الزركلي، الأعلام، 87/7.

(6) مجير الدين ابن تميم، الديوان، 123.

ويقول ابن دانيال متهمًا بخير الدين بُهاطن⁽⁷⁾، وقد تولى ضواحي القاهرة⁽⁸⁾:

(البيسط)

إن البلاد التي أصبحتَ واليها أضحتْ ولاجئَةُ المأوى ضواحيها
وعمَّرتْ منك بالعدلِ العميمِ إلى أن طابَ حاضرها سُكنى وباديها
من بعدما أصبحتَ طيرُ الخرابِ بها على أسافلِها تبكي أعاليها
فأنت كالبانِ أعطافاً مُرَّحةً لمن تُشَبِّهُ لن أَرْضَى تشايبِها
فإنَّها كالتِي أنشدتها طرباً صدورها عُلِّمت منها قوافيها

فهذا والٍ لا يصلح لمثل هذا المنصب، فهو أشبه ما يكون بالنساء في ترنح أعطافه وليونته، وسيكون خراب القاهرة على يديه.

وكثيراً ما كان الشعراء يرمون الولاة والحكام بالجهل، يقول ابن النقيب الفقيسي⁽¹⁾ في أحد الوزراء⁽²⁾؛

(الخفيف)

أبلمَ قَلَدُوهُ أمرَ الرعايا وهو في حليةِ الوزارةِ عَطُلُ
فهو بالبوقِ في الوزارةِ طَبِلُ وهو في الدَّستِ حينَ يجلسُ سَطِلُ

ويقول في ناظر، واصفاً إياه بالجهل في مهمته، بل هو جاهل في الدين أيضاً، إذ لا يجيد المسح على أطرافه، ولا يجيد إلا التزيين والنظر إلى أعطافه⁽³⁾:

(الكامل)

قالوا فلانٌ ناظرٌ فأجبتُ ما هو ناظرٌ إلا إلى أعطافِ
لم يدرِ مَسَحِ الأَرْضِ، قلتُ أزيدُكم أخرى: ولا مسحَ على أطرافِ
ونقف مع البوصيري على عامل الشرقية، واسمه ابن عمران⁽⁴⁾، إذ جاء على ذكره ونقده نقداً موجعاً، يعرض به مرةً تعريضاً مباشراً، وأخرى يستنطق فيها بغلته، التي تكشف ما يخفى على النَّاس من عيوبه، في أسلوب ظريف مضحك، كلُّ هذا في قصيدة طويلة بلغت سبعة وسبعين بيتاً، نظمها في مدح بهاء الدين بن الصاحب، افتتحها بالحنين لبلييس، المدينة التي

(7) لم أعثر له على ترجمة.

(8) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال ص 95 - 96.

(1) هو الحسن بن شاور بن طرخان، ناصر الدين بن النقيب، المعروف بالفقيسي، (ت 687هـ)، وهو شاعر مشهور، ينظر: الكتبي،

فوات الوفيات، 1/315-320؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 1/464؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/63-64.

(2) الكتبي، م.س، 1/316.

(3) الكتبي، م.س، 1/316.

(4) لم أعثر له على ترجمة.

كان يعمل فيها مستخدماً في الدواوين، وما حولها من قرى، وهي أشبه ما تكون بالمقدمة الطلّية عند القدماء، فابن عمران هذا الناظر الجديد، الذي عزل البوصيري من وظيفته، إنسان شرير يؤذي الناس في السر والعلن، وما حسن ذكره عند الأمير إلا سوء أفعاله، ولا يمدحه الشاعر بقدر ما يهجوّه، وليس له سبق على الشاعر يقدّمه سوى أنّ له بغلة، والشاعر لا يملك حمارة، وصوتاً يدويّ في الدواوين، بلا جدوى، كأنه كأس يرتطم بالأرض، وهو سيء الخلق، له نفس ظلومة كفارة، وهو سيء الخلق مع النساء، لم تهذبه ما يوجهن له من إهانات، ولم يؤدبه ابن يغمور حين ضربه بالدرة فكساه درعاً من الدم، حتى بدا رأسه في حمرة الجلتار، يقول الشاعر⁽¹⁾:

(الخفيف)

وَابنِ عِمْرَانَ وَهُوَ شَرُّ مَتَاعِ	لِلوَرَى فِي بَطَانَةٍ وَظَهَارِهِ
حَسَنَ الْقُرْبِ مِنْكُمْ قُبْحَ ذِكْرًا	هُ كَتَحْسِينَ الْمَسْكِ ذِكْرًا لِفَارِهِ ⁽²⁾
فَهُوَ فِي الْمَدْحِ قَطْرَةٌ مِنْ سَحَابِي	وَهُوَ فِي الْهَجْوِ مِنْ زِنَادِي شِرَارِهِ
مَا لَهُ مِيزَةٌ عَلَيَّ سِوَى أَنْ	نَ لَهُ بَغْلَةٌ وَمَالِي حِمَارِهِ
وَعِيَاظُ تُدَوِّي الدَّوَاوِينَ مِنْهُ	لَا بِمَعْنَى كَأَنَّهُ طِنْجِهَارِهِ ⁽³⁾
يَتَجَنَّى بِسُوءِ خُلُقِي عَلَى النَّاسِ	سِ وَنَفْسِ ظُلُومَةِ كِفَارِهِ
لَمْ تَهْذِبْهُ كُلُّ قَاصِرَةِ الطَّرِ	فِ أَجَادَتٍ بِأَخْذِعِيهِ الْقِصَارِهِ
وَابنِ يَغْمُورٍ إِذْ كَسَاهُ مِنَ الدَّرِّ	رَةً دِرْعًا كَأَنَّهُ غَفَّارِهِ ⁽⁴⁾
طَبَعَتْ رَأْسَهُ دِمَاءً وَبِسَاطِي	جِلْدَةً أَوْ حَسْبَتَهُ جُلْتَارِهِ
وَسَلِيمَانَ كُلَّمَا قَرَعَ الْقُرَّ	عَةً طَنَّتْ كَأَنَّهُا نَقَّارِهِ
وَقَعَاتٍ تَنْسِي الْمَوْرِخَ مَا	كَانَ مِنْ سُنْبُسٍ وَمِنْ زُنَّارِهِ ⁽⁵⁾

(1) البوصيري، الديوان، 212-214.

(2) الفاره: وعاء المسك، (نافجة المسك) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: فأر.

(3) عياظ: الجلبة وصياح الأشر، ينظر: ابن منظور، م، ن، مادة عيط. طنجهاره أو طرجهاره: شبه كأس يشرب بها، وهي فارسية،

ينظر: سعدي ضناوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص 334.

(4) غفارة بكسر الغين، خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قيل منه وما دبر غير وسط رأسها، ينظر: ابن منظور، م، س، مادة غفر.

(5) أسماء مواقع في مصر. لم أعثر لها على تعريف.

ثم يأتي الشاعر على ذكر حادثة حلت بابين عمران في ساحل الشيخ (6)، حيث أوقعته بخلته، ويوجه من يجهلها إلى سؤال البحارة الذين شهدوا تلك الحادثة، حيث ينطلق في محاوره بخلته، التي كشفت حبه للمال، حتى إنه ليتاجر بزوجته في سبيل تحصيله، وتتفي عنه صلاحيته لتولي أمر الدواوين، ويتهمها الشاعر بالغيرة عليه، فتتفي عن نفسها الغيرة على شيخ خصي لا همّة له، وتكشف بخله عليها، حتى إنها لتشتهي كفّ تبّ أو قطف نؤارة، رغم أن طعامها رخيص، بل إنه عليه أرخص من أموال المواريث التي تلاعب بها ابن جباره، وتشكو هذه البغلة من كثرة طوافه عليها في بلبس وقراها، ثم تأخذ في تعداد مناقبها وحسن متنها، وقد جلب لها بفاؤها عنده العار بين البغال، وتقول بأنها أنذرتة من قبل، فلم ينفعه الإنذار لجهله، يقول الشاعر (1):

(الخفيف)

إن جهلتم ما حلّ في ساحل الشيخ	خ من الصّفح فاسألوا البحّاره
قالت البغلة التي أوقعته:	أنا مالي على الغبون مراره
إنّ هذا الشيخ له بجواريه	ه مع النّاس كلّ يوم صهاره
قلت : لا تفتري على الشاعر الف	قيه، قالت: سلّ الفقيه عماره
لو أتاه في عرسه شطر فلّس	لرأى البيع رجلة وشطّاره
قلت: هذا شادّ الدواوين! قالت:	ما أولي هذا على الخرّاره (2)
قلت: ذي غيرة الأبيّة ألاّ	تشتهي أن تفارق الأبّاره؟ (3)
قالت : اقوى، وكيف أُعير مني	عند شيخ كلّ بغير زياره؟ (4)
قلت: ماتكرهين منه؟ فقالت	أيّ بخل فيه وأيّ قتاره؟
أنا في البيت أشتهي كفّ تبّ	ومن الفرط أشتهي نؤاره
وعليقي عليه أرخص من ما	ل المواريث في شرا ابن جباره
سرق النّصف واشترى النّصف بالنّص	ف وأفتى بأنّ هذا تجاره
لا تلوموا إذا وقعت من الجو	ع فإني من الخوى خوّاره
ما كفاه من الطّواف بلبس	س إلى أن يطوف بي السياره
آه من ضيغتي وشيبي ومالي	في حُجورٍ أختّ ولا في مهاره (5)

(6) ساحل الشيخ: موقع في مصر، لم أعثر له على تعريف.

(1) البوصيري، الديوان، ص 214-217.

(2) الخرّاره: عود صغير يربط في أحد طرفيه بخيط، ويديره الصبي بطرف الخيط الآخر، فيسمع له صوت، ينظر: المعجم الوسيط،

مادة خزّ.

(3) الأبّارة: جمع أبار وهو من يسوّي الإبر، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة أبر.

(4) زيارة: رأي وعقل، ينظر: ابن منظور، م، ن، مادة زير.

أَيُّ شَبْرِيَّةٍ أَلْذُّ وَطَاءٍ من ركوبي وأيُّما شَبَّارَه⁽⁶⁾
عَيْرَتِي بِهَا بَغَالُ الطَّوَّاحِي ن، وقالت: تَمَّتْ عَلَيْكَ العِيَارَه⁽⁷⁾
دَرْتُ حَتَّى وَقَعْتُ عِنْدَ المَنَاحِي سِ فِيَا لَيْتَ أَنَّنِي دَوَّارَه
وَلَقَدْ أُنْذِرْتُهُ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ جَاهِلِيًّا لَمْ تُغْنِ فِيهِ النَّوَّارَه

وهذا النوع من النقد باستنطاق الحيوانات أو الجمادات أو غيرها، الذي عرفه الأدب العربي منذ زمن مبكر، يعدّ من أرقى أنواع النقد، وأجلبها للفكاهة، وألصقها بالنفس، وبخاصة عندما يعتمد الشاعر أسلوب الحوار، ويضع نفسه موضع المدافع عن المهجو، أو المستنطق لهذه الدابة المتظلّمة، وقد وُفق البوصيري في اختيار البغلة، لإبراز صورة هذا الناظر ومعانيه؛ لأنّها في ذلك العصر من مراكب أصحاب الجاه ورجال الدولة، وهي تعكس غنى مالکها وترفُّه، والتقصير في شأنها حال غناه، أمرٌ مستتكر في المجتمع، يعادل في قبحة التقصير في حقّ العيال، وكأنّي بالشاعر يريد أن يقول: هذا ابن عمران الناظر مع بغلته، فكيف هو مع النَّاس؟ وقد استغلها البوصيري في توجيه سهام نقده لظاهرة التجارة والتكسب بالجواري، وظاهرة تسلط بعض المسؤولين أو القضاة على مواريت النَّاس، يأكلونها بالباطل تحيلاً على الشرع كابين جبارة، الذي جاء على ذكره في هذه الأبيات.

وغير بعيد من هذا نرى سهام النقد تطل أيضاً القضاء والقضاة، وهو جزء من النظام السياسي، يقول ابن خلدون: "وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لأنه منصب الفصل بين النَّاس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للنزاع"⁽¹⁾.

ومن نقد القضاة قول أحد الشعراء عندما ولّى الملك الظاهر بيبرس سنة 664هـ أربعة قضاة في دمشق، وكان ثلاثة منهم يقبون شمس الدين، ولكنهم لم يغيروا من سوء أحوال القضاء شيئاً، قال:⁽²⁾

(المجتث)

أَهْلُ الشَّامِ اسْتَرَابُوا من كَثْرَةِ الحِكامِ
إِذْ هُمْ جَمِيعاً شَمُوسٌ وحالهم في ظلامِ
وَقَالَ غَيْرُهُ:⁽³⁾ (مجزوء الرمل)
بِدَمَشْقٍ آيَةٌ قَدْ ظهرت للنَّاسِ عَامَا

(5) حُجُور: جمع حجرة، وهي أنثى الخيل، ينظر: المعجم الوسيط، مادة:حجر.

(6) شبريه وشبارة: كلمات عامية تطلق على نوع من الأسرّة، ينظر: البوصيري، حاشية الديوان، ص216.

(7) العيارة: الدوران في الارض والتردد، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة عَيْرَ.

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 232.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 123/7.

(3) ابن تغري بردي، م.ن، 123/7.

كَلَّمَا وُلِّيَ شَمْسٌ قَاضِيَا زَادَتْ ظِلَامَا

وأمر قاضي مصر بقطع أرزاق الشعراء من الصدقات سوى أبي الحسين الجزار: فقال ابن تولوا الفهري⁽⁴⁾؛

(السريع)

تَقَدَّمَ الْقَاضِي لِنُؤَابِهِ بَقِطْعِ رِزْقِ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ
وَوَفَّرَ الْجَزَارَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَاعْجَبَ لِلطَّفِ الْتَيْسِ بِالْجَازِرِ
ويقول ابن المنير⁽¹⁾ في رجل نازعه في القضاء:⁽²⁾ (الخفيف)
قَلْ لِمَنْ يَبْتَغِي الْمَنَاصِبَ بِالْجَهِّ لِي تَنْحَى عَنْهَا لِمَنْ هُوَ أَعْلَمُ
إِنْ تَكُنْ فِي رَيْبٍ وَلَيْتَ يَوْمًا فَعَلَيْكَ الْقَضَاءُ أَمْسَى مُحَرَّمًا

وفي عام 677هـ، وُلِّيَ ابن خلكان⁽³⁾ قضاء دمشق بعد عزله سبع سنين، تولى فيها أمر القضاء أقوامًا غير مؤهلين لمثل هذا المنصب الخطير، فسأته أحواله، فقال سعد الدين بن مروان الفارقي⁽⁴⁾، في عودة ابن خلكان إلى قضاء دمشق، ووصف سنوات غيابه:⁽⁵⁾

(الوافر)

أَدَقَّتْ الشَّامَ سَبْعَ سَنِينَ جَدْبًا غَدَاةَ هَجْرَتِهِ هَجْرًا جَمِيلًا
فَلَمَّا زَرَّتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ مَدَدَتْ عَلَيْهِ مِنْ كَفِيكَ نَيْلًا
وقال شمس الدين محمد بن جعفر:⁽⁶⁾ (البيسط)

لَمَّا تَوَلَّى قَضَاءَ الشَّامِ حَاكِمُهُ قَاضِي الْقَضَاةِ أَبُو الْعَبَّاسِ ذُو الْكُرْمِ
مِنْ بَعْدِ سَبْعِ شِدَادٍ قَالِ خَادِمُهُ ذَا الْعَامِ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسَ بِالنَّعْمِ
وأورد صاحب البداية والنهاية أبياتا لشاعر آخر، يصف فرحة أهل الشام بعودة ابن خلكان، بعد سبع سنين من الحزن والغم، يقول:⁽⁷⁾ (مخلع البسيط)

(4) ابن تغري بردي، م.س، 311/7-312. والشاعر هو معين الدين بن تولوا الفهري، (ت 685هـ)، وهو أديب وشاعر، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 55/2؛ ابن تغري بردي، م.س، 311/7-312؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 685/9.
(1) هو أحمد بن محمد بن منصور، الجذامي الإسكندراني، (ت 683هـ)، كان إمامًا وعالمًا متبحرًا في الأدب والنظم والنثر، وتولى قضاء الإسكندرية، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 185/1؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 84/8-85؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 305/7.

(2) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 165/9.

(3) شمس الدين أحمد بن شهاب الدين محمد الإربلي الشافعي، (ت 681هـ)، كان إمامًا عالمًا متبحرًا في الأدب والشعر، له كتاب "وفيات الأعيان" ينظر: ابن كثير، م.ن، 188/9؛ ابن تغري بردي، م.س، 29/6-30؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 29/6-30.
(4) هو عبدالله بن مروان بن فيروز الفارقي، (ت 703هـ)، كان فصيحا دينيا، ينظر: الصفدي، م.س، 323/17؛ ابن كثير، م.س، 275/9؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 411/2-412.

(5) ابن كثير، م.س، 165/9.

(6) ابن كثير، م.س، 165/9، والشاعر هو شمس الدين محمد بن جعفر بن حجون، تقي الدين الشافعي، (ت 727هـ)، وله الشعر الحسن، ينظر: الصفدي، م.س، 228/2؛ ابن كثير، م.س، 165/9؛ العسقلاني، م.س، 35/4-36.
(7) ينظر ابن كثير، م.س، 165/9.

رَأَيْتُ أَهْلَ الشَّامِ طُرّاً
 نَالَهُمُ الْخَيْرُ بَعْدَ شِدَّةِ
 وَعَوْضُوا فَرِحَةً بِحَزْنِ
 وَسَرَّهُمْ بَعْدَ طَوْلِ غَمِّ
 وَكُلُّهُمْ شَاكِرٌ وَشَاكٍ
 مَا مِنْهُمْ قَطُّ غَيْرُ رَاضٍ⁽⁸⁾
 فَالْوَقْتُ بَسْطٌ بِلَا انْقِبَاضِ
 قَدْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ فِي التَّقَاضِي
 بُدُورُ قَاضٍ وَعِزْلُ قَاضِي
 بِحَالٍ وَمُسْتَقْبَلٍ وَمَاضٍ

وفي أخلاق بعض القضاة، نجد ابن الوردي ينصح المفتقر ألا يتوجه في حاجة إلى القاضي، لأنه يبدو في دقة حسابه بخيلاً، يقول:⁽¹⁾ (السريع)

لَا تَقْصِدِ الْقَاضِي إِذَا أُدْبِرَتْ
 كَيْفَ تُرْجِي الرِّزْقَ مِنْ عِنْدِ مَنْ
 وَتَوَلَّى عَمْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَلْفِيَّائِي⁽²⁾، قِضَاءَ حَلْبٍ فَأَقَامَ بِهَا قَلِيلاً، فَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ كَاتِبُ
 سَرَّهَا ابْنُ الْقَطْبِ فَصَرَفَ بَعْدَ شَهْرَيْنِ، فَقَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ فِيهِ، مُنْتَقِداً قَلَّةَ مَدَارَاتِهِ لِلنَّاسِ:⁽³⁾

(الرملة)

كَانَ وَاللَّهِ عَفِيفاً نَزْهاً
 كَانَ لَا يَدْرِي مَدَارَةَ الْوَرَى
 وَلَهُ عَرِضٌ عَرِيضٌ مَا أَتَهُمْ
 وَمَدَارَةُ الْوَرَى أَمْرٌ مَهُمٌ

وقال الخياط الملقب بالضفدع⁽⁴⁾، في القاضي شهاب الدين بن المجد الإربلي الزرزاري⁽⁵⁾، لما وقع عن بغلته فتوفي على إثرها سنة 738هـ، وكان قاضي دمشق، قال متهماً إياه بالعجب، معتبراً موته رحمة واسعة⁽⁶⁾:

(السريع)

بَغْلَةُ قَاضِيْنَا إِذَا زَلْزَلَتْ
 تَكَاتَرُ أَلْهَاهُ مِنْ عُجْبِهِ
 كَانَتْ لَهُ مِنْ فَوْقِهَا الْوَاقِعَةُ
 حَتَّى غَدَا مُلْقَى عَلَى الْقَارِعَةِ
 فَظَهَرَتْ زَوْجَتُهُ عِنْدَهَا
 تَضَايِقاً بِالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ

(8) طُرّاً: جميعاً، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة طرر.

(1) ابن الوردي، الديوان، ص 259.

(2) هو عمر بن محمد البلبيائي، زين الدين الشافعي، مات بالطاعون سنة 749هـ، في صفد، فقيه أصولي، ولي القضاء بدمشق وحلب، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/263-264؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين، 7/312.

(3) العسقلاني، م.س، 499.

(4) هو محمد بن يوسف عبدالله الدمشقي الحنفي شمس الدين الخياط، الشاعر المشهور الملقب بالضفدع (ت 756هـ)، اشتهر بالهجاء. ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 5/186-191؛ العسقلاني، م.س، 5/68-69؛ الزركلي، الأعلام، 7/153.

(5) القاضي شهاب الدين محمد بن عبد الله بن الحسين الإربلي الدمشقي الزرزاري، 662-738هـ. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 9/436؛ العسقلاني، م.س، 4/86-87؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 9/230.

(6) ابن تغري بردي، م.س، 9/231.

وفي تولي الرجل الفاجر القضاء يقول ابن الوردي⁽⁷⁾: (السريع)

قالوا فلانٌ قد تولّى القضا
يا ويح برٍ من أذى فاجرٍ
في البرِّ، قلتُ: ادّرّعوا الصبرا
إذا تولّى الفاجرُ البرا

ومن النقد الموجّه للقضاة ما وجّه لمجالسهم، حيث يجتمعون بشيوخ الدين وأهل الفضل، فهذا ابن دقيق العيد⁽¹⁾، يُنصح بالرحيل إلى مصر، ليتقرب من أمرائها ووزرائها، كغيره من الفقهاء والقضاة ممن يشار إليهم بالبنان، وهناك ستفيض عليه الهبات والعطايا، فيخرج من فقره، ولكنّه يأبى، ويعدّ هذا ذلّة ومهانةً وغضاً من مكانته، فلا يرضى لنفسه الوقوف بالأبواب منتظراً إذن الحاجب له بالدخول، وأن يتصنّع وينافق أصحاب السلطان كما يفعل بعض القضاة والفقهاء، ولا يرضى أن يشاركهم مناظراتهم التي لا تنتهي إلا إلى شر وسفه يزري بهذه المناصب الجليلة، وكيف يشارك هؤلاء في مجالس يضطر فيها إلى الصمت عن قول الحق، يقول⁽²⁾:

(الطويل)

يقولون لي هلاً نهضت إلى العلا
وهلاً شددت العيس حتى تحلّها
ففيها من الأعيان من فيض كفه
وفيهما قضاة ليس يخفى عليهمو
وفيهما شيوخ الدين والفضل والألى
وفيهما وفيها، والمهانة ذلّة
فقلت نعم، أسعى إذا شئت أن أرى
وأسعى إذا ما لذ لي طولٌ موقفي
وأسعى إذا لم يبق فيّ بقية
فكم بين أرباب الصدور مجالس
مناظرة تحمي النفوس فتنتهي
إلى السفه المزري بمنصب أهله
فإمّا توخي مسلك الدين والنهي
فما لذّ عيش الصابر المتقّع
بمصر إلى ظل الجناب المرفّع
إذا شاء روى سيئه كل بلقع
تعيّن كون العلم غير مضيع
يشير إليهم بالعلا كل إصبع
فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
ذليلاً مهاناً مستخفاً بموضعي
على باب محجوب اللقاء ممنع
أراعي بها حقّ التقى والتورّع
تشبّ بها نار الغضا بين أضلعي
وقد شرعوا فيها إلى شرٍ مُشرّع
أو الصمت عن حقّ هناك مُضيع
وإمّا تلقى غصّة المتجرّع

(7) ابن الوردي، م.س، ص430.

(1) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع، تقي الدين أبو الفتح القشيري، المنفلوطي، (ت 702هـ)، كان إماماً وفقهياً وأصولياً، وأديباً، ونحوياً، شاعراً، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 137/4-138؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 271/9؛ المقرئ، السلوك، 368/2.

(2) ينظر: علي صافي حسين، ابن دقيق العيد، حياته وديوانه، ص178-179.

وهكذا يكشف ابن دقيق العيد في هذه الأبيات العلاقة بين القضاة ومنهم العلماء والفقهاء، وأصحاب السلطان، القائمة على التزلف والتصنع، والسكوت عن الحق، ويكشف أيضاً عن حقيقة مجالس العلم التي كانت تعقد في حضرة الأمير أو الوزير، وما فيها من سفه ولغط، والتي لا تنتهي إلى علم ينفع، فمن أراد أن يجالسهم عليه أن يتصنع، ويخوض فيما يخوضون فيه، ويرضى بالباطل، ويسكت عن قول الحق.

ومن مفاصد القضاء في هذا العصر، علاوة على استغلال القضاة لمثل هذا المنصب لجمع الأموال والمغانم، والتسلط على الناس، وتضييع حقوقهم، استغلال أبنائهم أيضاً، لهذا المنصب الذي يتمتع به أبائهم بالسلطة والحصانة، في الإفساد ونهب أموال الناس والمس بأعراضهم، وانتهاك حرمتهم، فهذا الشاعر حسن الغزي⁽¹⁾ يناشد السلطان الناصر أن يعزل قاضي القضاة جلال الدين محمد القزويني⁽²⁾، الذي أفسد وظلم الناس، وراح ابنه جمال الدين عبدالله⁽³⁾، والذي عينه خطيباً في أحد المساجد، يتسلط على الناس، فينهب أموالهم ويمس بأعراضهم، ويكثر من اللغو والفساد، ويتقاضى الرشوة من القضاة ليشفع لهم عند أبيه كي يوظفهم، ولا يطالب الشاعر بعزله وحسب، بل يطالب بمعاقبة ابنه، الذي لا يصلح لارتقاء منابر الإسلام، فهو مصيبة على الأمة، بل هو في أفعاله بالناس حجاج هذا العصر، ويستجيب السلطان لمثل هذه المناشدة فيعزله وذلك عام 738 هـ . يقول الغزي:⁽⁴⁾

(مخمس الرجز)

قاضي على الأيام سلَّ صارماً
بحدّه يلتقط الدراهما
وسنّ من أولاده لها دما
جردهم فانتهكوا المحارما
والشبلُ في المخبرِ مثل الأسدِ

وابنه بدريّ خطيبٌ جَلّي
بامرأة الكاملِ مشغوفٌ شقي
بادرُهُ بالعزلِ، فليس يرتقي
منابرَ الإسلامِ إلا متقي
متزّر ثوبَ العفافِ مُرتدِ

(1) هو الحسن بن علي حمد بن شنار، بدر الدين الغزي، (ت 753 هـ)، تعانى النظم وبرع فيه، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 115/12؛ المقرئزي، السلوك، 173/4؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 105/3-107.

(2) هو جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني، (ت 739 هـ)، خطيب دمشق، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 439/9-440؛ العسقلاني، م.س، 120/4-123؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 739/9.

(3) جمال الدين عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، ابن القاضي جلال الدين القزويني، (ت 743 هـ)، كان خطيب الجامع الاموي، ينظر: العسقلاني، م.س، 399/2-400؛ ابن تغري بردي، م.س، 63/10.

(4) المقرئزي، م.س، ج3/237 .

ياملك الإسلام إذا الهمة
 واحلل بعبد الله سيف النقمه
 أزل عن الملة هذي الغمه
 فإنه حجج هذي الأمه
 وارده مثل ردع كل مفسد

وفي مثل هذا المعنى تلقى شهاب الدين الشارمساحي، يكشف ما عليه ابن القاضي بدر الدين بن جماعة⁽¹⁾ من فساد، فهو متعلق بالمردان، وغارق في ظلام الآثام، وكل همّه اصطبياد جواري وغلماں الترك، ينفق عليهم من أموال اليتامى، التي نهبها إلى حد أن كنسوا مستودعاتها بالمكانس، وكذلك نهبوا أوقاف مسجد طولون، والمسؤول عن هذا كلّه هو أبوه القاضي الذي يصفه بالجنوح، وذلك لإطلاقه يد ابنه ورضاه بأفعاله، يقول الشارمساحي⁽²⁾

(الطويل)

يموت عديم القوت بالجوع حسرة	ويشبع بالأوقاف أهل الطيالس ⁽³⁾
فما أحد إلا وحشؤ حسابيه	من العبن ناز دونها ناز فارس
وهذا ابن قاضي المسلمين مؤكّل	بعلق وراح في ظلام الحنادس ⁽⁴⁾
وما ذاك إلا أن والدّه امرؤ	جنوح لما يرضى به غير عابس ⁽⁵⁾
وإن رام منه مال وقف يضيّعه	فما هو للأموال عنه بحابس
فكم صاد غزلانا من الترك دونها	فوارس حرب يالها من فوارس
وكم باع أموال اليتامى لقرّيبها	توسد للمردان فوق الطنافس
فسل مؤدع الأيتام ما صنعوا به	وقد كنسوه عامداً بالمكانس
وجامع طولون فما كان وقفه	له إذ أتاه غير لحسة لاحس ⁽⁶⁾

وترصد هذه القصيدة ظاهرة خطيرة، وهي محاباة أصحاب النفوذ والمناصب لأقاربهم وللمقربين منهم بصداقة أو مصلحة، فينالون ما لا يناله عامّة الناس، وأحياناً يتسلطون بهذه

(1) هو بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني الحموي الشافعي (ت 733هـ)، ولي قضاء القدس، والديار المصرية ودمشق، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 416-417/9؛ المقرئ، السلوك، 170/3؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 273/6-274.

(2) العسقلاني، الدرر الكامنة، 172/1.

(3) الطيالس: الطيلسان؛ ضرب من الأكسية، وقد يقصد بها من رما بالقيبح، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة طلس.

(4) الحنادس: جمع حندس، وهو الليل الشديد الظلمة، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة حندس.

(5) جنوح: شديد الميل عن الحق، والمرتكب للأثم، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة جنح.

(6) جامع بناء أحمد بن طولون سنة 263هـ، في موضع يعرف بجبل يشكر في مصر، ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، 218/2-

العلاقة على مصالح النَّاسِ وأموالهم، فلا يطالهم حساب أو عقاب، وتعكس القصيدة مدى الفساد الذي لحق ببعض المناصب في ذلك العصر.

٣ تحصيل المناصب بالرشوة

شاعت في هذا العصر الرشوة، وبخاصة في طلب المناصب، و لا يستغرب هذا في ظل حكامٍ همُّهم الأول تحصيل الأموال والإثراء، و كان لهذه الظاهرة آثار مدمرة طالمت مختلف نواحي الحياة، يقول المقرئ متحدثاً عن أحوال الدولة يوم آل الأمر إلى الأميرين برقوق وبركة، زمن السلطان الملك المنصور علي: "غير أنَّ الولايات كلَّها في القضاء والحسبة وولاية الحرب في الأعمال والكشف، وسائر الوظائف، لا سبيل أن ينالها أحد إلا بمال يقوم به أو يلتزم بأدائه، فدهى النَّاسُ من ذلك بدهاية دهياء، أوجبت خراب مصر والشام⁽¹⁾".

يقول ابن الوردي في قصر مدة المناصب، وتحصيلها بالرشوة⁽²⁾: (الخفيف)

ساكني مصرَ أين ذاك التَّائي والتَّائي ومالكم عنه عذُر
يخسرُ الشخصُ ماله ويقاسي تعب الدهرِ والولاية شهرُ

يذكِّرهم بما عرف عنهم من تأنُّ، ويعجب من تعجَّلم في طلب المناصب، ويذكِّرهم أيضاً بالتَّائي عن الحرام، وينبِّههم إلى أمرٍ خطيرٍ هو أنَّهم يبذلون أموالاً تعبوا الدهر في تحصيلها، من أجل منصب لا يدومون فيه أكثر من شهر فيعزلون.

ويقول ابن الوردي أيضاً مخاطباً من وُلِّي بالرشوة⁽³⁾:

(مجزوء الرجز)

فلانُ لا تعجب إذا عَزَلتِ واعرف ما السبب
فما رأينا من ولي بفضةٍ إلا ذهب

ويقول لمن أشار عليه بالرشوة لتولي قضاء حلب⁽⁴⁾:

(مجزوء الخفيف)

قيل لي برطل الذهب تتولى قضا حلب
كيف هم يحرقونني وأنا أشتري الحطب

(1) المقرئ، السلوك، 41/2 .

(2) ابن الوردي، الديوان، ص491.

(3) ابن الوردي، م.ن، ص430.

(4) ابن الوردي، م.ن، ص370.

وقال ابن الوردي فيمن عَزَل لَأَنَّهُ لم يرشُ (5):

(مجزوء الكامل)

عزلكَ لَمَّا قَلتَ: ما أعطي وولّوا من بَدَلْ
أَوْ ما عَلمتَ بَأَنَّ "ما" حَرَفٌ يَكفُّ عن العَمَلْ

وفي هذين البيتين إشارة إلى أنّ الرشوة أصبحت سنّة في تولّي المناصب.

٤ الظلم في النفس والمال

عُرِفَ معظم حَكَمِ هذا العصر بالظلم والتسلّط على أموال النَّاسِ وأنفسهم، ابتداء من السلطان مروراً بالأمراء والولاة والناظرين وغيرهم ووصولاً إلى صغار الموظفين من المستخدمين، وقد أكثر الشعراء من الحديث عن هذا الظلم والعسف، فهذا السامري (1) يكتب إلى الأميرين طوغان (2) وأسندمر، ولكلٍ منهما أستاذدار يسمى العلم سنجر (3)، ونائب البر ويسمى الشجاع همام، منتقداً إطلاقهما أيدي هذين النائبين في النَّاسِ، يقترفون أبشع الجرائم، ويحمل هذين الوزيرين طوغان وأسندمر أوزار ما جنى هذان النائبان وآثامهما، ويتساءل في شيء من اليأس عن اليوم الذي يرى فيه الدنيا بغير العلم سنجر والنائب الشجاع همام، يقول (4):

(الكامل)

اسمُ الولايةٍ للأمير وماله	فيها سوى الأوزارِ والآثامِ
وجبايةُ القتلى وكلُّ مصيبةٍ	تجبي منافعها إلى الهُمَامِ
سيفانٍ قد وليا وكلُّ منهما	ماضي العزائم دائمُ الإقدامِ
وببابٍ كلُّ منهما عَلِمَ يُنكِّدُ	كلُّ ما يجودُ به من الإنعامِ
ما النَّاسُ عندهما بناسٍ لا و لا	يريانِ هذا النَّاسِ كالأنعامِ
وقد استحلَّ منهم ما لم يزلْ	من مالِهِم ودمائِهِم بحرامِ
فمتى أرى الدنيا بغيرِ سناجرِ	والقطعِ والتكيسِ للأعلامِ

ومن صور النقد اللاذع، الذي جاء في ثوب من الظرافة والنكتة ما قاله البوصيري في شيوخ من صنعاء أحضرهم أحد الأمراء، وحلق نصف لحية كلِّ منهم، فأراد الشاعر أن يخلصهم

(5) ابن الوردي، م، ن، ص 431.

(1) هو أحمد بن محمد بن علي بن جعفر، سيف الدين السامري (يفتح الميم وتشديد الراء) (ت 696هـ)، واقف السامرية بدمشق وكان كثير الأموال، وكان شاعراً. ينظر: الكنتي، فوات الوفيات، 1/174؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 9/240؛ المقرئ، السلوك، 2/282. (2) طوغان المنصوري، كان من ممالك قلاوون، عينه نائباً على البيرة، ثم ولي شاداً للدواوين بدمشق، وعرف بالعسف والحق والظلم، قبض عليه وسجن بالكرك سنة نيف وعشرين وسبعمئة. ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 329؛ المقرئ، م، س، 2/468. (3) هو علم الدين سنجر الجاولي بن عبد الله الشافعي، (ت 745هـ)، كان مملوكاً للأمير من الظاهرية، وسمي جاولي، ثم أصبح مقدماً في الشام، ثم تاب في غزة، ثم أميراً مقدماً في مصر، ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 10/90؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/745.

(4) الكنتي، م، س، 1/177.

منه، فسألهم عن حالهم، فأشاروا إلى ما فعل بأذقانهم، فطمأنهم البوصيري بأن ما حُلِقَ سيخلف، وصبرهم وواساهم في شيء من السخرية بأن الحلق أهون من النتف وخير منه، وأن حلق أنصاف لحاهم شيء من العدل، فقد حلق نصفاً بذنب حاضر، وترك النصف الآخر عفواً عن ذنوب سلفت، يقول⁽⁵⁾!

(الرمل)

أخبروني غَضْبَةً وَصَلْفًا أنكم رحتم إليه مَرَصَفًا⁽¹⁾
ثم قالوا عن ذقونِ حُلِقْت قلتُ: لا بدَّ لها أن تُخْلَفَا
إن حَلَقَ الذقنَ خَيْرٌ للفتى يا بني الأعمام من أن تُنْتَفَا
والذي حَلَقَ أنصافَ اللحي كان في الأحكام عدلاً مُنْصِفَا
حَلَقَ النِّصْفَ بذنب حاضرٍ وعفا بالنِّصْفِ عمَّا سَلَفَا

وفي قصيدة يهنئ فيها البوصيري أحد الأمراء، ويأتي فيها على ذكر المستخدمين، وضمهم، وبخاصة النصارى منهم، يروي الشاعر قصة شيخ، يبدو أنه من كبار موظفي الدولة، أو مسؤولي الدواوين، يوحي بذلك قوله له بعد سرد قصته⁽²⁾:

(الطويل)

فلا تنسَ فينا للأمير قضيَّةً فتفتَحَ باباً للعتابِ مُجْرِبَا

هذا الشيخ يُعْرَى كما للصوص، ويضرب حتى يخضَّب جسمه بالدماء، فيعجب الشاعر من أمره، ويبكي لحاله، ويسأله عن سبب عقوبته، فيقسم أنه ما كان مذنباً، وإنما هي وشاية به من أحد الأعداء، صدَّقها الأمير فعاقبه، فيعزِّيه الشاعر في حاله، بأنَّه ما دام الأمر قد حصل من حبيبه الأمير فهو هين، لأنَّ الأمير يرضى ويغضب، وما عليه إلا الصبر، وما حصل له أمر مقدَّر لا يستطيع دفعه، ويضرب له ولصاحبه الذي وشى به مثلاً، آدم وإبليس، حيث سؤل إبليس لآدم، فوقع في معصية الله عز وجل، إلا أنَّ العاقبة الطيبة كانت لآدم حيث غفر له، و لا ينسى الشاعر في أسلوب المنتقد أن يذكره بنصيحته له من قبل، وهي ألا يلقي الأمير عابساً أو مقطباً، وكذلك لا يأتيه فرحان جذلاً، إذا ما دعاه لأمر مهم، يقول الشاعر⁽³⁾:

(الطويل)

عجبتُ لأمرِ آلِ بالشيخِ مُخْلِصاً إلى أن يُعْرَى كاللصوص ويضربا

⁽⁵⁾ البوصيري، الديوان، ص310.

⁽¹⁾ مرصف: مقيد بإحكام (والرصف الإحكام والضم)، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة رصف.

⁽²⁾ البوصيري، الديوان، ص118.

⁽³⁾ البوصيري، م. ن، ص 117-118.

بكيتُ له لما كشفتُ ثيابه
 وحلقتُهُ بالله ما كان ذنبه
 ولكن حبيبٌ راح في مصدقاً
 فقلتُ: ومن كان الأميرُ حبيبه
 فصبراً جميلاً، فالمقدّرُ كائنٌ
 فإبليسُ لما كان ضدّاً لآدمِ
 وقد كانت العقبى لآدمِ دونهُ
 ومن قبل ذا قد كنتُ إذ كنتُ ذاكرًا
 دعاك إلى أمرٍ مُهمٍ فجئتُه
 وأبصرتُ جسماً بالدماءِ مخضباً
 فأقسمَ لي بالله ما كان مذنباً
 كلامٌ عدوٌّ ما يزالُ مكذباً
 فلا بُدَّ أن يرضى عليه ويغضبا
 فقد كانَ أمراً لم تجدُ منه مهرباً
 تختلُّ في عصيانه وتسببا
 فتاب عليه اللهُ من بعدُ واجتبي
 نهيتك أن تلقى الأميرَ مُقطباً
 كأنك في عرسٍ أتيتَ مشيباً.

أمّا المستخدمون وأصحاب الدواوين، فحسبنا مما قيل فيهم، شعر البوصيري، شاعر النّقد المجتمعي الأول في هذا العصر، وقد أسهم قربه منهم، كموظف في الدواوين، إسهاماً كبيراً، في نجاحه في تصوير خياناتهم والكشف عن تفاصيل جرائمهم، يقول في هذه الميزة⁽¹⁾:

(الوافر)

فخذُ أخبارهم مني شفاهاً
 فقد عاشرتهم ولبثتُ فيهم
 حوتُ بلبيسٍ طائفةً لموصاً
 وأنظرنِي لأخبرك اليقيناً
 مع التجريبِ من عمري سنيناً
 عدلتُ بواحدٍ منهم مئيناً

وقد كان هؤلاء المستخدمون شراً مستطيراً رमित به مصر والشام، فأذاقوا الناس ألواناً شتى من الظلم والعسف، فقد كانوا جيشاً جزراً من الكتاب والمحاسبين والجبابة، وظيفتهم جمع الأموال للسلطين والأمراء بكل وسيلة مستطاعة، فكانوا سبباً في خراب البلاد وافتقار الناس، "واتخذ المماليك أعواناً لهم من أبناء مصر والشام، وجعلوهم وزراء وكتاباً وقضاة، كانوا عوناً لهم على الشعب، وهبوا أنفسهم لشياطين المماليك، كبار الموظفين، في سبيل رضا السلطين والأمراء، أن يفعلوا أي شيء، أن يتركوا دينهم - ظاهراً - كجماعة أقباط المصريين، تظاهروا بالإسلام ليلوا الوزارة، وظلّوا على دينهم سرّاً يتعصبون، ويذكون نار الفتنة الدينيّة، ويجمعون المال بالباطل من كل الناس، ويسخّرون معرفتهم وممارستهم للكتابة والحسبة، والإمام بأموال الرعيّة وغلات الأرض لعملهم الطويل في الدواوين، في سبيل جمع المال لمخدوميهم، وكذلك كان بعض وزراء المسلمين من أبناء البلد، لا يراعون حرمة لمواطنيهم، وأبناء بلدهم، فيرهقونهم من أجل خاطر المماليك خوفاً وطمعاً"⁽²⁾، والمتأمل في هذا الكلام، الذي يسنده صاحبه بروايات

(1) البوصيري، الديوان، ص463.

(2) محمد زغول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 73/1.

المؤرخين، يجد الحقيقة أو الصورة نفسها مفصلة، وقد كشف الغطاء عنها شعر البوصيري من قبل.

يقول البوصيري، مخاطباً أحد السلاطين، في تغيير القوانين وتبدل حال الدواوين، وتولي الكتابة كتاباً لئام خونة، لم ينالوا مثل هذه الوظائف إلا بالرشوة، ولم يحصلوا هذه المناصب إلا ببيع دينهم، وكلما طردوا منها عادوا إليها، يقول (3):

انظر بحقك في أمر الدواوين
لم يبق شيء على ما كنت تعهده
الكاتبون وليسوا بالكرام فما
والكل جمعاً ببذل المال قد خدموا
فهم على الظن لا التحقيق، بذلهم
نالوا مناصب في الدنيا وأخرجهم
قد طال ما طردوا عنها وما انطردوا
وطالما قطع أذنان الكلاب لهم
فالكُلُّ قد غيَّروا وضع القوانين
إلا تغيَّر من عالٍ إلى دون
منهم على المال إنساناً بمأمون
وما سمعنا بهذا غير ذا الحين
وما تحقَّق أمرٍ مثلُ مظنون
حبُّ المناصب في الدنيا على الدين
إلا وقومٌ عليها كالذبابين
فاستخدموا بعد تقطيع المصارين

هؤلاء الكتاب يفرضون الضرائب على كل شيء امتلكه الناس، حتى الحشيش والرياحين وغيرها، والناس عندهم يضمنون الطيور التي في الجو فيدفعون ضريبتها، بل إن الجبابة منهم يمسحون السماء كما تمسح الأرض ليفرضوا على الناس خراجها، ولم يبالوا بتقدير الضرائب غيباً، ولقوتهم وشدة بطشهم راح الناس يرشونهم ليدفعوا شرهم، وبأقلامهم استلبوا من الناس كل مال ظاهر أو مخبوء، هذا في جمع الأموال، أما عند صرفها لمستحقيها، فلا يصرفونها إلا مقابل الرشوة، فهم لصوص، وأقلامهم عتُلَّ ينهبون بها أموال السلاطين أيضاً، وهذه الأموال التي ينهبونها يرجعون بها إلى رئيسهم الشيخ يوسف أبي هبص بن لطمين، يقول البوصيري: (1)

(البسيط)

قد ينفَعُ النَّاسَ حَتَّى الْحَشِّ مِنْ غَرَضٍ
ضَمَانُ رِيحٍ بِطَيْرٍ فَوْقَ طَائِرِهِمْ
لَوْ أَمَكْنَ الْقَوْمَ وَزَنُ الْمَالِ لَا تَحْذُوا
وَمَسْحَهُمْ لِلْسَّمَوَاتِ الْعُلَى افْتَعَلُوا
وَلَمْ يِبَالُوا بِرَجْمِ الْغَيْبِ مِنْ أَحَدٍ
عَزَّوْا وَأَكْرَمَهُمْ قَوْمٌ لِحَاجَتِهِمْ
وغيره من رياحين وبشنيين (2)
يطيرُ والريخُ شَيَاغٌ بِمَضْمُونِ
له الموازين من بعد القبابين
فيها كما يفعلُ المسَاخُ لِلطَّيْنِ
كلا ولا برجوم الشياطين
ما نالهم بعد ذلك العز من هون

(3) البوصيري، م.س، ص 481.

(1) البوصيري، الديوان، ص 482-483.

(2) الحش: الحشيش، والبشنيين: نبات مائي، ينبت عادة في الأنهار والمناقع، ينظر المعجم الوسيط، مادتي حش، وبشني.

وطاعنوا النَّاسَ بالأقلامِ واستلبوا
ومن مواشٍ وأطيارٍ وآنيةٍ
لهم مواقفٌ في حربِ الشرورِ كما
لا يكتبونِ وصولاتٍ على جهةٍ
إلا يقولونِ فيما يكتبونِ له
فاسمِعْ وكاسِرٌ، وحسَّ الرِّيحَ يا فطناً
هم اللصوصُ ومن أقلامهم عُثْلٌ
وكلُّ ذلكِ مصروفٌ ومصرفُهُم
منهم بها كلُّ معلومٍ ومكنونٍ
ومن زروعٍ ومكيولٍ وموزونٍ
حربِ البسوسِ وحربِ يومِ صفينٍ
مفصلاتٍ بأسماءٍ وتبيينٍ
من الحقوقِ: وما ذا وَقَّتْ تعيينٍ
فلست أولِ مقهورٍ ومغبونٍ⁽³⁾
بها يسفونُ أموالَ السلاطينِ
للشيخِ يوسفَ أبي هبصِ بنِ لظمينِ

أما أين وفيهم تصرف هذه الأموال التي يغتصبونها من الناس، أو يختلسونها من أموال الدولة، أو يأخذونها رشوة من أصحاب الحقوق ليصرفوا لهم حقوقهم المالية، فيخصص الشاعر جزءاً كبيراً من قصيدته لتفاصيلها، فهي لشرب الخمر المجلوة بالرياحين، وللغلمان والفسوق، والمراكب الوطية، ولكسوة الغلمان والوصيفات، وللأبنية المرتفعة، والبساتين العنّاء، وأنواع من الأنعام والأطيار، وللأسرة والبسط والطنافس، وللملابس الملونة، ومنها ما يودع في السقف أو يدفن في الأرض، ومنها ما ينفق على مجالس أنس تنسي الهموم، وتُحلى منها نساؤهم بحلي لا تقدّر بثمن، يقول⁽¹⁾:

(البيسط)

وللشرابِ وتبييتِ الخطاءِ به
وللغُلوقِ وأنواعِ الفسوقِ معاً
وللبغالِ الوطياتِ الركابِ ترى
وللمناديلِ في أوساطِ من ملكوا
وللرياحِ العواليِ الارتفاعِ بناً
وللفجاجِ وحُملانِ النَّعاجِ وأط
وللشباريِ وللأنطاعِ تُفرشُ في
وللمجالسِ في أوساطِها حَرَكَ
يجلو العقارَ بأجناسِ الرياحينِ⁽²⁾
وللخروقِ الكثيراتِ التلاوينِ⁽³⁾
غلمانهم خلفهم فوقَ البراذينِ
وللمناطقِ فيها والهامينِ⁽⁴⁾
وللبساتينِ ثنشا والدكاكينِ
يار الدجاجِ وأنواعِ السمامينِ
تمورٌ فوقَ رُخامِ في الأواوينِ
وللطنافسِ في أيامِ كانونِ⁽⁵⁾

(3) كاسر: غَضٌّ، أو أعط شيئاً قليلاً (الكسرة)، حسَّ الرِّيح: كناية عن الرشوة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة كسر.

(4) البوصيري، الديوان، ص 483-485.

(2) الخطاء: هو العدول عن طريق الصواب بارتكاب المنكرات، العقار: بضم العين الخمر، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي عقر وخطأ.

(3) الغُلوق: جمع غلق، وهو النفيس من كل شيء لتعلق القلب به، والمقصود هنا الغلمان، انظر: ابن منظور، م.ن، مادة غلق.

(4) الهامين: جمع هميان، وهو شداد السراويل أو التكة. (فارسية)، انظر: ابن منظور، م.ن، مادة همي.

(5) خرك: نوع من البسط (تركيبية)، ينظر: البوصيري، حاشية الديوان، 484.

ولستُ أَحْصُرُ أَلواناً لأطعمَةٍ
وللملابسِ كمِ ثوبٍ ملونَةٍ
وكمِ نَخائِرٍ ما عِنْدَ الملوِكِ لها
وكمِ مجالسِ أنسٍ عُيِّتِ لَهُمُ
وكمِ حُلِيِّ نِساءٍ لا يَثْمَنُهُ
تَفَنَّنَ القومُ فيها كَلَّ تَفْنينِ
فيها العِراقِي معِ الهِنديِّ والبُؤني
مِثْلُ، فَمِنَ مُودِعِ سَقْفاً ومَدفونِ
تَنسِي الهِمومِ وتُسْلِي كَلَّ محزونِ
مَقومٌ قَطُّ في الدنِيا بَتثمينِ

وبعد هذا التفصيل الدقيق لعملية النهب وأساليبها، ومصارف هذا المال المنتهب، يتوجه البوصيري إلى سلطان مصر والشام مستجداً به، يطالبه أن يكشف هذا البلاء بنفسه، هذا البلاء الذي حلّ بالصعيد وقراه، فقد سبى العمال أهل الصعيد بأموال مفترضة لا مفروضة ولا مسنونة، وقد تسلطوا على الناس في كل حين، وشاركهم في ذلك القبط، ويدعوه ألا يقرب هؤلاء القبط، فهم أعداء الله، وألا يأمن على هذا المال هؤلاء السارقين، ولهول ما رأى الشاعر من جرائمهم يدعو السلطان أن يدع غزو التتار والفرنجة، ويتوجه إلى غزو عامل أسوان والمستخدمين القبط، فإن فعل هذا نال مرضاة الله وفاز بالجنة، ويدعوه لانتزاع الأموال التي اختلسوها من الدولة، يقول⁽¹⁾:

(البسيط)

فقل لسلطانِ مصرَ والشَّامِ معاً
ومن يَخوْفُ من سيفِ براحتِهِ
اكتشفَ بنفسِكِ أسواناً ومن معها
عَمَّالُها قد سَبَّوهم من تطلُّبِهِم
كُلُّ تَري كاتِباً للسوءِ يُنظِرُهُ
سَبَّوا الرعيَّةَ لم يُبقوا على أحدِ
لا تَأمنَنَّ على الأموالِ سارقِها
وخَلِّ غَرو هُلاكو والفرنسِ معاً
واغزَنَّ عاملِ أسوانِ تنالُ به
وكلُّ أمثالِهِ في القبطِ أغزَّهُمُ
واسلبَهُمُ نِعماً قد شاطروك بها
يا قاهراً غيرَ مخفيِّ البراهينِ
ذوي السيوفِ وأصحابِ السكاكينِ
من الصعيديِّ بلا قومِ مساكينِ
ما لا يكونُ بمفروضٍ ومسنونِ
لنهبِهِمُ كمِ كذا عامٍ وكمِ حينِ
ولا أمانةً للقبطِ الملاعينِ
ولا تقربَ عدوِّ اللهِ والدينِ
وانهضِ بفرسانكِ الغرَّ الميامينِ
جناتِ عدنٍ بإحسانِ وتمكينِ
فالغزوُ فيهِم حلالُ الدهرِ والحينِ
كما يُشاطرُ فلاحُ الفدادينِ

فما جرم هؤلاء الأقباط يا ترى؟ إنهم تواطؤوا على الأموال وجعلوا التسعين منها عشرين، ورشوا من يستوفي منهم ما جمعوا من الناس، حتى غدا هذا المستوفي يعدّ القس والمطران والديه، ويجعل في هذه الأموال نصيباً للكنائس، وثماناً للمداد والصابون والزيت ودقيق الأعياد،

(1) البوصيري، الديوان، ص 485-486.

وهذا فعل يؤدي بالمستوفين إلى جهنم، لأنهم تصرفوا في أموال الصدقات، ويتعجب الشاعر من إقدام الشيخ الجابي على مثل هذه الأفعال الحرام، وبهذه الطريقة سرقوا كثيراً، وظلموا كثيراً، ونهبوا أموال الدولة، وقال قوم في الشاعر إنه فضحهم، وقام بما يجب عليه أن يقوم به من إنكار لهذا المنكر، لكن الشاعر ينفي أنه أراد فضحهم، فهو إنما أراد أن يكشف مكرهم وآلاعيهم، يقول البوصيري⁽²⁾:

(البيسط)

فَقَدْ تَوَاطَوْا عَلَى الْأَمْوَالِ أَجْمَعِهَا	وَفَدَّلُوا كُلَّ تِسْعِينَ بَعْشَرِينَ ⁽³⁾
وَصَانَعُوا كُلَّ مُسْتَوْفٍ إِذَا رَفَعُوا	لَهُ الْحِسَابَ بِسُخْتٍ كَالطَّوَاعِينَ ⁽⁴⁾
وَرَبَّحُوهُ، فَقَالَ الشَّيْخُ: وَالذُّنَا	قِسُّ الْقَسُوسِ وَمَطْرَانُ الْمَطَارِينَ مَنَّا لَهُ
الْعُدْرُ فِيمَا حَلَّ يَقْبَلُهُ	إِمَّا بَرَسْمٍ مَدَادٍ أَوْ لَصَابُونَ
وَلِلزُّيُوتِ وَإِيقَادِ الْكَنَائِسِ كَمْ	وَلِلدَّقِيقِ الْمَهْيَا لِلْقَرَابِينَ
فَذَاكَ فِي الصَّدَقَاتِ الْجَارِيَاتِ بِهِ	يُسْحَبُ عَلَى الْوَجْهِ أَوْ يُقَلَّبُ بِسَجِينٍ ⁽¹⁾
وَكَيْفَ يَقْبَلُ بَرًّا مِنْ مَصَانَعَةٍ	مَنْ كُلِّ مَسْكِينَةٍ فِيهِ وَمَسْكِينٍ
كَمْ هَكَذَا سَرَقُوا ! كَمْ هَكَذَا ظَلَمُوا!	لَكُمْ هَكَذَا أَخَذُوا مَالَ السَّلَاطِينِ !
أَتُرَكُّ ذَنْبٍ وَسُؤَالٌ لِمَغْفِرَةٍ	عِنْدَ الْإِلَهِ لِقَوْمٍ كَالْمَجَانِينِ
وَقَالَ قَوْمٌ لَقَدْ أَحْصَى مَنَالَهُمْ	وَقَامَ فِيهَا بِمَفُورِضٍ وَمَسْنُونٍ
فَقُلْتُ وَاللَّهِ مَا وَصَفِي لِأَنْشُرَهَا	فِيمَا يَقُومُ بِهِ شَرْحِي وَتَبْيِينِي
وَإِنَّمَا ذَاكَ مَجْهُودِي وَمَقْدِرَتِي	وَطَاقَتِي فِي حِجَانَاتِ التُّعَابِينِ ⁽²⁾

وهكذا، وفي أكثر من موضع، وأكثر من قصيدة⁽³⁾، يتناول البوصيري المستخدمين،

ويتخذ من فسادهم وجرائمهم قضية، يطيل الحديث فيها، رافعاً عقيرته، صاباً عليهم سياط نقده

الأيام، محذراً من عواقبها الوخيمة، ولعل أشهرها تلك القصيدة التي مطلعها⁽⁴⁾:

(2) البوصيري، م، ن، ص 486-488.

(3) فذلك الحساب: أنهاه وفرغ منه، وهي منحوته من قوله: فذاك كذا وكذا، إذا أجمل حسابه، ينظر: المعجم الوسيط، مادة فذ.

(4) السحت الحرام الذي لا يحل كسبه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة سحت.

(1) سجين: واد في جهنم، ينظر: ابن منظور لسان العرب، مادة سجن.

(2) الحجنة: وضع الاعوجاج والتجعد والتداخل، ينظر: ابن منظور، م، ن، مادة حجن.

(3) ينظر: البوصيري، الديوان، ص 116، 236، 278-282، 301، 454، 463-474.

(الوافر)

تُكَلِّمُ طَوَائِفَ الْمُسْتَحْدِمِينَ فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا

والتي جئتُ على ذكرها في شعر النقد الاقتصادي.

وإذا ما تحولنا من مصر إلى دمشق، والتقىنا بالشاعر سيف الدين السامري وجدنا له قصيدة في وكيل السلطان في الشام ناصر الدين محمد بن الشيخ عبد الرحمن المقدسي⁽⁵⁾، الذي تولى هذا المنصب عام 686هـ، فشرع في فتح أبواب البلاء على أهل الشام، وعندما كُتِبَ بالكشف عليه عام 689هـ ظهرت له أفعال منكره، فقبض عليه، وحمل إلى القاهرة، وأودع السجن، فوجدوه قد شنق نفسه⁽¹⁾، وكان ابن المقدسي قد أجبر الشاعر السامري، برد أملاك كان قد اشتراها من ابنة الأشرف، وذلك بعد أن زور إثباتاً بسفها⁽²⁾، وفي هذه القصيدة يعتبر السامري نبأ القبض عليه بشارة، فرح بها الناس في دمشق، ويناشد السلطان أن يعجل بذبحه، واصفا إياه بأقذع الأوصاف، وكاشفاً ما فعله بالأيتام والأغنياء من الناس، من ظلم وإفكار، يقول الشاعر⁽³⁾:

(الكامل)

وَرَدَ الْبَشِيرُ بِمَا أَقْرَّ الْأَعْيُنَا	فَشَفَى الصُّدُورَ وَبَلَّغَ النَّاسَ الْمُنَى
وَاسْتَبَشَرُوا وَتَزَايَدَتْ أَفْرَاحُهُمْ	فَالْخَلْقُ مُشْتَرِكُونَ فِي هَذَا الْهَنَا
ثَبَّتَتْ مَخَازِي ابْنِ الْقَتِيلَةِ عِنْدَ مَنْ	وَجَدَتْ لَدَيْهِ فِي الْخِيَانَةِ وَالْخَنَا
بِشَهَادَةِ السَّرِّ الرَّفِيعِ وَقَوْلِهَا	مَنْ غَيْرِ وَاسْطَةِ لِسُلْطَانِ الدُّنَا
وَبِنَى الْبِنَاءِ بِلَا أَسَاسٍ ثَابِتٍ	فَانْهَارَ مَا شَادَ النُّكَيْحُ وَمَا بَنَى
وَتَقَدَّمَ الْأَمْرُ الشَّرِيفُ بِأَخْذِ مَا	نَهَبَ اللَّعِينُ مِنَ الْبِلَادِ وَمَا اقْتَنَى
يَا سَيِّدَ الْأَمْرَاءِ يَا شَمْسَ الْهَدَى	يَا مَاضِيَ الْعَرَمَاتِ يَا رَحْبَ الْفَنَا
يَا مَنْ لَهُ عَزْمٌ وَجَاشٌ ثَابِتٌ	يَغْنِيهِ عَنِ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا
عَجَّلْ بِذَبْحِ الْعَلِقِ وَادْفِنَهُ وَمَا	مَنْ حَقَّ عَلِقٌ مِثْلُهُ أَنْ يَدْفَنَا

(4) البوصيري، م.ن، ص463.

(5) ناصر الدين محمد بن الشيخ عبد الرحمن المقدسي، (ت 689هـ)، ولي وكالة بيت المال، ونظر الأوقاف في دمشق، فظلم، واعتقل بالعداوية، فوجد مشنوقاً بعد أن ضرب بالمقارع، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 196/3-195/3؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 75/6.

(1) ينظر: المقرئ، السلوك، 216/2.

(2) ينظر: المقرئ، م.ن، 198/2.

(3) الكتبي، فوات الوفيات، 176/1.

واغْظُ عليه ولا تَرَقَّ، وكلُّ ما
يلقى بما كسبت يده وما جنى
فَلَكُمْ يَتِيمٍ مُدَقِّعٍ وَيَتِيمَةٍ
من جَوْرِهِ ماتا على فَرْشِ الضَّنَى
ولكم غَنِيٌّ ظَلٌّ في أَيامِهِ
مسترفِداً للنَّاسِ من بعدِ الغِنَى
إنْ أنكرَ العَلِقُ القَطيْمُ فعِاله
بالمسلمين فأولُ القَتلى أنا⁽⁴⁾

وفي ظلم ولاية الدواوين، يقول ابن الوردي في تسلط الأمير بدر الدين لؤلؤ الفندشي⁽⁵⁾، وظلمه لأهلها عام 733هـ، يشكو أمره إلى الله، ويدعوه أن يخلصهم منه، وذلك على خلاف من سبقوه من الشعراء، الذين كانوا يتوجهون في أغلب الأحيان في شكاوهم إلى من هو أعلى رتبة من المشتكى كالسلطان أو الأمير، يقول⁽⁶⁾:

(السريع)

قلبي، لعمرُ الله، معلولٌ
بما جرى للناسِ مع لؤلؤ
يا ربُّ قد شرَّدَ عَنَّا الكَرَى
سيفٌ على العالمِ مسلولٌ
وما لهذا السيفِ من مُعْمِدٍ
سواك يا مَنْ لطفه السؤلُ

ويقول صفي الدين الحلبي⁽¹⁾، وقد عُزل شمس الدين بن كبش من ولاية طريق خراسان،

ورُتّب نجيب الدين بن ذئب⁽²⁾:

(الوافر)

بشمسِ الدينِ لم تطقِ الرعايا
فكيف وقد تبدّل بالنجيبِ
رعايا ما أطاقوا بأسَ كبشٍ
محالٌ أن يطيقوا بأسَ ذئبِ

ومن أبرز المظالم التي وقف عندها الشعراء ، وفاة الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية⁽³⁾ مسجوناً بقلعة دمشق عام 728هـ⁽⁴⁾، وكان لذلك أثر كبير في نفوس النَّاسِ، فرثاه الشاعر ابن الوردي في قصيدة بلغت سبعة وعشرين بيتاً، يعد جزء كبير منها نقداً لسجانيه، يقول ابن الوردي⁽⁵⁾:

(الوافر)

(4) القطيم: شديد الشهوة للحم أو النكاح، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قطم.

(5) هو بدر الدين لؤلؤ الحلبي الفندشي، شادّ الدواوين في حلب، (ت 742هـ). ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 310-309/24؛ المقرئزي، م.س، 373/3؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 360-359/3.

(6) ابن الوردي، الديوان، ص498.

(1) هو عبد العزيز بن سرايا بن علي السنيسي الطائي الحلبي، رضي الدين، (ت 752هـ)، مهر في فنون الشعر كلها، له ديوان شعر مشهور، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 292/18؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 481-479/2؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 188/10.

(2) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص525.

(3) هو أحمد بن أبي المحاسن بن تيمية الحرّانيّ الدمشقيّ شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس، توفي مسجوناً في قلعة دمشق عام 728هـ. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 290-287/9؛ العسقلاني، م.س، 170-154/1؛ ابن تغري بردي، م.س، 196/9-197.

(4) ينظر: ابن كثير، م.س، 393-387/9.

(5) ابن الوردي، الديوان، ص267-266.

عثا في عرضِه قومٌ سِلاطٌ لهم من نثرِ جوهرِه التقاطُ
تقيُّ الدينَ أحمدُ خيرُ حَبِرٍ خُرُوقُ المُفَصَّلَاتِ به تُخاطُ
توفي وهو مَحْبُوسٌ فريدٌ وليس له إلى الدنيا انبساطُ

وبعد هذه الأبيات يأخذ الشاعر في تعداد مناقب شيخ الإسلام، إلى أن يصل إلى اعتبار ما حلَّ به من سجن إنما هو مكر من حاسديه، الذين قصرُوا عن نيل مناقبه، وعجزوا عن تحصيل ما حصلَّ من العلوم، فنشطوا في أذاه، وللشيخ في موته قدوة، هم آل علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، الذين ذاقوا الموت ولم يتراجعوا عن الحق، وبموت الشيخ يهبط نجمُ علم بني تيمية، لذا سيندم من تسببوا في سجنه عندما يرون عقائد الشرك تنشط، ولكن اليهود سيفرحون فهذه فرصتهم في الدس والتخريب، يقول

(الوافر)

هُم حَسَدُوهُ لَمَّا لَمْ يَنَالُوا مناقبَه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طرائقه كُسالَى ولكن في أذاه لهم نشاطُ
وحبسُ الدرِّ في الأصدافِ فخرٌ وعندَ الشيخِ بالسجنِ اغتباطُ
بآلِ الهاشميِّ له اقتداءٌ فقد ذاقوا المنونَ ولم يواطوا
بنو تيميةٍ كانوا فباتوا نجومَ العلمِ أدركها انهباطُ
ولكن يا ندامةً حاسديه فشكُّ الشريكِ كان به يُماطُ
ويا فرحَ اليهودِ بما فعلتم فإنَّ الضدَّ يعجبه الخُباطُ⁽¹⁾

ثم يعاتب الشاعر القوم، أي الحكام الذين سجنوه، قائلاً: أليس فيكم رجل رشيد يغضب لسجن هذا الإمام، فهو لم يطلب ولاية ولا وقفاً، ولا نافسكم في دنيا، ولم يعاشركم، فقيم سجنتموه، ويتهمهم الشاعر: بأنهم قد يكونون أوتوا أجراً على إيدائه، يقول⁽²⁾:

(الوافر)

ألم يكُ فيكم رجلٌ رشيدٌ يرى سجنَ الإمامِ فيستشاطُ
إمامٌ لا ولايةً كان يرجو ولا وقفاً عليه ولا رباطُ
ولا جاركم في كسب مالٍ ولم يُعهدْ له بكم اختلاطُ
فقيم سجنتموه وعظتموه أما لجزا أذيتِه اشتراطُ

ثم ينكر الشاعر عليهم مثل هذا الفعل العظيم، الذي حطَّ من أقدارهم، ويقسم أنه لولا الفتنة، لكشف السرَّ في حبسه، وقال ما عنده، ولكن مثل هذا لا يليق بأهل العلم، وهذا زمان لا

(6) ابن الوردي، م.ن، ص 266-267.

(1) الخباط، بضم الخاء، داء كالجنون، أو الفساد والأذى، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة خبط.

(2) ابن الوردي، الديوان، ص 267.

إنصاف ولا عدل فيه، ولا يحكم فيه إلا الهوى، ولكن سيكشف قصد سجانیه ونواياهم يوم القيامة أمام الله، عز وجل، وفي شيء من الألم والتوعد يدعوهم الشاعر ليفعلوا ما يشاءون فقد استراحوا ممن كان ينكر عليهم، وليقرر ما يشاءون فقد انطوى زمان من كان يقف على كل قرار، يقول الشاعر⁽³⁾:

(الوافر)

وسجنُ الشيخ لا يرضاهُ مثلي	ففيه لقدرٍ مثلكم انحطاطُ
أما والله لولا كتم سري	وخوفُ الشرِّ لانحلَّ الرباطُ
وكنْتُ أقولُ ما عندي ولكن	بأهلِ العلمِ ما حسنَ اشتطاطُ
فما أحدٌ إلى الإنصاف يدعو	وكلُّ في هواه له انخراطُ
سيظهرُ قصدكم يا حابسيه	وننبئكم إذا نُصبَ الصراطُ
فها هو مات عنكم واسترحتم	فعاطوا ما أردتم أن تُعاطوا
وحلُّوا واعقدوا من غير ردِّ	عليكم وانطوى ذاك البساطُ

وهكذا نرى أنَّ جريمة حبس شيخ الإسلام لم تمرّ دون أن يُرفع فيها صوتُ كصوت الشاعر ابن الوردي، الذي مثلَّ الجموع المهيبة، التي احتشدت يوم وفاته لدفنه، حتى ضاقت بهم دمشق.

٥ التفتيش في رعاية شؤون الناس

المفهوم الأول للحكم هو رعاية شؤون الناس في جميع جوانب حياتهم، وأيّ تقصير في هذه الرعاية تُخرجه عن طبيعته، وتزيد الفجوة بين الحاكم والمحكومين، ولا شيء أبشع وأخطر من التفتيش في حفظ أمن الناس، فيأكل قوِيهم ضعيفهم، وتنتشر الجريمة في الأنفس والأموال، وقد رصد بعض شعراء العصر المملوكي الأوّل مثل هذه الظاهرة، فهذا البوصيري ينشئ قصيدة طويلة، تبلغ تسعة وثمانين بيتاً يمدح فيها الوزير صاحب شمس الدين عيسى بن برهان الدين السنجاري⁽¹⁾، يجعل آخرها في شكوى مستخدمى الدولة من التّصارى، ويشكو له أمر والى الحرب، أو صاحب الشرطة، حيث توجه إليه صاحب للبوصيري، الذي سرق اللصوص ثيابه ونهبوا بيته، فلم يأبه له هذا الوالى، وكأنه يشكو له ملك الفرنجة افرنسيس، وأشعره بأن الأمر قد فات، بل لم يقبل شهادة قوم بصدقه، ثم يأتي هؤلاء اللصوص فيدعون أنّه سرقهم، فيكاد يصاب

⁽³⁾ ابن الوردي، م.ن، ص 267.

⁽¹⁾ هو شمس الدين عيسى بن الخضر بن برهان الدين السنجاري، كان ينوب عن والده في الوزارة سنة 678 هـ، وولي نظر الأحباس، ونظر خانقاه سعيد السعداء، ثم ولي بعد ذلك تدريس المدرسة الصلاحية، توفي في المدرسة المعزّية بمصر سنة 682 هـ. ينظر الصفدي، الوافي بالوفيات، 134/23، المقرئ، السلوك، 2/181.

بالجنون، فقد ملأوا بيوتهم بماله، ويتساءل الشاعر متعجباً، هل الولاية تفسد الطبع والمرودة إلى هذا الحد فيمضي كلام اللصوص الجناة، وتُجرّم الضحية، ويقلب هذا الوالي الحق، فيبرئ اللصوص الظالمين، وهو يعلم أنهم لصوص، ويودع من سُرِق ماله وذهب عقله السجن، ، يقول البوصيري⁽²⁾:

(الكامل)

لي صاحب سَرَقَ اللصوصُ ثيابه
وشكا لوالي الحرب سارقَ بيته
وكأنه قاضٍ يقولُ لخصمه
ويحجّه أصحابُ ريعٍ عنده
ولربما التمسوه بالمال الذي
ملأوا البيوتَ بماله ولو اشتكى
كم قلتُ إذ سمعَ الولاةَ كلامهم
قَلَبَ العِيانَ لهم، وكم في علمه
فانظر لمن ذهبَ اللصوصُ بماله
رفعوا القواعدَ من شوارِ ثيابه
وإمعاناً من الشاعر في تصوير فقدان الأمن، وشيوع حالة النهب والسلب، يقول بأنّه لا يبعث مدائح، إلى الأمير شمس الدين خشية أن يسرقها هؤلاء اللصوص، يقول:

قد كنت من خوف اللصوص أخاف أن أهدي إليك من القريض عروسا
ولا شك في أنّ هذه القصيدة، لا تمثل مستوى التقدّم المجتمعي الذي وصل إليه الشعر في هذا العصر، وضلوع البوصيري فيه وحسب، بل تكشف صورة مؤلمة من الظلم، والضياع، وغياب الأمن والعدل.

ويقع مثل هذا الحادث لشاعر آخر هو ابنُ الفردة⁽³⁾، وفي بلد آخر هي دمشق، حيث يُسرق له من الكتب بقدر ألفي مجلدة، فيبيعهام جماعة من التجار في دمشق، ويرفع الأمر إلى

(2) البوصيري، الديوان، ص301-303.

(3) المقصود به العدو الصليبي.

(4) ملموس: مسّه جنون أو داء، وتأتي في البيت بمعنى: مطلوب ومدعى عليه ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة لمس.

(5) الكيموس: الحالة التي يكون عليها الطعام بعد فعل المعدة فيه (يونانية)، والمقصود بها هنا الطبع، ينظر: المعجم الوسيط، مادة كيم.

(1) يعنو: يأخذ قسراً، ينظر: المعجم الوسيط، مادة عنى.

(2) الشوار: متاع البيت، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة شور، وتأتي في البيت بمعنى صوان الثياب.

نائب السلطان، ولكنه لم يلتفت إليه، ولم يجد الشاعر من ينصره، فازداد ألمه لذلك، وتمكن اختلاطه، حتى إنه كان لا يقبل من أحد شيئاً، بل من أعطاه شيئاً، لما يرى من سوء حاله، قال له: أنت من سرق كتبي وتريد أن ترشوني، فنظم قصيدة، قال فيها ابن حجر: "وهي طويلة" (4)، ولم يورد منها إلا هذه الأبيات، التي يناشد فيها نائب السلطان ألا يغفل عن معاقبة هؤلاء اللصوص، ويشبه هذا النائب بحائط لا ينطق، يقول (5):

(الكامل)

يا نائبَ السلطان لا تكُ غافلاً
عن قتلِ قومٍ للظواهرِ زوقوا
ما هم تجارٌ بل لصوصٌ كلُّهم
فأمرُ بهم أن يُقتلوا أو يشنقوا
وأراك لا تُجدي إليك شكاية
إلا كأنك حائطٌ لا ينطقُ
لا تعفُ عن قومٍ سَعَوْا بفسادِهِم
في الأرضِ بغياً منهمُ وتخرقوا
واكشف ظلامَةً من شكا خصماً له
فالحقُ حقٌّ واضحٌ، هو مشرقُ

ويتكرّر هذا المشهد مع الشاعر صفي الدين الحلي، إذ يسطو جماعة من اللصوص على بيته ويسرقون ماله، ويحتمون بأحد نواب السلطان شمس الدين أبي المكارم ابن السلطان الملك المنصور، فيحميمهم ويستخدمهم، فينظم الشاعر قصيدة طويلة، بلغت خمسة وخمسين بيتاً، يحرّض فيها السلطان على معاقبة هؤلاء اللصوص وتخليص ماله منهم، في مطلعها يعتبر ما حصل مصيبة عظيمة يعجز لسان الحال أن يعبر عنها، وطُرقُ الحقِ مظلمةٌ سادها الهوى، وقد صمت القضاة عن البتّ في قضيته، وراح خصمه، ممن سرقوه يحكمون فيها، وتتصلّ من معالجتها صاحب الصلاحية، أي نائب السلطان، ويبحث عن يوليه أمرها، فيغتاط الشاعر لموقفه هذا، ويعتبر جهله في معالجتها مصيبة عظيمة، والأعظم منها أن يعلم علاجها ولا يعالجها، ويقابل شكوى الشاعر ضاحكاً معرضاً عنه، ليس لعجز وإنما لهوى وحاجة في نفسه، وهذا موقف عجّل له المشيب رغم صغر سنه، يقول الشاعر (1):

(الكامل)

خطبَ لسانَ الحالِ فيه أبكمُ
وهوىَ طريقَ الحقِّ فيه مظلمُ
وقضيةٌ صمتَ القضاةَ ترفعاً
عن فصلها، والخصمُ فيها يحكمُ
أمسى الخبيرُ بها يُسائلُ: مَنْ لها؟
فأجبتُهُ، وحشاشتي تتضرمُ

(3) هو علي بن إبراهيم الواسطي البغدادي المعروف بابن الفردة، (ت 750هـ)، تعانى الأدب والشعر والوعظ، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/76-77؛ الزركلي، الأعلام، 4/251.

(4) العسقلاني، م.س، 3/77.

(5) العسقلاني، م.س، 3/77.

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 69-70.

إن كنت ما تدري، فتلك مصيبةٌ
أشكو فيعرضُ عن مقالِي ضاحكاً
أو كنتَ تدري، فالمصيبةُ أعظمُ
ما ذاك من فَرَطِ العيَاءِ، وإنما
والحرُّ يوجِّعه الكلامُ ويؤلمُ
لهوى القلوب سريرةٌ لا تعلمُ
كبيراً ولكنَّ الحوادثُ تُهرمُ
فلئن علا رأسي المشيبُ فلم يكن

ويتحدث الشاعر عن ماردین، حيث وقع الحادث، وكيف تغير حالها، فأصبح ابن الغزال يسطو على الليث، وأصبحت الأفاعي تفسد في غابات الأسود، وراحت الخيل تنهق والحمير تحمم، الجاني فيها، إن قبض عليه، حلف بالطلاق وأفرج عنه، وشرط الوالي فيها ألا يتدخل في شيء، ويقول مستهزئاً إنها ليست كالشام، التي يسرق فيها اللص، ويغرم غيره ممن يقبض عليه، يقول (2):

(الكامل)

فإنه يحرسُ ماردین، فإنها
أرضٌ بها يسطو على الليث الطلأ
بلدٌ يلدُّ بها الغريبُ وينعمُ (3)
ويعوثُ في غابِ الهزيرِ الأرقمُ (4)
حالت بها الأشياءُ عن عاداتها
فالخيلُ تنهقُ، والحميرُ تحممُ
يجني بها الجاني، فإن ظفروا به
يوماً، يحلفُ بالطلاق ويُرجمُ
شرطُ الولاةِ بها بأن يمضي الذي
يمضي، ويسلمُ عندهم ما يسلمُ
لا كالشام، فإن شرطَ ولايتها
اللصُّ يجني، والمقدمُ يغرمُ

ويعنف الشاعر على ظنه بهؤلاء اللصوص، فيقول لمن يعتقه بأن بعض الغيب يعلم، ثم من أين درى اللصوص أن جميع ماله قد اكتمل وجمع، يعني بهذا أن من سرقوه، مقربون منه وعالمون بحاله، يقول

(الكامل)

ومعنفٌ في الظنِّ قلتُ له: اتند،
من أين يدري اللصُّ أن دراهمي
فاقصر، فبعض الغيبِ غيبٌ يعلمُ
لم يبقَ منها في الخزانةِ درهمٌ؟
صبروا، ومالي في البيوتِ مقسمٌ
حتى إذا اكتملَ الجميعُ تسلّموا

ثم يتوجه بالخطاب إلى السلطان، يناشده ألا يطمع أهل الفساد بترك عقوبتهم، فهم أنذال إذا أكرموا بالعفو عنهم طغوا، فهذا السارق الذي قبض عليه مراراً ولم تقطع يده ما الذي

(2) صفي الدين الحلي، م.ن، ص70.

(3) ماردین: قلعة مشهورة على جبل الجزيرة، مشرفة على دُنيسر ودارا ونصيبين، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 39/5.

(4) الطلأ: (الطلي): الصغیر من كل شيء، وقيل الولد من ذوات الظلف والخف، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة طلى.

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص70.

يردعه؟!، ويستنكر الشاعر أن تخفى على الملك قضيته، وقد تحدث بها الناس في مُصر، وينكر تبرئة المشبوهين، واتهام صبيان الكتاتيب بها، وينتقد الشاعر أيضاً خلو السجون من المجرمين، فلا يرى فيها إلا المستضعفين والخدم، ويتعجب الشاعر من معرفة السلطان بدقائق الأمور، من مثل أن يزور أحدهم راهباً في البويرة ليلاً، فيعلمها في الصباح، أما سرقة بيته التي تمت جهاراً واشتهرت، فكتمت عنه ولم يعلمها، يقول الشاعر

(الكامل)

يا أيها الملكُ الذي في عصره	كلُّ الملوكِ لعدله تتعلمُ
لا تُطمعنَ ذوي الفسادِ بتركهمُ	فالنذلُ تطغى نفسه إذ تُكرمُ
إن كان مَنْ ينجو مراراً لم يخفُ	قطعاً، فلا أدري على ما يندمُ
أيجوزُ أن تخفى عليكِ قضيتي	والناسُ في مُصرٍ بها تتكلمُ
فإذا شكوتُ، يقالُ لم يذهبْ له	مالٌ، ولكنْ ظالمٌ ينظلمُ
أيجوزُ أن يمسي السقيمُ مُبرأً	منها، وصبيانُ المكاتبِ تتهمُ
وأجبلُ عيني في الحبوسِ فلا أرى	إلا ابنَ جاري، أو غلاماً يخدمُ ⁽³⁾
أيزارُ في بابِ البويرةِ راهبٌ	ليلاً، فيدري في الصباحِ ويعلمُ ⁽⁴⁾
وتزفُ داري بالشموعِ جماعةً	غُلبٌ، فيستترُ عن غلاكِ ويُكتمُ

ثم يأخذ الشاعر في وصف هؤلاء اللصوص، فيقول بأن لهم ظهوراً تحميهم فلا تطالهم عقوبة، فلا يخشون إن دخلوا البيوت وأهلها أيقاظ، وإن ظفروا بالناس فتكوا بهم، ومن يظفر بهم من الناس يُجرّم، يقول الشاعر⁽⁵⁾:

(الكامل)

قومٌ لهم ظَهْرٌ شديدٌ مانعٌ	كلُّ به يدري على ما يُقدّمُ
لا يحفلونَ، وقد أحاطَ عبيدُهم	بالدارِ، أيقاظٌ بها أو نومٌ
إن يظفروا فتكوا، وإن يظفروا بهم	كلُّ عليه يُنابُ أو يستخدمُ

وينتقل الشاعر إلى الحديث عن الحدود، فيناشد الملك أن يقيم فيهم حدود الله، لأنّ تسامحه معهم جرّاهم على التمادي في الإجرام، وإن خشي أن يعدّ ظالماً إذا ما عاقبهم، فهو في خشيته هذه أظلم للرعية، والحلم في مثل هذه الأمور دَلّة من السلطان، والجريمة جرح علاجها أو مرهمها

(2) صفي الدين الحلّي، م.ن، ص70.

(3) ابن جاري، أي ابن جارية.

(4) باب البويرة: موضع بحوف مصر. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/513.

(5) صفي الدين الحلّي، م.س، ص70.

إقامة الحدود، يقول

(1) :

(الكامل)

فَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ فِيهِمْ، إِنَّهُمْ وَثِقُوا بِأَنَّكَ رَاحِمٌ لَا تَنْقُمُ
إِنْ كُنْتَ تَخْشَى أَنْ تُعَذَّبَ بِظَالِمٍ لَهُمْ، فَإِنَّكَ لِلرَّعِيَّةِ أَظْلَمُ
فَالْحِلْمُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ذِلَّةٌ وَالْبَغْيُ جُرْحٌ، وَالسِّيَاسَةُ مَرَهْمٌ

ويأخذ الشاعر في ضرب الأمثال من التاريخ، في أنّ السلطان لا يستقر ولا يستقيم إلا بالقوة، فهذا المأمون تم له الحكم واستقام لقوته، في حين أنه لم يستقم للأمين لضعفه ولينه، ومثلها المعتصم صاحب البأس، فيبدو وكأنه يحتاج من يبطل إقامة الحدود، فلو كان في تعطيل الحدود رحمة لما أمر الله بها، فهو عز وجل أرفأ بالعباد وأرحم، والله عز وجل أنزل العذاب بقوم ثمود عقاباً لهم على عقر ناقه صالح، والرسول صلى الله عليه وسلم أقام الحد على قوم أفسدوا، وسرقوا بعض أموال الصدقة، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل عيونهم، ورماهم في صحراء ملتهبة، ولم يقبل فيهم شفاعاة أحد، وكذا فعل عمر بن الخطاب، يوم أصر على أن يقتص الأعرابي من جبلة بن الأيهم أحد ملوك غسان، وكان قد لطم هذا الأعرابي في الطواف، ويصل الشاعر بالسلطان إلى نتيجة مفادها أن من يعطل حدود الله، عز وجل، فجزأه جهنم،

يقول⁽²⁾: (الكامل)

بِالْبَطْشِ تَمَّ الْمَلِكُ لِابْنِ مَرَاجِلٍ وَتَأَخَّرَ ابْنُ زُبَيْدَةَ الْمُتَقَدِّمُ⁽³⁾
وَعَنْتَ لِمُعْتَصِمِ الرَّقَابِ بِبَاسِهِ وَدَهَى الْعِبَادَ بِلَيْنِهِ الْمُسْتَعَصِمُ⁽⁴⁾
مَا رَتَّبَ اللَّهُ الْحُدُودَ، وَقَصْدُهُ فِي النَّاسِ، أَنْ يَرَعِيَ الْمُسِيءَ وَيَرْحَمُ
لَوْ شَاءَ قَالَ: دَعَا الْقِصَاصَ، وَلَمْ يَقُلْ بَلْ فِي الْقِصَاصِ لَكُمْ حَيَاةٌ تَنْعَمُ
إِنْ كَانَ تَعْطِيلُ الْحُدُودِ لِرَحْمَةٍ فَاللَّهُ أَرْأَفُ بِالْعِبَادِ وَأَرْحَمُ
فَاجْزِ الْمُسِيءَ، كَمَا جَزَاهُ بِفِعْلِهِ وَاحْكُمْ بِمَا قَدْ كَانَ رَبُّكَ يَحْكُمُ
عَقِرْتَ ثَمُودُ لَهُ قَدِيمٌ نَاقَةٌ وَهُوَ الْغَنِيُّ، عَنِ الْوَرَى، وَالْمَنْعَمُ
فَلذَاقَهُمْ سَهْوَةُ الْعَذَابِ وَإِنَّهُمْ بِاللَّرِجِزِ يَخْسِفُ أَرْضَهُمْ وَيَدْمِدُمُ
وَأَذَاكَ خَيْرُ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ الَّذِي فِي حُكْمِهِ لَا يَظْلَمُ

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص70-71.

(2) صفي الدين الحلي، م، ن، ص70-71.

(3) ابن مراجل: الخليفة المأمون، والمراجل هي أم المأمون، ابن زبيدة: الخليفة الأمين، أخو المأمون، وزبيدة أم الأمين وهي زوج الرشيد،

ينظر: ابن كثير البداية والنهاية، 220/7.

(4) هو محمد المعتصم بن هارون الرشيد، الخليفة العباسي: الثامن، وكان حازماً، (ت 227هـ)، ينظر: ابن كثير، م، ن، 304/7-306.

المستعصم: آخر خلفاء بني العباس قتله التتار في بغداد سنة 656هـ، ينظر: ابن كثير، م، ن، 87/9-89.

لَمَّا أَتَوْهُ بِغُصْبَةٍ سَرَقُوا لَهُ
 لَمْ يَعْفُ بَلْ قَطَعَ الْأَكْفَ وَأَرْجُلًا
 وَرَمَاهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ بِحَجْرَةٍ
 وَرَجَا أَنَّا نَسُّ أَنْ يَرِقَّ عَلَيْهِمْ
 وَكَذَا فَتَى الْخَطَابِ قَادًا بِلَطْمَةٍ
 فَشَكَا، وَقَالَ لَهُ: أَتَلَطَّمُ سَوْقَةً
 هَذِي حَدُودُ اللَّهِ مِنْ يَخْلُلُ بِهَا
 وَإِبْلًا مِنْ الصَّرِيقَاتِ، وَهُوَ مَصْمَمٌ
 مِنْ بَعْدِ مَا سَمَلَ النَّوَاطِرَ مِنْهُمْ⁽¹⁾
 نَارُ الْهَوَاجِرِ فَوْقَهُ. تَتَضَرَّمُ
 فَأَبَى، وَقَالَ: كَذَا يُجَازَى الْمُجْرِمُ
 مَلِكًا لِعَسَانٍ، أَبُوهُ الْأَيْهَمُ⁽²⁾
 مَلِكًا؟ فَقَالَ: أَجَلٌ وَأَنْفَكَ مُرْعَمٌ
 فَجَزَاؤُهُ، يَوْمَ الْمَعَادِ، جَهَنَّمُ
 وَزِيَادَةٌ فِي تَأْكِيدِ حِجَّتِهِ، يَأْتِي بَيْتَ شِعْرِ الْمُتَنَبِّيِّ، عَلَى سَبِيلِ التَّضْمِينِ، يَقُولُ⁽³⁾:

(الكامل)

وَانظُرْ لِقَوْلِ ابْنِ الْحُسَيْنِ وَقَدْ رَأَى
 "لَا يَسْلُمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى
 حَالًا يَشْقَى عَلَى الْأَبِيِّ وَيَعْظُمُ"⁽⁴⁾
 حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمَ"

ويختتم الشاعر مطولته هذه بتكرار تحريضه للسلطان على الفتك بهم، ويعتذر عن هذا القريض، وإن لم يسيء فيه الأدب، ولكن الضرورة دفعته لمثل هذا القول وهو لم يأسف على المال، وإنما على ما ألزمه البعد عن السلطان، فالمال يكتسب، والذكر ينتشر ويعم، ويشير إلى أن في قصيدته عبرة، ويختتم حديثه بما يختتم به الفقهاء وأهل العلم، وهو قوله "والله أعلم بالصواب وأحكم"، يقول الشاعر

(الكامل)

هَذَا فَعَالَ اللَّهُ، ثُمَّ نَبِيَّهِ
 فَافْتَكُ بِهِمْ فَتَكَ الْمُلُوكَ، وَلَا تَلْنُ
 وَاعْذُرْ مُحِبًّا لَمْ يَسِئْ بِقَرِيضِهِ
 وَاللَّهِ مَا أَسْفَى عَلَى مَالٍ مَضَى
 فَالْمَالُ مَكْتَسَبٌ عَلَى طَوْلِ الْمَدَى
 هَذِي الْعِبَارَةُ لِلْمَحَقِّقِ عِبْرَةٌ
 وَالصَّحْبُ وَالشُّعْرَاءُ، فِيمَا نَظَّمُوا
 فَيَصِحُّ مَا قَالَ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ
 أَدْبَاءً، وَلَكِنَّ الضَّرُورَةَ تَحْكُمُ
 إِلَّا عَلَى اسْتِزْجَامِ بَعْدِي عَنْكُمْ
 وَالذِّكْرُ يُنْجِدُ فِي الْبِلَادِ وَيُتِّهِمُ⁽¹⁾
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَأَحْكَمُ

(1) سمل النواظر: فقأ العيون، ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سمل..

(2) الأيهم: هو جيلة بن الأيهم، من ملوك غسان، صفع أعرابياً في الكعبة، فقتل عمر أن يصفعه الأعرابي فهرب إلى بلاد الروم، ينظر: الصفيدي، الوافي بالوفيات، 11/40-41.

(3) صفي الدين الحلي، الديوان، ص72.

(4) ابن الحسين، أحمد بن الحسين الكندي، المتنبّي الشاعر العباسي الكبير.

(6) صفي الدين الحلي، م.س، ص72.

(1) أنجد: أتى نجداً، وأتهم: أتى تهامة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة تهم.

ولعلنا لا نجانب الصواب إن قلنا إنَّ هذه القصيدة من روائع ما قيل في النقد السياسي،
والمحاسبة على أساس الإسلام، التي لا تعكس صورة التقصير الفاضح في رعاية الحكام لشؤون
النَّاس وحسب، بل تعكس أيضاً جرأة بعض الشعراء في توجيه سهام نقدهم صوب رأس الهرم في
السلطة، الذي هو السلطان.

٦ الخارجون على الدولة

ومما يقع في نطاق النقد السياسي، ما قاله البوصيري في نقد قوم من الأعراب خرجوا على دولة المماليك في صعيد مصر، حيث عدّهم من العصاة المتمردين، ووصفهم باللؤم والشؤم، ونفى عنهم أن يكونوا عرباً، ووصفهم بخيانة العهد، وأنهم أصحاب سطوة وبطش، وأذاهم طال كلّ النَّاس، وهم قوم يرون أعمالهم القبيحة مشروعة، ولا يبالون بما يقوله النَّاس فيهم، ومن لؤمهم وحقارتهم أنهم يغلبون النَّاس عند المشاتمة، وينهزمون عند المقاتلة، يقول⁽¹⁾:

(البسيط)

عصت عليه أناسٌ لا خلاقَ لهم	الشؤمُ شيمتُهُم واللؤمُ والدبْرُ ⁽²⁾
تلثموا ثمّ قالوا: إنّنا عربٌ	فقلت لا عربٌ أنتم ولا حضرٌ
ولا عهدٌ لكم ترعى ولا نممٌ	ولا بيوتكم شَعْرٌ ولا وِبْرٌ
وأبى بريةٍ فيها بيوتكم	وهل هي الشَعْرُ، قولوا لي، أم المدرُ؟
وليس ينجي امرأً راموا أذيتَهُ	منهم فرارٌ، فقلّ كلاً ولا وَررٌ
يشكو جميعُ بني الدنيا أذيتَهُم	فهم بطرقتهم الأحجارُ والحفرُ
يرون كلَّ قبيحٍ منهم حسناً	ولم يبالوا ألامَ النَّاسِ أم عذروا
من لؤمٍ أحسابهم إن شاتموا ربحوا	ومن حقارتهم إن قاتلوا خسروا

فلما علم الأمير عز الدين أيبك الفخري بأن الرفق والتلطف زادهم صلفاً وتمرداً، وأنهم قوم مفسدون، أعمل فيهم سيف العقوبات، فكانت عقوباتهم مختلفة ومتنوعة، فمنهم من أفعد على الأوتاد(الخوزقة)، ومنهم من قطعت أوصالهم، ومنهم من ضربت أعناقهم بالسيوف، ومنهم من نكسوا في الآبار، وآخرون صلبوا على الألواح فوق الخيل، وبعضهم غرّموا مالاً، حتى قال النَّاس فيمن اكتفي بتغريمهم: العور أهون من العمى، وهكذا تلقوا موتات سيئة في الدنيا، ولهم يوم القيامة جهنّم، ولما رأى المستخدمون ما حلّ بهؤلاء البغاة تأدبوا وارعوا عن كلّ خيانة، يقول البوصيري⁽³⁾:

(البسيط)

لما علمت بأنّ الرفق أبطرهم	والمفسدون إذا أكرمتهم بطروا
زجرتهم بعقوباتٍ منوعةٍ	وفي العقوباتٍ للطاغين مزدجرٌ
كانهم أقسموا بالله أنّهم	لا يتركون الأذى إلا إذا قُهروا

(1) البوصيري، الديوان، ص 231-233 .

(2) الدبْر : النكوص والهزيمة، ينظر: ابن منظور لسان العرب، مادة دبّر .

(3) البوصيري، م.س، ص 232-233 .

فمعشَرٌ رُكِبوا الأوتادَ فانقطعت
 أمعاؤهم فتمنَّوا أنهم نُجروا⁽⁴⁾
 ومعشَرٌ قُطِّعتْ أوصالُهم قطعاً
 فما يلفقُها خيطٌ ولا إبرٌ
 ومعشَرٌ بالطَّبا طارت رؤوسُهُم
 عن الجسوم، فقلنا: إنها أكرٌ⁽¹⁾
 ومعشَرٌ وسَّطوا مثلَ الدِّلاءِ ولم
 تُربط حبالٌ بها يوماً ولا بكرٌ
 ومعشَرٌ سَمَّروا فوقَ الجيادِ وقد
 شدَّتْ جسومُهُم الألواحُ والدُّسُرُ⁽²⁾
 وآخرون فدَّوا بالمالِ أنفسهم
 وقالت النَّاسُ: خيرٌ من عمى عورٌ
 وموتاتٌ سوءٌ تلقَّوها بما صنعوا
 ومن وراءِ تلقِّيهم لها سقرٌ
 وقد تآدبت المستخدمون بهم
 والغافلون إذا ما ذُكروا ذكروا

وقد رصد البوصيري في قصيدته هذه ظاهرة الخروج أو التمرد على المماليك، والتي شهدت مصر، وبخاصة مناطق الصعيد، والشرقية، والبحيرة، إذ ثارت العُربان، بقيادة حصن الدين ثعلب، ففضى عليها الملك المعز أيبك، وصورت القصيدة العقوبات التي نفذها بحق من استسلموا من هذه القبائل⁽³⁾، وعبر البوصيري في هذه القصيدة أيضاً عن وجود من لا يوافق هؤلاء الثائرين في ثورتهم على المماليك، وربما يكون هذا للخطر الخارجي المتمثل بالصليبيين، ولما أبداه المماليك من حسن بلاء في مواجهتهم، وهزيمتهم في دمياط وأسر ملكهم لويس التاسع، وربما لأنهم كانوا في بداية حكمهم ولم يكن قد استشرى ظلمهم، وطار شرهم.

7 - العُملاء

ومن النقد السياسي أيضاً ما قيل فيمن عاونوا أعداء الأمة، من أبنائها، ومنه أن التتار في سنة 699هـ أغاروا على دمشق وبعض قراها فنهبوا، وفعلوا أفعالاً قبيحة بأهلها، وكان يتولى الطلب من أهل دمشق لصالح التتار الصفي السنجاري، وعلاء الدين أستاذار قبجق⁽⁴⁾، وأبناء الشيخ الحريري الحنّ والبنّ⁽⁵⁾، فقال فيهم الزملكاني⁽⁶⁾:

(4) المقصود بها أجلسوا على الخازوق، ينظر: المعجم الوسيط، مادة خزق.

(1) أكر جمع كرة، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة (كرا).

(2) الدُّسر: المسامير، مفرداها يسار، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة دسر.

(3) المقرئزي، السلوك، 1/479-481.

(4) علاء الدين أستاذار قبجق المنصوري، ممن استسلموا لقازان المغولي، فاستنابه على دمشق، ت 710هـ. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 9/249-253؛ المقرئزي، م.س، 2/463؛ الدرر الكامنة، 325-327.

(5) الحنّ والبنّ: الحنّ (الحق) علي بن محمد بن الشيخ الحريري، والبنّ (اليز) لقب أخيه، ودخلا في أذية الناس سنة دخول قازان دمشق، وغرق علي هذا بالسيل في بعلبك سنة 717هـ. ينظر: العسقلاني، م.س، 3/188.

(البسيط)

لهفي على جلق يا شرَّ ما لقيت
من كلِّ علجٍ له في كفره فنُّ
بالطمِّ والرَّمِّ جاعوا لا عديد لهم
فالجنُّ بعضهم، والحنُّ والبنُّ⁽¹⁾

ويقول الشيخ عز الدين عبد الغني الجزري⁽²⁾ في هؤلاء العملاء المتواطئين مع المغول: (3)

(الطويل)

بلينا بقوم كالكلابِ أخسَّةٍ
علينا بغاراتِ المخاوفِ قد شنَّوا

هم الجنُّ حقاً ليس في ذاك ريبه
ومع ذا فقد والاهمُّ الحنُّ والبنُّ

ويقول الشيخ علاء الدين الوداعي واصفاً الحال التي غدت عليها دمشق بعد هذا الغزو

وتسلَّط عملاء التتار على أهلها: (4)

(الطويل)

رمتنا صنوفُ الدهرِ حقاً بسبعةٍ
فما أحدٌ منا من السبعِ سالمٌ

غلاءً وغازانٌ وغزوّ وغارةٍ
وغدرٌ وإغبانٌ وغمٌّ ملازمٌ⁽⁵⁾

ويقول الوداعي أيضاً في الصفيّ السنجاري الذي تواطأ مع المغول، وتسلَّط على أموال

النَّاس فأفقرهم، وكأنَّه يريد أن يعلمهم التزهّد في هذه الحياة: (6)

(الطويل)

أتى الشام مع غازان شيخٌ مُسلِّكٌ
على يده تابَ الوري وتزهدوا⁽⁷⁾

فخلَّوا عن الأموال والأهلِ جملةً
فما منهم إلا فقيرٌ مُجرَّدٌ

8- الفساد الوظيفي

ومما يلحق بالجانب السياسي انتقاد بعض الشعراء لبعض الوظائف في الدولة، وبيان

مفاسدها في هذا العصر، وأروع ما يمثل هذا البوصيري في نقده لوظيفة الحسبة، وهي وظيفة

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 102/8. والشاعر هو محمد بن علي بن عبد الواحد، الشيخ العلامة، المفتي، قاضي القضاة، كمال الدين بن الزمكاني الأنصاري، (ت 727هـ). ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 151/4-153؛ ابن كثير، م.س، 383/9؛ العسقلاني، م.س، 192/4-194.

(1) جاء بالطم والرَّم: يعني جاء بكل شي مما يكون في البر والبحر، والطم: البحر، والرَّم: البر، ينظر: لسان العرب، مادة رَمَّ.

(2) هو عبد الغني بن الحسين بن يحيى الجزري المعروف بان القلا، صدر الدين بن رشيد الدين، (ت 702هـ)، تاجر وأديب، دخل دمشق واستوطنها 681، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 497/2.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 102/8.

(4) ابن تغري بردي، م.ن، 102/8.

(5) هو محمود غازان بن هولكو ملك التتار، (ت 703هـ)، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 273/9؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 143/6.

(6) ابن تغري بردي، م.س، 102/8.

(7) مسلكٌ: مخيف، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة سلك.

مهمة في الدولة، فقد عرض عليه أن يكون محتسب القاهرة، فاعتذر عن هذه الوظيفة، فأخذ يعلل رفضه لها، ويعدد مساوئها، ويعتبر تكليفه بها ظلماً له ولها، لأنه لا يجيد أعمالها، ولا خبرة له بها، فأدبه وفضله يأبى عليه أن يباشر هذه الوظيفة، بل يعتبر مباشرتها سبباً، لما فيها من تعرض للناس بالضرب والسب، وأمرهم بما لا يأتهم به، فهي وظيفة مخزية، والقائم عليها كالكلب يلقح في السوق كلبه، يقول (1) :

(منسرح)

لا تظلموني وتظلموا الحسبة	فليس بيني وبينها نسبة ⁽²⁾
غيري في البيع والشرا درب	وليس في الحالتين لي ذرية
فهو أبو حبة كما ذكروا	لا يتغاضى للناس في حبه
وقام في قومه لينذرهم	فهو بإنذار قومه أشبهه
والناس كالزرع في منابته	هذا له تربة وذا تربة
تالله لا يرضى فضلي ولا أدبي	ولا طباعي في هذه السببه
أجلس والناس يهرعون إلى	فغلي في السوق عصبه عصبه
أوجع زيدا ضرباً وأشبعه	سبباً كأنني مرقص الدببه
ويكسب الغيظ مقلتي وخذ	دي احمراراً كزامر القربة
وأمر الناس بالصلاح ولا	أصلح نفسي، حرمتها حسبه
لم أر في قبح فعلها حسناً	كالكلب في السوق يلقح الكلبه
وما كفاها حتى يُخيل لي	أن أتباعي أهواءها قُر به

ويستعيز بالله من حماقة المؤدية الى قلة الحياء والصفافة، ويأبى أن يكون سخرية للأطفال يزفونه منشدين: "أميرنا زارنا بلا ركلة" أي بلا مركوب، و"افسحو لمحتسب قد جاءكم من دمشق في علبه" أي في شدة وقسوة، ومن رضي بالحسبة فعليه أن يحتمل كل تبعاتها، كالوتد يحتمل دق كل مرزبة، ومن طلب هذه الوظيفة مفاخرة عرض نفسه للبلاء والمصائب، كأن يأتيه من يطلب التحقيق في قضايا الزنا، يقول الشاعر (3) :

(منسرح)

أعوذُ بالله أن أكون كمن تغلبه في الرقاعة الرغبه⁽⁴⁾

(1) البوصيري، الديوان، ص119-120.

(2) الحسبة: هي وظيفة موضوعها التحدث في الأمر والنهي، والتحدث على المعاش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته، ويطلق على صاحبها المحتسب، ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 4/38.

(3) البوصيري، م.س، ص120-121.

(4) الرقاعة: الحمق، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة رقع.

يمشي بها والصغار تُشدهُ: أميرنا زارنا بلا ركبته⁽⁵⁾
وما زال الغلام يتبعهُ بدرّة مثل رأسه صلْبهُ
وهو يقول: افسحوا لمحتسبٍ قد جاءكم من دمشق في غلبه
لا تنقل يا فلان في بلدٍ لم تنقل منك بينهم ضبّه⁽⁶⁾
فمن تباهى بأته وتدّ فليحتمل دق كل مرزبه⁽¹⁾
ما بأه خايل الزمان بها؟ كم كان لليل فيه من صبّه
وقائل لم يقل: أتاه كذا يسفه في قوله، ولا يجبه
معناه: من لم يكن كوالده فهو لقيط رمت به قحبه

ثم يضرب البوصيري مثلاً لحال المحتسب صاحباً له، ألقاه حمقه في هذه الوظيفة، فهو رجل حصل مالاً من أموال الزكاة والهبات فأصبح من الأغنياء، وأصبح بماله عدلاً وأميناً ومؤهلاً لمزاولة هذه الوظيفة، يعني أنه وصلها بالرشوة، وقدّر له أن يلعب نجمه في قومه، ويظهر سعده، فخرج من فقره وخمول ذكره إلى أن يكون محتسباً، وما فارق هذه الوظيفة حتى رمته من هضبة الشهرة والغنى إلى حفرة الخمول والفقر، وهذا لجهله وقلة فطنته، فافتضح بها، وهذه عاقبة تزويره وتمويهه، فحاله كحال الشيب المخضب، الذي يزول خضابه فيخجل صاحبه، وراح يدور في هذا الموقف الصعب، مثل ربان السفينة الموشك على الهلاك في ذهاب العقل وشدة الذهول، فهاجمته النسوة، فكان مصيره أن يتسول نادياً نفسه في المقبرة، وقد سمّت به الناس عندما عزل، وهان عليهم الانتقام منه، ويختتم الشاعر بحمد الله على نجاته من هذه الوظيفة، فقد تحقق له أن توليها ليس لعبة، يقول:

(منسرح)

قلت لهم: عند صاحبي حُمقٌ في كل حين يُلقيه في نكبه
حصّل مالاً جمّاً وعدده من أصل مال الزكاة والوهبه
مُنّبه قومه على شغلٍ وساعد الوقت سعد من نبه
وخفت من عتبهم عليّ كما خاف العتاهي العتب من عتبه⁽³⁾
فطار برغوئه لُفته ورام يحكي الأسود في الوثبه
فلم يرم إذ رمته بفطنته إلى وهاد الخمول من هضبه⁽⁴⁾

(5) ركية: مركوب، بنظر: ابن منظور، م.ن مادة ركب.

(6) الصبّه: حديدة عريضة يضرب بها الباب، والجمع ضباب، بنظر: ابن منظور، م.ن، مادة صبّ

(1) مرزبة: مطرقة كبيرة تكون للحداد، ابن منظور، لسان العرب، مادة رزب.

(2) البوصيري: الديوان، ص 121-123.

(3) المقصود أبو العتاهيه، إسماعيل بن القاسم الشاعر العباسي الكبير، (ت 211هـ)، وعتبه: محبوبته، بنظر: الزركلي، الأعلام،

أغرقه جهله وما سترت	قط له سره ولا ركبته
وعاد تمويهه عليه وكم	أحجل شيب الذقون من خضبه
وراح مثل النوات في سفن	خير له من سلافه عطبه ⁽⁵⁾
وساء في ما جرى عليه من الذ	نسوة يوم الخميس في التربة
فلا تس أني فما حضرت لها	لكن سمعت الصياح والنذب
وقالت الناس عندما وردت	لعزله الكتب: هانت الوجبة
فالحمد لله فاحمدوه معي	على خلاصي من هذه النسبه
اليوم حقت أن أمرك بال	حسبه لي ليس كان لي لعبه

وهكذا يكشف البوصيري طبيعة هذه المهنة، وما يواجه صاحبها من متاعب، وما يقع فيه من إساءات للناس، ويكشف أيضاً كيف أن بعض الموظفين يستغلون وظائفهم في تحصيل المال والجاه، وكيف أن صاحبها، كغيره من موظفي الدولة في هذا العصر، مصيره أن يحاسب ويجرد من ماله ويعزل من وظيفته، فيكون عرضة لشماتة الناس به والانتقام منه، وهذه الصورة تكاد تنسحب على كل الوظائف في الدولة، حيث يصل الموظف إلى وظيفته بالرشوة، ثم يستغلها فيثري، ويتجبر في الناس، ثم يحاسب وفي أحيان كثيرة تصادر أمواله، ويعزل من وظيفته، فيلقى المصير البئيس.

ومن نقد الوظائف، قصيدة لابن دانيال، قالها عندما تولى وظيفة محاكمة الغلات، في الجهاز الخاص، وهي قبض الأموال الخاصة بالسلطان، ومنها الغلال، يصف ما لقي فيها من مشقة ومتاعب سفر في سبيل تحصيلها، والمصير الذي آل إليه، وهو أن يقيد ويلقى في الشمس ويصفع، ويشبه نفسه وهو يدور على حماره في سبيل جمع هذه الغلال، ببائع عطور متجول يدور في الأحياء، ويصف ما يلقاه فيها من هموم واضطراب نفسي، وهو في قلة نباهة، لو أصيب بها قوم قارون لداروا، على غناهم، يبحثون عن الأرزاق متسولين، ويتعجب من كثرة الأسفار التي تقتضيها هذه الوظيفة، والتي سؤدت وجهه وعرضه، وضعف فيها جسمه، وضاق بها صدره، حتى أصبح على حال لو رآه عليها عدو لرتى لها، يقول⁽¹⁾:

(الخفيف)

صاح لولا عناء قبض الغلال	ما قبضنا في هذه الأغلال
لا ولا كنت قائماً في هجير	ذا ضلالٍ عن جلسة في الظلال
كل يوم لي سفرة ورحيل	للقرى مثل رحلة الرحال

(4) وهاد: مفردها وهذه، المكان المنخفض من الأرض، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة وهده.

(5) النوات الملاح، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة نوت

(1) الصفيدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص195-196.

فوق جَحْشِي الخرجُ المشاقُّ كَأَنِّي بائعُ العِطْرِ للنِّسَا بالنُّخالِ⁽²⁾
هو قبضٌ لكنَّه قبضٌ قلبٌ وهو شغلٌ لكنَّه شغلٌ بالِ
في خمولٍ لو حازه أهلُ قارو نَ لكدوا جميعهُمُ بمُخالي⁽³⁾
يالها سفرةٌ بها سنودُ الرد منُ عرضي وصورتِي وقُدالي
ساء فيها خَلْقِي وخُلُقِي إلى أن لو رأني العدوُّ يوماً رثي لي

ثم يُستدعى ابن دانيال ليشهد زوراً في الديوان عند قوم قساة القلوب، وكيف لا يشهد، وقد هدّوه بالصّفَع وبتف شاربه، وله صاحب في هذه الوظيفة اسمه الدّلاصي، معروف بشهادة الرّور، حتى لو أنّه أتى بوثيقة بخطّ أحد أبناء نوح لادّعاها، وهو في قوم لا يوقّرون عالماً، ويعدد أسماء بعضهم، ويقوم أحدهم يطلب السجلات، والكيال، والحجّاب ليتسلّموا ما جاء به ابن دانيال من الغلال، ومن دقته في استيفائها بوصيهم هذا الرجل المتكبر، بالأّ يعرضوها للريح، أو يكيلوها في كريال خشية أن يضيع منها شيء، ويقول لهم ابن دانيال لمّا رأى منهم هذا الحرص المفرط بأن يكيلوها في وعاء زبال، كي لا يفلت منه شيء، يقول⁽¹⁾:

(الخفيف)

ثمّ من بعدِ ذا وذا جعلوني شاهداً في ديوانهم بالمُحالِ
عندَ من تُرعدُ الفرائصُ منه وتسيرُ الرّجالُ سيرَ الجبالِ
كيف لا أنكرُ الشهادةَ من قو م أرادوا صفعي وبتفِ سبالي
ورفيقي فيها الدّلاصيُّ دِلْوالدُّ ين أنكو صطلٌ من الأصطال⁽²⁾
لو أتوه بخطّ قفطِ بنِ نوحِ قالَ هذا خطّي وهذا مقالي
بين قومٍ لو قلت: إني ابنُ سينا ضرطوا في شواربِ العزّالي
منهم السيّدُ الكبيرُ كثيرٌ وسويدٌ وزغبرُ ابنُ الخيالي
ذا ينادي قالَ الأميرُ اطلبوا الدّي وانّ واستعجلوا مع الكيالي
فنوافي إليه وهو من العج بٍ بأنفٍ على الوزّارةِ عالي
فينادي حُجّابَه اقبضوا لا تقبضوا دون قبضِ رسمِ الوالي
واحذروا أن تُنظّفوا غلّةَ قط طُ بلوحٍ في الريحِ أو كريالِ⁽³⁾

(2) الخُرْجُ: وعاء ذو عدلين، من شعر أو جلد، يوضع على ظهر الدابة لوضع الأمتعة فيه، ينظر: المعجم الوسيط، مادة خرج. المشاقُّ: الذي يميل يميناً وشمالاً، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة شقق.

(3) المخلاة: هي وعاء يوضع فيه كل شيء يختلى أي يقطع أو يجنى، ينظر: ابن منظور، م، ن، مادة خلا.

(1) الصّفيدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 196-197.

(2) دلوالدين أنكو: اسم الدلاصي، السطل أو الصطل: وعاء الماء المعدني، ينظر: ضنّاوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص 280.

(3) كريال: الغريال، من كريل بمعنى هدّب ونقى وغرل، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة كريل.

فأنادي إن كان لا بدّ من ذا فاقبضوها بطارة الزبّال
وتوقّوا عصفَ الرياحِ لكيلا تجدوها كدارسِ الأطلال

وبعد كل هذا العناء الذي لقيه الشاعر في سبيل تحصيلها، والمشقة التي يلقاها عند من يتسلموها، لا تجد الشاعر يحصل من ورائها سوى قوته، ويتمنى لو أنه تخلّص منها كفافاً لا له ولا عليه، ثم يتوجه إلى الناظر يطلب منه أن يغنيه في أسلوب من التورية أوحى بأنه يمدحه، وينتهي إلى أنه لو كان فيها نفع لهان في سبيلها، ليس الصفع فقط، بل سلخ القفا، يقول⁽⁴⁾:

(الخفيف)

عملٌ لا أحصلُ القوتَ فيه قطُّ إلا بحيلةِ البطالِ
وبؤدي أني خلصتُ كفافاً منه يوماً ولا عليّ ولا لي
أيها الناظرُ الذي لم يزلْ بالـ عين منه يُغني يد الكحالِ
كلُّ صفعٍ يكونُ عقباه نفعٌ فالقفا لو سلخته ما أبالي

والظاهرة التي ترصد من خلال هذه القصيدة، هي ما يلقاه هؤلاء الموظفون من محاسبة عسيرة، واتهام بالتفريط أو الاختلاس، يعرضهم للضرب ليقروا على أنفسهم أو يخوفوا فيتأدّبوا، حتى إنّ هذا كان يطلّ كبار الموظفين في الشؤون المالية في دولة المماليك.

(4) الصفدي، م.س، ص197-198.

ثانياً - شعر النقد الاقتصادي

لعلّ السّمة الغالبة على هذا العصر هي الفقر، بل الفقر المدقع الذي اجتاح السّواد الأعظم من النّاس، ويُرَدّ هذا الفقر إلى عوامل عدّة، لعلّ أولها وأهمها، أنّ حكام هذا العصر كانوا جباة مال أكثر منهم رعاة شؤون، لذا كان المال دُوْلَةً بينهم، وبين رجالات الدولة و موظفيها، فأثروا ثراءً فاحشاً، وكان مصدر هذه الأموال النّاس، من تجار وفلاحين، تستخلص منهم بضرائب كثيرة ومتنوعة. وفعل الجباة فعلهم في إرهاب النّاس ونهب أموالهم، وكانت النتيجة المحتمّة لمثل هذا الظلم خراب الأراضي الزراعية، وبخاصة في مصر التي يُعَدّ خراجها من أهمّ مصادر بيت مال المسلمين على مر العصور، أضف إلى ذلك الفوضى السياسية التي خلفها تنافس المماليك على الحكم، وما تركته من آثار سيئة على أمن النّاس ومصالحهم.

والعامل الثاني الذي أسهم في افتقار النّاس، هو كثرة الحروب التي خاضتها الدولة في صراعها مع الفرنجة والنتار، التي لم تنحصر آثارها في العدوان على النّاس ومصالحهم وتخريب قرى ومدن، وتشريد أهلها وقطع طرق التجارة وحسب، بل كان النّاس في مصر والشام يدفعون تكاليف هذه الحرب بالأنفس والأموال.

والعامل الثالث يتمثّل في كثرة الكوارث والأوبئة في هذا العصر. وكان للطاعون نوبات في مصر والشام تُحصّد فيها أنفُسٌ لا تحصى، وكذلك الزلازل، والقحط، وغيرها. أمّا الغلاء، فكان المظهر الأول لمثل هذه الحالة الاقتصادية البائسة، وكان وليداً شرعياً لمثل هذه العوامل الثلاثة.

و عبر الشعر في هذا العصر عن الوضع الاقتصادي السيء تعبيراً دقيقاً، ورسم الشعراء صوراً مؤلمة لما عليه النّاس من فقر وعوز، ونقلوا إحساسهم بمثل هذا الواقع بأمانة وصدق، ذلك لأنّهم عاشوا حياة النّاس، بحلوها ومرها، إذ لم يكن للشعراء عند الحكام المماليك في هذا العصر،

تلك المكانة التي كانت لهم في عصور خلت، التي ارتفعوا بها في أحيان كثيرة عن حياة العامة وهموم النَّاس.

وقد تناولت في شعر النقد الاقتصادي الظواهر الآتية:

١ تسلط الحكام و موظفي الدولة على أموال الرعية

تناول الشعراء بالنقد تسلط الحكام وموظفي الدولة والدواوين على أموال النَّاس، ومن هؤلاء البوصيري، الذي وصف تسلط مستخدمي الدواوين من الأقباط والمسلمين، على أموال الرعية، فقال إنَّه لو كان يملك أمرهم لقلع ضروسهم، فهم يرعون أموال الرعية، ولو كان النَّاس يُحلبون لاتخذوهم جواميس، وهم في إهلاك أموال النَّاس كالسوس، قال: (1)

لو كنتُ أملكُ أمرهم من غيرتي لم أبقِ للمستخدمين ضُروسا

يرعونُ أموالَ الرعيَّةِ بالأذى لو يُحلبون لأشبهوا الجاموسا

الله أرسلهم على أقواتهم سوساً وقد أمنوا عليها السوسا

ويقول في ظلمهم، وخروجهم عن الحق في معاملة النَّاس، وتسببهم في خراب البلاد: (1)

(الوافر)

أرى المستخدمين مشوا جميعاً على غير الصراطِ المستقيم

معاشرُ لو ولُّوا جناتِ عدنٍ لصارتُ منهم نارُ الجحيم

فما من بلدةٍ إلا ومنهم عليها كلُّ شيطانٍ رجيم

فلو كانَ النجومُ لها رجوماً إذنْ خلتِ السماءُ من النجوم

ويخصص البوصيري لهم قصيدة، يفضحهم فيها، ويذكر بعضهم بأسمائهم، ويعدد

جرائمهم بحق النَّاس، وبحق الأجناد كذلك، ويقرر منذ البداية أنه بهم خبير، فقد عاشهم سنين،

فوجدهم لصوصاً يعدل الواحد منهم في اللصوصية مائة لص، يقول: (2)

تكلتُ طوائفَ المستخدمينا فلم أرَ فيهم رجلاً أميناً

فخذ أخبارهم مني شفاهاً وأنظرنِي لأخبركَ اليقينا

فقد عاشرتهم ولبئتُ فيهم معَ التجريبِ من عمري سنيانا

حوتُ بلبيسُ طائفةً لصوصاً عدلتُ بواحدٍ منهم مئينا

فُرجي والصفي وصاحبيه أبا يقطون والنشوق السميننا

(1) البوصيري، الديوان، ص 301.

(1) البوصيري، الديوان، ص 454.

(2) البوصيري، م، ص 463 - 464 .

وراح الشاعر يعدد جرائمهم، فقد سرقوا الغلال، وسرق بنو سيف، وهم من المستخدمين،
الغلال في بيادرها، ولا يلام في هذا فساق النصارى، إذا ما كانت هذه الخيانة تقع من عدول
المسلمين، يقول⁽³⁾؛

(الوافر)

وقد سرقوا الغلال وما علمنا كما سرقت بنو سيف الجرونا
وكيف يلام فساق النصارى إذا خانت عدول المسلمينا

وهؤلاء وظفوا جباةً يقبضون الغلال لهم، وكأن الأراضي الزراعية قطائع لهم:⁽⁴⁾

(الوافر)

أقاموا في البلاد لهم جباةً لقبض مغلها كالمقطعينا

وفوق هذا ينهبون مخصصات الجنود، وطريقتهم في ذلك أنهم يكتبون للجندي وصولاً

بحقه، ثم ينصبون له كميناً من اللصوص في الطريق، يستولون على ما استوفاه من مال،
يقول:⁽⁵⁾

(الوافر)

وإن كتبوا لجنديٍّ وصولاً على بلدٍ أصاب به كمينا

ويخشى الشاعر من هؤلاء الخونة، من المسلمين والنصارى واليهود، على أموال مصر

أن تذهب نهباً، فالمسلمون من المستخدمين يقولون بأنهم أولى الناس بهذه الأموال والأقباط
يدعون حقاً تاريخياً فيها، واليهود استحلوا أموال جميع الطوائف، ولم يتورعوا عن النهب إلا يوم
سبتهم:⁽¹⁾

(الوافر)

وما أخشى على أموال مصرَ سوى من معشرٍ يتأولونا
يقول المسلمون: لنا حقوقٌ بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط: إنهم بمصرَ الـ ملوكٌ ومن سواهم غاصبونا
وحللت اليهود بحفظِ سبتِ لهم، مال الطوائف أجمعينا

وعلى لسانهم يفصل الشاعر طريقتهم في نهب أموال الناس، وذلك بعد أن نجوا من

العقوبة لدى السلطان، وعادوا مبرأين من كل جريمة، يقول:⁽²⁾

(الوافر)

نُحيلُ على البلادِ بغيرِ حقٍ أناساً يعسفون و يظلمونا⁽³⁾

(3) البوصيري، م.ن، ص 464.

(4) البوصيري، م.ن، ص 465.

(5) البوصيري، م.ن، ص 466.

(1) البوصيري، الديوان، ص 468 - 469.

(2) البوصيري، م.ن، ص 472.

وإن مَنَعُوا تَقَوَّلْنَا عَلَيْهِمْ
بَأْنَهُمْ عَصَاةً مَفْسُدُونَ
وَجَهَّزْنَا وَلَاةَ الْحَرْبِ لَيْلًا
عَلَى أَنْ يَكْبِسُوهُمْ مَصْبِحِينَ⁽⁴⁾
فصَالُوا صَوْلَةً فَيَمْنُ يَلِيهِمْ
وَصَلْنَا صَوْلَةً فَيَمَا يَلِينَا
فَجَنْنَا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا
وَجَاءُوا بِالرِّجَالِ مَصْفَدِينَ⁽⁵⁾

نعم، هذه طريقتهم في نهب أموال الرعية ، وكيف لا ينجحون في جرائمهم ويبيدهم من السلطان قوة، هم ولاة الحرب، إذ يكفي لتحركهم لاجتياح القرى، وإلقاء القبض على الرجال وسبي النساء، ونهب الأموال، أن تتهم تلك القرى بالعصيان والإفساد.
ومثال هؤلاء ابن قُطَيْبَةَ⁽⁶⁾، فقد أغار على بعض القرى فتركها خراباً، إذ نهب بيادر القمح، وسلب أموال الناس، فأصبح شغله الشاغل هو تحصيل الذهب من وراء هذه الوظيفة، يقول: ⁽⁷⁾

(الوافر)

وما ابنُ قُطَيْبَةَ إِلَّا شَرِيكَ
لهم في كُلِّ مَا يَتَخَطَّفُونَا
أَغَارَ عَلَى قَرْيَ فَاقُوسَ مِنْهُ
بِجَوْرِ يَمْنَعُ النَّوْمَ الْجَفُونََا⁽¹⁾
وَجَاسَ خَلَالَهَا طَوْلًا وَعَرْضًا
وَعَادَرَ عَالِيًا مِنْهَا حُزُونَا⁽²⁾
فَسَلَ أَدْنَيْنَ وَالْبَيْرُوقَ عَنْهُ
وَمَنْزَلَ حَاتِمَ وَسَلِ الْعَرِينَا⁽³⁾
فَقَدَ نَسَفَ التَّلَالَ الحُمَرَ نَسْفًا
وَلَمْ يَتْرِكْ بَعْرَصَتَهَا جُرُونَا⁽⁴⁾
وَصَيَّرَ عَيْنَهَا حِمْلًا وَلَكِنْ
لِمَنْزَلِهِ وَعَلَّتْهَا خَزِينَا
وَأَصْبَحَ شَغْلُهُ تَحْصِيلَ تَبْرِ
وَكَانَتْ رَاوُهُ مِنْ قَبْلِ نُونَا⁽⁵⁾

وهكذا نرى البوصيري قد صوّر لنا العامل الأول في افتقار النَّاسِ، وهو الحكم الجائر، أدقّ تصوير، فأغنانا عن كثير من تفصيلات المؤرخين.

(3) نحيل: نعينهم، أو ننيط بهم عملاً، ينظر: المعجم الوسيط، مادة حول. يعسفون: يظلمون، من العسف، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة عسف.

(4) كبسوه: اقتحموهم، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة كبس.

(5) مصفدين: موثقين، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة صدف.

(6) لم أعثر له على ترجمة.

(7) البوصيري، م.س، ص 472-473.

(1) فاقوس: اسم مدينة في جوف مصر الشرقي، وهي في آخر ديار مصر من جهة الشام، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4/232.

(2) جاس: تردد بينها للغارة، حزون: مفردة حزن: وهو المكان الغليظ، الوعر، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: جاس وحزن.

(3) هذه أسماء مواقع في مصر لم أعثر لها على تعريف.

(4) الجرون: مواضع جمع الثمار وتحفيفها (البيادر)، ابن منظور، م.ن، مادة: جرم.

(5) يعني أنه كان فقيراً فأصبح بوظيفته غنياً، فهو يجمع التبر (الذهب)، ومن قبل كان لا يملك إلا التبن.

ومن هذا القبيل قصيدة الشَّارمَسَاحي في القاضي بدر الدين بن جماعة قاضي الديار المصرية سنة 690هـ، وقد تسلط ابنه على أموال اليتامى، والوقف، وأموال جامع طولون، وراح ينفقها في طلب الجواري والمردان، وأبوه القاضي ابن جماعة يعلم ذلك ويرضاه، بل هو من مكَّنه من هذه الأموال، في وقتٍ تجد فيه من النَّاس مَنْ يموت جوعاً وقد مرَّ ذكرها عند الحديث عن مفاصد القضاة في شعر النقد السياسي⁽⁶⁾.

ويصف شافع بن علي العسقلاني⁽⁷⁾ تسلُّط الموظفين وأصحاب الدواوين على الأموال، قائلاً⁽⁸⁾:

(الطويل)

لقد فاز بالأموال قومٌ تحكَّموا ودان لهم مأمورها وأميرها
فقاسمهم أكياسها شرَّ قِسْمَةٍ "فقينا غواشيتها وفيهم صدورها"⁽⁹⁾

ويقول ابن مخلوف الأعرج السعدي، في تسلط الترك ومنهم السلاطين، والموظفون الأقباط على أموال الرعية، واقتسامها، حيث فاز السلطان ومعه الترك بثلث الخراج، وأخذ القبط النصف، ولم يترك للخلائق إلا السدس، ويتساءل متعجباً كيف يطلب عاقل الرزق في مصر، يقول⁽¹⁾:

(الطويل)

وكيف يرومُ الرزقَ في مصرَ عاقلٌ ومن دونه الأترَكُ بالسيفِ والتَّرسِ
وقد جمعته القبطُ من كلِّ وَجْهَةٍ لأنفسِهِم بالرَّبعِ والثَّمَنِ والخُمسِ
فللتركِ والسلطانِ ثلثُ خراجِها وللقبطِ نصفٌ والخلائقُ في السُدسِ
ويقول مجير الدين بن تميم في وكيل بيت المال، وقد أذاق بيت المال فقراً مؤلماً، حتى يقول النَّاسُ: ما هذا الوكيل عاقلاً، ويقول بيت المال: ما هو مسلماً، يقول⁽²⁾:

(الكامل)

لوكيل بيتِ المالِ أشرفُ منصبٍ لو لم يدعُهُ إلى المكارمِ سُلماً
هو لم يزلْ يُبدي الحماقَةَ في الوري ويذيقُ بيتَ المالِ فقراً مؤلماً
حتى يقولُ النَّاسُ: ما ذا عاقلاً ويقولُ بيتُ المالِ: ما ذا مُسلماً

(6) ينظر صفحة 58 من هذا البحث.

(7) هو شافع بن علي بن عباس بن عساكر الكتاني العسقلاني، (ت 730هـ)، سمع الحديث، وتعالى الآداب، وأتقن النظم، أصابه سهم في وقعة حمص سنة 680 فتسبب بعماه، ينظر: العسقلاني، م.س، 279/2-281؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 207/9؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 465/1.

(8) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص 165.

(9) غواشٍ: جمع غاشية: هي ما يتعشى قوائم السيوف من الأسفان، وشرط البيت تضمين من قول جعفر بن غلبه الحارثي:

(تقاسمهم أسيافنا شر قِسْمَةٍ فقينا غواشيتها، وفيهم صدورها). ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة غشا.

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 243/11.

(2) مجير الدين بن تميم، الديوان، ص 76-77.

ويقول ابن العطار الدنيسري في تسلط الأقباط على أموال بيت المال، فأغنوا حتى غدوا كالسلاطين في غناهم⁽³⁾:
(السريع)

قال نرى الأقباط قد رزقوا حظاً وأضحوا كالسلاطين
وعلّوا الأموال، قلت لهم: رزق كلاب من مجانيين

ويقول الشيخ علاء الدين الوداعي، في مسؤول بيت المال، الذي جاء مع غازان ملك التتار⁽⁴⁾:
(الطويل)

أتى الشام مع غازان شيخ مسلك على يده تاب الورى وتزهّدوا
فخلّوا عن الأموال والأهل جملةً فما منهم إلا فقير مجرد

ويقول مشيراً إلى ما جاءت به سيطرة المغول وعملائهم على دمشق من غلاء وغبن وغم⁽⁵⁾:
(الطويل)

رمتنا صروف الدهر حقاً بسبعةً فما أحد منا من السبع سالم
غلاءً وغازانٌ وغزوّ وغارةٌ وغدرٌ وإغبانٌ وغمٌ ملازم

ومن أسباب الانهيار الاقتصادي في هذا العصر، ظاهرة تغيير النقود، وتنبه بعض الشعراء لها، ففي عام 784 هـ⁽⁶⁾، وهو العام الأخير في العصر المملوكي الأول، أخرج الأمير جركس الخليلي فلوساً جديداً بدلاً من الفلوس العتيقة، فلما فعل ذلك وقف حال الناس، وحصل الغلاء، وقل الجالب، فلما بلغ الأتابك برفوقاً أمر بإبطالها، وفي هذا يقول شهاب الدين ابن العطار⁽¹⁾:
(البيسط)

تغيير عتق فلوسٍ قد أضّر فكم حوادثٍ جُدِدِ جَلَّتْ من العددِ؟!
فكيف تمشي علاقاتُ الأنامِ إذاً والحالُ واقفةٌ بالعنقِ والجُدِدِ

ومن أسباب الانهيار الاقتصادي أيضاً، تسلط أصحاب المكوس على أموال الناس المنقولة وتجارتهم، فهذا سيف الدين السامري، يسافر مع وجيه الدين ابن سويد إلى الموصل، فحضر أصحاب المكس، فحفوا عن جمال الوجيه، ومكسوا السامري وأجحفوا به، فقال: ⁽²⁾

(الطويل)

صحبت وجيه الدين في الدهر مرّةً ليحمل أثقالِي ويخفرَ أحمالي⁽³⁾

(3) ينظر: العسقلاني، الدرر اللكائمة، 307/1.

(4) ابن تغري بردي، م.س، 102/8.

(5) ابن تغري بردي، م.س، 102/8.

(6) ينظر: ابن تغري بردي، م.س، 172/11.

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 172/11.

(2) الكتبي، فوات الوفيات، 174/1.

(3) يخفر: يحفظ ويحمي، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة خفر.

فوزّني عن كلّ حقّ وباطلٍ وعن فرسي والبغلِ والجمالِ الخالي

ويقول ابن الوردي في كاتب مكس قُلْدَ القضاء، وأبقي على كتابة المكس: (4)

(السريع)

كاتبُ مكسٍ قَلْدُوهُ القضا لا زالَ في طردٍ وفي عكسٍ

بمدّةٍ من قلمٍ واحدٍ يكتبُ في الشّرْعِ وفي المكسِ

ويقول ابن الوردي، مستهزئاً بالعدل في دمشق، حيث أطلق سراح صاحب مكس، وسجن

قاضي القضاة (5):

(المنسرح)

دمشقُ لا زالَ ربيعُها خَصِيراً بعذليها اليومَ يُضربُ المثلُ

فضامنُ المكسِ مطلقٌ فَرِحَ فيها، وقاضي القضاةِ معتقلٌ

ويقول ابن الوردي أيضاً في تنصيب ضامن مكس، معتبراً تنصيبه لعنة مزوّقة (6):

(مجزوء الرجز)

ضامنُ مكسٍ قد أتى في خُلعةٍ مُلْفَقَةٍ

فقلت ما ذي خُلعةٍ بل لعنةٌ مُزَوِّقَةٌ

٢ الفقر

كان الفقر نتيجة طبيعية، لتلك السياسات الاقتصادية القائمة على النهب والسلب، وقد وقف الشعراء على ظاهرة الفقر، واستغرقوا في الحديث عنها وعن آثارها الاجتماعية، فقلما نجد شاعراً في هذا العصر، لم يشك فقره وسوء حاله ويؤس عياله، متألماً أو مستغيثاً أو منتقداً، ونبدأ بعض ما قيل في هذا الشأن بالبوصيري، إذ ينشيء قصيدة يستغيث فيها بالوزير بهاء الدين علي بن حنّاء، يبدؤها بمدح الوزير، ثم يأخذ في تفصيل سوء حاله وفقره، وما تركه الفقر من آثار على أسرته وعلاقته بزوجته، ومطلع القصيدة (1):

(السريع)

يا أيُّها المولى الوزيرُ الذي أيّامه طائعةٌ أمره

ويعد مدحه له، الذي استغرق خمسة أبيات، يشكو كثرة العيال، ويقرّر أن يفصل له في حالهم بالخيط والإبرة، فقد صاموا مع النَّاسِ، غير أنهم كانوا عبدة لمن يراهم، فليس لهم ما يشربون به، وطعامهم الخبيز المسلوق، ويقول منفكهاً بأنّه يشير إليهم أن ينتزهوا في

(4) ابن الوردي، الديوان، ص 222.

(5) ابن الوردي، م.ن، ص 285.

(6) ابن الوردي، م.ن، ص 421.

(1) البوصيري، الديوان، ص 220.

ماء هذه الخبيز ويتمتعوا بخضرتها، ويقبل العيد وما في البيت خبز أو قمح ولا فطره، وهؤلاء إن رأوا كعكة أو تمر في أيدي أطفال آخرين دهشوا وتعلقت بها أبصارهم، وراحوا يتحسرون، ويزداد الشاعر بهم ألماً وحسرة، ويعاتبه أبنائه في أنه قطع عنهم الخبز، وصار لا يأتيهم بفس ولا بدرهم، ويسألونه عن عمله لدى قوم، كيف لا يأخذ عليه أجره، أم أنه سُخره، ويتعجب الشاعر من فطنة أطفاله، وينفي أن يخلو الأطفال من فطنة جبليّة، يقول الشاعر

(السريع)

إليك نشكو حالنا، إننا	عائلة في غاية الكثرة
أحدثت المولى الحديث الذي	جری لهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم	كانوا لمن يبصرهم عبرة
إن شربوا فالبنر زير لهم	ما برحت والشربة الجرّه
لهم من الخبيز مسلوقة	في كل يوم تشبه النشرة ⁽³⁾
أقول مهما اجتمعوا حولها:	تنزهوا في الماء والخضرة!
وأقبل العيد وما عندهم	قمح و لا خبز ولا فطره
فارحمهم إن أبصروا كعكة	في يد طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها	بشهقة تتبعها زفره
فكم أقاسي منهم لوعة	وكم أقاسي منهم حسره؟
كم قائل: يا أبنا منهم	قطعت عنا الخبز في كره
ما صرت تأتينا بفس ولا	بدرهم ورق ولا نقره
وأنت في خدمة قوم فهل	تخدمهم يا أبنا سُخره؟
فيا خيبة المسعى إذا لم يكن	يجري لنا أجر ولا أجره
لقد تعجبت لها فطنة	أتى بها الطفل بلا جرّه
وكيف يخلو الطفل من فطنة	وكل مولود على الفطره؟

ثم يستعرض الشاعر أثر هذه الحالة من الفقر والحاجة على علاقته بزوجته، فقد زارت يوماً أختها، وشكت لها حالها وصبرها على فقر الشاعر، فحرّضتها على طلب حقها، دون أن تخشاه، فإن أبي فأنت تنتف لحيته، وراحت تهوّن من قدره في نفسها، فرجعت إلى بيتها ثائرة، فاستقبلته بمطالبتها، فتشاجرا، فما كان منها إلا أن ضربت رأسه بأجرة، واستمر الصراع طوال الليل إلى الصباح، وما انتهى إلا وقد استفرغ الشاعر كل دمه، ويخلص الشاعر إلى أن من

(2) البوصيري، م، ن، ص 221-222.

(3) النشرة رقيه يعالج بها المجنون والمريض، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نشر.

هذه حاله فحقّه أن ينظر السلطان في أمره، ويقول
(السريع)

(1)؛

ويومَ زارت أمهم أختها	والأخت في الغيرة كالضرة
وأقبلت تشكو لها حالها	وصبرها مني على العسره
قالت لها: كيف تكونُ النسا	كذا مع الأزواج يا غره ⁽²⁾
قومي اطلبي حقك منه بلا	تخلف منك ولا فتره ⁽³⁾
وإن تأبى فخذني ذقته	ثم انتفيتها شعرة شعره
قالت لها: ما عادتي هكذا	فإن زوجي عنده ضجره
أخاف إن كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً	طلقتي، قالت لها: بغيره ⁽⁴⁾
فهونت قدري في نفسها	فجاءت الزوجة محتره ⁽⁵⁾
فاستقبلتني فتهدّدتها	فاستقبلت رأسي بأجره ⁽⁶⁾
وباتت الفتنة ما بيننا	من أول الليل إلى بكرة
وما رأى العبدُ له مخلصاً	إلا وما في عينه قطره
فحقٌّ من حالته هذه	أن ينظر المولى له نظره

ويغلب على شعر مثل هذا الجانب روح الفكاهة والتندر، التي لا يخفى ما وراءها من
حرقة وألم.

ولعلّ الحكيم ابن دانيال أكثر شعراء زمانه، شكوى وانتقاداً لفقره وحالة أسرته، وأكثرهم
تفصيلاً في وصف مظاهره، مستخدماً أسلوب الفكاهة والتظرف، ويبدو هذا جلياً في قصيدة
يستعطف فيها أحد الأمراء ويستغيثه، ويعرض لحال أسرته في عيد الأضحى، حيث لم يستطع
أن يوفّر لعياله اللحم، يقول⁽¹⁾:

يا مَنْ أَيْدِيهِ تَهْمِي	إِنْ ضَنَّ غَيْثٌ وَوَسْمِي ⁽²⁾
وَسَمِيَّ جُودٍ، رَأَى النَّا	سُ مِثْلَهُ مَوْضِعَ اسْمِي
وَيَا مَلِيكَ الْبِرَايَا	وَإِبْنَ الْمَلِيكِ الْجِصَمَّ ⁽³⁾

(1) البوصيري، الديوان، ص222-224.

(2) غرة: لا تجرية لها، والرجل: غر، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة غرر.

(3) فترة: الإنكسار والضعف، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة فتر.

(4) بكرة: ما يخرج من بطون الإبل والشاه ويقر الوحش والظباء، والجمع البعر، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة بعر

(5) محتره: محزومة، محرقة الكبد، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة حرر

(6) آجرة: طبيخ الطين، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة أجر.

(1) الصفي: المختار من شعر ابن دانيال، ص69-70.

(2) الوسمي: مطر أول الربيع، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة وسم.

يا غيثُ، يا لَيْثُ في حا	لَتِي نِزَالٍ وَسَلْمٍ
العَبْدُ يُهْنِي مَقَالاً	فَاصْفَحْ وَخِذْهُ بِحِلْمٍ
وَاسْمِعْ حَدِيثاً ظَرِيفاً	وَاعْجَبْ لِقَلَّةِ قَسْمِي
عَيْدُ الْأَضَاحِي وَافِي	يَبْغِي الرِّحَامَ بِرَحْمٍ
وَقَدْ كَعَمْتُ كِلَابِي	وَالْفَارُ عِنْدِي بِحِلْمٍ ⁽⁴⁾

ولما طالبه أهله باللحم أشار عليهم أن يأكلوه فهو قطعة لحم، وتتجاوز النساء، أخته وأمه وبننت عمه، في هذا، ويتساءلن عن السبب في منعهن اللحم، أكان حمية، أم مواصلة صوم، أم قطيعة رحم، أم فقراً لكساد سوق الشعر، ولم يجد من يضحى به إلا عمه، ولكنه كلب، ولا يضحى بكلب، يقول⁽⁵⁾!

(المجتث)

فقلت إذ طالبتني	أهلي بلحم وشحم
قوموا كلوني فإني	في البيت قطعة لحم
تقول بنتي لأختي	وبنت عمي لأمي
تري الحكيم حمانا الت	تزيير دفعا لسقم
أم ذاك واصل صوم	أم ذاك قاطع رحم
أم ليس للشعر سعر	والرسم أقوى كرسم
ولو يضحى بكلب	ذبحت في العيد عمي

ثم يتوجه إلى الأمير الممدوح يسأله مجازاته على شعره، ويسأله أن يجزل له العطاء،

يقول⁽¹⁾!

(المجتث)

فيا ملك البرايا	ويا دواء لمدمي
لولاك ضاع ثنائي	وبار نثري ونظمي ⁽²⁾
فدّم جزيل العطايا	بنائل منك سجم

وهذا الجزار يتوجه إلى بعض الرؤساء في يوم عيد الفطر، يشكو فقره، ويقسم أنه لا يملك في هذا العيد درهما، ويكفي دليلاً على فقره أنه شاعر يتكسب بالشعر، وهنا إشارة إلى كساد سوق الشعر، وقد دفعه هذا الحال إلى أن يشكو همّه للعدوّ والصدّيق، ويجعل من

(3) الحِصَم: الضخم الجنبين والوسط. ينظر: الصفدي، حاشية المختار من شعر ابن دانيال، ص 69.

(4) كعم: سدّ فمه، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة كعم.

(5) الصفدي: م.س، ص 69-70.

(1) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 70.

(2) بار: كسد، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة بور.

الخشكان، وهو ضرب من الطعام، شخصاً غاب عنه في هذا العيد، وامتنع عن الانكشاف له، يقول⁽³⁾:

(الكامل)

يا أيها المولى الرئيسُ ومن له
أشكو لعدلك جورَ دهرٍ لم أزل
وأشدُّ ما قاسيتُ منه أنه
فاغفرْ لعبدٍ قد أتاك وماله
بالله يقسمُ والنبىِّ وآله الـ
ما بات في ذا العيد يملكُ درهما
فتراه ينشدُ حسرةً وتأسفاً
ماذا يضرُّ الخشكان لو انه
ولقد شكالك من حوادث دهره
لا زال بابك للهنا مؤهلاً
جودٌ يضاهي الغيثَ حالة سكبهِ
طولَ المدى غرضاً لأسهم خطبهِ
عن شكرِ فضلك قد شغلتُ بعثبه⁽⁴⁾
حسناتُ أفعالٍ تقومُ بذنبه
أطهارِ أصحابِ العبا ويصحبه
وكفاك أنَّ الشَّعرَ أعظمُ كسبه
من همَّه لعدوه ومحبِّه
في العيد يخبرني بما في قلبه⁽⁵⁾
سُقماً ولست بعاجزٍ عن طبه
أبدأً على بعد المزارِ وقربه

أما ابن نباتة⁽⁶⁾ فيأتي على ذكر فقره وحالة عياله، إذ جاءهم شيء من الغلة، جاءت بها يدُ الأرزاق صدفة، وهي يد ناشزة نافرة عنهم، وشبهه أبناءه بعفاة بيت الله الحرام، الذين يحضرون موسم الحج لينالوا من الأضاحي، ويقول في هذه الحنطة إنها سمراء جميلة المبسم، ترتشف عند تقبيلها، ولا يبدو الشاعر راضياً أو قانعاً بهذا الرزق، وقد علمه الفقر أن ينظم الشعر غير مزحوف، إذ زحاف الشعر فقر، وقد شبه أبناءه أيضاً بالمتجهدين في المحاريب ليلاً، وذلك لسهرهم من الجوع، وأشار إلى أوعية الخبز لتكون حزبهم الذي يصطفون عليه، وقد أشار إلى ما أعمله في بعض الكلمات من تجنيس وتصحيف، فالمجاريب تصحف لتكون محاريب، وكذلك حرب الليل تكون حزب الليل وكذلك الخبز يكون خيراً وجبراً، يقول الشاعر⁽¹⁾:

(البيسط)

وغلة طاف أولادي فقلت لهم
سمراء حنطيةً يفتّر مبسمها
اسعوا لها يا عفاة البيت أو طوفوا⁽²⁾
فكلها بشفاه اللثم مرشوف⁽³⁾

(3) الجزار، الديوان، ص28-29.

(4) العثب: الشدة، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة: عتب.

(5) الخشكان: نوع من المعجنات كالفطير والبقلاوة، ينظر: سعدي ضنّاوى، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص192.

(6) محيي الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن نباتة، (ت 768هـ)، من كبار شعراء مصر في العصر المملوكي الأول،

ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 76/11؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 466/1؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 768/6.

(1) ابن نباتة، الديوان، ص326.

(2) عفاة البيت: أضياف البيت الحرام وطلاب المعروف، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: عفا.

دَقَّتْ يَدُ الرَّزْقِ بَابِي وَهِيَ نَاشِرَةٌ فقلتُ رزقٍ فيه تعسيفٌ⁽⁴⁾
 وَعَلَّمْتَنِي نَظْمَ الشَّعْرِ مِنْ دَرَرٍ ما بيتٌ واحداً بالفقر مزحوفٌ
 هَذَا هُوَ الْخَبْزُ يَا أَجْنَادَ أَدْعِيَةٍ وفي المجاريبِ حربُ الليلِ مصفوفٌ
 خَبْزٌ وَخَيْرٌ وَجِبْرٌ بَعْدَ مَا نَطَقْتُ فللمحامدِ تجنيسٌ وتصحيفٌ

ويبدو ابن نباته في هذا المقطع من تلك القصيدة الطويلة ساخطاً على حاله وفقره، أكثر منه مستغيثاً مستجدياً، وهذا ما أوحى به بعض ألفاظه، التي منها ما لا يليق ذكره. وإذا عدنا إلى ابن دانيال، وجدناه يخاطب ناظر الدولة تاج الدين الطويل، طالباً منه إصلاح حاله، ومعالجة فقره، ومطالباً بحقه في الخراج، وقد تحكّم فيه الموظفون، فتقاسموا ثلثه، وأسقطوا ثلثاً، ولم يبق له ما يسد حاجته، ويقصد بالخراج هنا ما رُتّب له من مالٍ أجرة على عمل، ولقطة الزيت كاد أن ينطفئ سراجها، يقصد أنه بلا مال كادت تنتهي حياته، أما أهله فباتت فوق التراب تلتقط الحب كالدجاج، أي أن بيته خالٍ من الفراش ومن الطعام، يقول⁽⁵⁾:

(مِخْلَعُ الْبَسِيطِ)

أَصْبَحْتُ فِي الْكَاتِبِينَ فَرْدًا وَأَنْتَ كَنْزٌ لِكُلِّ رَاجٍ
 لَا كَشْفَ اللَّهِ مِنْكَ رَأْسِي وَدَمْتَ عَزِي وَدَمْتَ تَاجِي
 مُوَلَّيْ قَدْ سَاعَنِي افْتِقَارِي وَسِرٌّ حُسَادِي احْتِيَاجِي
 فَاصْلُحْ بِحَقِّ الْوَفَاءِ شَأْنِي فَغَيْرِ عَلَيْكَ لَا أَنْجِي
 فَالزَيْتُ قَدْ قَلَّ فِي فَتِيلِي وَكَادَ أَنْ يَنْطَفِي سِرَاجِي
 وَبَاتَ فَوْقَ التُّرَابِ أَهْلِي تَلْتَقِطُ الْحَبَّ كَالدَّجَاجِ
 عَسَاكَ بِاللَّهِ يَا هَلَالِي تَكْتَبُ رِزْقِي عَلَى الْخَرَاجِ
 فَتَلْتُ رِزْقِي حَاصِصُوهُ وَأَسْقَطُوا الثَّلَثَ عَنِ خَرَاجِي
 لَا كَانُ بَخْتِي وَلَا اجْتِهَادِي وَلَا نِكَاحِي وَلَا زَوَاجِي
 إِنْ لَمْ تَعَالَجْ سِقَامَ حَالِي تَحْيِرَ الطَّبِّ فِي عِلَاجِي

وقد أكثر ابن دانيال من شكو الفقر المدقع، فما هو ذا يشكو قلة الغلة، ونقص الخبز في بيته، حتى راح يعشق كل مخزن فيه غلة، ويطرب لشدو كيآلها، ولكنه طرب حقد وغلٍّ، ويتمنى أن يكتحل بغبار الغلال إذا ما ثار، أما الطاحونة فقد ذاب قلبها شوقاً للقمح، وأما القفة فقد

(3) يفتّر: يبدي أسنانه عند الضحك، مرشوف: من الشرف وهو المص بالشفقتين، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: فرر ورشف.

(4) ناشره: عاصية خارجة عن الطاعة، ابن منظور، م.ن، مادة نشر.

(5) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص122.

اغتسلت بدمعها، وأما أطفاله فإنهم يتحرقون شوقاً ولو على قرص جَلَّة، وقد أثَّرت هذه الحالة على أسرته، فالأطفال يشكونه ويتهمونهم، وامراته تستحثه للسعي في طلب قوتهم، وتصفه بأنه زوج الفراش، وأنه حَكِيٌّ لا حكيم، وتتهمه بأنه لا يريهم قرصاً سوى قرص الشمس، أي لا يجلب لهم خبزاً، ويختم بأن هذه مطالب، لا يطيق تحصيلها عنتره لو كلف بها، يقول⁽¹⁾!

(الخفيف)

وسأُنهي إليك أمراً عجبياً	فاستمع صوتي سألتك بالله
إنني قد تأخر القمح عني	عاشق كل مخزن فيه غلّه
إن سمعت الكيال يشدو بذكرى	غلّه هاج في فؤادي غلّه
ومناي إذا أثار غباراً	أغبراً لو كحلت منه بكحله
ذاب قلب الطاحون شوقاً وللقف	فدمع لها بذى ألف غسله
ورأيت الأطفال من عدم الخب	ز تظي ولو على قرص جلّه ⁽²⁾
تلك تشكو، تيك تدعو، وهذي	تتجنّي علي وهي مدله ⁽³⁾
فتراني ملقى وعرسي تنادي	فم وعجل فليس في الصوت مهله
ما ترينا قرصاً سوى قرص شمس الـ	أفق تبدو وخشكان الأهله
عنتر الحرب لو يطالب مثلي	بدقيق لفر من فرد حمله ⁽⁴⁾

٣ حال المهن

والسؤال الملح، ألم يكن لابن دانيال وأمثاله مهنٌ يعناشون بها، أم أنّ حال المهن، لم يكن بأحسن حالاً من الشعر الذي كسدت سوقه، والجواب عند ابن دانيال، يقول⁽¹⁾:

(السريع)

يا سائلي عن صنعتي في الوري
وضيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه
يأخذه من أعين الناس

فهو بهذين البيتين يكشف عن أنّ المهنة التي يمارسها وهي الكحالة، لا تغنيه ولا توفر له أسباب الحياة الكريمة، فما يجنيه من ورائها دراهم يصعب تحصيلها من الناس، وفي قوله "يأخذه من أعين الناس" تورية، فالمعنى القريب أنّه كحال، والمعنى المقصود هو صعوبة تحصيله.

(1) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 77-78.

(2) تظي: يتحرق من شدة الغيظ أو الغضب أو الشوق، جَلَّة: البعر الذي لم ينكسر، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: لظي وجل.

(3) مدله: متحيرة، ذاهب عقلها من الهم، ينظر: ابن منظور، م. ن. مادة دله.

(4) فرد: لا نظير له، ينظر: ابن منظور، م. ن. ، مادة فرد.

(1) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 92-93.

ولم يكتفِ ابن دانيال بهذين البيتين في وصف مهنته، وسعيه في رزق عياله، بل نظم قصيدة طويلة بلغت ستة وعشرين بيتاً، يندب فيها حظّه، ويعدّد نفسه مثلاً في النّحس، ويصف حاله مخموراً مختلّ العقل، يقول⁽²⁾:

(الوافر)

فإنّي أنحسُ الثقليين طُرّاً فكلُّ النّحسِ يُنقلُ عن مثالي
ولما صرتُ بين النَّاسِ أُلحى تعلمتُ الفجورَ مع المحالِ
أورُ على بيوتِ النَّاسِ ليلاً وأنهقُ كالحميرِ وكالبغالِ
رحيقاً في الكؤوسِ تُرى حريقاً إذا مُزجتُ من الماءِ الزُّلالِ
هي الخمرُ التي عقلي لديها يخامرني فأمسي في اختلالِ

ويعدّد فيها أسباب الرزق التي طرقها، من راقص بالحبال في الأسواق منشداً الشعر الجيد والرديء في فرقة غناء، يجرّد كتفه ويحمل المشاعل، ومرقص للذبية والقردة، والكلاب، والأفاعي، إلى مقامر، وإلى مناطق بالكباش، ومصارع بالديوك، يقول⁽³⁾:

(الوافر)

فطوراً منشداً شعراً بديعاً وآونةً أبشلقُ كالخيالِ
وتبصرني رسيلاً للمغاني إذا عاينتُ أحوى ذا جمالِ⁽⁴⁾
وكم أمسيتُ في الجولان سطلاً مع الفقراء أرقصُ في حبالِ
وتحسبُ أنّ لي طرباً وحالاً ومالي غيرُ شَرَدَاتِ الضلالِ
وأكلُ الفارِ والأمزارِ دأبي مع المهتارِ: عنترَ أو بلالِ⁽⁵⁾
جبيتُ السوقَ أجردُ رأسٍ كتفي وأجبي بالمشاعلِ والمخالِ⁽¹⁾
ورقصتُ الدبابَ ورحتُ أجبي على قردٍ تعلّمَ من فيعالِ
وعلمتُ الكلابَ الرقصَ مني وهذبتُ النواشرَ في السلالِ⁽²⁾
وعُدتُ مقامراً في دارٍ لصي بفصّ النردِ منجوسِ الفعالِ⁽³⁾
وكم ناطحتُ بالكبشين نطحاً وألجيتُ الديوكَ إلى القتالِ⁽⁴⁾

(2) الصفدي، م.ن، ص 272.

(3) الصفدي، م.ن، ص 272-273.

(4) الرسيل: فحل الإبل . المغاني: جمع مغني، وهو المنزل الذي كان أهله به، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: رسل وغنا.

(5) الأمزار: نبيذ الشعير والحنطة والحبوب، وقيل: نبيذ الذرة خاصة، المهتار: المستهتر كثير الأباطيل، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: مزر وهنر.

(1) المخال: مفردها مِخْلَة، ما يوضع فيه الحشيش المنتزع، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة خلا.

(2) النواشر: الناشر نوع من الثعابين ينشر رأسه فيكون كالمغرفة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة: نشر.

(3) النرد: لعبة ذات صندوق ومجارة وفصين تعتمد على الحظ، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة فصّ.

(4) ألجيت: ألجأت.

ولمّا وجد أسباب الرزق المنحطّة لم تغنه شيئاً، ولم تصلح حظّه، التّجأ الشاعر إلى أسباب رزق محترمة، هي العلم والتّعلّم، يقول (الوافر)

ولكنّي رأيتُ العلمَ زيناً فعدتُ إلى المدارسِ والجدالِ
وثبتُّ فصرتُ في الفقهاءِ أقضي وأفتي في الحرامِ وفي الحلالِ⁽⁶⁾
ونظمتُ الشعرَ صرّتهُ به فريداً وطلتُ به على السبعِ الطوالِ
وقطعتُ العروضَ بفاعلاتن بأوتادٍ وأسبابٍ ثقّالِ⁽⁷⁾
وعلمُ النّحوِ فيه النّصبُ فني على من كان ذا جاهٍ ومالِ

وبعدها أصبح طبيبياً وكحالاً، ثم فيلسوفاً، ثم بيطرياً، وينتهي به المطاف واعظاً وقارئاً على قبور الموتى، كلّ هذه الأعمال والمهن التي قصدها لطلب الرزق لم تغن فقره ولم تسدّ حاجته، فجرّد نفسه من الحياء، ولم يعد يبالي بأي صورة يطلب فيها معاشه، ويبدو من قصيدته هذه، ولو ضمناً، أنّ بعضها في نظر الشاعر مخزٍ ومخلٌّ بالمروءة، لذا قرر أن يلقي ثوب الحياء ولا يبالي بالقيم السائدة، يقول⁽⁸⁾:

(الوافر)

وطببتُ الأنامَ فكم أناسٍ قتلتهم بقبضٍ وانسهالِ⁽⁹⁾
وداويتُ العيونَ فكم جفونٍ بكحلي ما تنامُ مدى الليالي
وصرتُ من الفلاسيفِ ذا محلٍّ أسفستُ بالمرءِ وبالمحالِ⁽¹⁰⁾
وفي الأعشابِ والأسلابِ علمي له البيطارُ يُصنّفُ بالنّعَالِ
وعدتُ إلى المقابرِ ربّاً وعظي ومقرئها على الرّقمِ البوالي⁽¹⁾
وألقيتُ الحياءَ وراءَ ظهري ولم يخطرُ ببالي أن أبالي

وهكذا تكشف القصيدة كثيراً من الألعاب التي تمارس في الأسواق والأحياء الشعبية، وبعض مظاهر اللهو التي يسلو بها النّاس، وبعض المهن الشعبية مثل القراءة على القبور، وهذه كلّها اتخذت وسيلة للتكسب، التي إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على سوء الحالة الاقتصادية

(5) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 273-274.

(6) ثبت عدت ورجعت، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة (توّب).

(7) أوتاد وأسباب: مصطلحان عروضيان، ينظر: ابن منظور، م.س، مادتي وتد، وسبب.

(8) الصفدي، م.س، ص 274.

(9) القبض: ضد الإنسهال وهو الإمساك. ينظر: المعجم الوسيط، مادتي: قبض وسهل.

(10) المرء: الجدل، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة: مرا.

(1) الرّقم البوالي: القبور. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة رقم.

وشيوخ البطالة، وتكشف القصيدة أيضاً عن وجود المدارس، التي يُتلقى فيها العلوم الشرعية، واللغوية، والفلسفية، وربما علوم الطب أيضاً. وتكشف أيضاً عن أنّ الشاعر في هذا العصر، لم يعد يتمتع بالمكانة المرموقة، التي كان يتمتع بها في عصور خوالٍ، وكانت تتأى به عن ممارسة مثل هذه المهن، أو مثل هذا السعي في طلب رزقه.

وقلما نجد شاعراً في هذا العصر لم يكن صاحب مهنة، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى القول بأن الشعر قد ابتذل في هذا العصر⁽²⁾، والحق أن الشعراء هم من ابتدلوا وليس الشعر، ابتدلوا في مهن اضطروا لها ليعتاشوا. يقول الجزار وقد تكسب بالشعر ثم عاد إلى الجزارة، فعاتبه على ذلك أحدهم⁽³⁾!

(الخفيف)

لا تلمني يا سيدي شرف الديـ
ن إذا ما رأيتني قصّابا

كيف لا أشكرُ الجزارة ما عشت
تُ حفاظاً وأرفضُ الآدابا

وبها أضحت الكلاب تُرجيـ
ني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

فيفضّل الجزار في هذه الأبيات مهنة الجزارة، التي تدرّ عليه دخلاً على امتحان الأدب والشعر، الذي كسدت سوقه وأراق بسببه ماء وجهه، إذ كان يمدح به أناساً أخسّة طمعاً في نوالهم.

ويقول الجزار متفكّها، وقد عيّره بعضهم بمهنته، التي لا يراها عيباً ولا موضع عيارة⁽⁴⁾:

(البسيط)

مولاي إن رام شتمي معشرٌ فلقد
صدّقْتُهُم بقريضي في الذي شتموا

أقررتُ أنّي جزّارٌ كما ذكروا
عني فهل غيرُ هذا القولِ عندهم

وإن يكن أحمدُ الكنديّ متهما
بالفخرِ قبلي فإنّي لستُ أنّهم⁽⁵⁾

فالحمّ والعظمُ والسكينُ تعرفني
والخلعُ والقلعُ والسّاطورُ والوَضَمُ

وربما يكون في ممارسة شاعر كبير كالجزار لمهنة الجزارة، غضّ من مكانته الأدبية، وهذا ما تشي به هذه الأبيات، ولكنّه يواجه هذه النظرة بالفخر بمهنته، في فكاهة ممزوجة بشيء من الألم.

٤ التّكسّب بالشعر

(2) ينظر: زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 3/16-17.

(3) الجزار، الديوان، 30.

(4) الجزار، م.ن، ص72.

(5) المقصود أبو الطيب المتنبّي أحمد بن حسين الكندي، الشاعر العباسي المعروف.

ونتيجةً لمثل هذه الأوضاع الاقتصادية السيئة تكثر المسألة ويقالُ البذل والعطاء، لذا نجد من الشعراء من سأل فمنع، فانقد الزمان وأخلاق أهله، ومنهم من ذمَّ المسألة ودعا إلى حفظ ماء الوجه والكرامة.

يقول ابن الحسام الذهبي (1) الاقتخاري سائلا صاحب شرف الدين يعقوب، ناظر طرابلس، في شيء من العتاب والنقد (الوافر) (2):

إذا ما جئتم لغناء فقري تقول ابشر إذا قدم الأمير
وقد طال المطال وخفت يأتي أميركم وقد مات الفقير

ويقول الدنيسري ابن العطار، شاكيا البطالة مع كثرة العيال، مُحِلاً لِنَفْسِهِ طلب الرزق بالمدح (3):

أصبحت بطالاً، أولادي أربعة محمد وثلاث موثهم يجب
فإن تحيل في رزقي، بمدحك أبو محمد البطال، لا عجب

ويقول الجزار في نقد ممدوحيه، حيث لم يفز بخيرهم، فشبّه نفسه بقصار سوّدت الشمس وجهه في سبيل تبييض أثواب غيره (4):

أكلف نفسي كل يوم وليلة شروراً على من لا أفوز بخيره
كما سوّد القصار بالشمس وجهه ليجهد في تبييض أثواب غيره (5)

ومن مثل هذا قول ابن نباته، وقد جعل له معلوم من المال، فتأخر (6) : (البيسط)

أحلتُموني بمعلومي على أحد يوم القيامة أدنى منه للفكر
فلست أدري وقد طال الزمان به على الزكاة أطلتُم أم على الحشر

(1) أبو حفص الشبلي الدمشقي الاقتخاري، (ت 749هـ)، اشتغل بالأدب والرواية وكان شاعرًا، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 176/2؛ الصقدي، الوافي بالوفيات، 269/22؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 231/3.

(2) الصقدي، م.س، 176/2.

(3) العسقلاني، م.س، 307/1.

(4) الجزار، الديوان، ص 48.

(5) القصار: من يدق الثياب ويبيضها، ينظر، المعجم الوسيط، مادة قصر.

(6) ابن نباته، الديوان، ص 255.

ويقول ساخراً ممن وعده بأن يصرف له شيئاً من مال الزكاة، ولم يف بوعده،
معتبراً الزكاة واجبة على من وعِدَ بالمال وإن لم يحصله (1):
(الكامل)

يا متقناً علمَ الشريعة والذي أنت الأحقُّ بما يقولُ الأولُ
تجِبُ الزكاةُ على الذين وعدتهم وعداً فإنَّهُمُ بذاك تمولوا
ويبدو أن أجور الموظفين في بعض الوظائف كانت بخسه، ويظهر هذا في قول
ابن نباته (2):
(مخلع)
(البيسط)

كنا من الشعرِ قد هربنا لرتبةٍ تقتضي الإعاذه
فما دخلنا في بابِ جاهٍ ولا خرجنا عن الشحاذه (3)
ويقول ابن نباته، وقد مدح أحدهم طمعاً في نواله فحرمه، فيتساءل ماذا يقول للناس
إن سألوه عن عطائه، فإن أجابهم بأنه حرمه كذبوه، وذلك لما عهدوه من كرم هذا الممدوح،
وإن أجابهم بأنه أعطاه كذبته حاله، يقول (4):
(السريع)

ماذا أقولُ اليومَ إن أكثرَ الـ عالمُ عن جودك تسألِي
وقيلَ هل أجدى المديحُ الذي حبرته في مجده العالِي
إن قلت لا كذبني الناسُ أو قلت نَعَمْ كذبني حالي
ويقول الجرّار منتقداً من سئل فمَنع، ومن أعطى فمَنّ، سائلاً أحد أصحاب الشأن في
الدولة أن يغنيه عن سؤال اللؤماء (5):
(الخفيف)

ضاق صدري همّاً ولو لم أهددُ بك دهري ما كان ينجرُ خبَله
بين قومٍ قد صيروا المنعَ والمندَ نَ لهم في الزمان دأباً ومِلّه
فاغني عن سؤالِ كلِّ لنيمٍ وقد علا قدره وإن كان سِفله
معشراً ما ظفرتُ منهم عُقيبَ الـ قصدِ عندَ السؤالِ إلا بخجله
ومتى غبتُ عنهم عتبوني ومتى جنّتهم رأوا ذاك ثقلة
أنا فيهم عارٍ و ماشٍ وغيري وهو دوني له ثيابٌ وبغله

(1) ابن نباتة، الديوان، ص 422.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 234/1.

(3) الشحاذه: سؤال الناس بالاحاح، بنظر : المعجم الوسيط، مادة شحذ.

(4) ابن نباتة، م.س، ص 418.

(5) الجرّار، الديوان، ص 65.

ولا يثير مثل هذا الفقر المنع والمن فقط، بل التفاوت بين النَّاس في الثروة والمعاش، فهذا التفاوت قد يرفع من شأن السفلة، ويضع من حقه الرفعة، وأثار هذا تكون وخيمة على المجتمع.

ويصور أبو الربيع الإربلي⁽¹⁾، ذلَّ المسألة، ومنعه من أقوام لا مروءة لديهم، فيقول⁽²⁾:

(الطويل)

خليليّ كم أشكو إلى غيرِ راحمٍ وأجعلُ عرضي عُرضَةً لِلوَّائِمِ
وأسحبُ ذيلَ الذلِّ بين بيوتكم وأقرعُ في ناديكم سنَّ نادِمِ
هَبُونِي ما استوجبتُ حقاً عليكم أمّا تعتريكم هَزَّةً للمكارِمِ
كأنَّ المعالي ما حلَّلتُ لديكم وقد أصبحتُ معدودةً في المحارِمِ

ويقول معين الدين بن تولوا، في قلة أهل السماع، وشيوع البخل والشح في الأغنياء،

(البيسط)

والتفاوت بين النَّاس في الثروة⁽³⁾!

أمّا السماع فقد أقوتُ معالمه فما على الأرضِ من تُرجى مكارمُه⁽⁴⁾
فلا يغرُنكَ من يلقاك مبتسماً فطالما غرَّ برقٌ أنت شائمُه⁽⁵⁾

لا تتعبِ النَّفسِ في استخلاصِ راحتها من باخلٍ لؤمُه في الجودِ لائمُه
آخى المذلةَ إغزازاً لدرهمه ويصحبُ الذلَّ من عزتِ دراهمه
ماذا أقولُ لدهرٍ عاش جاهله غنى ومات بسيفِ الفقرِ عالمُه
قد سالمَ النَّقصِ حتى ما يحاربه وحاربَ الفضلَ حتى ما يسالمُه

وكما أنَّ هناك من يسأل النَّاس، فيعطى القليل أو يُمنع القليل والكثير، كان هناك من يذمّ

(المتقارب)

المسألة، يقول ابن الحنبلي⁽⁶⁾:

معانقةُ الفقرِ خيرٌ لمن يعانقه من سؤالِ الرجالِ
ولا خيرٌ في نيلِ مَنْ ماله عزيزُ النوالِ بذلِّ السؤالِ

ويقول ابن الوردي، أمراً بسؤال الله لمن له حاجة، وناهياً عن سؤال الترك، مكنياً عن

البخل بضيق الأعين⁽⁷⁾: (المتقارب)

(1) هو سليمان بن بنيمان بن أبي الجيش، أبو الربيع الهمداني، الإربلي، (ت 686 هـ)، شاعر محسن، سائر القول، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 443/1. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 314/7. ابن العماد، شذرات الذهب، 57/6.

(2) الكتبي، م س، 445/1.

(3) الكتبي، م س، 55/2-56.

(4) أقوى: افتقرت، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قوا.

(5) شام البرق: نظر إليه أين يقصد وأين يمطر، ينظر: ابن منظور، م ن، مادة شيم.

(6) العسقلاني، الدرر الكامنة، 278/1. وصاحب الشعر هو أحمد بن محمد بن جمعه، عرف بابن الحنبلي، (ت 775 هـ)، كان شاعراً، ينظر: العسقلاني، م ن، 277/1-278.

(7) ابن الوردي، الديوان، 276.

سَلِ اللّٰهَ رَبَّكَ مِنْ فَضْلِهِ إِذَا عَرَضَتْ حَاجَةٌ مَقْلَقَةٌ
وَلَا تَقْصِدِ التَّرِكَ فِي حَاجَةٍ فَأَعْيُنُهُمْ أَعْيُنٌ ضَيِّقَةٌ

ويقول الكاشغري (1) الصوفي في ذمّ سؤال النَّاسِ، والرضا بالقليل من الخبز والماء والملبس، حتى لا يتردّد على أبواب النَّاسِ فيضطهد، وفي جعله الولايات والمناصب فداء لعرضه(2):

لكسرةً من جشيبِ الخبز تشبّعني وشربةً من قراحِ الماء ترويني(3)
وخرقةً من جريشِ الثوب تسترني حيّاً، وإن متت تكفيني لتكفيني(4)
ولا أُرَدُّ في الأبوابِ مضطهداً كما يُرَدُّ ثورٌ في الفدادين
لأجلنّ ولاياتٍ فتنت بها فداءً عِرضي والدنيا فداديني

• أثر الحالة الاقتصادية في أخلاق النَّاسِ

ومما يقع في هذا الجانب الاقتصادي، البطر وتغيّر أخلاق بعض النَّاسِ إذا ما اغتنى، يقول صفي الدين الحلي مشبهاً من اغتنى فمنع نفعه ببيت الخلا(5):

(السريع)

لَمَّا اغْتَنَى أَفْقَدْنَا نَفْعَهُ وَتَلَّكَ مِنْ شِمَةِ بَيْتِ الْخَلَا

يُسْعَى إِلَيْهِ إِنْ غَدَا فَارِغاً وَمَا بِهِ نَفْعٌ إِذَا مَا امْتَلَا

(الوافر)

ويقول في رجل متكبر يفتخر بماله(6):

أَتَشْمُخُ إِنْ كَسَاكَ الدَّهْرُ ثَوْباً شَرَفْتَهُ بِهِ، وَلَمْ تَكُ بِالشَّرِيفِ

فَكَمْ قَدْ عَايَنْتُ عَيْنَايَ سِتْرًا مِنْ الدِّيْبَاجِ حُطَّ عَلَى كَنِيفِ(7)

ويقول ابن النقيب الحسن بن شاور، فيمن أيسروا فبطروا، ويرى صلاحهم في بقائهم

(البسيط)

مفالييس(8)؛

فِي النَّاسِ قَوْمٌ إِذَا مَا أَيْسَرُوا بَطَرُوا فَأَصْلَحُ الْأَمْرَ أَنْ يَبْقُوا مَفَالَيْسَا

لَا تَسْأَلِ اللّٰهَ إِلَّا فِي خَمُولِهِمْ فَهَمَّ جِيَادٌ إِذَا كَانُوا مَنَاحِيْسَا

(1) هو عبد الله بن حجاج بن عمر الكاشغري الصوفي، (ت 716هـ)، كان له الشعر الجيد، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 328/9؛ العسقلاني،

الدرر الكامنة، 2/360؛

(2) العسقلاني، م.س، 361/2.

(3) جشيب: غليظ خشن، قراح: ماء لا يخالطه شيء يُطَيَّب به كالعسل، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: جشب و قرح.

(4) جريش: ما تفتت، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة: جرش.

(5) صفي الدين الحلي، الديوان، ص524.

(6) صفي الدين الحلي، م.ن، ص532.

(7) الكنيف: بيت الخلا. ينظر: ابن منظور، م.س، مادة كنف.

(8) ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ص63.

ويؤدي الفقر إلى ظواهر اجتماعية، من مثل أن يقصد بعض النَّاس الخوانق والتكايا وغيرها من المؤسسات لسد حاجاتهم، ومن مثل السرقة وغيرها، وقد رصد الشعراء مثل هذه الظواهر، يقول ابن القوية الإسكندراني⁽¹⁾، منتقداً تهالك الأعاجم على الخوانق⁽²⁾: (الرجز)

أعجامنا قد أصبحت قلوبهم
وَجَدًا بِحُبِّ الخانقاه، حانقَه⁽³⁾
لا تعجبوا، فالكلُّ كلُّ نابحٍ
ولا يُحِبُّ الكلبُ إلا خانقَه

ومن هذه الأخلاق المذمومة، التي حظيت بنقد الشعراء، تقرب النَّاس من الأغنياء أو أصحاب المناصب نفاقاً وطلباً للمنفعة، فيروى أن القاضي ابن الحبال الحنبلي⁽⁴⁾، كان ينوب في القضاء، فجاءه الخبر بعزله أول النهار، وعنده جمع كبير من النَّاس فانفضوا عنه في الحال، ثم جاءت الولاية آخر النهار، فكاد باب منزله يتكسر من الزحام، فقال⁽⁵⁾:

(مخلع البسيط)

تحالف النَّاس والزمانُ
فحيثُ كانَ الزمانُ كانوا
عادانيَ الدهرُ نصفَ يومٍ
فانكشفَ النَّاسُ لي وبانوا
يا أيُّها المعرضون عني
عودوا فقد عاودَ الزمانُ

أمَّا السرقة واللصوصية، فإنَّها وإن كان لها موقع في الجانب السياسي، من حيث دلالتها على فقدان الأمن وتقصير الدولة، وموقع في الجانب الاجتماعي، من حيث تعلقها بالأخلاق والدين، إلا أن الأولى أن تدرج في الجانب الاقتصادي، ذلك لأن الدافع الأول لهذه الفعلة اقتصادي، وكذلك آثارها السلبية تصبَّ أول ما تصبَّ في هذا الجانب الاقتصادي، لذا أردنا استعراض بعض ما قيل فيها، ويحسب من النَّقد المجتمعي، يقول شمس الدين ابن الصائغ الحنفي: ⁽⁶⁾

(الوافر)

تجنَّب كلَّ أقطع فهو لَصٌّ
يريدُ لك الخيانة كلَّ ساعة

(1) هو محمد بن أحمد الإسكندراني، شمس الدين ابن القوية، (ت 749هـ)، كان أديباً جيد النظم، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 108/2؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/455-456.

(2) العسقلاني، م.س، 3/455.

(3) الخانقاه: رباط الصوفية، وبيت الرُّهاد، يشبه دير النصارى، (فارسية)، ينظر: سعدي الضناوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص182.

(4) هو محمد بن أحمد بن عبد الله القاضي ابن الحبال الحنبلي، (ت 761هـ)، ينظر: ابن حجر العسقلاني، م.س، 3/419-420؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/338.

(5) العسقلاني، م.س، 3/420.

(6) ابن تغري بردي، م.س، 8/156.

وما قطعوه بعدَ الوصلِ لكنْ أرادوا كَفَّهُ عن ذي الصَّنَاعَةِ

وهذا إشارة من الشاعر إلى أَنَّ حَدَّ السرقة في هذا العصر ما زال قائماً.

وحسبنا في هذا المقام قصيدة لابن دانيال، يصفُ فيها جماعةً من اللصوص سَطَوْا على بيته، كسروا أفعال البيت، وهتكوا الأستار، فكان منهم الملتئم والمكتم والمعتم، والمتشع والمتزر، يقول

(الكامل)

يا سائلِي عن ليلتي بالْمَنَسِرِ
خارت لسُكْنَى الخُورِ قَوْتِي التي
نزلتْ بداري عصبَةً فتَاكَةً
من كلِّ منقفلِ اللثامِ، مُفْتَحِ
وافى يكوِّرنِي و لولا أنْ عَرَى
بملتئمٍ ومكتمٍ ومعتمٍ
يغنيك شاهدُ منظري عن مخبري⁽²⁾
كانت تفوقُ على شجاعةِ عنترِ⁽³⁾
هتكت حجابي بعدَ طولِ تسترٍ
أقفالها بشبا الحديدِ الأخضرِ⁽⁴⁾
شمسي الكسوفُ كان غيرِ مكوري⁽⁵⁾
ومخرصٍ وموشحٍ وموَّرِ⁽⁶⁾

وراح الشاعر يصف ما كان منهم من قسوة وجهالة، وتعذيبهم له كي يدلهم على مخبأ المال، ولم يصدقوه بأنه لا يمتلك سوى برزون وجزء من صحاح الجوهرى، ومسودات شعر ادعى أنه يمدحهم فيها، ويشير الشاعر في إحدى عباراته أنهم قوم لا يقدرّون أدباً ولا شعراً، كلّ هذا وأطفاله ينظرون إليه موقوفاً بينهم كالأسير، ما أدى إلى ارتياحهم، يقول ابن دانيال⁽⁷⁾:

(الكامل)

مزجوا القساوة بالجهالة وانبرى
طرقوا بساطي بالطوارق والقنا
لم أنتبه إلا بوكزة رامج
وبضربة من ذي حسامٍ منتضى
كلُّ يهددني بلفظِ حوثري⁽⁸⁾
متلاعبين بأبيضٍ وبأسمرٍ
منهم أقامتني إلى الحالِ الرّري
يفري الفريسةً من جهولٍ مفتري
بالعين حاءً بالأديم الأحمر

(1) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 217.

(2) المتسر: جماعة من اللصوص (لفظ مولد)، ينظر: المعجم الوسيط، مادة نسر

(3) الخور: المنخفض من الأرض بين مرتفعين، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة خور.

(4) شباه: حدّ طرفه، ينظر: ابن منظور، م. ن، مادة شبو.

(5) كوره: يصرعه ويسقطه، ينظر: ابن منظور، م. ن، مادة كور.

(6) مخرص: لابس الخرص وهي الدرع، ينظر: ابن منظور، م. ن، مادة خرص.

(7) الصفدي، م. س، ص 218-219.

(8) حوثري: الحثالة أو الساقط. ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة حثر.

فَجُرْتُ بَعْدَ الرَّفْعِ فِي أَيْدِيهِمْ وَنُصِبْتُ ذَا نَصَبٍ بِحَالٍ مُسَمَّرٍ
 هَذَا يَقُولُ: الْمَالُ أَيْنَ خَبَاتِهِ فَأَجْبَتْهُ خَوْفًا جَوَابَ مَحِيرٍ
 وَأَقُولُ: مَالِي غَيْرُ بَرْدُونِي وَأَثْ وَابِي وَجِزْءٌ مِنْ صَحَابِ الْجَوْهَرِي
 وَمُسَوِّدَاتِ الشَّعْرِ مَدْحُكُمْ بِهَا قَالُوا: سَبَّالِكَ فِي ... أُمَّ الْبَحْتَرِي⁽¹⁾
 فَبَكَتْ صَغَارِي إِذْ رَأَوْنِي بَيْنَهُمْ مِثْلَ الْأَسِيرِ وَمَا أَنَا بِالْمَوْسَرِ

ثم تشاور جماعة اللصوص في قتله، بتهمة التجسس للأمير، أو عصره كي يقرّ على موضع ماله، إلا أنّ الأمر ينتهي إلى عصره بالبلاط وتشويط رأسه، ما دفعه إلى الاعتراف بوجود تاجر في سطح بيته، فألقوا القبض على هذا التاجر وقد ساءت حالته من الخوف، يقول⁽²⁾:

(الكامل)

قَالُوا اقْتُلُوهُ واطْرَحُوهُ إِنَّهُ عَيْنُ الْأَمِيرِ وَيَا لَهُ مِنْ مُخْبِرٍ
 أَوْ فاعصروه كما ... فَإِنَّهُ جَلْدٌ وَليْسَ يُقَرُّ مَا لَمْ يُعَصَّرِ⁽³⁾
 عَصَرُوا كَعَابِي بِالْبِلَاطِ وَشَوَّطُوا رَأْسِي بِطَاسَاتٍ حَمِينٍ بِمَجْمَرِ⁽⁴⁾
 نَادَيْتُهُمْ فِي السُّطْحِ عِنْدِي تَاجِرٌ مُتَمَوِّلٌ مِثْلَ الْخَوَاجَا الصَّرِصَرِي⁽⁵⁾
 فَرَمَى إِلَى ظَبْيَانٍ أَطْوَلِهِمْ يَدًا بِشَبَا الظُّبَاةِ وَكَلَّ رَمِحِ سَمَهْرِي⁽⁶⁾
 فَبَدَا... خَيْفَةً مِنْ كَيْدِهِمْ وَلرِيْمَا وَجِدُوهُ خَوْفًا قَدْ.....

وخلاصة القول في هذا الجانب، هو أن شعر النّقد المجتمعي، قد رسم صورة بيّنة للحالة الاقتصادية في هذا العصر، فعبر عن أسباب فقر النّاس المتمثلة في تسلط الحكام وأجهزتهم المالية على أموال النّاس ونهب خيرات البلاد، وأشار إلى بعض السياسات المالية من مثل تغيير النقود بين الفينة والأخرى وما تركته من أثر سيء على الحياة الاقتصادية، ثم صوّر الشعراء حالة الفقر التي عمّت البلاد، وما تركته من أثار سيئة مدمرة على الحياة الاجتماعية، وبخاصة على مستوى الأسرة والفرد، وبدت المهن في هذا العصر لا تسمن ولا تغني من جوع، ما اضطر الشعراء، وأغلبهم أصحاب مهن، إلى السؤال والتكسب بشعرهم، وعبر الشعراء كذلك عن حالة الاضطراب وفقدان التوازن الاقتصادي بين فئات الشعب، حيث تركزت الثروة في أيدي الحكام

(1) جمع سبّلة وهو الشارب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة سيل.

(2) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 219.

(3) جلد: صلب وشديد، ينظر: ابن منظور، م، ن، مادة جلد..

(4) شَوَّط: أنضح أو أحرق، ينظر: ابن منظور، م، س، مادة: شوط.

(5) تمول: متخذ مالا، ينظر: ابن منظور، م، س، مادة مول. الخواجا: التاجر، والسيد، ينظر: سعدي ضناوي، المعجم المفصل في

المعرب والدخيل، ص 197.

(6) ظبيان: اسم رجل، الرماح السمهرية تنسب إلى رجل اسمه سمهر، ينظر: ابن منظور، م، س، مادتي: ظبا وسمهر.

ومن متّ لهم بسبب، ومن الظواهر التي تولدت في مثل هذا الوضع، ظاهرة تقصد النَّاس للتكايا والخوانق، وتملق النَّاس لأصحاب المقامات العليا، وشيوع السرقة واللصوصية، وقد أسهم في رسم هذه الصورة كبار شعراء العصر، في مطولات أو مقطوعات، من مثل البوصيري، وابن دانيال، وابن نباته، والجزّار، وابن الوردي وغيرهم.

ثالثاً - شعر النّقد الاجتماعي

ونقصد به كل العلاقات الناشئة بين النَّاس نتيجة اجتماعهم الدائم أو المؤقت ، التي لم تقع في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي والديني وغيرها. من مثل العلاقات التي تسود الأسرة وما تفرّع عنها، ولا نعني بهذا الكلام الفصل بين هذه الجوانب أو الأنظمة فكلها مترابطة تآثراً وتأثيراً، بل إن الجانب الاجتماعي في المجتمع ،الذي أصله اجتماع الرجل بالمرأة وما نتج عن هذا الاجتماع من علاقات داخل الأسرة أو خارجها، هو المرأة التي تنعكس عنها الصورة الحقيقية لمعظم الأنظمة المجتمعية الثقافية والاقتصادية والثقافية وغيرها، وقد جعلنا هذا الجانب أربعة أقسام : الأول، تناولت فيه النَّاس : المرأة، والآباء والأبناء، والأقارب، والقوم، والعبيد، والأصحاب، والجيران. والثاني، تناولت فيه أخلاق النَّاس، من : بخل، وخيانة أمانة، وتكبر، وغيرها. والثالث، تناولت فيه انتقاد الشاعر نفسه. أما الرابع، فجعلته في ظواهر اجتماعية ثلاث هي: اللواط، والحشيش، والخمر.

1- النَّاس

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، إذ الاجتماع لا بدّ منه لعيش الإنسان وحفظ الجنس البشري، وبه تتكون علاقات بين النَّاس، تقوم على جلب المصالح ودفع المفسدات، التي يتعارفون عليها، وأيّ خروج عنها يعتبر موضع نقد وذمّ. وقد تناول الشعراء في العصر المملوكي الأول النَّاس بالنقد، وجاء نقدهم وفق الآتي:

أ. المرأة

جاء الإسلام وجعل للمرأة مكانة مرموقة في المجتمع، وألغى ومنع كلّ نظرة سلبية لها ولدورها في حياة الأسرة والمجتمع، عرفته الجاهلية أو جاءت به المبادئ والقوانين الوضعية، وغدت المرأة أمّاً وأختاً وزوجة وعرضاً يجب أن يصاب، وعلى الرغم من أن أحكام الشرع لم تفرق بين الرجل والمرأة في التكاليف الشرعية، إلا أنها، أي المرأة، قد خصت بأحكام اقتضتها الفطرة التي فطرها الله عليها، والدور الذي أنيط بها في الحياة البشرية.

ولم يخلل موقع المرأة في المجتمع الإسلامي، و لم تختلف النظرة إليها إلا في عصور الانحطاط والتخلف، حيث تغيب أحكام الإسلام وأفكاره. ولم تكن هذه الأحكام والأفكار مغيبة في

مجتمع العصر المملوكي، وإن طرأ عليها بعض التشويش، واعتورتها بعض الإساءات، وقد عبر الشعر في هذا العصر عن مكانة المرأة والنظرة إليها، في جانبها الإيجابي والسلبي، وذلك من خلال أغراضه المتنوعة، من مثل الرثاء والغزل والمدح، والنقد المجتمعي وغيرها، ولا يمكن تبين هذه النظرة إلا بدراسة شاملة لما قيل في المرأة في جميع هذه الأغراض، إذ تناولها في غرض واحد، كالتنقد المجتمعي، لا يفي بالغرض المطلوب، ولا يعطي الصورة المبتغاة من جميع جوانبها وأبعادها، ولا بد أيضاً من مراعاة أن الشعر تعبير انفعالي في موقف سلوكي أو فكري يقع من الشاعر أو عليه، فلا يقطع بصحة النتائج المستقراة فيه. وأمر آخر لابد من مراعاته، وقد أخذ على بعض الباحثين، وهو الموضوعية والتجرد من كل حكم سابق، والدقة والأمانة في تفسير النصوص الشعرية، وألا يحشد من الأشعار ما يؤيد هذه النظرة أو تلك، في حين يستبعد ما ينقضها.

من هنا رأى الباحث ألا يحكم على مكانة المرأة أو النظرة السائدة إليها في هذا العصر، وأن يأخذ باستصحاب الأصل، فالأصل أن هذا المجتمع إسلامي، وإسلاميته تقتضي أن تكون المرأة فيه عزيزة مكرمة.

١- الزوجة

أول من نستعرض شعره في المرأة الزوجة، البوصيري شاعر النقد المجتمعي الأول في عصره، ففي قصيدة طويلة يمدح فيها الأمير عز الدين أيبك الفخري، الذي أسندت إليه ولاية القاهرة، يستعرض حاله وحال أسرته وعلاقته بزوجته، التي أفسدها الفقر وعجزه الجنسي، الذي ظنت أنه يعالج، وهو في الحقيقة ناتج عن كبر السن والمرض، يقول^(٣):

(الخفيف)

مَنْ لَشَيْخٍ ذِي عِلَّةٍ وَعِيَالٍ ثَقَلَتْ ظَهْرَهُ
 فَهُوَ فِي قَيْدِهِمْ يِذَاذُ مِنْ السَّعَى لِحَصِيلِ
 وَعَتَتْ أُمَّهُمَ عَلَيَّ وَلَجَّتْ فِي عُنُقٍ مِنْ كَبْرَتِي وَنُفُورِ
 حَسَبَتْ عِلَّتِي تَزُولُ فَقَالَتْ يَا كَثِيرَ التَّهْوِينِ وَالتَّهْوِيرِ^(٤)
 كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَوَاءٌ فَعَجَّلْ بِمَدَاوَاةِ دَاءِ
 قَلْتُ: مَهَلًا فَمَا بِمَلْحِ السَّقْنَقُورِ رِ أَدَاوِ
 بِغَيْرِ ظَهِيرِ^(٥)
 قوتهم كالأسير
 يا كثير التهوين والتهوير^(٥)
 عضوٍ خطير
 ي ولا بلحم الذرور^(٦)

(١) البوصيري، الديوان، ص 285-286.

(٢) ظهير: المعين المساند. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة ظهر.

(٣) التهوير: قلة المبالاة، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة هور.

(٤) السقنقور أو الإسقنقور: ضرب من الزحافات يكون في البلاد الحارة يعرف (بالتمساح البري) ينظر: المنجد، مادة: إسقنقور. لحم

الذرور: لحم يُدَّرُّ عليه الملح أو الدواء، ينظر، ابن منظور، م.س، مادة ذرر.

سقطت قوة المريض التي كا نت قديماً تُؤاد بالكافور^(٧)

وهذه صراحة من الشاعر، وجرأة، في كشف سر من أسرار الحياة الزوجية، جاءت في فكاها لطيفة وظرافة مؤدبة غير فاحشة.

وفي قصيدة يمدح فيها أحد الوزراء يأتي على ذكر زوجته، ويعتبرها بليّة ابتلي بها، وذلك لاحتجاجها وتضجرها من فقره وكبر سنّه، وهي كبيرة السن، وغير ذات جمال، ولكنها ولود، وبيالغ الشاعر في وصف قدرتها على الإنجاب، بحيث إن جاءها في العام مرة، أنجبت لسته أشهر غلاماً، وينكر عليها تضجرها من كبر سنه، متسائلاً: من أين جيء بهؤلاء الأولاد إن كان عاجزاً كما تدعي؟! فهل جاءت بهم من الأحلام؟! ثم يتمنى الشاعر لو أنها كانت عقيماً، أو أنه كان عاجزاً، أو أنه كان من الخدام الخصيان، أو أنه استغنى عن الزواج منها بالحرام، أو أنه تحصن بغلام، وهذه شكوى من كثرة الأولاد، وليس في هذه الأبيات ما يُفهم منه أنه يرميها أو يشكك فيها، فإن لم يكن في وصفه هذا متفكهاً هزلاً، فهو متألم ومبدي لحرقةٍ وجرحٍ خلفهما الفقر في نفسه، يقول^(٨):

(الكامل)

وبليتي عرسٍ بليثٍ بمفتيها	والبغل ممقوتٌ بغير قيام
جعلتُ بإفلاسي وشيبيتي حُجَّةً	إذ صرتُ لا خلفي ولا قُدَّامي
بلغتُ من الكبرِ العتيِّ ونكَّستُ	في الخلقِ وهي صبيّةُ الأرحامِ
إن زرتُها في العام يوماً أنتجتُ	وأنتُ لستِ أشهرِ بُولامِ
أو هذه الأولادُ جاءت كلُّها	من فِعْلِ شيخٍ ليس بالقوامِ؟
وأظنُّ أنهم لِعُظْمِ بليتي	حملت بهم لا شك في الأحلامِ
أو كلُّ ما حملت به حملتُ به؟	من لي بأنَّ النَّاسَ غيرُ نيامِ؟
يا ليتها كانت عقيماً آيساً	أوليتني من جملةِ الخُدامِ
أوليتني من قبل تزويجي بها	لو كنتُ بعثُ حلالها بحرامِ
أوليتني بعضُ الذين عرفتهم	ممن يُحصنُ دينه بغلامِ ^(٩)
كيف الخلاصُ من البنين ومنهمُ	قومٌ ورايٍ وآخرون أمامي

(٧) الكافور: أخلط تجمع من الطيب تركب من كافور الطلع، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة كفر.

(٨) البوصيري، الديوان، ص 451-453.

(٩) يحصن: يتزوج ليعف عن كل حرام، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حصن.

وتحسب هذه القصيدة أيضاً على الشكوى من كثرة الأولاد، والخيط الرفيع الذي تُنظم فيه مع غيرها مما قاله البوصيري في الزوجة والأبناء، هو الفقر، فهو المحور الذي يدور حوله معظم شعر البوصيري في نقده المجتمع.

ومن الشعراء الذين جاءوا على ذكر أزواجهم، وكان الفقر سبباً في فساد علاقتهم الزوجية، الشاعر ابن دانيال، الذي تعرّض لها في قصيدة، قالها في الحرافيش وهم جماعة فقراء التقوا على اللهو والمجون، يقول فيهم في ثنايا هذه القصيدة (الخفيف)

أنا من عصابة هم الخمر في الشرر وهذي علامتي فوق زندي

وقد بلغت هذه القصيدة أربعة وثلاثين بيتاً، عرض علاقته بزوجته في أحد عشر بيتاً، فهي في المناقرة ديك، وفي قبحا كالقرد، اعتدت عليه وراحت تشكوه، وتطالبه بحقها، الذي تحمل فيه وثيقة، ثم جاءت من المحكمة بحكم يقضي بحبسه، وعندما تحداها بأنه لا أحد يستطيع حبسه، لأنه لا يصلح للحبس لسوء خلقه، غضبت وأخذت تهدده وتتوعده، فيطلب منها ألا تغضب عليه وتلومه، وأن ترعى حقوقه عليها وحبّه لها، فاللوم على حظه لا عليه، فهو ينعكس ويتسول بشعره، وسوق الشعر في كساد، وإن استمر كساد الشعر هذا، فسيلتحق بالجنديّة، ويأتيها يوم الطراد بخيول وافرات الأحمال، يقول^(١٠):

(الخفيف)

(١٠) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 237-240.

(١١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 237-238.

- زوجة في النّارِ ديكٌ ولكن
لكمتي ببطنِ راحتها في
طلبثني بالحقِّ والحقُّ إنَّ صُدَّ
ولعمري لو حاولتِ نقدَ أهلِ الد
ثم جاءتْ برقعةِ الحبسِ عَجَلَى
قلتُ لا يستطيعُ حبسي قاضٍ
فاكفهرتِ ثم اشْرأبتِ ووَلتِ
قلت لا تغضبي عليّ ولومي
أنا إلا ذاك المكدّي بالشع
وتريني يومَ الطرادِ بخيلٍ
- نَ لها في النساءِ صورةٌ قدِ
ظهرِ خلفي وأصبحتُ تستعدي
(١٢) حِ فَا فيه نكايَةٌ في جلدي
(١٣) غربِ صكاً لكنتُ أوفى بنقدِ
برسولٍ للحكمِ قاسٍ جُدِ
وأنا ... وحبسي يُردي
(١٤) وهي تسطو بكلِّ هدِّ ورعدِ
شؤمَ بختي، و ارعيّ حقوقي ووُدِي
(١٥) رِ يقيناً أقومُ أفتحُ جُندي
(١٦) وافراتِ الأكفالِ جُردٍ مُردِ

والشاعر هنا ينتقد زوجه لقلّة صبرها على ما هو فيه من فقر وسوء حال، ويقرُّ بأنّ لها حقوقاً عليه، وهي موثّقة، ويشير إلى أنّ المرأة تستطيع تحصيل حقوقها بوساطة القضاء، ولا يطلب منها إلا الصبر ومراعاة حقوقه، والحبّ الذي بينهما، ويشكو قلة حيلته، فما هو إلا شاعر وسوق الشعر كاسدة، فلا يرى في قوله ما يُسيء إلى مكانة المرأة، أو ما يوحي بالنظرة إليها نظرة سلبية.

2- زوجة الأب

وإذا ما انتقلنا من الزوجة إلى زوجة الأب، وجدنا الشاعر الجزّار يحمل على زوجة أبيه حملة شنعاء، فهي امرأة عجوز لا عقل لها، ولقبح صورتها لا يجرؤ الجن في الظلام على إبصارها، وهي في الفراش كالرّمّة، وشعرها الأبيض حولها كأنّه القطن، أمّا فمها فلم يبق فيه سن. يقول^(١٧):

(السريع)

(١٢) نكايّة: كثرة الجراح، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نكي.

(١٣) صكاً: الضرب الشديد بالشيء العريض، ينظر: ابن منظور: م.ن، مادة صك.

(١٤) اكفهر: عبس وانقبض وجهها شرأب: ارتفع وعلا، ومدّ عنقه إلى الشيء، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: كفهر وشرب.

(١٥) المكدي: من ألح في المسألة: ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة كدا.

(١٦) الكفل: الحظ والنصيب، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة كفل.

(١٧) الجزار، الديوان، ص 86.

تَرَّوَجُ الشَّيْخُ أَبِي زَوْجَةً
لو برزت صورتها في الدجى
ليس لها عقل ولا ذهن
كأنها في فرشها رمة
ما جسرت تبصرها الجن^(١٨)
وقائل: قل لي: ما سنُّها
وشعرها من حولها فطن^(١٩)
فقلت: ما في فمها سنُّ

ويقول فيها بعد موت أبيه، وقد أوصى أبوه لها بالصدّاق، ويتهمها بأنها قد قتلتها بأنفاسها
القائلة، يقول^(٢٠):

(المتقارب)

أذابت كلّي الشيخ تلك العجوز وأردته أنفاسها المردية^(٢١)
وقد كان أوصى لها بالصدّاق
فما في مصيبته تعزية
لأنّي ما خلت أن القتي
ل يوصي لقاتله بالدية

ويكشف الجزار عن علاقة الأبناء بأزواج آبائهم، التي قلّما تكون طيبة ، ويكشف أيضاً
أن المرأة لم تكن مهزومة الحقوق، فأبوه قد أوصى لهذه الزوجة من تركته بالصدّاق، الذي قد
يكون ديناً عليه، وهذا ما زاد من نقمة الجزار، فعده مصيبة. ولا نجد في مقطوعتي الجزار هاتين
ما يمسّ بمكانة المرأة أو صورتها، لأنه يتحدث عن زوجة أبيه، لا عن المرأة باعتبارها امرأة،
فالأمر متعلق بعلاقة بشرية لا بجنس النساء.

٣ البنات

أما ما قيل في البنات من شعر، فمثاله قصيدة لابن الوردي، بلغت من الطول سبعة
وثمانين بيتاً، ليس لها غرض واحد بل معظمها وصايا وحكمة، يخصّ تسعة أبيات منها للحديث
عن بناته، وقد كثرت نفلولا هؤلاء البنات لتمنى الموت طلباً للراحة من الأشرار، فهو يشكو
كثرتهن، ويخشى من العار، مع أنّه يقرّ بأنّ الله يرزقه بهنّ، ويتمنى لهنّ الستر، إلا أنّه يتمنى
ألا يبقى له منهن إلا واحدة، وهذا ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث لم يبق له في
حياته إلا فاطمة رضي الله عنها، فيدعو الله أن يتوفاهنّ، وهو ينتظر اليوم الذي يسرّ فيه بدفن
بنت ليخاطبها: "الله جازك إن دمعي جار"، ويطلب من الله أن يكون لهن نعش واحد، ويقسم
الشاعر أن وأد البنات ما كان إلا كراهة الأصهار، يعني أذى الأصهار، يقول^(٢٢):

(الكامل)

^(١٨) رمة: قطعة من الحبل بالية. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة رم.

^(١٩) جَسْر: من الجسارة، وهو الإقدام والشجاعة، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة جسر.

^(٢٠) الجزار، م.س، ص87.

^(٢١) مردية: مهلكة، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة ردي.

^(٢٢) ابن الوردي، الديوان، ص315.

لولا بناتي متُّ من شوقٍ إلى
يا ربُّ أشكو من بناتي كثرةً
والله يرزُقني بهنَّ وإنما
يا ربُّ إن بقاء بنتٍ فردةٍ
يا ربُّ فارزقهنَّ قربَ جوارٍ من
أثرى أسرُّ بدفنِ بنتٍ قائلاً
فبنات نعشٍ أنجمٍ وكمالها
أقسمتُ ما دفنوا البناتِ تلاعباً

موتٍ أراخُ به من الأشرارِ
وأبو البناتِ يخافُ ثوبَ العارِ
أرجو له نَّ السترَ من ستَّارِ
كافٍ كذاك اخترتِ للمختارِ (٢٣)
شتانَ بينَ جواره وجواري (٢٤)
اللهُ جارك إنَّ دمعي جارِ
بالنعشِ، فاطلب مثله لجواري (٢٥)
دفنوا البناتِ كراهةً الأصهارِ

والحق أن هذا كلام مستغرب ومستهج من شاعر عرف عنه الفقه والضلوع في العلوم الشرعية وكان قاضياً، ويبدو أن الدافع لمثل هذه الشكوى من كثرة البنات وتمني موتهن، إما أن يكون فساد أخلاق أهل عصره، وإما أن يكون سوء أخلاق أصهاره، فلا تعدو ردة فعل لخلاف له أو لبناته مع أصهاره، وربما هذا ما وشى به البيتان الثاني والأخير.

ب- الآباء والأبناء

يقول ابن دانيال في أبيه، الذي يكثر من لومه، ويجهل قدره في العلم، مع أنه أمي (٢٦):
(السريع)

ولي أبٌ يجهلُ قدرِي ولو كنتُ أجلَّ النَّاسِ في العِلمِ
يلومني إذ لستُ شَبهًا له ويحملُ الأمرَ على الظلمِ
وكيفَ أَعْدُو شَبهَهُ والورى يقولُ لي إنَّ
أبي أمي

ويقول الهروي (٢٧) في ابن له لم ينشأ على حسن خلق كما أراد له أبوه (٢٨):

(مجزوء الرجز)

(٢٣) المختار، المقصود به النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢٤) يعني ارزقهن الموت ليكن بجوارك.

(٢٥) بنات نعش، سبعة كواكب، أربعة منها نعش لأنها مربعة، وثلاثة بنات نعش، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نعش.

(٢٦) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 185-186.

(٢٧) الهروي، الإمام الفقيه الصوفي علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد، (ت 722هـ). ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 102/2-

103؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 109/3؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 157/9.

(٢٨) العسقلاني، م.س، 183/9.

كَمْ حَسْرَاتٍ فِي الْحَشَى مِنْ وَلَدٍ قَدْ انْتَشَا
كِنَّا نَشَاءُ رُشْدَهُ فَمَا نَشَا كَمَا نَشَا

ويقول صفي الدين الحلبي في ولد عاق وعبد آبق شكاهما إليه أحدهم وسأله نظم شيء
فيهما^(٢٩)؛

(الوافر)

لِيَهْنِكَ أَنْ لِي وَلِذَا وَعَبْدًا سِوَاءً فِي الْمَقَامِ
فَهَذَا سَابِقٌ مِنْ غَيْرِ سَيْنٍ وَهَذَا عَاقِلٌ مِنْ غَيْرِ لَامٍ^(٣٠)

ج- القوم

وانتقاد الشاعر قومه، أمر مألوف في الشعر العربي منذ القدم، والبحث في أسبابه
وأشكاله وصوره أمر مفروغ منه، وما وجدنا الشعر في هذا العصر يخلو منه، يقول أبو البركات
البلفيقي^(٣١) في قومه، وقد كان يسعى في كف الأذى عنهم، ويسعون في أذاه، حتى شبّه نفسه
بالعين وشبههم بالقذى^(٣٢):

(السريع)

كَفَفْتُ عَنْ قَوْمِي الْأَذَى إِذْهُمْ يُوذُونَنِي طُرًّا أَشَدَّ الْأَذَى
أَصْبَحْتُ عَيْنًا فِيهِمْ وَاعْتَدَوْا فِيهَا عَلَى حُكْمِ زَمَانِي قَذَى

ويقول سيف الدين السامري في خاله وخال أبيه^(٣٣):

(الوافر)

إِذَا مَا قِيلَ مِنْ بِالْكَرْخِ نَذْلٌ لِنَيْمِ الْأَصْلِ مَذْمٍ وَهُوَ الْفَعَالُ
أَجَبْتُهُمْ إِجَابَةً لَوْذَعِيٍّ هُمَا النَّذْلَانِ خَالُ أَبِي وَخَالِي^(٣٤)

ويقول الجزار مستهزئاً بقومه ومتفكها^(٣٥):

(الهزج)

أَلَا قَلٌّ لِلَّذِي يَسْأَلُ عَنْ قَوْمِي وَعَنْ أَهْلِي

^(٢٩) الحلبي صفي الدين، الديوان، ص 526.

^(٣٠) يعني العبد آبق، والولد عاق.

^(٣١) هو محمد بن محمد بن إبراهيم، أبو البركات البلفيقي ابن الحاج، (ت 774هـ)، كان شاعراً، ينظر: العسقلاني، م.س، 4/272-

273؛ الزركلي، الأعلام، 7/39.

^(٣٢) العسقلاني، م.س، 4/273.

^(٣٣) الكتبي، فوات الوفيات، 1/174.

^(٣٤) اللوذعي: الحديد الفؤاد واللسان، الظريف، ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة لذع.

^(٣٥) الجزار، الديوان، ص 70.

فقد تسأل عن قومٍ كرام الفرع والأصلِ
تُرَجِّبهم بنو كلبٍ ويخشاهم بنو عجلٍ (٣٦)

ويقول ابن الوردي في أبناء عمِّ له، مازجاً بين العتاب والنقد، لما بدا منهم من جفوة وتكبر (٣٧):

(المتقارب)

بني عمنا لا عدمناكمم وإن لم نقرَّ بكم قطُّ عينا
بنينا لأنفسنا رفعةً فنلننم ما رب ممَّا بنينا
ألا تنظرون إلينا فمذ نظرتنم بنا ما نظرتم إلينا
عجبنا لقلَّةِ إنصافكمم كبزتم بنا فكبزتم علينا

د - الخدم والعبيد

وهم جزء من التركيبة الاجتماعية في المجتمع، الذي سادته أصلاً من العبيد، وقد كثر الخدم والعبيد، إما بفعل الظروف الاقتصادية التي سادت هذا العصر، وإما بفعل تجارة الرقيق التي حافظت على نشاطها منذ عصور خلت.

فهذا مجير الدين بن تميم يقول في غلام له أبله، لا يعرف أن يقضي له حاجة، ويبدو أنه أعجمي (البيسط) (٣٨):

لا تعجبوا من غلامي وهو أبلهُ خذ قِ الله إذ راح لي في حاجة فمضى
فالسهمُ وهو جمادٌ حين أرسلهُ من ساعتِي في مُهمِّ يفهمُ الغرضَا

ويقول إبراهيم المعمار نافياً الحشمة عن الخدم، ومفضلاً البعد عنهم (٣٩):

(الطويل)

وإنَّ من الخدَام من ليس تُرتجى مكارمُهُ فالبعدُ منهم غنائمُ
فلا تكُ ممَّن يتهمهم لحشمةً فليس لهم بين الرجالِ محاشمُ (٤٠)

(٣٦) يعني أنهم جزّارون.

(٣٧) ابن الوردي، الديوان، ص 231.

(٣٨) مجير الدين ابن تميم، الديوان، ص 51.

(٣٩) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، 23/1.

(٤٠) في الحشمة: الاستحياء والتوقّي، والحشمة: الخدم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حشم.

وللشاعر ابن الوردى مطولة يذم فيها عبداً له اسمه بهادر وينتقده، يبدؤها بتناول اسمه لينفي عنه أن يكون بهاءً ودرأً، وبحرم على نفسه إعتاقه ثم يأخذ في تفصيل أخلاقه السيئة، فلا يترك مثلبة أو منقصة تعرف في البشر إلا ألصقها به، ويسترسل في ذكر الأعمال التي يطلب منه القيام بها، وحجة هذا العبد في الامتناع عن القيام بها. وإن قام ببعض الأعمال قصر فيها. ولم يحسن، فهو عبد متكبر، ولم يجد الشاعر فيه جمالاً يعوّض سوء خلقه وتقصيره، فيندم على شرائه، وقد اشتراه عبداً أسيراً فأصبح مأسوراً له، وهو لا يستطيع الخلاص منه فهو يردّ بالعيب إن باعه، وإن أعتقه فشرّ أكبر، ولا خلاص له منه إلا بالموت، والقصيدة على قدر بالغ من الأهمية، من حيث أنها تعطي صورة عن حياة هؤلاء العبيد في بيوت أسيادهم، والأعمال المنوطة بهم، والعلاقة بين الطرفين التي تتراوح بين الانسجام والتنافر، وأثرها في الأسرة والمجتمع.

يقول ابن الوردى معرّفًا باسم عبده، مستغلاً له في نفي الجمال عنه، معدّداً صفاته الذميمة فعلى الرغم من رقة جسمه إلا أنّه غليظ القلب فظّ، وكثير الأذى، وبذيء، وصعب المعاشرة، ونمام ماكر، وحقود، وكثير النقد، وكاذب وخائن، وهو ذكي، ولكنّه يتصنّع الغباء عند القيام ببعض شؤون سيّده، وهو ثقيل النفس، ولكنّه خفيف الكف (سارق):^(٤١)

(الطويل)

بهادرُ عبدي لا بهاءً ولادرُ فما أنا حرٌّ يومَ قولي له: حرٌّ

رقيقٌ غليظُ القلبِ فظٌّ مقطّبٌ كثيرُ الأذى، بادي البذا، جبلٌ وعزٌّ

نومٌ نؤومٌ ماكرٌ غيرُ شاكرٍ حقودٌ، نقودٌ، مائنٌ خائنٌ عُمرُ^(٤٢)

ذكيٌّ دقيقُ الفكرِ منتبّهٌ لما عناه، ولكنْ عندَ مصلحتي عُزٌّ^(٤٣)

لئيمٌ متى أحسنَ إليه يكافيني بسيئةٍ، لم ينكتمْ عنده سرٌّ

ثقيلٌ، خفيفُ الكفِّ فيما ائتمنتُهُ وثوبٌ على مالي كما يثبُّ النمرُ^(٤٤)

وفوق هذه الصفات الذميمة تجده صاحب فتنة، يشكوه النَّاسُ لسوء أخلاقه وتعاطيه للإشاعات، وهو في الأكل والشرب نهم، ولكنّه جحود ينكر النعمة، وسواء لديه أسخط عليه سيّده أم رضي عنه، ولا يتأدب بإعراضه عنه وهجرانه، والأدهى من كلّ هذا أنّه إذا حضر أعيان القوم

(٤١) ابن الوردى، الديوان، 421-423.

(٤٢) نوم: يعني فتات، وهو من ينقل الكلام على وجه الإشاعة والإفساد، مائن: كاذب، عُمر: جاهل لم يجرب الأمور، ينظر، ابن

منظور، م.س، المواد: نمم، مين، غمر.

(٤٣) عُزٌّ: جاهل بالأمر غير ذي تجربة، ينظر، ابن منظور، م.س، مادة: غرر.

(٤٤) خفيف الكف: حاذق في السرقة.

(الطويل)

له كل يوم فتنة أو شكاية وقال وقيل هكذا ينسل الكفر
 له نهمة في الأكل والشرب ما لها شبيهة سوى التثور أكلبه السجر
 يكون الرغيف السخن والأكل حاضراً له ويقول: الجوع قد أعوز الصبر
 تساوى لديه في بلسخط والرضى فما شق إعراضي عليه ولا الهجر
 إذا حضرت أعيان قومي بمجلسي له حركات ضمنها النقص والصغر

ثم يستعرض الشاعر الأعمال التي يطلب منه القيام بها، وحجته في الامتناع عن القيام
 بها، وذلك في تفصيل يصل إلى حد الإملال، ويبدو من الحجج التي ذكرها الشاعر أن عبده قد
 نال شيئاً من الثقافة الدينية، يقول: (٤٧)

(الطويل)

ويقصد في العيدين غيظي فكبده ولبته ودّي لها الف طر والنحر (٤٨)
 إذا قلت: قم بئد لنا الماء قال لي أترغب في فاني النعيم وتغتر
 وإن قلت: توبل خبرنا، قال: لا تكن مخالف ما يعتاده السلف الصذر (٤٩)
 وإن قلت: طيب مطعمي، قال: قد نصت أمائل ما للأكل ل عندهم قدر
 وإن قلت: جمل بيتنا، قال: كل ذا فضول وفي أشباهه لم يلق فكر
 وإن قلت: قدم للوضوء مسينتي يقول: إذا لم تستعن يكمل الطهر
 وإن قلت: قدم شربة الماء هزها بغيط رجاء أن يكدرها العكر
 وإن قلت: باشر بعض ما أهمني يقول إذا باشرت أنت لك الأجر
 وإن أقل: امسح لي مداسي، يقل: صه أنتصر إبليساً، عليك وما النصر؟ (٥٠)
 وإن قلت: قدم بغلتي، قال: بغلتي، ويشخر لي بالموصلي ويرو (٥١)
 وإن قلت: صول قمحنا، قال: بدعة أصول للهادي وأصحابه البئر (٥٢)
 وإن قلت في الحمام: حك رجيلتي يقول لي اخشوش ن فقد يبتلى الحر (٥٣)

(٤٥) ابن الورددي، الديوان، ص 421.

(٤٦) أكلبه السجر: زاد في شدته تزويده وملؤه بالحطب، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادتي كلب وسجر.

(٤٧) ابن الورددي، م.س، ص 422.

(٤٨) اللية: موضع الذبح، ينظر: ابن منظور، م.س، لبيب.

(٤٩) توبل: اجعل فيها التوابل، ينظر: ابن منظور، م.س، تبل.

(٥٠) المداس: ضرب من الأحذية، ينظر: المعجم الوسيط، مادة، داس.

(٥١) يشخر: صوت من الحلق يخرج من الفم دون الأنف، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة سخر.

(٥٢) التصويل: التنقية من الشوائب بالماء وغيره، ينظر: المعجم الوسيط، مادة: صول. الهادي: المقصود به النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(٥٣) رجيلة: الشعر بين الجعودة والسيوطة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة رجل.

وإن قلت: حَقَّ الطيبُ، قدمه لي، يقلُّ قبيحٌ بمن لا يخذُ الطيبُ والعطرُ
وإن قلت: فاصقل ثم فرك ثيابنا يقول: أتفريك لمن خلفه القبر^(٥٤)
وإن قلت: فانظر في الطعام هل استوى يقول: افتقدت الملح فانكبتِ القدرُ
أقول: فهل من أمسٍ عندك فضلة يقول: أضعتُ الحزمَ فاجتره الهُرُّ^(٥٥)

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف بعض المتاعب النفسية التي يلقاها من هذا العبد، من مثل
نقله للأخبار السيئة، أو سؤاله الطعام من الناس، واحتجاجة على كثرة الأوامر والنواهي، وخروجه
وتأخره المقصود، يقول: ^(٥٦)
(الطويل)

وإن قلت: من بالباب؟ قال: مُفَوِّلاً على الباب عزرائيلُ وانفصل الأمر ^(٥٧)
وإن قلت: ما الأخبار، قال: رديئة سعوا فيك أو مات امرؤ أو غلا السع ^(٥٨)
وإن قلت: لا تسرق ففي المال ضيقة يقول: أحرصاً بعدما ذهب العمرُ
وإن قلت: لا تسأل من الناس نفتضح يقول: فموسى استطعم الناس والخضرُ
وإن قلت: لا تفعل أو افعل يقول: قد بليتُ بكم حتى متى النهيُ والأمرُ
وكم ضحوة كلفته ردَّ لهفةٍ فغاب ووافاني وقد أدنَّ العصر

ثم يعرض الشاعر لتقصيره في حفظ أمتعة سيده، وإهماله لنظافة البيت، يقول: ^(٥٩)

(الطويل)

ثيابي وشاشي عنده في إهانةٍ وطرحٍ ولا طيِّ عناه ولا نشُرُ^(٦٠)
وحصري ماذا تحتها من زبالةٍ! فيا كسرَ قلبي عندما تُرفع الحُصْرُ
وعندي قنديلٌ شبيهةٌ بوجهه إذا ما مضى الشهران يُغسلُ والشهرُ
وعن أكثرِ الحاجاتِ يُكبِّرُ نفسه فيا أقدرَ الغلمان ما أنت والكبُرُ

^(٥٤) فرك: دلك، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة فرك.

^(٥٥) اجتر: بمعنى جر، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة جر.

^(٥٦) ابن الوردي، الديوان، ص 422.

^(٥٧) فوّل: الأصل نفأل، وهي ضد تطيّر، ويكون الفاعل فيما يحسن وفيما يسوء، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة فأل. انفصل الأمر:
أي قضى، وتم البتُّ فيه.

^(٥٨) سعوا فيك: وشوا بك، وشكوك.

^(٥٩) ابن الوردي، م.س، ص 422.

^(٦٠) الشاش: نسيج رقيق من القطن تضمد به الجروح، ويستعمل لفاقة للعمامة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة شوش.

ثم يأخذ الشاعر، لشدة تعيظه منه، في سبه فيرميه بالخسة، والدناءة، وقبح الخلقة،
يقول: (٦١)

(الطويل)

أعبدُ خسيسٌ أنتَ أم أنتَ زاهدٌ عظيمٌ كما كان ابنُ أدهمٍ أو بشرٌ
بماذا يُذَلُّ الكلبُ، لا أنا عاشقٌ ولا حسنةُ باهٍ ولا ثغره دُرٌّ
ولا وجهه صبحٌ ولا شعره دُجى ولا قدّه عُصنٌ ولا ريقه خمُرٌ

ويندم الشاعر على شرائه، ويأخذ في محاسبة نفسه، فهل وقع منه ذنب عوقب عليه بهذا
العبد، أم هل كان ثمنه من كسب حرام، ولا يجد في ختام قصيدته خلاصاً له من هذه المصيبة
إلا بموت هذا العبد، إذ لا يستطيع بيعه ولا إعتاقه، يقول: (٦٢)

(الطويل)

لقيتُ نقيضَ القصدِ يومَ اشتريته رجوتُ به نفعاً فم
سرتي الضرُّ
وقلت: أسيرٌ أستريحُ برقهٍ فأتعبي - والله - وانقلبَ الأسرُ
ولو أنني عاملته برذيلةٍ لقلتُ بعصيانِي يعاقبني الدهرُ
فيا ليت شعري ذلك الثمنُ الذي به ابتعته، هل أصله النردُ أم
خمُرٌ
فلا تحسبوا هذا الذي قلتُ وصفه غلظتم فلا العشرانِ هذا
ولا العشر
إذا بعته ردوه بالعيبِ سرعةً عليّ وللمبتاعِ
في رده العذرُ
ولو كان في إعتاقه لي راحةٌ فعلتُ، ولكن خيفتي يعظمُ
الشرُّ
بعيدٌ خلاصي منه إلا بموته فقد سرتي
أن لا يطولَ له عمرُ

ومن خلال هذه القصيدة نرى أن العبد يعيش حياة الأسرة بكل تفاصيلها، ويقوم بكل
الأعمال التي تلزمها، من الطبخ وتبريد الماء، والخبز، وتقديم الوضوء لسيدته، وتقديم الطيب له،
وإحضار البغلة له، وترجيل شعره بعد الخروج من الحمام، ومسح مداسه، وتصويل القمح، وصقل
الثياب، ونقل الأخبار، وغيرها. فهو عضو فاعل، لا يستغنى عنه، وكل سلوك له سيء أو حسن
له أثر على هذه الأسرة ومعاشها وعلاقاتها الخارجية، ألا ترى الشاعر يقول فيه: خا عئ، خفيف
الكف، ويقول:

(٦١) ابن الوردی، الديوان، ص 423.

(٦٢) هو إبراهيم بن أدهم أحد مشاهير العباد، وأكابر الزهاد، أصله من بلخ، سكن الشام، ورابط في سبيل الله، (ت 162 هـ)، ينظر:
ابن كثير، البداية والنهاية، 7/119-130. وبشر هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن، المعروف بالحافي، أحد رجال التصوف، أصله
من مرو، وسكن بغداد، (ت 226 هـ) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/276.

(٦٣) ابن الوردی، م.س، ص 423.

إذا حضرت أعيان قومي بمجلسي له حركاتٌ ضمنها النقص والصغرُ
ويقول فيما يتعلق بسلوكه خارج المنزل، حيث ينهاه عن سؤال الناس، خشية أن يتهم
الشاعر بحرمانه:

وإن قلتُ: لا تسأل من الناس نفتضح يقول: فموسى استطعم الناس والخضرُ
وليس هذا فحسب، بل إن للعبد جانباً جمالياً، قد يراعى عند شرائه، أو يسدّ نقصاً في
أخلاقه:

بما ذا يُذَلِّ الكلبُ، لا أنا عاشقٌ ولا حسنه باهٍ ولا ثغره درُ
ولا وجهه صُبْحٌ ولا شعره دُجى ولا قدّه غصنٌ ولا ريقه خمُرُ
ومن آثاره النفسية على الأسرة قوله، إذا ما سئل من بالباب "على الباب عزرائيل،
وانفصل الأمر "أي جاءكم الموت المحقق، وقوله إذا ما سئل عن الأخبار: "ردية سعوها فيك، أو
مات امرؤ أو غلا السعر".

وهذا التمرد والعصيان من العبد يدفع سيده إلى العيش في اضطراب، وأخلاق هذا العبد
توحي بأنه يرفض العبودية، أو أنه لم يُربَّ على العبودية، فانظر إلى قوله عند أمره ونهيه "بليتُ
بكم حتى متى النهيُ والأمرُ" فيبدو أنه ينتظر حريته.

هـ- الأصحاب

ومما يقع في هذا الجانب الأصحاب أو الإخوان، وهم الدائرة الثالثة التي يعيش فيها الفرد
حياته الاجتماعية بعد الأسرة والأقارب، ومهما كان الإنسان فإنه لا يخلو من صاحب، فتنشأ
بينهما العلاقات التي أصلها التآلف والتوافق والودّ، ولكن تحكمها الطباع والأخلاق، وأحياناً تعمل
فيها الظروف والأحوال عملها فتعمقها تارة، أو تتقض عراها تارة أخرى، وقد تناول شعراء هذا
العصر الصحبة والأصحاب، بجانبها السلبي والإيجابي، وكان نصيبها من شعر النّقد المجتمعي
وافراً، حيث كشفوا الغطاء عن طبيعة النفس البشرية في هذا الإطار الاجتماعي، ولعلّ أول ما
ينتقد في الصحبة، هو تخلي صاحب عن صاحبه في أوقات الشدة، فهذا البوصيري يرمي
أصحابه بالبلادة والحران، لأنهم لم يلتفتوا إليه في شدته، ولم يأبهوا لحاله، ولم يمدوا له يد العون،
وكلما حاول أن يأنس بهم ضربوا بينهم وبينه سوراً من المقاطعة والوحشة، واخلوا عليه يوم افتقر،
وسيعنيه الله عنهم بفضل الوزبي تاج الدين حفيد بهاء الدين بن حنا وكرمه، الذي جاءت هذه
الآبيات ضمن قصيدة يمدحه فيها، وعقب شكواه من الفقر وما فعله في أسرته، يقول^(٦٤):

(خفيف)

أَقْعَدْتَنِي بِقَرِيَةٍ، أَسْلَمْتَنِي لِضِيَاعٍ مِنْ فَاقَتِي وَكُفُورِ

(٦٤) البوصيري: الديوان، ص 287-288.

كُلَّ يَوْمٍ مُنْعَصٍ بِطَعَامٍ أَوْ رَفِيقٍ مُنْعَصٍ بِشُرُورِ
ورفاقي في خدمةٍ طولَ عمري رفقتي في الحران مثل الحمير
كَلَّمَا رَمْتُ أَنْسَهُمْ ضَرَبُوا مِن وَحْشَةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنِي بِسُرُورِ
وأبوا أن يساعدوني على قوت عيالي بخلاً بكيلٍ بعيرِ
فسيعني الإله عنهم بجدوى خير مولى لنا وخير نصيرِ (٦٥)

وفي موضع آخر نجد البوصيري يصف رجلاً يرفض صداقته، ويأبى أن تتوثق بينهما علاقة، فلا هو يقبل منه فضلاً، ولا يرعى له ذمّة، فيبأسطه ويعاشره بحذر، وكأنّه يعاشر سبّغاً، فالشاعر يوادّه رياءً، وهذا الصاحب يوادّه خداعاً، ما أضاع الصحبة بينهما، يقول (٦٦):

(الوافر)

فداؤك من إذا رمتُ امتناناً عليّ له أباي إلا امتناعا
فلا عندي له نَعْمٌ تُجَازِي وَلَا لِي عِنْدَهُ ذِمَّةٌ تُرَاعَى
أبَاسِطُهُ وَأَحْذَرُهُ كَأَنِّي أَمَارِسُ مِنْ خِلَاقِهِ السَّبَاعَا (٦٨)
فلا أنا آمنُ منه ضِرَاراً وَلَا هُوَ آمِلٌ مِنِّي انْتِفَاعَا
فَلَسْتُ أُوَدُّهُ إِلَّا رِيَاءً وَلَا يَسُودُنِي إِلَّا خِدَاعَا
أَضَعْتُ حَقُوقَهُ وَأَضَاعَ حَقِّي فَيَا لِكِ صِحْبَةً ذَهَبَتْ ضِيَاعَا

ففي هذه الأبيات يعرض الشاعر نموذجاً بشرياً لا يعرف للصحبة معنى ولا قدراً، وكأنّ به يتحدث عن درس في فن الصحبة والصداقة، ولا شك في أنّ هذا النموذج موجود في النَّاس في كل زمان ومكان.

وهذا الجزّار يبنتلي بأصدقاء يسيئون إليه، فلا يستطيع الخروج من صداقتهم، ويشبهه صداقتهم بخط في طرس يتعذر محوه، وكشطه لا يزول أثره، يقول (٦٩):

(مجزوء الكامل)

مِن مَنصَفِي مَن مَعَشَرَ كَثُرُوا عَلَيَّ وَكَثُرُوا
صَادِقَتُهُمْ وَأَرَى الْخُرُوجَ مِنْ الصَّدَاقَةِ يَعْسِرُ
كَالْخَطِّ يَسْهَلُ فِي الطَّرِيسِ وَمَحْوُهُ مُتَعَذَّرُ (٧٠)
وَإِذَا أَرَدْتُ كَشِطَّتُهُ لَكِنَّ ذَاكَ يُؤَثِّرُ (٧١)

(٦٥) الحران: عدم انقياد الدابة، ووقوفها عند الجري، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حرن.

(٦٦) جدوى: العطية، ينظر: ابن منظور، م، ن، مادة جدا.

(٦٧) البوصيري: الديوان، ص 308.

(٦٨) بَاسِطُهُ: ترك معه الاحتشام. ينظر: ابن منظور، م، س، مادة بسط.

(٦٩) الجزار، الديوان، ص 42.

(٧٠) الطرس: الصحيفة التي محيت ثم كتبت. ينظر: ابن منظور، م، س، مادة طرس.

وفي تحول الصداقة إلى ضيم، تجعل الصديق يندم عليها، ويتمنى لو صاحب الأعداء،
بدلاً من هؤلاء الأصدقاء، يقول شهاب الدين الأسيدي^(٧٢):

(البسيط)

ما مستي الضيم إلا من أحبائي فليتني كنتُ قد
ظننتهم لي دواءً لهم فانقلبوا داءً يزيدُ بهم همَّ
من كان يشكو من الأعداءِ جفوتهم فإنني أنا شاكٍ من أودائي^(٧٣)

أمّا ابن دانيال فيرى في الكلاب أخلاقاً وشمائلَ، من وفاء وصبر، وحفظ دمه ومراعاة
مصلحة الصاحب، لا تتوافر في أصحابه، فهي له أفضل من بعض أصحابه يقول^(٧٤):

(المتقارب)

تعلمتُ أخلاقَ هذي الكلابِ ومَن لي بأمثالها من صحابي
وفاءً وصبرٍ وحفظُ الدمامِ وذبٌّ عن الخيل عند ال
وتسهُرُ إن نمتُ في قفرةٍ وتحفظني من ضواري الذئابِ
كلابٌ ولكنّها فضّلت على بعضِ قومٍ مشّوا في الثيابِ^(٧٥)

ومن مقطوعات ابن الوردي، قوله في صاحبٍ كان وفياً له ثم استحال ندلاً^(٧٦):

(مخلع البسيط)

يا صاحباً كان لي وفياً وبي حفيّاً، فعاد ندلاً
قد يستحيلُ المُدامَ خلاً ويستحيلُ الطعامُ زبلاً

ويقول في صاحبٍ غيرِه المنصب، فأهمل أصحابه^(٧٧):

(السريع)

(٧١) كشط: أزال. ينظر: المعجم الوسيط، مادة، كشط.

(٧٢) ابن العماد، شذرات الذهب، 171/9. وصاحب الشعر هو أبو العباس أحمد بن أبي المحاسن الأسيدي، (ت 717هـ)، كان كاتب النرج
بظرابلس، ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 17/9؛ ابن العماد، م س، 191/6.

(٧٣) أدوائي: جمع داء وهو المرض، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: داء.

(٧٤) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 257.

(٧٥) الدمام: العهد والحق، ينظر: ابن منظور، م س، مادة: ذمم.

(٧٦) ابن الوردي، الديوان، ص 418.

(٧٧) ابن الوردي، م ن، ص 263.

قولوا لمن غيرُه منصبٌ من أهملَ الأصحابَ عادوا عدي
أما سليمانُ على ملكه قد قال: "مالي لا أرى الهدهدا" (٧٨)
ويحذر ابن الوردي من صحبة السجّان، لأنه متأثر بأخلاق المجرمين الذين سجنهم،
يقول (٧٩):

(السريع)

ما صحبةُ السجّانِ محمودَةٌ فاحذرْ من السجّانِ في الجملة
كم حبسوا من مُجرِمٍ عندهُ فحازَ من كلِّ امرئٍ خصلٌ هُ

ويقول ابن نباتة في أصحاب له، مرض فلم يعودوه، وكان إذا ما مرضوا عادهم (٨٠):

(الكامل)

قلُّ للكرامِ الكانتينِ في الوريِ مالي أجربُ عهدكم وأعودُ
مالي مرضت فلم يعدني عائدٌ منكم، ويمرضُ كلُّبكم فأعودُ

ويقول الحسن بن أحمد بن زفر الإربلي (٨١)، في أصدقاء لا يفرحون بلقائه إذا ما آب من
سفر إلا إذا حمل لهم الهدايا، وإلا تتقلّوا بقدمه وكرهوا تلقّيه (٨٢):

(الكامل)

وإذا المسافرُ آبَ مثلي مفلساً صفرَ اليدينِ منِ
الذي رجّاه
وخلا عن الشيءِ الذي يهديه لِدِ إخوانٍ عند لقائهم إياه
لم يفرحوا بقدمه وتتقلّوا بوروده وتكرهوا لقياه
وإذا أتاهم قادمًا بهديّةٍ كان السرورُ بقدرِ ما أهداه

و- الجار

يقول شرف الدين الأوسي الحموي (٨٣) في جيرة لم يعودوه في مرضه (٨٤):

(المتقارب)

(٧٨) سورة الزمل، آية: 20.

(٧٩) ابن الوردي، الديوان، ص 325.

(٨٠) ابن نباتة، الديوان، ص 163.

(٨١) هو الحسن بن أحمد بن زفر الإربلي الحكيم عز الدين، (ت 726 هـ). ينظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 92/2؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 230-229/6؛ الزركلي، الأعلام، 181/2.

(٨٢) ابن العماد، م.س، 229/6.

(٨٣) هو الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الأوسي الحموي، (ت: 662 هـ)، شاعر مشهور، له ديوان شعر. ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 188/7؛ ابن العماد، م.س، 662/5.

(٨٤) ابن تغري بردي، م.س، 188/7.

مرضتُ ولي جيرة كلهم عن الرشد في صحبتي حائدُ
فأصبحتُ في النقصِ مثلَ (الذي) ولا صلةً لي ولا
عائدُ

ويقول صفي الدين الحلي في جار له كالبوم في خلقته، ولكنّه غراب في عُجبه، ويصعب
أن ينال منه شيءٌ، فهو كالماء لمن أراد قبضه، وكالسراب لمن طلب الماء: (٨٥)

(الخفيف)

لي جارٌ كائنُه البومُ في الشكِّ لـ ولكن في عُجبه فغرابُ
هو كالماءِ إن أردتَ له قبـ ضاً وإن رُمتَ مورداً فسرابُ

2- الأخلاق السيئة

الأخلاق هي: كل قول أو فعل يصدر من الإنسان في علاقته مع الآخرين، وقد تكون
حميدة أو ذميمة، وتتأثر بظروف الحياة وأحوال المجتمع، وذلك لأنها مكتسبة، وأتناول فيما يأتي
بعض الأخلاق المذمومة التي وقف عليها شعراء هذا العصر، ومنها: البخل، وخيانة الأمانة،
والتكبر، والحمق وطول اللسان، ومطل الوعد.

يقول ابن دقيق العيد في أخلاق أهل هذا العصر، واصفاً إياهم بأنهم لا يلبون حاجة
لمحتاج، ولا يهتزون لشكوى شاكٍ، وينهى عن مخالطتهم لأنها تذهب بالدين، فهم لا يتورعون
عن الغيبة، وأكل بعضهم لحم بعض، فلا يخشون الله ولا الناس (٨٦):

(السريع)

قد جرحتنا يدُ أيامنا	وليس غيرُ الله من آسي
فلا تُرَجِّ الخُلُقَ في حاجةٍ	ليسوا بأهلٍ لسوى الياسِ
ولا تزدُ شكوى إليهم فلا	معنى لشكواك إلى قاسِ
وإن تخالطُ منهمُ معشراً	هويتَ في الدينِ على الراسِ
يأكلُ بعضُ لحم بعضٍ ولا	يخافُ في الغيبةِ من باسِ
لا ورعُ في الدينِ يحميهمُ	عنها ولا حشمةُ جُلاسِ
فأهربُ من الناسِ إلى ربِّهم	لا خيرَ في الخُلطةِ للنَّاسِ

ويقول مجير الدين بن تميم، منتقداً ناس زمانه ومرغباً في اعتزالهم (٨٧):

(الكامل)

(٨٥) صفي الدين الحلي، الديوان، ص532.

(٨٦) صافي حسين، ابن دقيق العيد، حياته وديوانه، ص175-176.

(٨٧) مجير الدين ابن تميم، الديوان، ص35.

من كان يرغبُ في حياةٍ فؤادِهِ وصفائِهِ فليناً عن هذا الوري
فالماءُ يصفو ما نأى فإذا دنا منهم تغيّرَ لونه وتكدراً

وفي مثل هذا يقول ابن الوردى^(٨٨): (السريع)

أشكو إلى الله زماني الذي صرتُ إليه وتحيرتُ فيه
أيُّ امرئٍ جرّبتُ من أهله يظهرُ منه كلُّ أمرٍ كرية
كم حاسدٍ كم ماردٍ كم عدى كم عائبٍ كم مُبغضٍ كم سفيه
فليفعلِ الحاسدُ في دهرِهِ ما شاء لا بدَّ وأنْ يلتقيه
ما بينَ أعدائي وبينِي سوى أنْ بهم جهلاً وأني فيه

ففي هذه المقطوعة يشكو ابن الوردى، أهل زمانه، حيث كثر الحسد، والبغض، النابغان
في أكثر الأحيان من الجهل.

ومن الأخلاق السيئة التي كانت موضع نقد عدد من شعراء العصر المملوكي الأول،
الآتية:

أ- البخل

من الصفات التي أكثر الشعراء من نقدها البخل، هذا الخلق الممقوت لدى الناس،
وبخاصة إذا ما ساءت الأحوال وعمّ الفقر، وهو عند الشعراء أكثر مقتاً، وبخاصة أولئك الذين لم
يجدوا ما يتكسبون به إلا شعرهم، فإذا ما مُنع أحدٌ منهم طلبه، ولم تلبّ حاجته، راح يتفنن في
رسم صورة كاريكاتورية للبخل، تحمل من الفكاهة ما تحمل من النقد اللاذع، فهذا صفي الدين
الجلي يصف بخل أحد مماليك السلطان، ويسميه أبا حبة، فمن بخله أنه كان يزاحم الجمال في
قوته، وكان شغله تخزين الفلوس، كما كان يأكل مع الغلمان ما فضل من طعام الأمس، ويفرط
بعرضه ويوفرّ ماله، ولا يعرف الحمّ لبخله، بل يشمّس الماء في البيت، وإذا رأى لحمة في قدرة
تلا عليها آية الكرسي لتحفظ من الأكل، ويطارد الفأر في بيته بالسيف، ولا يسمح بأن يدرك
رغفانه من الحواس إلا السمع والإبصار والشمّ، أما اللمس والذوق فهو محرم عليهما، يقول: ^(٨٩)

(السريع)

مملوكك اليوم أبو حبة مجتهدٌ في خسة النفس
يزاحمُ الجمال في قوته ويخزنُ الفلوس على الفلوس
يأكل والغلمان في يومه فضلة ما قد كان بالأمس
يودّ يمسي عرضه مطلقاً وماله الموفور في حبس

^(٨٨) ابن الوردى، الديوان، ص 280.

^(٨٩) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 518.

لا يعرف الحمّام لكنّه في البيت يحمي الماء في الشمس
إذا رأى في قدره لحمه تلا عليها آية الكرسي
وإن رأى في بيته فارةً بادرها بالسيف والتّرس
يُجلُّ أن تُدرِكَ رِغفانَه حواسُّ من يأتيه بالخمس
بالسمع والإبصار والشّم قد تُدرِكُ دون الذوقِ واللّمسِ

وهذا المملوك يغلق أبوابه عند حضور الطعام خشية أن يكبسه الأضياف، وإن فجأ
ضيف قابله بشكوى الحال والتعاسة، ثم يأخذ في ترغيبه في الحمية، ثم يقدم له الخبز والدبس،
وإن تعدّ هذا الضيف في أكله لقمة واحدة، تضايق وتلمل كانه يرفس في أضلاعه، وهذه
أوصاف مكسوبة أدركها الشاعر بحسه، وأخيراً يتبرأ الشاعر منها وينفيها عن نفسه، يقول^(٩٠):

(السريع)

يقفل عند الأكل أبوابَه خوفاً على الرّادِ من الكبسِ
فإن أتى ضيف على غِرّة قابله بالتّعسِ والنّكسِ^(٩١)
يلقاه بالترغيب في الإحتما وبعده بالخبز والدبسِ^(٩٢)
فإن تعدّ أئله لقمة رأيت في أضلاعه رفسِي
فهذه الأوصافُ مكسوبةٌ أدركها في غربتي حسّي
قد علمَ السلطانُ من قبلها أنّي من ذلك بالعكسِ

ومما قاله صفي الدين الحلي في البخل والبخيل أيضاً، قوله^(٩٣):

(المنسرح)

يحفظ في الجوع ألفَ منفعةٍ ومثلها في مضرّةِ البطنةِ
ويوهِمُ النَّاسُ أنّ شبعهم يُطفئُ نُورَ الذّكاءِ والفطنةِ
إن حاولَ الضيفُ أن يُلمِّمَ به أعطاه من قبل نُطقه القطنه

^(٩٠) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 518.

^(٩١) النّكس: التقصير في الكرم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نكس.

^(٩٢) الإحتما: امتناع المريض من الطعام والشراب، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة حما.

^(٩٣) صفي الدين الحلي، م.س، ص 537.

ويقول أيضا في صاحب له بخيل، يسترجع النَّاسُ كلما ذكر لهم أوصافه، أنَّ داره لما حَلَّ فيها أكسبته الصحة لقلّة الطعام، وما كسب من الحكمة إلا كيفية إماتة الجوع بإدامة مطاله، يقول^(٩٤):

(الطويل)

ولي صاحبٌ يسترجعُ النَّاسُ كلِّما ذكُرْتُ له م أوصافه ونعوته
لقد ألبستني صحةَ الجسمِ داره بفرطِ الحمى لما حلَّتْ بيوته
وما علّمتني حكمةً غيرَ أنِّي أديمُ مطالِ الجوعِ حتى أميته^(٩٥)

ب- التكبر

يقول صفي الدين الحلي في رجل تكبر، بعد أن اغتنى، وظن بأنه أصبح شريفاً، بأن كسوة الدهر هذه لا ترفعه ولا تزيده شرفاً، فكم من بيت خلاء قد ستر بالديباج^(٩٦):

(الوافر)

أشمخُ أن كساك الدهرُ ثوباً شرفت به، ولم تك بالشريف^(٩٧)
فكم قد عاينت عيناى سترأ من الديباج حُطَّ على كنيف

ويقول الشاعر جمال الدين التلمساني^(٩٨) الملقب بـ "حافي رأسه" فيمن تولى أمراً فتكبر^(٩٩):

(الطويل)

ومعتقد أن الرياسة في الكبرِ فأصبح ممقوتاً بها وهو لا يدري
يجرُّ ذيولَ الكبرِ طالبَ رفعةٍ ألا فاعجبوا من طالبِ الرفعِ بالجرِّ

ج- الحمق وطول اللسان

يقول صفي الدين الحلي واصفاً أحق طول اللسان، لو كانت قوة وجهه في قلبه لقبض الأسود وقتل الأبطال، ولو كان طول لسانه في يده، لسرق الكنوز والأموال^(١٠٠):

(الكامل)

لو أن قوة وجهه في قلبه قبضَ الأسودَ وجدلَ الأبطالا

^(٩٤) صفي الدين الحلي، م.س، ص536.

^(٩٥) الشطر الثاني تضمنين من لامية العرب، ينظر، الشنفرى، لامية العرب، ص74.

^(٩٦) صفي الدين الحلي، الديوان، ص532.

^(٩٧) الشامخ: الرفع أنفه تكبراً، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة شمخ.

^(٩٨) هو محمد بن عبد الله، جمال الدين التلمساني، الملقب بـ "حافي رأسه" (ت 680 هـ)، كان أدبياً وشاعراً، ينظر: الكتبي، فوات

الوفيات، 378/2-379؛ الصفي، الوافي بالوفيات، 3/290.

^(٩٩) الكتبي، م.س، 378/2-379.

^(١٠٠) صفي الدين الحلي، م.س، ص530-531.

أو كان طول لسانه بيمينه أ فنى الكنوز، وأنفد الأموال

د- مظل الودع

يصف صفي الدين الحلي ماطل وعد بأنه ليس إنساناً؛ وذلك لأنه لا يتعجل، وهذا ما ينافي ما طبع عليه الإنسان من عجل، لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(١٠١) يقول: (١٠٢)

(البسيط)

لَمَا تَطَاوَلَ بِي إِفْطَاطٌ مِطْلَكٌ فِي وَضَاعٍ وَقْتِي بَيْنَ الْعُذْرِ وَالْعِ دَلِ
أَيَقْنْتُ أَنْ لَسْتُ إِنْسَانًا لِفَعْلِكَ ذَا لِقَوْلِهِ: "خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ"

3- انتقاد الشاعر نفسه

ومن هذا ما يروى أن ناظرًا للشرقية في مصر واسمه جمال الدين، استعار من البوصيري حمارته، وأبى أن يعيدها إليه، بحكم أنه كان له عند البوصيري مبلغ من الدراهم، فأنشأ البوصيري قصيدة على لسان حمارته، تخاطب فيها الناظر وتنتقد فيها صاحبها الشاعر، تتاديه الحمارة بالسيد، الذي شهدت له ألفاظه وكلامه بأنه فاضل، وتتزهه عن أن تجوع في هذا البلد، وقد تكفل بطعامها، ولكنه أخذها عارية، والعارية من شرطها أن ترد عاجلاً، وكانت على عزم وهمّة للوصول بالناظر أكبر من عزمها وهمتها في الذهاب للحاصل، فهي تمنّ عليه بأنّها جدّت في إيصاله بلده، وتقول بأن مثلها من الدواب لا يُعار، ولكن صاحبها جاهل، ولو أركبوه عليها وداروا به في الطرق معلنين سفهه، لقاتلت من شدة غيظها منه أنه يستحق هذا التجريس، وهي مشتاقّة إلى وطنها وكل ما تبغيه أن ترعى في جوانب الساحل في بلدها، وتخاطبه بألا يطمع في تملكها، فهذا لا يقبله عاقل، وفوق هذا فهي لا تحلّ للناظر، لأنها حامل من الشاعر، يقول^(١٠٣):

(المنسرح)

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي شَهِدْتَ أَلْفَاظَهُ لِي بِأَنَّهُ فَاضِلٌ
حَاشَاكَ مِنْ أَنْ أَجُوعَ فِي بِلَدٍ وَأَنْتَ بِالرِّزْقِ فِيهِ لِي كَافِلٌ
أَلَمْ تَكُنْ قَدْ أَخَذْتَ عَارِيَةً مِنْ شَرِطِهَا أَنْ تُرَدَّ فِي الْعَاجِلِ
وَكَانَ عَزْمِي عِنْدَ الْوَصُولِ بِكُمْ أَجْمَلَ مِنْ أَنْ أُسَاقَ لِلْحَاصِلِ
مَا كَانَ مِثْلِي يُعِيرُهُ أَحَدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ سَيِّدِي جَاهِلٌ

(١٠١) سورة الأنبياء، 21 / 37.

(١٠٢) صفي الدين الحلي، م.س، ص 529-530.

(١٠٣) البوصيري، الديوان، ص 314-315.

لو جَرَسوه عَلَيَّ من سَفَهٍ لَق لَهْتُ غَيظاً عَلَيْهِ: يَسْتَاهِلُ^(١٠٤)
ظَالَ بِهَذَا شوقِي إِلَى وطني والشوقُ داءٌ - لا ذقتَه - قاتلُ
وبغيتي أَنْ أَكونَ سائِبَةً من بلدي في جوانبِ الساحلِ
لا تَطْمَعُوا أَنْ أَكونَ عندَكُمُ فذاك ما لا يرومُه العاقلُ
وبعد هذا فما يَحِلُّ لَكُم مِلْكي، فَإِنِّي من سيدي حائلُ

وبهذه اللغة البسيطة، والروح الخفيفة، والأسلوب الساخر، يسترد البوصيري حمارته،
وينتقد الناظر لهمّ هبتمك العارية، وينتقد نفسه بإعارته مثل هذه الحمارة.
ومن نقد النفس ما قاله السراج الوراق^(١٠٥) في انتقاد مظهره^(١٠٦):

(الرجز)

ومن رأني والحمارُ مركبي وزرقتي للرومِ عرقٌ قد ضَرَبَ
قال وقد أبعد وجهي مقبلاً: لا فارسَ الخيلِ ولا وجهَ العربِ

وينتقد السراج الوراق اسمه قائلاً^(١٠٧):

لَمَّا رأيتُ البدرَ والشمسَ معاً قد انجلتُ دونَهُما الدياجي
حَقَرْتُ نفسي ومضيتُ هارباً وقلتُ ما ذا موضعَ السراجِ

ويقول ضياء الدين القزويني في قوم طلبوا عنده العلم والهدى، بأنهم توهموا السراب بركة
ماء، إذ غرهم أن اسمه ضياء^(١٠٨):

(الخفيف)

قل لمن يطلبُ الهدايةَ منِّي خلت لَمَعُ السرابِ بركةَ ماءٍ
ليس عندي من الضياءِ شعاعٌ كيف تبغي الهدى من اسمِ ضياءِ

ويقول ابن الوردي منتقداً نفسه في زيارة أقوام احتجبوا عنه ، فعدّ سعيه إليهم ضرباً من
الجنون^(١٠٩):

(مخلع البسيط)

(١٠٤) جَرَس: من التجريس وهو التسميع والتتديد، ينظر: المعجم الوسيط، مادة جرس.
(١٠٥) هو عمر ابن محمد بن حسن، (ت 695هـ)، من الشعراء المشهورين في مصر، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 187-182/2؛
الصفدي، الوافي بالوفيات، 43-33/23؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 102-100/6.
(١٠٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 69/1.
(١٠٧) الغزولي، مطالع البذور في منازل السرور، 108/10.
(١٠٨) العسقلاني، الدرر الكامنة، 310/2؛ والشاعر هو ضياء بن سعد الله بن محمد بن عثمان القرمي القزويني (ت 780هـ)، ينظر:
العسقلاني، م ن، 310-309/2؛ ابن العماد، م س، 5-4/7.
(١٠٩) ابن الوردي، الديوان، ص 402.

مذ زرتهم صحبةً ووداً ألفتهم مغلقين بابا
سعيي إلى بابهم، جنونٌ مني فأستأهل الحجاجا

ويقول بدر الدين الغزي، منتقداً نفسه في تضييع ماله في الشراب ، الذي لم ينل منه إلا تصفية الكؤوس في شواربه^(١١٠):

(الرجز)

أنا القليلُ العقلِ في صرفي الذي أملكه في كلفِ المشاربِ
ما نلتُ من تضييعٍ موجودي سوى تصفيةِ الكاساتِ في شوارِ بي
ويقول ناصر الدين شافع الكناني، وقد أصابه سهم في نوبة حمص الكبرى في صدغه فعمي منه، فملَّ الحياة لانقطاعه عن النَّاس^(١١١):

(البسيط)

أضحى وجودي، برغمي في الوري، عدماً وليس لي فيهم وزدٌ ولا صدُرُ
عدمت عيني ومالي فيهم أثرٌ فهل وجودٌ ولا عينٌ ولا أثرُ
ويقول ابن دقيق العيد، وقد أتعبته فطنته وكثرة تفكيره، فتمنى أن لو كان جاهلاً^(١١٢):

(الرجز)

سحابُ فكري لا يزالُ هامياً وليلُ همِّي لا أراه راحلاً
قد أتعبتني همتي وفطنتي فليتني كنتُ مهيناً جاهلاً
أمّا ابن دانيال فله قصيدة تبلغ سبعة وثلاثين بيتاً، يبدوها بشتم القاضي، الذي شكا له ما لحقه من زوجته، التي غيبته وأذهبت عقله، ويبدو أنّ القاضي وعده في الفصل بأمرهما، فبات ينتظر قراره متفكراً في طول انتظاره، يقول^(١١٣):

(خفيف)

قلِّ لقاضيِ الفسوقِ والإدبارِ عَضُدِ البُلْهِ عمدةِ الفجّارِ
والذي قد غدا سفينةً جهلٍ وله من قرونه كالصّواري
لك أشكو من زوجةٍ صيرتني غائباً بين سائرِ الحُضارِ
غيبتني عليّ ما أطمعتني فأنا اليومَ مُفكّرٌ في انتظاري

(١١٠) الكتبي، م.س، 115/11.

(١١١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 207/9. والشاعر هو ناصر الدين شافع بن علي بن العباس الكناني المعدي، (ت 730)، كاتب ومؤرخ، له شعر جيد، ومؤلفات كثيرة. ابن تغري بردي، م.ن، 207/9. الصفي، الوافي بالوفيات، 44-49؛ الزركلي، الأعلام، 152/3.

(١١٢) علي صادق حسين، ابن دقيق العيد، حياته وديوانه، ص181.

(١١٣) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص161.

ثم يأخذ الشاعر في تعداد مظاهر غيبوبته وذهاب عقله، فلو صفعوه لظنَّ أنَّ هم يصفعون جاره، وتساوى لديه الليل والنهار، ولم يعد يعرف بيته، وقد تملكه نفور وتردد عندما زادت فيما عملت له من سحر، وغدا مخَّه أدنى من مُخِّ الجمال بل إنَّ مخَّ الحمار أفضل، فإذا أصابه البرد ذهب إلى البحر يطلب الدفء وإذا رأى السراب ظنَّه ماء فتجرد للسباحة فيه، وكم عصب رجله لرؤيته في المنام أنَّه وطئ مسماراً، وكم من مرة أراد قلع ضرس آلمته، فقلع أحد أزراره بدلاً من قلعها. وكم من مرة يذهب إلى الرحي للطنن، فلا يهتدي إليها، وينادي، وقد سئم الركض، سائلاً أين وصل؟ ويجهد ولكنه لا يستطيع القعود لأنَّه يمشي على غير وعي، يقول: (١١٤)

(الخفيف)

غبت حتى لو أنهم صفعوني قلت كفووا بالله عن صفع جاري
 فنهاري من البلادة ليل في التساوي، والليل مثل النهار
 دار رأسي عن باب داري فبالله أخبروني على سادتي أين داري
 ملكنتي عيارة وعماراً حي بن زادت بالدرديس عياري (١١٥)
 أين مخَّ الجمال من طبع مخي في التساوي، وأين مخ الحمار
 غفر الله ربما رحى للبحر من البرد أصطلي بالنار
 وتجردت للسباحة في الآل لظني به الزلال الجاري (١١٦)
 ولكم عصبت رجلي لرؤيا أوطأنتي حُلماً على مسمار
 ولكم رمث قلع ضرس ضروب بعدما ضرر غاية الإضرار
 فإذا بي قلعت بعد عنائي واجتهادي القوي من أزراري
 ورحى جرتها لطحن فما زلت ضلالاً أدور حول المدار
 وأنادي وقد سئمت من الركب ضئري أين منتهى مضماري (١١٧)
 أنا أختار لو قعدت من الجهل ولكن أمشي بغير اختياري

ويواصل الشاعر وصف بعض ما اعتري عقله من ضعف، ف هو كثير النسيان، يفرط بكل الأسرار، ويشبه نفسه بسطل الشرائحي بائع العجة. وإذا نظر في الماء رأى صورته، شيخاً

(١١٤) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 162-163.

(١١٥) عيارة: مسيرة، عياراً: نفوراً، الدرديس: خرزة يشعبذ بها نساء العرب لاستجلاب محبة الرجل، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: عيّر ودرديس.

(١١٦) الآل: السراب، ينظر المعجم الوسيط، مادة: أزل.

(١١٧) مضمار: الموضع الذي تضمّر فيه الخيل للسباق، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة ضمير.

مغبراً، سيئاً، ذقنه كالتلج ووجهه أسود كالفار، إنها صورة تيس يشبهه، ثم يصيح فيه مهتراً،
مرعوباً، يتساءل كيف تستقر اللصوص في الأزيار، ويزداد غيظاً عندما يرى هذا الشخص الذي
يراه في الماء يقلده، ثم يطلب سيفه وترسه، ويقرر أنه إن مات فهو شهيد، وإن عاش فهو
محظوظ، ويضرب الزير بسيفه، فينسكب ماؤه فيخشى على نفسه من الغرق، وإلا تتبع آثار هذا
الذي رآه في الماء، يقول: (١١٨)

(الخفيف)

أنا أنسى أنني نسيتُ فلا يَخُ شى مُسِرِّي إذاعةً الأسرارِ
أنا سطلُ الشرائحِ بما أُو دِعْتُ من عَجَّةٍ وم ن إنزَارِ (١١٩)
وَلَكَمْ قد رأيتُ في الماءِ شيخاً وهو جاثٍ في الحُبِّ كالغَبَارِ
شيخٌ سوءٍ كالتلجِ ذقناً ولكن وجهُهُ في سوادهِ كالفارِ
أشبهُ النَّاسَ بي وقد يشبهُ التيبسُ أخاه في حومةِ الجَزَارِ
صاحٍ مثلي إذ صحتُ منه عِناداً بانتهاجٍ يا صاحٍ مثل انتهاجِ
فاعتراني رُعبٌ وناديتُ ما كنتُ إخالُ اللصوصِ في الأزيارِ (١٢٠)
لم يغظني منه سوى أنه عَدِ بَسٍ مثلي وافترَّ مثل افتراي
أين ترسي وأين درعي الحقيني أم عمرو بصارمي البتارِ
إن أمتُ كنتُ في العزاةِ شهيداً أو أعشُ كنتُ أشطرَ الشُّطَارِ (١٢١)
ثم أنختُ ذلكَ الزيرَ ضرباً بحسامي حتى هوى لانكسارِ
فجرى الماءُ فاخترشيتُ وإلاً كُنتُ أقفو الآثارَ في التِيَارِ

ثم يأخذ في تصحيف بعض الألفاظ ليشتق منها صفاته، وفي شيء من التفكه والتندر
يأخذ في تصوير ما آل إليه من الغباء وقلة العقل، فهو يحزر أن البياض فوق الصفار قبل أن
تكسر البيضة، ويرى معرفة مثل هذه التوافه، على ما بلغ من العمر منه شيئاً عظيماً، يقول (١٢٢):

(الخفيف)

(١١٨) الصفدي، م.س، ص 163-164.

(١١٩) الشرائحي: الطباخ الذي يحضّر شرائح اللحم. عجة: طعام يتخذ من البيض يقلى بالسمن. ينظر: المعجم الوسيط، مادة، عجج.

(١٢٠) الأزيار: جمع زير، وهو الحُبُّ يوضع فيه الماء، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: زير.

(١٢١) الشُّطَار: جمع شاطر: وهو صاحب السلوك غير السوي، ينظر: المعجم الوسيط، مادة شطر.

(١٢٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 164-165.

أنا كالبان في قوامي وإن أف ردتني كنت في التهارش ضاري^(١٢٣)
أنا مثل الخروف قرناً وإن أسد قطت فائي أعد في الأقدار
أنا تيسير ما يقاد بحذف الـ ياء والراء حالة الإعسار
أنا لو رمت للعلاج طبيباً ما تعدي ث دكة البيطار
بعدهما كنت من ذكائي أدري أن باب ـي من صنعة النجار
أحزر البيض قبل أن يكسروه أن في ـه البيض فوق الصفار
وبعيني نظرت لوز زجاج كان عن دي أوهـي من الفخار
وكثير مني على شيب رأسي حفظ هذي الأشياء مثل الصغار

وهكذا وفي نفس طويل، يصور لنا ابن دانيال نفسه مسحوراً، ذاهب العقل، تصويراً نفسياً وعقلياً وحركياً دقيقاً، فبدا وكأنه عاشر المجانين، ورصد سلوكهم بتفاصيله، هذا وإن غلبت على قصيدته روح الهزل والفكاهة، إلا أنها تشي بحالة من اليأس والإحباط، ليس في الحياة الزوجية فقط، بل في الحياة عامة، ربّما دفعت الشاعر إلى جلد نفسه مثل هذا الجلد.

4- نقد بعض الظواهر الاجتماعية الطارئة

لا يخلو أي مجتمع من ظواهر اجتماعية شاذة تنافي الأعراف أو الدين، تجلبها الظروف السياسية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو الثقافية، أو غيرها، ولم يكن المجتمع في العصر المملوكي بمنأى عن بعض هذه الظواهر، وقد تناولت ثلاث ظواهر وقف عليها شعراء ذلك العصر، هي: اللواط، والحشيشة، والخمر.

أ- اللواط

وهي ظاهرة يحرمها الدين، وينفر منها الطبع السوي، وقد انتشرت هذه الظاهرة جرّاء أسباب عدة، منها:

كثرة المردان، وشيوع الغزل بالغلمان، واختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم الأخرى، وتأثرهم بما كان شائعاً بينهم من انتشار لهذه الظاهرة.

وقد تناول الشاعر ابن الوردي، هذه الظاهرة، في مقطوعة من ثمانية أبيات، وهو يعدّها شائعة مشتهرة في المجتمع، لا تلقى الاستكثار، وبيدوها بانتقاد من تغزلوا بالمردان، وقالوا فيهم شعراً، ويحذر من صحبتهم؛ لأنّ صحبتهم لا تقود إلا إلى العار في المجتمع، والإثم الذي يقود إلى النار، فشعر هؤلاء المتغزلين بالمردان ما كان إلا عن تجربة عاشوها، يقول: ^(١٢٤)

^(١٢٣) التهارش: النقاتل، ضاري: من الضراوة، وهي الشدة في الاعتقاد، ينظر: ابن منظور، م.س، مادتي: هرش وضرا.

^(١٢٤) ابن الوردي، الديوان، ص318.

(البسيط)

من قال بالمرء فاحذر أن تصاحبه فإن فعلت فثق بالعار والنار
بضاعة ما اشتراها غير بائعها بنس البضاعة والمبتاع والشاري
يا قوم صار اللواط اليوم مشتهراً وشائعاً ذائعاً من غير إنكار
ويحذر أيضاً من عواقب هذه الظاهرة، فهذا ذنب يهتز له عرش الرحمن، ومن قبل
أهلكت به أمم، وصاحبه حرمت عليه الجنة. ثم يستغفر الشاعر ربّه لما قال في المردان من
أشعار، لم يقصد منها إلا ترويح أشعاره، فأقواله هذه لم تصدر عن أفعال الأشرار، الذين
يهجرون نساءهم لمثل أفعال الخنا هذه، يقول^(١٢٥):

(البسيط)

ذنب به هلك من قبلنا أمم والعرش يهتز منه هز إكبار
جنات عدن على اللوطي قد حرمت الله أكبر ما أعصاه للباري
أستغفر الله من شعر تقدم لي في المرء قصدي به ترويح أشعاري
لكن ذلك قول ليس يتبعه خنا وحاشاي من أفعال أشرار^(١٢٦)
"قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار"^(١٢٧)
وهكذا وقف ابن الوردي منتقداً هذه الظاهرة في جانبها، جانب الممارسة لمثل هذا الفعل
الحرام، وجانب الغزل بالمرءان والمجاهرة بهذا الفعل والترويح له في الأشعار.

ب- الحشيشة

شاع في هذا العصر تعاطي الحشيشة وأكلها، وتعدّ من المنبهات التي تذهب بالعقل،
مثلها مثل الخمر، وأسهمت عدة عوامل في انتشارها منها: الظروف الاقتصادية والسياسية
والاجتماعية، وما تولد عنها من آثار سلبية على حياة الفرد والمجتمع، فإن لم يكن تعاطيها هروباً
من ضيق العيش والهموم، كان لا تجار بها مصدر رزق، بحكم أن مدمنيها لا يستغنون عنها،
واتخاذها من قبل بعض الناس وسيلة للهو والعبث.
يقول ابن عفيف التلمساني الملقب بلشباب الظريف^(١٢٨)، نافية عن الحشيشة أي فضل،
عاداً أكلها غير راشد، معدداً آثارها عليه، التي منها الصفرة في وجهه، والحمرة في عينيه،
والسواد في كبده، والخضرة في فمه، يقول^(١٢٩):

^(١٢٥) ابن الوردي، م.ن، ص 318.

^(١٢٦) الخنا: الفحش في الكلام، أو الفعل، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة خني.

^(١٢٧) هذا البيت تضمن من شعر الأخطل. الأخطل، الديوان، شرح إيليا حاوي، ص 84.

(البسيط)

ما للحشيشة فضلٌ عندَ آكلِها لكنَّه غيرُ مصروفٍ إلى رَشَدِه
صفراءُ في وجهه خضراءُ في فيه حمراءُ في عينه سوداءُ في كَبَدِه

ويقول أيضاً^(١٣٠):

هذا الفقيرُ الذي تراه كالفرخِ مُلقىً بغيرِ ريشٍ
قد قتلته الحشيشُ سُكراً والقتلُ من عادةِ الحشيشِ

أمَّا فتح الدين البقفي^(١٣١)، فيذمها ويذم آكلها، ويفضل الخمر عليها، فأكلها شقيٌّ
منحرف، وأقل آثارها أنها تؤدي إلى البغاء، أو الجنون، أو نشاف الجسم، يقول^(١٣٢):

(الوافر)

لما الله الحشيشَ وآكلِها لقد حَبَّتْ كما
كما تُصبي، كذا تُضني وتُشقي لآكلِها، وغايتها انحرافُ
وأصغرُ دائِها والداءُ جمٌّ بغاءٍ أو جنونٌ أو نَشافٌ^(١٣٣)

ج- الخمر

انتشر شرب الخمر في هذا العصر انتشاراً واسعاً، ما اضطر بعض السلاطين إلى
منعها، والتشدد في عقوبة شاربيها، التي بلغت في بعض الأحيان حدَّ الصلب، ومن هذا ما أمر
به الظاهر بيبرس عام 667هـ، من إراقة الخمر ومعاقبة من يشربها، فعوقب ابن الكازروني
بالصلب. وقد انتقد ابن دانيال هذه العقوبة، التي تجاوزت حدَّ الخمر الذي جاء به الشرع، إذ أنه
لمَّا رأى ما حل بشاربيها من صلب، راح ينصح صاحبه بالتوبة عن شربها، يقول^(١٣٤):

(الطويل)

وقد كان حدُّ السكرِ من قبلِ صلِّبه خفيفَ الأذى إذ كانَ في شرعنا جَلداً
فلمَّا بدا المصلوبُ، قلتُ لصاحبي ألا تُبُ فإنَّ الحدَّ قد جاوزَ الحدَّ

^(١٣٠) هو محمد ابن الشيخ العفيف التلمساني، الكاتب الأديب الملقب بالشاب الظريف، (ت 688هـ)، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات،
350/2؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/69؛ الزركلي، الأعلام، 6/150.

^(١٣١) الشاب الظريف، الديوان، ص 144-145.

^(١٣٢) الشاب الظريف، الديوان، ص 190.

^(١٣٣) هو أحمد بن محمد البقفي، كان يستحل المحرمات ويهزأ بالدين، فضربت عنقه بين القصرين عام 701هـ، ينظر: الكتبي، فوات
الوفيات، 1/187-189؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 1/329-333؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 6/135.

^(١٣٤) ابن العماد، م.س، 6/135.

^(١٣٣) النشاف: انتقاع اللون، ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة نشف.

^(١٣٤) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 105.

وفي هذا الجانب نلقى صفي الدين الحلي، ينتقد إفراط المسلمين في شرب الخمر، وكأنهم خلقوا لشربها، وظنوا خاطئين أن في كثرتها نفعاً، ويرى الشاعر أن متعتها في قليل يداوى به الهم، فالسكر يستبد بالإنسان ويسلبه إرادته، وينصح أن يتخذ لها نديماً مهذباً حكيماً، يقول (١٣٥):

(الطويل)

أدزها بلطفٍ، واجعل الرفق مذهباً وحيً به كاساً من الراح مُذهباً
ولا تطغ في حث الكؤوس لأننا شربنا لنحيا، ما حيننا لنشربا
فإن قليل الراح للروح راحة فإن زاد مقداراً عن العدل أتعبا
فلا تك من أعطى المُدام قياده فأودت به واستوطأ الجهل مركبا
فإن كثيراً من يظن كثيراً إذا زاد زاد النفع أو كان أقربا
كظنهم في كثرة الأكل أنها إذا أفرطت أمسى بها الجسم مُخصبا
أضلوا الوري من جهلهم وتنزهوا عن الجهل حتى صار جهلاً مركبا
وأعجب أن السكر في كل ملة حرام، وإن أمسى إليها مُحبباً
وتكثرت منها المسلمون لسكرها وتت ركن نفعاً للقليل مُحرماً
وإن نظروا يوماً لبيباً مداوياً بها الهم، قال وا: باخ لا متطيباً
وما السكر إلا حاكم متسلط إذا هو ق. اوى أغلباً كان أغلبا
فإن شئت يوماً شربها، فاتخذ لها حي ماً لبيباً، أو نديماً مهذباً

ويذهب صفي الدين الحلي إلى أبعد من هذا منتقداً من يحرّمها ويحضر مجالسها، فيوصي بأن يدعى لها بالعصمة من كل ثقيل أحرق متصنع الحشمة، يحرّمها، في وقت يستحل فيه الربا والغيبة والتجسس، ويوصي أيضاً بأن يطرد إذا ما حضر مجلسها، وأن يصرح له بأن حضور مجلسها في الإثم كشرها، فلا قيمة لحضوره، فمقامه صاحباً بين السكارى، كمقام قاعد بين النيام، يقول:

(الخفيف)

حي بالصرف من كؤوس المُدام إن بنت الكروم عرس الكرام
وأنك فهمي بقهوة تطفئ الهمم ببرد من سكرها وسلام
ثم قل، كلما تراءت لك الكأس فشابت بها فروغ الظلام
عصم الله منك كل ثقيل جاهل ذي تبظرم واحتشام

(١٣٥) صفي الدين الحلي، الديوان، ص412.

(١٣٦) صفي الدين الحلي، الديوان، ص414-415.

يجدُ اللهُوَ بالمدامِ حراماً عنده، والرياءَ غيرَ حرامٍ
ويرى الزورَ والتجسسَ والغيبَ حراماً، في شرع الإسلام
وإذا زارَ مجلساً لكَ قَدَمٌ منهم غيرُ مولعٍ
فانثِ جيداً عنه وثنَّ بما يو جبُّ إبعادهُ بغيرِ احترامٍ
ثم صرَّحْ له بأنَّ حضورَ الرِّاحِ قصاداً كشرِّبها في الآثامِ
فمقامُ الصُّحاةِ بين السُّكارى كمكانِ القعودِ بين النيامِ

ويبدو من هذه القصيدة أن ظاهرة شرب الخمر في هذا العصر، قد لقيت من ينكرها،
ويغشى مجالسها للإنكار، وأنَّ هؤلاء المنكرين ينغصون على أهلها ما هم فيه من متعة. ويبدو
أنَّ هذا الشخص الذي تناوله صفي الدين الحلي من العوام، لا من رجال الدولة، وإلا لما أوصى
بأن يفعل في المجلس ما يطرده، ولا من الفقهاء، وإلا لما عيَّره باستباحة الريا وغيره من الآثام.

ومما يجدر ذكره في هذا الجانب، انتقاد بعض الشعراء لتحريم الخمر والحشيش، وكثراً قد
استعرضنا بعض ما قيل في هذا من أشعار في الجانب السياسي، فهذا ابن دانيال وفي أسلوب
ساخر، يحذّر الفقير من أكل الحشيش فيجلد، ويوصيه أن يدع النبيذ (المزر)، وأن يستبدل بها
اللبن المخيض، ويحذر مقترفي الحرام، وبخاصة اللصوص، أن يحفظوا أيديهم من القطع، ويدعو
الجميع للتوبة والصلاة والدعوة للسلطان لينعموا بالنعيم الأكبر، يقول^(١٣٧):

(الكامل)

إيَّاكَ تَأْكَلُ أَخْضِراً فِي عَصِرِهِ يَا ذَا الْفَقِيرِ يَصِيرُ جَنْبُكَ أَحْمِراً
وَالْمِزْرُ يَا مَسْعُودُ دَعُهُ جَانِباً وَاشْرَبْ مِنَ اللَّبَنِ الْمَخِيضِ مُبَكِّراً
وَبَنِي حَرَامٍ إِحْفَظُوا أَيْدِيَكُمْ فَالْوَقْتُ سَيْفٌ، وَالْمِرَاقِبُ قَدْ دَرَى
تَوَبُوا وَصَلُّوا دَاعِيِينَ لِمَلِكِهِ فِيهِ تَنَالُونَ النَّعِيمَ
وَمِنْ هَذَا قَوْلُ ابْنِ الصَّاحِبِ الْمِصْرِيِّ^(١٣٨) مُنْتَقِداً تَحْرِيمَ الْحَشِيشَةِ:

(الخفيف)

فِي خِمَارِ الْحَشِيشِ مَعْنَى مَرَامِي يَا أَهْيَلِ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ
حَرَمُوهَا مِنْ غَيْرِ عَقْلِ وَنَقْلِ وَحَرَامٌ تَحْرِيمٌ غَيْرِ الْحَرَامِ
يتضح مما سبق أنَّ الشعرَ وَاكْبَ الحِياةِ الاجْتِمَاعِيَةِ فِي أَدْقِ تَفَاصِيلِهَا، حَتَّى لِيخْتَلِ
لمستقرئه أن الشعراء كانوا لا يتوانون في البحث عن العيب أو الظاهرة الاجتماعية ليقفوا عليها

^(١٣٧) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص122.

^(١٣٨) هو صفي الدين بن شكر المصري ابن الصاحب، (ت 688 هـ)، له شعر وعاشر الخمارين، وصاحب نوادر. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 202/9؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 67/6.

فيقولوا فيها شعراً. وأنَّ صدق التجربة كان ظاهراً للعيان، يدل عليه ما عرف من انغماس الشعراء في الحياة العامة، والتفاصيل الدقيقة التي جاءوا عليها، والتي قد لا تتوافر لمتكلف، وأنَّ معظم هذه العلاقات الاجتماعية التي كشف النقاب عنها، كانت تنتظم في خيط واحد هو تردي الحياة الاقتصادية، فالشعر المتعلق بالزوجة مثلاً، لا يعبر عن نظرة سلبية للمرأة، بل يعبر عن علاقة زوجية ساءت بسبب الفقر وكثرة العيال، وكذا يقال في انتشار الحشيش بين عامة الناس، وعلى أية حال فإن هذه الأشعار تعبر عن علاقات إنسانية، أكثر مما تعبر عن خصوصية ذلك المجتمع.

رابعاً: شعر النِّقد الثقافي

عرف عن هذا العصر كثرة المدارس والعلم والعلماء، والشعر والشعراء، وذلك على الرغم من أنَّ حكام البلاد ليسوا من العرب، وقد رصد الشعراء في هذا الجانب ظواهر عديدة، تناولوها بالنقد والذم، فانعكست عن شعرهم صورة الحياة الثقافية في هذا العصر بأبعادها المختلفة، من أهمها: حالة العلم والدرس العلمي، والشعر والشعراء.

١ حالة العلم والدرس العلمي

أ - الدرس والمدرس

أول ما نلقى في هذا الجانب قصيدة للشاعر الأديفي، يتناول فيها حالة العلم في هذا العصر بالنقد والذم، فالدروس طُبعت على اللغظ، والمباحث العلمية سيطر عليها الجدل، واعتمدت النقل المغلوط، والمدرس أكثر من التخطيط لدروسه فوقع في الخلط، والمحدث غاية علمه نقل الأحاديث عن سبقه من الرواة، وراح هؤلاء المحدثون يتناقسون في درجة صحّة الأحاديث التي يتناقلونها، وعمّن رُويت، وغدا العالم النحرير في هذا العصر من أنقن الفلسفة اليونانية، وفي مثل هذا الوضع العلمي دَوّت علوم الدين وأذنت بطيِّ بساطها، فزُفِع العلم، ورفعهُ من أشراف الساعة، يقول الشاعر

(الكامل)

- (١٤٠) إِنَّ الدروسَ بمصرنا في عصرنا طُبعتْ على لُغَطٍ وفَرَطٍ عياطٍ
ومباحثٌ لا تنتهي لنهايةٍ جَدَلًا، ونقلٌ ظاهرٌ الأغلطِ
ومدرِّسٌ يُبدي مباحثَ كُلِّها نشأتْ عن التخطيطِ والأخلطِ
(١٤١) ومُحدِّثٌ قد صار غايةً علمه أجزاءً يرويها عن الدِّمياطِي
(١٤٢) وفلانَةٌ تروي حديثاً عالياً وفلانٌ يروي ذاك عن أسباطِ
(١٤٣) والفرقُ بين غريهم وغزيرهم وانضح عن الخياطِ والحنَّاطِ
والفاضلُ النحريرُ فيهم دأبه قولُ أرسطاطاليس أو بُقراطِ
وعلومُ دينِ الله نادت جهرَةً هذا زمانٌ فيه طيُّ بساطِ
(١٤٤) ولَى زمانِي وانقضتْ أوقاته وذهابه في جُملةِ الأشرطِ

ولا شك في أنَّ هذا تصوير دقيق لحالة العلم، فقد كثرت المباحث والتفريعات على العلوم، وكثر الجدل، والنقل الذي لا يخلو من أغلاط، وبلغ الاهتمام برواية الأحاديث ذروته، حتى طغت الرواية على علوم الفقه، وزاد الاهتمام بالفلسفة اليونانية، ولكن هناك أمران تجلّيا من خلال هذه الصورة التَّقديمية هما كثرة العلم وشيوع المدارس، ووجود دور للمرأة في هذه الحركة العلمية، وبخاصة رواية الحديث.

ولعل ثقل الدرس العلمي، وكثرة الفروع والشروحات هو ما دفع ابن دقيق العيد إلى

القول (١٤٥):

(الرجز)

سحابُ فكري لا يزالُ هاميا وليلُ همّي لا أراه راجلا

قد أتعبتني همّتي وفطانتني فليتني كنتُ مهيناً جاهلا

ولكن ما مردود هذا العلم على حياة المتعلم؟ يقول الجزّار مفضلاً الجزارة وما تدرّه من كسب، على العلم، الذي أضاع عمره فيه، وبخاصة علمي النحو والعروض، ولم يجن من ورائه

فائدة (١٤٦):

(الوافر)

(١٤٠) عياط: الجلبة والصياح، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة عيط.

(١٤١) الدمياطي: هو الإمام الحافظ شيخ المحدثين محمد عبد المؤمن بن خلف التونسي الشافعي (ت 705هـ). ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، 305/1؛ الكتبي، فوات الوفيات، 29/2-31؛ الزركلي، الأعلام، 4/169.

(١٤٢) أسباط: يعني من ورثوا علم الحديث والرواية عن أجدادهم مثل: زين الغماري المصري، كان يلقب سبط الفقيه زيادة، ومثل سبط السلفي، ينظر: السيوطي، م.س، ص 331-332.

(١٤٣) النضح: الذبُّ والدفع، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة حنط.

(١٤٤) المقصود أشرط الساعة.

(١٤٥) علي صافي حسين، ابن دقيق العيد حياته وديوانه، ص 181.

قطعْتُ شبيبتي وأضعتُ عمري وقد أتعبتُ في الهديانِ فكري
 ومالي أجرةً فيه ولا لي إذا ما متُّ يوماً، بعضُ أجرِ
 قرأتِ النحوِ تبياناً وفهماً إلى أن كُعتُ منه وضاقَ صدري ^(١٤٧)
 فما استنبطتُ منه سوى مُحالٍ يُحالُ به على زيدٍ وعمرو
 فكان النصبُ فيه عليّ نصباً وكان الرفعُ فيه لغيرِ قدري
 وكان الخفضُ فيه جُلَّ حظِّي وكان الجزمُ فيه لقطعِ ذكري
 وفي علمِ العروضِ دخلتُ جهلاً وعمتُ بخفتي في كلِّ بحرٍ ^(١٤٨)
 فأذكرني به التفعيلُ بيتاً تضمّن نصفه الشيخُ المعري
 مفاعيلن مفاعلتن فعولن حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمرو
 وكم يومٍ ببيعِ اللحمِ عندي يُعدُّ من البوارِ بألفِ شهرٍ

وقصيدة الجزار هذه تكشف النقاب عن أمور عدّة، أهمّها: شيوع العلم والتعليم وبخاصّة
 في علوم العربية من نحو وعروض، وانتقال الدرس العلمي بالتفاصيل التي قد تصل إلى حدّ
 الهديان الفكري، التي تحتاج من الدارس أن ينقطع لتعلّمها أمداً طويلاً، وقلة المردود المادّي لهذه
 العلوم على حياة المتعلم.

وما زاد الطين بلّة، تتحية أهل العلم عن المناصب الهامّة، وتولية الجهلة عليها، فعبر
 الشعراء عن هذا تعبيراً صادقاً، فهذا الكمال جعفر الأدفوي يرى صاحب الجاه مقدماً على أهل
 العلم في تولية المناصب ووظائف التدريس، وإن كان صاحب الجاه هذا جاهلاً، يقول في الزين
 الدمشقي ^(١٤٩)، وقد تولى تدريس الحديث بالقبة المنصورية، فتكلم النَّاس في ذلك، إذ لم يكن على
 علم كبير بالحديث ^(١٥٠):

(الكامل)

بالجاهِ تبلغُ ما تريدُ فإن تردُّ رُتبَ المعالي فليكنْ لك جاهُ
 أو ما ترى الزينَ الدمشقي قد وليَ درسَ الحديثِ وليس يدري ما هو

^(١٤٦) الجزار، الديوان، ص46.

^(١٤٧) كاع: عُقر فمشى على كوعه، لأنه لا يقدر على القيام، ويقال مشى في شوقٍ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة كوع.

^(١٤٨) عام: من العوم وهو السباحة، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة عوم.

^(١٤٩) هو عمر بن أبي الحرّم زين الدين الكتاني (ت 738هـ)، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات ، 276/22؛ العسقلاني، الدرر

الكامنة، 237-240؛ الحنبلي، شذرات الذهب، 289/6.

^(١٥٠) العسقلاني، م.س، 238/3.

ويبرز القيسي الحنفي^(١٥١)، العالم من عار الخمول، ويشبّهه بلُبِّ الفاكهة الشهية، ويشبّه
الجاهل بقشرها^(١٥٢)؛

(الخفيف)

ما على العالم المهذب عازّ إن غداً خاملاً وذو الجهل سام
فالبابُ الشهيُّ بالقشرِ خافٍ ومصونُ الثمارِ تحتِ الكُمامِ
وللمعمار رفيق جهول، خالٍ من الأدب، وُظف كاتباً، فكلماً رآه بين الكتاب تعجّب من
أمره؛ كيف وُظف على جهله، ويعدّه دليلاً على أنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب^(١٥٣)؛

(المجتث)

ولي رفيقٌ جهولٌ خالي من الآدابِ
أقولُ لمّا أراه في جُملةِ الكتابِ
سبحان رازقِ هذا رزقاً بغيرِ حسابِ

أمّا ابن البقّي، فكان لتقدم الجهلة وتأخر العلماء، وقع أشدُّ على نفسه، فهم وإن تقدّموا،
إلا أنهم يبقون وحوشاً، تقاد بحكمة العلماء، فلهم المتعبان في هذه الحياة الجهل والغنى، وللعلماء
المريحان: العلم والفقر، يقول^(١٥٤)؛

(البسيط)

أين المراتبُ في الدنيا ورفعتُها منَ الذي حازَ علماً ليس عندهم
لا شكَّ أنّ لنا قدراً رأوه، وما لمثلهم عندنا قدرٌ ولا لهم
هم الوحوشُ ونحن الإنسُ، حكمنا تقودهم حيثما شئنا وهم نَعَمُ
وليس شيءٌ سوى الإهمالِ يقطعنا عنهم لأنهم وجدانهم عدَمُ
لنا المريحانِ من علمٍ ومن عدَمٍ وفيهم المتعبانِ الجهلُ والحشمُ

وقد رأى بعضهم أنّ العلم لا بدّ أن يقرن بالنقوى، حتى يتمّ الفضل للعالم، فهذا ابن دقيق

(السريع)

العيد، يقول في أحدهم^(١٥٥)؛

749هـ)، ينظر: الصفي، م.س، 48/7؛

(١٥١) هو أحمد بن عبد القادر القيسي، تاج الدين أبو محمد الحنفي، التحوي، (ت)

العسقلاني، م.س، 237/3-240؛ الزركلي، الأعلام، 153/1.

(١٥٢) العسقلاني، م.س، 187/1.

(١٥٣) الغزولي، مطالع البذور في منازل السرور، 430/2.

(١٥٤) الكتبي، فوات الوفيات، 188/1.

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثل ما يرتضي
فقلت لما لم يكن ذا تقى تعارض المانع والمقتضي^(١٥٦)

ويقول ابن المنير فيمن نازعه القضاء وهو جاهل^(١٥٧):

(الخفيف)

قل لمن يبتغي المناصب بالجهل تنحى عنها لمن هو أعلم
وإن تكن في ربيع وُلّيت يوماً فعليك القضاء أمسى محرّم

ومما يندرج في هذا الجانب الثقافي، ويقع في إطار العلم والتعليم، انتقاد البوصيري لتعليمه الصغار وقلة ما حصله من ذلك، إذ فتح بيته كتاباً، فملّ الصبيان، وكان يروض نفسه ويتحلّى بالصبر في معاملتهم، خشية أن تعاوده التهابات الصدر (البرسام)، وقد أصبح بيته كبرج الحمام، وكان يشعر بأنه يعطيهم عقله، ويتأثر بطباعهم وعقولهم، ثم يشكو قلة المردود المالي لمثل هذا المكتب، يقول^(١٥٨):

(الكامل)

لو لم أرض عقلي بمكتب صبية حميت علي عوارض البرسام^(١٥٩)
ما زلت أرغب أن أكون معلماً فيكون فضلي مكمل الإعلام
قد صار كتابي وبيتي من بني غيري وأبنائي كبرج حمام
أعطيهم عقلي وأخذ عقلهم فأبيع نوري منهم بظلام
لو أن لي عن كل طفل منهم أو طفلة شاة من الأنعام
لضربن للأمثال لابن نفاية من كثرة الأبقار والأغنام^(١٦٠)

ب - المدارس

^(١٥٥) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/140.

^(١٥٦) المقصود بالمانع: هو عدم التقوى الذي يمنع من إكرامه، والمقتضي: هو العلم الذي يقتضي إكرامه، والمصطلحان فقهيان.

^(١٥٧) الكتبي، م.س، 1/185.

^(١٥٨) البوصيري، الديوان، ص451.

^(١٥٩) البرسام: علة في الصدر، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: برسم.

^(١٦٠) ابن نفاية: المقصود زيل هذه التواب.

كان للمدارس علاقة وثيقة بالمساجد، وبخاصة المساجد الجامعة المشهورة، وكانت توقف عليها الأوقاف، وينفق الحكّام والولاة عليها، فهذا الملك الصالح نجم الدين أيوب زوج شجرة الدر، يخرج ثلاثة آلاف دينار صدقة على طلبة المدارس في القاهرة، ويفوض أمرها إلى الفقيه بهاء الدين المسردى، وهذا بدوره فوض أمرها إلى والده الشهاب، الذي لم يجعل لمسجد الشيخ عبد الظاهر منها نصيباً، فينشئ البوصيري قصيدة على لسان هذا المسجد، يتساءل فيها عن سبب حرمان مسجده، على الرغم من أنه تقام فيه دروس العلم، ويدعى فيه للسلطان عقب كل صلاة، وهذا يعدّ عدواناً، يقول^(١٦١)!

(الخفيف)

ليت شعري ما مقتضى حرمانى دون غيري والإلف للرحمن
أتراني لا أستحقُّ لكوني جامعاً شملَ قارئ القرآن
أم لكوني في إثر كل صلاة بي يدعى لدولة السلطان
وبأي الأسباب يُعطى مكان صدقات السلطان دون مكان
حُمِلت من عطائه ألف دينار إلينا من بعدها ألقان
ما أتاني منها ولا الدرهم الفر د، وهذا حقيقة الغدوان

ثم يُفند الشاعر زعم ابن البهاء بأنّها لم تكف سائر المدارس، ويتهمه بأنّه اختلس نصف المبلغ، ويقيم عليه دعوى يثبتها بعملية حسابية دقيقة، تعدُّ برهاناً على صحة دعواه، فإذا كان عدة الفقهاء ألفاً ومائتين، دُفع منها عند الصرف لكل فقيه دينار وربع، فهذه ألف وخمسمائة، نصف المبلغ، فأين ذهب النصف الآخر، والجواب: انتقصتها يد الوزان، ولا ينسب له هذا النقص والخيانة إلا لأنه قليل الإيمان، وقد ولى أمرها أهل الخيانة، يقول^(١٦٢):

(الخفيف)

زعم ابن البهاء أنّ عطايا الملك الصالح العظيم الشان
ما كفت سائر المدارس أوضمّ م إليها من مالها درهمان
ولعمري لقد توفّر نصف المال منها وراح في النسيان
إن أكن ما أقوله منه دعوى فاطلبوني عليه بالبرهان
أو ما كان عدّة الفقهاء ألف فقيه من بعدها مئتان

^(١٦١) البوصيري، م.س، ص478.

^(١٦٢) البوصيري، الديوان، ص478-479.

فاحسبوها بمقتضى الصِّرفِ ديناً رَأً ورُبُعاً للجلَّةِ الأعيانِ
تجدوها ألفاً وخمسةً مئاةٍ غيرَ ما حَصَّها من النُّقصانِ
والبخاسُ الذي أُضيفَ إلى النِّفِّ قَتهُ والبخسُ في يدِ الوزانِ
أنا لا أنسُبُ البهَاءَ على ذا لك إلا لقلَّةِ الإيمانِ
هو ولىَّ أهلَ الخيانةِ فيها وتولَّى الجوادِ كالحِوانِ
كلِّما جاءتِ الدنانيرُ ينقضُ ضُ عليها البهَاءُ كالشَّيطانِ

وأمر هذه الخيانة من البهَاء، قد شاع بين النَّاس، ولو كان اتقى الله في السرِّ لانتفته النَّاس في العلن، ويحمد المسجدُ الله الذي عافاه من مسألة هذا الفقيه، وقد حلَّ بالمدارس الأذى والهوان بنهب أموالها، وسبَّ عرض كل من قام فيها، فما ربحوا بقدر ما خسروا، ويذكر بقول الشهاب والد البهَاء، وهو يدعو على القائمين على الأموال أو المترفين، فانخدع بمثله النَّاس لكثرة دعائهم، رافعين أكفاً أمثال كفات الميزان، ثمَّ يندب الشَّاعر ضيعة المسلمين إن تولَّى هؤلاء الطعام في شهر رمضان، يقول

(الخفيف)

مدَّ فيها يدَ الخيانةِ فامتدَّ دَ إليه بالذَّمِّ كلُّ لسانِ
ولعمري لو اتقى الله في السرِّ بر اتقته الأنامُ في الإعلانِ
وعلى كلِّ حالةٍ أحمدُ الله الذي من سؤاله أعفاني
فلقد حلَّ في المدارسِ في الأخذِ كثرةُ الأذى والهوانِ
وأزيلتْ بالسبِّ أعراضُ من فيها فما قامَ الرِّيحُ بالخسرانِ
كيف أنسى قولَ الشَّهابِ جَهارةً؟ قَبَّحَ اللهُ كلَّ ذي طيلسانِ (١٦٤)
خدعونا واللهِ ممَّا يمدُّونَ أكفاً ككفَّةِ الميزانِ
آه واضيعةُ المساكينِ إنَّ ولىَّ أمرَ الطعامِ في رمضانِ

وهكذا تكشف القصيدة عدة حقائق سادت المجتمع آنذاك، منها انتشار المدارس، وكثرة العلماء والفقهاء، والتفات الحكام إلى هذه الحركة العلمية وتمويلها، هذا من الجانب المشرق.

(١٦٣) البوصيري، الديوان، ص480.

(١٦٤) الطيلسان: نوع من الأكسية يلبسه الشيوخ وأصحاب المراتب، فارسي معرب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة طلس.

أما من الجانب المقابل فإنَّ الفساد قد بلغ مبلغاً عظيماً في بعضها، فطال بعض الفقهاء، والقائمين على المساجد والمدارس، فهم إن لم يكونوا مفسدين حقاً، فالنَّاس يظنون في بعضهم ظنَّ السوء، وهذا أمر شائع ومألوف لدى النَّاس عندما يكثر الفساد، وتقلَّ الأمانة، وفي مثل هذه الأجواء يشيع التستر بالدين خداعاً للناس، وطلباً لثقتهم، كي يأمنوا هذا المتستر على حقوقهم وأموالهم، وعلى أية حال فإنَّ القصيدة قد أدت مقصودها وهو أن هناك مدارس كانت تتعرض للأذى والخيانة، وهذه ظاهرة لا نستطيع تقدير حجمها.

٢ الشعر والشعراء

عرف هذا العصر بكثرة شعرائه، ويرجع هذا في المقام الأول للحركة العلمية التي شهدها هذا العصر، فمن جهة كثرت المدارس وانتشرت الكتاتيب، ونهضت العلوم الشرعية، من: حديث، وتفسير، وفقه، وأصول، وغيرها، وهذه كانت لا تستغني عن معرفة الشعر وتدريبه وبخاصة القديم منه، لأنه ديوان لغة العرب، لغة الكتاب والسنة، ونهضت علوم اللغة بجميع فروعها من نحو، وبلاغة، وعروض، ومعاجم، وغيرها.

ومن جهة أخرى كان لهذا العصر فضل جمع التراث، الذي أصابه ما أصابه في العراق على يد التتار من حرق وتدمير للمكتبات ودور العلم وقتل العلماء، فكانت ردة فعل المسلمين في البلاد التي نجت من هذا الخطر العظيم، وبخاصة مصر، التي آلت إليها قيادة الأمة، هي أن يقبل العلماء على جمع كلِّ ما جادت به قرائح السابقين، لذا اشتهر العصر بالتأليف في شتى ضروب العلم، وظهر ما يعرف بالتأليف الموسوعي، الذي أنقذ به حصاد مئات السنين من الثقافة، والأدب، والفكر، والتاريخ، والعلوم التجريبية، وغيرها، وكان للشعر منها حظٌّ وافر، لذا لا يستغرب والحالة هذه، أن يكون معظم الفقهاء شعراء، وأن يكون جلَّ الشعراء مثقفين، بألوان الثقافة المختلفة، ويدل على هذا أنَّهم في أشعارهم قد استلهموا التراث الشعري لهذه الأمة، وعبروا عن هذا الاستلهام بظاهرة التضمين^(١٦٥)، التي توسعوا فيها حتى غدت من سمات الشعر الفنتية في هذا العصر، يقول مجير الدين بن تميم في هذه الظاهرة التي يستزيد منها غير متحرج^(١٦٦):

(الوافر)

^(١٦٥) التضمين: هو أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره، أو نصف بيت أو ربع بيت، ويسمى الإيداع، ينظر: ابن حجة الحموي، خزنة الأدب وغاية الأرب، 288/2.

^(١٦٦) مجير الدين بن تميم، الديوان، ص107.

أطالع كل ديوانٍ أراه ولم أجز عن التضمين طيري
أضمن كل بيتٍ نصف بيتٍ فشعري نصفه من شعرٍ غيري

أما علاقة الشعر بغيره من العلوم، واعتماده عليها، وتلقي الشعراء لعلوم العروض والنحو واللغة، فيتجلى في مقطوعة للجزار، يفخر فيها بقول الشعر دون أن ينال حظاً من هذه العلوم، حتى إنه شارك في علمي اللغة والنحو وشاع بهما ذكره، وهو لا يعلم منهما الكثير، فيشبه نفسه بإنسان تعلم آيتين فأصبح مقرباً، يقول^(١٦٧):

(الوافر)

وان الشعر دون غلاه قدري ولا سيما إذا ما كان شعري
لأنني ما قرأت له صحاحاً ولا نحواً على الشيخ ابن بري
وقد شاركت في لغة ونحو بلا علم وشاع بذاك ذكري
وعيشك، لست أدري "ما طحاها" وقد أقررت أني لست أدري^(١٦٨)
وذا خبري ولو كشفت عني لصغره بعلم الجهل خبري
كأنني مثل بعض الناس لما تعلم آيتين فصار مفري

هذا وقد رصد شعر النقد المجتمعي جانبيين متعلقين بالشعر هما: كساد الشعر، ونقده

فنياً، وقد درست ذلك على النحو الآتي:

أ - كساد الشعر

لعل أول قضية تناولها الشعر بالنقد، هي كساد الشعر، التي ترد إلى كثرة الشعراء أحياناً، وإلى فساد الذوق العام أحياناً أخرى، ولا نعني بكثرة الشعراء إلا كثرة المدعين له، غير المجيدين، أما الكبار المفلقون فلم تكن كثرتهم لتسوء الشعر أو تضعفه أو تقلل من قيمته، لا في هذا العصر ولا في غيره.

يقول الشاعر ابن الحنبلي الفرجوطي^(١٦٩) في متشاعر يدعي لجهله أنه يقول الشعر، والحق أنه لا يقول شعراً وإنما يحدث (يتغوط) من فيه، و لا يشعر بذلك:^(١٧٠)

^(١٦٧) الجزار، الديوان، ص46.

^(١٦٨) جزء من آية ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ سورة الشمس، 6/93. "وطحاها" بسطها، ينظر: جلال الدين المحلي وجمال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ص800.

^(١٦٩) هو محمد بن محمد المعروف بابن الحنبلي الفرجوطي، (ت 737هـ)، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 203/1-208؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 16/5.

(السريع)

(١٧١) وشاعر يزعم من غرّة وفرط جهل أنه يشعّر

(١٧٢) يُصنّف الشعر ولكنه يحدث من فيه ولا يشعّر

ويقول ابن الخياط (١٧٣) واصفاً هؤلاء المتشاعرين بالجنون، إذ يظنون أنّ الشعر إقامة وزن وقافية: (١٧٤)

(الوافر)

وفي متشاعري عصري أناس أقل صفات شعرهم الجنون

يظنون القريض قيام وزن وقافية وما شئت تكون

ويقول ابن نباته في متشاعري، جاء بشعر ثقيل كأثـه صخرة حطت من مكان علي (١٧٥)؛

(الطويل)

أتاني عليّ البالسي بشعره فيالك من شعر ثقيل مطول

(١٧٦) مكر مفر مقبل مُدبر معاً كجمود صخر حطّة السيل من علي

أمّا فيما يتعلق بفساد الذوق وقلة الذواقّة، فقد انتقده الشعراء وذمّوه، فهذا مجير الدين بن تميم لا يدري علي من يعرض شعره، إذ لا يجد إلا جاهلاً لا يقدره، او عالمًا يحسده عليه، يقول: (١٧٧)

(البسيط)

لمن أبوح بشعري حين أنظمه أم من أخص بما فيه من الزيد

إمّا جهول فلا يدري مواقعه أو فاضل فهو لا يخلو من الحسد

ويشبهه مجير الدين من لم يتأثر بشعره ويطرب له بالصنم، يقول: (١٧٨)

(١٧١) العسقلاني، م.س، 16/5.

(١٧٢) غرّة: جهل وقلة تجربة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة غرر.

(١٧٣) يحدث من فيه: أي يتغوط من فمه.

(١٧٤) هو أحمد بن الحسن بن محمد الدمشقي، (ت 735هـ) بدمشق، شاعر وله ديوان، ينظر: ابن حجر العسقلاني، م.س،

131/1. الزركلي، الأعلام، 111/1.

(١٧٥) العسقلاني، م.س، 131/1.

(١٧٦) ابن نباته، الديوان، ص426.

(١٧٧) هذا تضمين من معلقة امرئ القيس. ينظر: الزوزني، المعلقات السبع، ص32.

(١٧٨) مجير الدين ابن تميم، الديوان، ص29.

(الكامل)

أبدى جموداً عندما أنشدته شعراً يخفُّ لوزنه الممدوحُ
فكأنني بالشعرِ بتُّ مخاطباً صنماً من الأصنامِ لولا الروحُ

ويتأسف ابن نباتة على شعر بارع قاله فلم يجد من يجازيه عليه، فهو في جماله درُّ يتيم،
ولكنه ضائع كاليتيم، الذي لم يجد من يكفله^(١٧٩):

(الكامل)

أسفي لشعرِ بارعٍ نظَّمته تحتاجُ بهجته لرفدِ بارعِ
درُّ يتيمٍ قد تَضَوَّعَ نشْرُه يا من يرقُّ على اليتيم الضائعِ
ويقرن ابن نباتة بين شعره وابنه في الضياع، وانعدام من يرعاها^(١٨٠)!

(السريع)

يا ربَّ إنَّ ابني وشعري كما تراهما في حالةٍ حائله
الشعر محتاجٌ إلى قابلٍ والابن محتاجٌ إلى قابله^(١٨١)

ويشير ابن دانيال إلى فساد الذوق العام، إذ يُحكم على الشعر بحال الشاعر من غنى
وفقر، أو بالخشية من لسانه، ولا تعتبر جودته الفنيّة في الحكم^(١٨٢)!

(الرجز)

والشاعرُ المُفْلِقُ في زماننا لو جاء بالحكمةِ قالوا قد هذى
من لم يكن في الناسِ ذا أذيةٍ تخافُ منها أوقعوه في الأذى
كم صَوَّبَ النَّاسُ خطا ذوي الغنى وزعموا ما قال ذو الفقْرِ الخطا
وابن دانيال في أبياته هذه يشير إلى ذوق من أفسد الأذواق، إذ يحكم فيه على الشعرِ
بحال الشَّاعر من غنى وفقر، أو بالخشية من لسانه.

^(١٧٨) مجير الدين ابن تميم، م.ن، ص25.

^(١٧٩) ابن نباتة، م.س، ص320.

^(١٨٠) ابن نباتة، م.س، ص426.

^(١٨١) قابلُه: من تتلقى الولد عند ولادته من بطن أمه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قبل.

^(١٨٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص222.

ومما سبق يتبين أنّ مفهوم الكساد، عند الشعراء هو ألا يجد الشّاعر من يثيبه على شعره، سواء أكانت الإثابة معنوية أم مادية. ولكن من الشّعراء من رأى أنّ هذا الكساد فيه مصلحة للشعر والشّعراء، تمثلت في اضمحلال نجم المتشاعرين وأفولهم، وبزوغ نجم المفلقين وأهل الشعر الحقيقيين، وذلك لانتهاء المصالح التي يُسعى لها بالشعر. يقول ابن الوردي في هذا المعنى (١٨٣)؛

(الكامل)

قالوا لقد كسدَ القريضُ فقلتُ بل عاشتْ ضراعُهم وماتتْ ضباغةُ (١٨٤)

الآنَ طابَ سماعُه وتقطّعتْ أظماغُه وتعزّزتْ صنّاعُه

ويبيّن ابن الوردي أهل الشعر بالعافية بكساد سوق الشعر إذ انكفأ المتشاعرون، وخلت

الساحة للشعراء المجيدين، يقول (١٨٥)؛ (السريع)

قد كسدَ الشّعرُ فيا أهله بشراكمُ إذ ذاك بالعافية

زالَ لباسُ الدُّلِّ عنكمُ وقد صرتم إلى مرتبةٍ عاليةٍ

حُقَّ ركوبُ الشّعراءِ الضّحى في زمرِ الأحزابِ والغاشيةِ (١٨٦)

وعلى أية حال، فهناك من الشّعراء من انتقد الحالة التي وصل إليها الشّعراء بسبب كساد الشعر في هذا العصر، يقول ابن نباته مادحاً ابن شهاب محموداً، وعاداً إياه ممن أحيا الشعر بمجازاة الشّعراء على شعرهم، ومتأسفاً على الحال التي وصل إليها الشّعراء من الصد والمنع، والتي شمتت بهم الأعداء، وأهانوا فيها أنفسهم، إلى أن لجأوا إلى هذا الممدوح فأجاب سؤالهم، يقول (١٨٧)؛

(الكامل)

أنت الذي أحيا القريضَ وطالما أمسى رهينَ عنا، طريدَ فناءٍ

في معشرٍ منعوا إجابةً سائلٍ ولقد يُجيبُ الصخرُ بالأصداءِ

أسفي على الشّعراءِ أنَّهُم على حالٍ تثيرُ شماتةَ الأعداءِ

خاضوا بحورَ الشعرِ إلا أنّها مما تُريقُ وجوههم من ماءٍ

(١٨٣) ابن الوردي، الديوان، ص396.

(١٨٤) الضرعام: الأسد، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة ضرغام.

(١٨٥) ابن الوردي، الديوان، ص396.

(١٨٦) الشّعراء، والضحي، والزمر، والأحزاب، والغاشية، أسماء سور من القرآن الكريم.

(١٨٧) ابن نباته، الديوان، ص14.

حتى إذا لجأوا إليك كفيّتهم شَجْنَا وقلّت أدلّة العلياء

ب - نقد الشعر فنياً

انتقد الشعراء عدّة قضايا فنيّة في الشعر الذي ساد في عصرهم، ومنها:

١ - رداءة بعض الشعر وثقله

تعود رداءة الشعر في أغلب الأحيان إلى كثرة المتشاعرين، وولوج هذا المضمار غير أهل هذا الفنّ، فصدرت عنهم أشعار كانت غير ذات معنى، أو ثقيلة ممجوجة.

يقول ابن دانيال في شعر أحدهم وقد قال شعراً رديئاً في الهجاء، فيصفه بأنّه أقرب إلى العواء والنباح منه إلى الشعر، وقد أبدع عندما صحّف اسم قائله من عوّاد إلى عوّاء: (١٨٨)

(السريع)

عَوَادُنَا، عِلْقُ الفصيحِ، امرؤٌ ينبُحُ، أي قد صارَ هَجَاءً (١٨٩)

كأنّه قد سَقَطَتْ دالُّهُ فأصبحَ العَوَادُ عَوَاءً

وفي انتقاد الافتخار بالشعر يقول ابن أبي الربيع الخياط (١٩٠) في الجزار طاعناً في شاعريته، واصفاً إيّاه بالمقلِّ (١٩١):

(مجث)

أبا الحسينِ تأدبُ ما الفخرُ بالشعرِ فخرُ

وما ترشّحتَ منه بِقَطْرَةٍ وَهُوَ بَحْرُ

٢ - مخالفة بعض أعراف الإخوانيات

ومنه انتقاد إساءة الردّ على المادحين أدباً وفناً، فهذا ناصر الدين شافع، قد وقف على شيء من خطّ ابن الوحيد (١٩٢) فمدحه، ثمّ ردّ عليه ابن الوحيد شاكرًا له مدحه، ومفتخرًا بخطّه

(١٨٨) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص109.

(١٨٩) عوّاد: ضارب العود. علق: النفيس من كل شيء. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة علق.

(١٩٠) هو مجاهد بن سليمان بن مرهف بن أبي الربيع، (ت 672هـ)، وهو شاعر كبير، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 67/25-68؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 210/7؛ الزركلي، الأعلام، 278/5.

(١٩١) ابن تغري بردي، م.س، 210/7.

(١٩٢) هو محمد بن شريف بن يوسف الزرعي، (ت 711هـ)، كاتب الشريعة بجامع الحاكم، وتعانى الخط فيبلغ الغاية فيه، ينظر:

الصفدي، م.س، 126/3؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 73/4-75؛ ابن تغري بردي، م.س، 155/9.

الذي بلغ في حسنه أن يعجب العمي، فكاد أن يقول، لولا النور الباطني لشافع، ما قاله المتنبّي
"أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي"، وكان ابن شافع أعمى، يقول ابن الوحيد^(١٩٣):

(مجث)

يا شافعاً شَفَعَ العِليَا بحِكمَتِهِ فَسَادَ من رَاحَ ذَا عِلْمٍ وَذَا حِسْبِ
بانتَ زيَادَةُ خَطِيّ بِالسَّمَاعِ له وَكَانَ يحكيه في الأَوْضَاعِ والنَّسَبِ
فجاءني منه مدحٌ صِيعٌ من ذَهَبٍ مُرَصَّعاً بل أتى أبهى من الذَّهَبِ
فَكَدْتُ أنْشِدُ لولا نورُ باطنِهِ "أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي"

فلما بلغت هذه الأبيات ناصر الدين شافعاً، غضب من قوله: "أنا الذي نظر الأعمى إلى
أدبي"، فرماه بقلة الأدب في رده، وانتقد مبالغته في فخره بخطه، الذي عدّه من الأدب، وانتقد
أيضاً مخالفته في وزن قصيدة شافع ورويها، التي أنشأها في مدح خطه، يقول: (١٩٤)

(البيسط)

نعم نظرتُ ولكن لم أجدُ أدباً يا من غداً واحداً في قلةِ الأدبِ
جارت مدحي وتقرّظي بمغيرةٍ والعيبُ في الرأسِ دونَ العيبِ في الذنبِ
وزدت في الفخرِ حتى قلتَ منتسباً بخطك اليابسِ المرئي كالحطبِ
بانت زيادةُ خطي بالسَّماعِ له وكان يحكيه في الأَوْضَاعِ والنَّسَبِ
كذبتُ، والله، لن أرضاه في عُمرِي يا ابنَ الوحيدِ، وكَم صَنَّفَت من كذبِ
جازيت مدحي، وقد نظمتُه كَلِماً يَرُوقُ سَمَعُ الوَرى دُرّاً بِمُخْشَلَبِ^(١٩٥)
وما فهمت مُرادي في المديحِ ولو فهمته لم توجَّههُ إلى الأدبِ
سأَتبعُ القافَ إذا جاوبتَ مفتخراً بالراءِ يا غافلاً عن سَوْرَةِ الغضبِ
خالفتَ وَزني عَجْزاً والروِيَّ معاً وذلكَ أقبحُ ما يُروى عن العربِ

وهكذا تتحول الإخوانية إلى نوع من المساجلة، وذلك بقلة أدب ابن الوحيد، لما عيّره
بالعمى، واعتبر الخط من الأدب، بقوله: "أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي". ثم ينتقده لمخالفته
وزن أبياته ورويها.

(١٩٣) صلاح الدين الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص 167.

(١٩٤) صلاح الدين الصفدي، م، ن، ص 167.

(١٩٥) مُخْشَلَب: حلى تتخذ من الليف والخرز، وهي رخيصة، ينظر: الضنّاي، المعجم المفصل في العرب والدخيل، ص 417.

٣ - نقد الوقوف على الأطلال

ومن النّقد الفنّي أيضاً، انتقاد ابن دانيال الوقوف على الأطلال، وذلك في مقدمة قصيدة طويلة في المجون، بلغت ثلاثة وثلاثين بيتاً، يعارض فيها القصيدة الدريدية، يقول^(١٩٦):

(الرجز)

يا سائقَ الأظعانِ يسري في الفلا مُغرى بكتبانِ العقيقِ واللوى
دع عنك ذكرَ الواخداثِ البُزلِ في مهامه سُئلي أربابَ النهي^(١٩٧)
لا تبكينَ على أثافٍ قد خلا واقدها فهي كأحجارِ الخلا^(١٩٨)
ولا على نوى كأن رسمها دارسُ رسمِ الروثِ من بغلِ الرّحى^(١٩٩)
منازلٌ لم يرها مسافرٌ إلا إذا ما ضلَّ عن طُرُقِ الهدى
واسمع وصايا حاذقٍ مجربٍ يُصغي إلى أقواله ذو الهوى

وقد عرف مثل هذا النّقد منذ العصر العباسي، وأشهر من قال فيه الشّاعر أبو نواس.

٤ - نقد الإغراب في اللغة

ومما يندرج في نطاق النّقد الفنّي، انتقاد صفيّ الدّين الحلّي، لاستعمال اللغة الغريبة في الشّعر، فقد سمع أحد الفضلاء شعر الحلّي فاستحسنه، وقال: لا عيب فيه سوى قلة استعماله للغة الغريبة، فكتب الحلّي إليه قصيدةً، ابتدأها بأحد عشر لفظاً غريباً وحشياً، وعدّها لغة ينفر منها السمع، وتشمئز منها النّفس، ورأى أنّه من القبيح أن يؤخذ اللفظ الغريب الوحشي، ويترك اللفظ المأنوس، فلا يستوي قول الشّاعر: كثيب قديم، وقوله: عقتقل قدموس، يقول:^(٢٠٠)

(الخفيف)

^(١٩٦) صلاح الدين الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص220. و القصيدة الدريدية: قصيدة مشهورة معروفة لصاحبها ابن دريد الأزدي البصري اللغوي، (ت 321هـ)، صاحب كتاب الجمهرة والاشتقاق، مدح فيها آل ميكال: ومطلعها:

يا ظبية أشبه شيء بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا

ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 497/1.

^(١٩٧) البُزل: مفردها بزول، وهو الجمل إذا استكمل السنة الثامنة ودخل في التاسعة وفطرنا به، مهامة: جمع مهمة، وهي المفازة،

ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: بزل ومهية.

^(١٩٨) أثاف: حجارة توضع عليها القدر، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة أثف.

^(١٩٩) نوى: الدار، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة نوى.

^(٢٠٠) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص517.

إِنَّمَا الْحِيزُونَ وَالدرديسُ وَالطَّخَا، وَالنَّقَاخُ وَالعَطْبِيسُ (٢٠١)
وَالسَّبْنَتِي، وَالْحَقْصُ، وَالهِيقُ وَالهِجْرِسُ وَالطَّرْقِسَانُ وَالعَسْطُوسُ (٢٠٢)
لِغَةً تَنْفَرُ الْمَسَامِعُ مِنْهَا حِينَ تُرَوَى وَتَشْمَنْزُ النَّفُوسُ
وَقَبِيحٌ أَنْ يُذَكَّرَ النَّافِرُ الْوَحْدَ شَيْءٍ مِنْهَا وَيُتْرَكَ الْمَأْنُوسُ
أَيْنَ قَوْلِي هَذَا كَثِيبٌ قَدِيمٌ وَمِقَالِي عَقَنْقَلٌ قَدِ مُوسُ

ثمَّ إِنَّ الْأَلْفَاظَ الْغَرِيبَةَ لَا تَنَاسِبُ حَيَاةَ الْغَنَاءِ وَاللَّهُو، فَلَا نَجِدُ مِنْ يَغْنِي "قَفَانَبِك"، أَوْ "أَقِيمُوا
بَنِي أُمِّي" وَيَقْصِدُ قَصِيدَتِي أَمْرِي الْقَيْسِ وَالشَّنْفَرِي، فِي مَجَالِسِ الْخَمُورِ، وَمَا دَامَ أَنَّ الْمَقْصُودَ
مِنَ اللَّغَةِ هُوَ إِيْصَالُ الْمَعْنَى لِلسَّمَاعِ؛ فَلِمَاذَا لَا تَسْتَعْمِدُ اللَّغَةُ الَّتِي تُؤَدِّي هَذَا الْمَقْصُودَ؟!،
يَقُولُ: (٢٠٣)

(الْخَفِيفُ)

لَمْ نَجِدْ شَادِيًا يَغْنِي "قَفَانَبِك" عَلَى الْعُودِ، إِذْ تَدَارُ الْكُؤُوسُ
لَا وَلَا مِنْ شَدَا "أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي"، إِذَا مَا أُدِيرَتِ الْخَنْدَرِيسُ
أَتُرَانِي إِنْ قَلْتُ لِلْحَبِّ يَا عَلِيَّ، دَرَى أَنَّهُ الْعَزِيزُ النَّفِيسُ
أَوْ إِذَا قَلْتُ لِلْقِيَامِ جُلُوسٌ عَلِمَ النَّاسُ مَا يَكُونُ الْجُلُوسُ

ثمَّ يَدْعُو الشَّاعِرُ إِلَى تَرْكِ اللَّغَةِ الْغَرِيبَةِ وَالْوَحْشِيَّةِ لِلأَصْمَعِيِّ، يَجُوبُ الصَّحَارِي لَجْمَعِهَا
فِي جُمُودٍ وَنَشَافٍ، وَيَقْرُرُ الشَّاعِرُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ اللَّغَاتِ قَدْ انْدَثَرَتْ، وَالْحَيَاةُ تَقْتَضِي الْأَلْفَاظَ السَّهْلَةَ
الْمَأْنُوسَةَ، فَالْأَلْفَاظَ اللَّذِيذَةَ الْخَفِيفَةَ تَجْذِبُ الْقُلُوبَ كَمَا يَجْذِبُ الْمَغْنَطِيسُ الْحَدِيدَ، يَقُولُ (٢٠٤):

(الْخَفِيفُ)

خَلَّ لِلأَصْمَعِيِّ جُوبَ الْفِيَا فِي نَشَافٍ تَخَفٌ فِيهِ الرَّؤُوسُ
وَسُؤَالَ الْأَعْرَابِ عَنِ صِيغَةِ اللَّفْظِ إِذَا أُشْكِلَتْ عَلَيْهِ الْأُسُوسُ

(٢٠١) الْحِيزُونَ: الْعُجُوزُ مِنَ النِّسَاءِ، الدَّرْدِيسُ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ الْهَرْمُ، الطَّخَا: السَّحَابُ الرَّيِّقُ الْمُرْتَفِعُ، النَّقَاخُ: الْمَاءُ الْعَذْبُ، الْعَطْبِيسُ:
الْأَمْلَسُ الْبِرَاقُ، يَنْظُرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، م.س، الْمَوَادُّ: حَزْبٌ، دَرْدِبٌ، طَخَا، نَقَخَ، عَطَّلَسَ.
(٢٠٢) السَّبْنَتِي: الْأَسَدُ، الْحَقْصُ: الْمَرَّ السَّرِيعُ، الْهِيقُ: الظَّلِيمُ (ذَكَرَ النِّعَامُ)، الْهَجْرِسُ: وَلَدُ الثَّلَبِ، الْعَسْطُوسُ: شَجَرَةٌ تُشَبِّهُ الْخَيْزِرَانَ،
يَنْظُرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، م.س، الْمَوَادُّ: سَبْنَتِي، حَقْصٌ، هَيْقٌ، هَجْرِسٌ، عَسْطُوسٌ.

(٢٠٣) صَفِي الدِّينِ الْحَلِي، م.س، ص 715.

(٢٠٤) صَفِي الدِّينِ الْحَلِي، الدِّيَوَانُ، ص 517.

درست تلكم اللغات وأمسى مذهب الناس ما يقول الرئيس إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وهكذا عبّر الشاعر عن اتجاه فني يؤثر اللغة المألوفة السهلة، القريبة من الأفهام، على اللغة الوحشية الغريبة، وذلك تماشياً مع روح هذا العصر، الذي أضحى فيه الشعر موجهاً لعامة الناس، غير مخصوص به قوم دون آخرين.

وفوق هذا فإنّ الألفاظ الغريبة لا تليق بشعر يقصد منه أحياناً الغناء واللهو والترفيه، ولا يجد الشاعر داعياً لاستخدام الألفاظ والعبارات الوحشية ما دام هناك ألفاظ تسدّ مسدّها، وتؤدي الغرض، ويسهل على الناس فهمها، وعلى أية حال فإنّ الشاعر، في هذه الأبيات، قد وضع إصبعه على ميزة فنية من ميزات هذا العصر، وكان هذا جزءاً من مذهب الانسجام، وهو الانسجام في المبنى، القائم على حسن اختيار الحروف والألفاظ والتراكيب والصيغ البلاغية المبتكرة، الذي كان رائده الأول شرف الدين الأنصاري^(٢٠٥).

وخلاصة هذا الجانب الثقافي من شعر النّقد المجتمعي، هي أنّ الشعر عبّر عن حالة العلم والدرس العلمي تعبيراً جلياً، فرصد ظاهرتين هامتين هما: الإفراط في استلهام التراث العربي واليوناني، وإتقال الدرس العلمي بالشروح والحواشي والتفصيلات، والمبالغة في التخطيط لهذا الدرس، والثانية: أنّ التوسع في المدارس والدرس العلمي، أدى إلى كثرة المتعلمين والمنقذين، لكن لم يكن له المردود المادي على حياة المتعلمين، بمعنى أنه لم تتوفر الوظائف التي تسع هؤلاء المتعلمين، وهذا لا ينقض ما عرف في هذا العصر من تولي كبار العلماء لأهم المناصب في دواوين الإنشاء، ولا يعود إلى قلة الوظائف، بل إلى اعتبار الجاه وشيوع الرشوة والمحسوبية، مما قدّم الجهلة أو ذوي الكفاءات المتدنية على غيرهم. هذا فيما يتعلق بالعلم.

أما فيما يتعلق بالشعر والشعراء، فقد صور الشعراء في هذا الجانب كساد سوق الشعر، التي ردها الشعراء أنفسهم إلى كثرة المتشاعرين، وولوج هذا المضممار شعراء لم يبلغوا من الشعر حدّ الإجادة، فزاحموا الكبار والمفلقين من الشعراء، فقلّت الأعطيات والإجازات، ومنهم من ردها إلى فساد الذوق، إذ قلّ ذواقة الشعر، فلم يجد كبار الشعراء من يفرّق بين شعرهم الجيد، والشعر الرديء الذي يأتي به المتشاعرون، ولكن منهم من رأى في ظاهرة الكساد هذه جانباً إيجابياً،

(٢٠٥) ينظر عمر موسى باشا: تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي، ص 132-133.

تمثّل في انكفاء المتشاعرين لقلّة الحوافز المادية، ما أدّى فيما بعد، إلى خلوّ الجو للشعراء
المجيدّين، وهذا رأي الشّاعر الكبير ابن الوردي.
وعلى أية حال، فإنّ أشعار هذا الجانب أكّدت ما عُرف عن هذا العصر، من شيوع العلم
والتّعلم والمدارس، وما عرف عنه أيضا من كثرة الشّعْر والشّعراء.

خامساً - شعر النُّقد الديني

الأصلُ في الدين أن يكون المحور الذي تدور عليه الحياة، حياة الفرد، والمجتمع، والدولة، وأن يكون الضابط الذي تنضبط به كلُّ الأنظمة التي تحكم هذه الأطراف الثلاثة. وكانت العصور السياسية التي مرَّت بالأمة تشهد بعض التفاوت في التمركز حول الدين والانضباط به، ولكنَّ تلك العصور لم تشهد انفلاتاً لهذه الأطراف من عقال الدين، ومنها العصر المملوكي، وهذا لا ينفي وجود انحرافات وتجاوزات في بعض العلاقات، تقع ممن مثَّلوا الدين، والفائمين به على المجتمع، من: فقهاء، ووعاظ، ومفكرين، وقضاة وغيرهم، أو انحرافات في العقيدة مثَّلتها في أغلب الأحيان فرق خرجت عن الدين مثل: الروافض. أو مخالفات عمليَّة ارتكبتها بعض الاتجاهات التعبدية، مثل بعض فرق المتصوفة، أو فساد عمِّ المجتمع بتقصير من الدولة في قوامتها، أو انحراف في حكامها، وقد درست في هذا الموضوع بعض ما قيل فيها من شعر، كما درست ما قيل في أهل الذمة، وعلاقتهم بالمسلمين.

١ ما تعلق بأهل الدين من وعاظ وقضاة وفقهاء

وهؤلاء الثلاثة لهم شأن كبير في حياة الناس الدينية، وكذلك الدنيوية، وبخاصة القضاة منهم، إذ هم من يطبقون الأحكام الشرعية في الحياة ويحكمون بين الناس، أما الفقهاء فلهم دور كبير في استنباط الأحكام التي تلزم الناس في الحياة، وفساد هذه الفئات الثلاث، أمر خطير ومثار نقد عند الناس.

أ - في الواعظ

يروى أن واعظ تكريت، حضر إلى بلاد الشام، فوعظ بحلب ثم دمشق، ونزل يوماً على وجيه الدين التكريتي، فطلب منه أن يعظهم، فوعظ بجدٍّ ثم خرج إلى الهزل وأضحكهم، فطلب وجيه الدين من الشعراء الحاضرين ومنهم سيف الدين السامري، أن يمدحوه، فقال سيف الدين السامري، واصفاً إياه بقطبٍ لأهل الفساد والفسق، وأنَّ الشام قد نجست به، وأنَّ العراق ومنها تكريت قد أفلحت ببعده عنها:

(الخفيف)

أيُّها الواعظُ الذي هو قطبٌ لجميع اللُّواطِ والفساقِ
نجسَ الشامُ منذ أصبحت فيه واعظاً مضماً لكلِّ نفاقِ
ولقد أفلحت ببعديك تكريتُ وأعمالها وأرضُ العراقِ

ب في فقيه معتكف

(٢٠٦) ينظر: صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، 28/8.

وقد ذكرت هذه الأبيات في شعر شمس الدين الكوفي المتوفي سنة 675هـ، ينظر: شمس الدين الكوفي، الديوان، ص52.

يقول شهاب الدين بن غانم ^(٢٠٧) في فقيه اعتكف في شهر رمضان، نافياً أن يكون اعتكافه طلباً لأجر، بل لأمر اقتضاه رمضان، وهو أن الشياطين تُغَلُّ فيه، وهذا الفقيه من الشياطين التي غلَّت ^(٢٠٨):

(الخفيف)

ما اعتكافُ الفقيه أخذاً بأجرٍ بل لحكمٍ قضى به رمضان
هو شهرٌ تُغَلُّ فيه الشياطينُ ولا شكُّ أنه شيطانٌ

ج في مدعي فقه

يقول ابن أبي الإصبع ^(٢٠٩)، في رجل قيل فيه إنه كريم، وبأنه لا يمنع ذا الحاجة من فلسه، وفي قوله هذا تورية، أي أنه يعطيه، أو بمعنى نه لا يحميه من الفلس، ولما قيل فيه أنه فقيه، قال الشاعر: إنه يحسن البحث على وجهه، ويؤكد ببحثه هذا عيب عقله، وفي قوله هذا أيضاً تورية، إذ يحتمل قوله: "البحث على وجهه" معنى نثر التراب على وجهه، يقول: ^(٢١٠)

(السريع)

إن فلاناً أكرمُ النَّاسِ لا يمنعُ ذا الحاجةِ من فلسه
وهو فقيهٌ ذو اجتهادٍ وقد نصَّ على التقليدِ في درسه
فيُحسِنُ البحثَ على وجهه ويوجبُ الدُّخْلَ على نفسه ^(٢١١)

ويبدو أن الشاعر اختلف مع هذا الفقيه في مسألة التقليد في الأحكام الشرعية، وهذا أمر معروف في ذلك العصر، حيث كان بعضهم يحرمه.

د - في نقد عالم في مسألة فكرية

^(٢٠٧) هو أحمد بن محمد بن سلمان، (ت 737هـ)، باشر الإنشاء في غزوة وصفد وغيرها، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 167/1؛ الصفدي، م.س، 18-14/8؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 285/6.

^(٢٠٨) الكتبي، م.س، 168/2 - 169.

^(٢٠٩) هو زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن أبي الإصبع، الفقيه الشافعي النحوي الشاعر، (ت 654هـ)، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 10-5/19. المقرئ، السلوك، 491/1. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 34/7.

^(٢١٠) ابن تغري بردي، م.س، 34/7.

^(٢١١) البحث: من حثو التراب باليد ودفعه الى الخلف، الدخول: ما داخل الإنسان من فساد في عقل أو جسم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: بحث ودخل.

اختلف ابن دقيق العيد مع ابن الجوزي^(٢١٢)، في قضية فكرية، فقال ابن دقيق العيد قصيدة يتهم فيها ابن الجوزي بسوء النّظر فيها، وبأنّه قد حيل بينه وبين قلبه، بعد أن كان صاحب فطنة، ودقّة نظر، وآراؤه انتشرت في الشرق والغرب^(٢١٣):

(السريع)

دَقَّقَتْ فِي الْفِطْنَةِ حَتَّى لَقَدْ أَبْدَيْتَ مَا يَسْحَرُ أَوْ يَسْبِي
وَصَرْتَ فِي أَعْلَى مَقَامَاتِهَا حَيْثُ يَرَاكَ النَّاسُ كَالشَّهْبِ
وَسَارَ مَا سَيَّرْتَ مِنْ جَوْهَرِ الْإِلْهِ حِكْمَةً فِي الشَّرْقِ وَفِي الْغَرْبِ
ثُمَّ تَنَازَلْتَ إِلَى حَيْثُ لَا يَنْزِلُ ذُو فَهْمٍ وَلَا لُبٍّ
تَثَبَّتْ مَا تَجَحَّدُهُ فِئْرَةً الْإِلْهِ عَقْلٌ وَلَا تَشْعُرُ بِالْخَطْبِ
أَنْتَ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ يُحَالُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَالْقَلْبِ

ومما يلاحظ أنّ ابن دقيق العيد وجّه هذا النّقد لعالم مات، إذ توفي ابن الجوزي عام 597هـ، وولد ابن دقيق العيد عام 625هـ، وهذا يعني أنّ الخلاف في هذه القضية التي يرجح أن تكون فكرية لا فقهية، ما زال قائماً في زمن ابن دقيق العيد.

هـ في قاضٍ عرف عنه الجهل والظلم، وتجاوز أحكام الشرع في حكمه

تولّى القاضي الرياحي المالكي قضاء حلب، عام 748هـ، فوُجعت منه أمور خالف فيها الشرع مما أثار حفيظة الشاعر ابن الوردي، ومن مخالفاته: الحكم بغير ما أنزل الله، وإسقاط الشهود، وتجويزه لأن يقضي القاضي بعلمه، ونسب ذلك القول للإمام الشافعي، والافتراء على الإمام مالك.

فحكم على من حضّر الخمر، أن يقرع بالمقارع حتى الموت، فأقرّ نائب حلب الحكم ظاناً أنه امتثال للشرع، فاعتبر الشاعر ابن الوردي هذا قتلاً للنفس التي حرّم الله قتلها بغير حقّ، وهو غشّ لهذا النائب، الذي راح يعمل بهذا الحكم، وجزاء الغاشّ هو النار، يقول^(٢١٤):

(السريع)

^(٢١٢) ابن الجوزي، هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، يعود في نسبه الى أبي بكر الصديق، (ت 597هـ)، أشهر علماء القرن السادس، ينظر: الصفدي، م.س، 110/18-115؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 531/8-534؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 43/5.

^(٢١٣) الصفدي، م.س، 146/4.

^(٢١٤) ابن الوردي، الديوان، ص 155.

يا حاملَ النائبِ في حُكْمِهِ أن يَقتُلَ النفسَ التي حُرِّمَتْ
عَشَّشْتَهُ -واللهِ- في دينهِ بِشْرَاكٍ بِالنَّارِ التي أُضْرِمَتْ

ويقضي هذا القاضي بإسقاط تسعة من أعيان الشهود، وطردهم من وظائفهم، فيقول ابن
الوردي^(٢١٥)!

(السريع)

سحقاً لقاضي مالكي سَطَا بتسعة أكبر من فينا
وإن أعزناه لها سكتةً ألحق بالتسعة تسعينا

ويقول ابن الوردي في ادعاء هذا القاضي لجواز أن يقضي القاضي بعلمه، متبرئاً من
بهتانهِ^(٢١٦)

(الكامل)

أبراً إلى الرحمن من بهتانهِ وفجوره وعتوه المتزايد
من ذا يجيزُ قضاءَ قاضي جاهلٍ بالعلم، في هذا الزمانِ الفاسدِ

ويقول فيه أيضاً لما ادعى أن الشافعي، نصَّ على جواز أن يقضي القاضي بعلمه في
كتاب الأم^(٢١٧)

(المجتث)

قلنا له دَعْ أموراً مُسْتَهْجَنَاتٍ لِمَثَلِكُ

فقال: أقضي بعلمي قلنا: ستقضي بجهلك

ثم يناشد الشاعر سلطان مصر ألا يبقيه في حلب، فهو يذم فنون العلم ويحتقرها^(٢١٨):

(البسيط)

الله الله لا تبقوه في حلبٍ يا أهلَ مصرَ وفينا راقبوا الله
دأباً يذمُّ فنونَ العلمِ محتقراً بها ومن جهلِ الأشياءِ
عاداها

^(٢١٥) ابن الوردي، م. ن، ص 156.

^(٢١٦) ابن الوردي، الديوان، ص 158.

^(٢١٧) ابن الوردي، م. ن، ص 158.

^(٢١٨) ابن الوردي، م. ن، ص 160.

ويقول فيه بأنه يفترى على الإمام مالك أحكامًا وآراءً فقهية، وأنه يتهم من خالفه بالزندقة^(٢١٩)؛

(السريع)

في حلبٍ قاضٍ، على مالكٍ قد افترى ما فيه توفيقُ
ومن تلكا معه قال: قُمْ قد قيلَ لي إنَّكَ زنديقُ

ثم يشير الشاعر إلى مهنته الأولى وهي التجارة، وهذا ما يذكر بتولي بعض الناس المراتب بالرشوة، يقول^(٢٢٠)؛

(مجزوء الرجز)

قاضي من السوقِ أتى معتادُ ببيعِ الأكسيةِ
ذا للوصايا ما يعي كيف يعي في الأقضيةِ

ومن الجدير بالذكر أن أشعار ابن الوردي في هذا القاضي، قد جاءت في ثنايا نص نثري طويل، أنشأه في هذا القاضي ومفاسده، وقد بلغت ثماني وخمسين نغمة، ومقطعة من ثلاثة أبيات ومقطوعتين من "كان وكان"^(٢٢١)، كل منهما أربعة أبيات، أشار في إحداها، إلى جهله بكتب الفقه واللغة والتاريخ، من مثل الحاوي الصغير للقزويني، وهو في الفقه، والخصائص لابن جني وهو في اللغة، والبداية والنهاية لابن كثير وهو في التاريخ، والمهذب للشيرازي، وهو في الفقه الشافعي، يقول ابن الوردي^(٢٢٢)؛

(كان وكان)

أذاه شاملٌ وشرو كاملٌ ومنهاجو عسرُ
لو كان حاوي الخصائص ما قالَ بالتنديبِ
ما هو العزيزُ النهاية ولو بداية مدونةُ
من يحتقر بالمهذبٍ من أين لو تهذيبُ

ولم يُبق له ابن الوردي مثلبة في دين أو خُلُق أو خُلُق، إلا جاء على نكرها، فهو جاهل، يزيد في الشريعة، لا تصح الصلاة خلفه، ومتكبر، وسفيه، وبخيل، وألثغ، ومتآمر على الدولة،

^(٢١٩) ابن الوردي، م.ن، ص170.

^(٢٢٠) ابن الوردي، م.ن، ص170.

^(٢٢١) كان وكان: لون من النظم الشعبي ظهر بالعراق، وسمي بهذا الاسم لأنهم كانوا ينظمون فيه الحكايات والخرافات حتى جاء ابن الجوزي وشمس الدين الكوفي فنظما فيه المواعظ والحكم، وظهر في مصر والشام في عهد الفاطميين، وسمي في مصر الزكالكش، ويسمى الناظم فيه المزكلكش، ينظر، محمد زغول سلام، الأدب العربي في العصر المملوكي/ 442-443.

^(٢٢٢) ابن الوردي، الديوان، ص163.

يدعو لصاحب المغرب المريني، ولا يزال الشَّاعر يحرض عليه حكام مصر ويطالبهم بعزله،
كقوله^(٢٢٣)!

(مخلع البسيط)

بالله يا أولياء مصر خذوه من عندنا بستر

متى رأيتم؟ وهل سمعتم؟ بأن قاضي القضاة حمري^(٢٢٤)

ولا يتسع المقام لذكر كل هذه الأشعار، ولكنَّ القول الذي لا بد منه، هو أنَّ هذه المقطوعات تقتعد من الأهمية مكاناً علياً، فقد تجلَّى فيها ابن الوردي شاعراً من الطراز الأول في شعر النَّقد المجتمعي، وأسهمت في بيان حجم هذا الغرض الشعري في هذا العصر، وما ينطوي عليه من أهمية في كشف جوانب الحياة المختلفة، ففيها من الحقائق التاريخية، والتجاذبات الفكرية والفقهية، ما عكس حالة القضاء في هذا العصر، وفوق هذا وذاك تمتلَّت فيها خصائص هذا الغرض الشعري الفنية، في الشكل والبلاغة واللغة وغيرها، وهذا ما سنأتي عليه في الدراسة الفنية، في القسم الأخير من هذا البحث، إن شاء الله تعالى.

و في شيخ نقض توبته

تاب أحد الشيوخ واسمه ثقلية، ثم نقض توبته مع رفيقين له، فانتقده ابن دانيال، وذلك بأسلوب يقص فيه لقاء تمَّ بين هذا الشيخ وإبليس، وما دار بينهما من حوار، ويبدأ ابن دانيال قصَّة الشيخ واصفاً إياه بأنه صحا من نشوة التقوى، فعاود السكر والقصف، وكان في رباط النسك مرتبكاً، يقول:^(٢٢٥)

(البسيط)

قد عاود القصف والنَّدمان والقُدحا وكان نشوان من كأس التُّقى فصحا^(٢٢٦)
شيخٌ غدا في رباط النسك مرتبكاً فيا لها سُبْحاً كانت له شبحا

^(٢٢٣) ابن الوردي، م.ن، ص168.

^(٢٢٤) نسبة إلى فرقة الحمارية، وهي فرقة من فرق القدرية. ينظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص279.

^(٢٢٥) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص188-189.

^(٢٢٦) القصف: اللهو واللعب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قصف. النَّدمان: الرفيق في الشراب، ينظر: م.ن، مادة ندم.

وبعد أن عاد إلى معاقرة الخمر ومجمع أهل الفسق والفساد لقيه صاحبه إبليس، فصالحه بعد أن كان غاضباً عليه، فأكد له أنه لا يصلح إلا للفساد، وذكره بأنه أكبر أعوانه، وخليفته في الناس، به ينتعش اللهو ويوقظ العشق، يقول: (٢٢٧)

(البسيط)

لاقاه إبليسُ في الماخور صاحبه وكان غضبانَ لِمَا تَابَ فاصطَلحا (٢٢٨)
وقال: يا أبَيّ أفديكَ من ولدٍ لغير ما سمته في الفسقِ ما صلحا
إذا تركتكَ، مَنْ في الناسِ يخلفني وأنت لي أكبرُ الأعوانِ والنُّصحا
وتُنعشُ اللهو بالألحانِ مغتَبِحاً وتوقظُ العشقَ بالأنعامِ مُصْطَبِحاً (٢٢٩)

وينصحه إبليس بأن يترك التستر، وألا يخشى اللوم، فلذة الفسق والفجور في المجاهرة لا في التستر، يقول:

(البسيط)

دعِ التَّسْتَرَ لا تردِّعكَ لائمةٌ وخذُ من العيشِ ما وفاقك أو سنحا
ما لذَّةُ القصفِ أن تأتيه مستتراً بل لذَّةُ العشقِ أن تأتيه مُفتضِحاً

ثم يدعوه إلى الزواج من عميرة، ذات الحسن والجمال، ويأخذ الشاعر في وصف قوامها، ومعصمها، وبنائها، ويمتدح غناءها، ثم ينصحه بأن يأتي في الصباح بالمعاصي التي كانت له بالمساء، يقول:

(البسيط)

واقصدُ عميرةً للتزويجِ إنَّ لها بيتاً غدت في سماءِ الحُسنِ شمسَ ضحى

(٢٢٧) الصفدي، م.س، ص189.

(٢٢٨) الماخور: بيت الريبة. ينظر: ابن منظور، م.س، مادة مخر.

(٢٢٩) مغتَبِح: من الاعتباق: وهو الشرب وقت العشي، مصطبج: وهو الشارب في الصباح، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: غبق وصبح.

(٢٣٠) الصفدي، م.س، ص189.

(٢٣١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص189-190.

وقد هجينك وامش الرَّمْلَ ذَا عَنَقٍ وانزلْ به حيثما دارتْ لديك رحي (٢٣٢)
ذاتُ القوامِ الذي يهتَزُّ عُصْنٌ نَقَاً لو مَرَّ يوماً عليه طائرٌ صَدَحَا (٢٣٣)
تبدي على الدُّفِّ كالجَمَارِ مِعْصَمَهَا لِنِفْرَةٍ بِنَانٍ يُشْبَهُ البَلْحَا (٢٣٤)
غناؤها برقيقِ الغنجِ ممتزجٍ فما يُنْقِطُ إلا كُلُّ من رشحا (٢٣٥)
واجمع مع الصبحِ واحصدْ ما زرعتَ به مع المساءِ، وكن في الحرمِ مثلَ جحا
ويأمره أن يلوذ بصاحبيه؛ التقي العطار والجرنج، اللذين هما كالثورين في الحراث، ولولا
الخمير لنتازعا، ثم يشير إلى أن هذه النصائح من شيخ مُدبِّرٍ، لا يبلغ مبلغ هذا الشيخ التائب في
الفسق، يقول: (٢٣٦)

(البسيط)

وَأُذْ بَعْنَقِ التَّقِي العَطَّارِ مَنْبَسِطاً لَلسَّكِّ بِالكَفِّ أُنَى طَابٍ وانشرحا
وبالجَرْنَجِ، وعامله على ثِقَةٍ من الوفاءِ، ولا تصفحه إن صفحا
ثوران كم سِكَّةٍ للحرثِ قد درسا لولا معاقرةُ الأقداحِ لانتطحا (٢٣٧)
فخذْ وصيةَ شيخٍ مُدبِّرٍ وأبٍ لو وازنوك به في الفسقِ ما رجحا

ويختتم الشاعر بقول الشيخ تقيية لإبليس، ويسميه السُّميط أي الذي لا يلبس الطيلسان،
ممتدحاً مقالته: لقد هدأت من روع تقيية وطمأنت نفسه، وهذا القول لو كان من تيس ما ذبح قط
لرجاحة عقله. يقول ابن دانيال (٢٣٨):

(البسيط)

قال السُّمِيطُ: لقد حَمَصَتْ تَقْلِيَةً لو قال ذا القول تيسَ قطُّ ما دُبِحَا (٢٣٩)

(٢٣٢) الرمل: الهرولة (دون المشي وفوق العدو) العنق: ضرب من سير الدابة والإبل، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: رمل
وعنق

(٢٣٣) نقا: القصب، وقيل كثيب رمل. ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة نقا.

(٢٣٤) الدُّفُّ: آلة موسيقية معروفة، تضرب بها النساء، الجَمَارُ: شحم النخل واحده جُمَارُه. ينظر: ابن منظور، م.ن، مادتي: دقف
وجمر.

(٢٣٥) الغنج: التكرس والتدل من المرأة. ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة غنج.

(٢٣٦) الصفدي، م.س، ص190.

(٢٣٧) سَكَّةٌ: الحديدية التي يحرق بها الأرض. ينظر: ابن منظور، م.س، مادة سَكَّ.

(٢٣٨) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص190.

٢ في الفرق المنتسبة لأمة الإسلام

عرفت الأمة الإسلامية منذ أواخر عصر الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم، الفرق والأحزاب، وأغلبها قامت على أسس عقديّة وفكريّة، خالفت مقتضى عقيدة الإسلام، وقد بلغ كثير منها العصر المملوكي، وسأتناول ما قيل في نقد هذه الفرق على الوجه الآتي:

أ - الروافض

احترق مسجد الرسول، صلى الله عليه وسلم، عام 654 هـ^(٢٤٠) في شهر رمضان، فقال فيه معين الدين ابن تولوا الغزي، عازياً السبب لوجود الروافض في هذا المسجد وسبهم لصحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم^(٢٤١):

قُلْ لِلرَّوَاغِضِ بِالْمَدِينَةِ مَا لَكُمْ يِقْتَادُكُمْ لَلذَّمِّ كُلُّ سَفِيهِ
مَا أَصْبَحَ الْحَرَمُ الشَّرِيفُ مُحَرَّقاً إِلَّا لِسَبِّكُمْ الصَّحَابَةَ فِيهِ

ويرى شاعر آخر أن النار جاءت لتطهيره بعد أن لامسته أيدي الروافض^(٢٤٢):

(الكامل)

لَمْ يَحْتَرَقْ حَرَمُ النَّبِيِّ لِحَادِثٍ يُخْشَى عَلَيْهِ وَلَا دِهَاءُ الْعَاذِ
لَكُنَّهَا أَيْدِي الرَّوَاغِضِ لَامَسَتْ ذَاكَ الْجَنَابَ فَطَهَّرَتْهُ النَّارُ

ب العلويون

يقول صفي الدين الحلي في علويّ شرير، نافياً عنه ادعاه بأنه ينتسب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وذلك لسوء فعالة، مستشهداً بقول لرسول الله صلى الله وسلم، (كذا ينسبه الشّاعر) - بأنّ الفعّال تنبيء عن الأصل^(٢٤٣):

(الكامل)

قَالَ النَّبِيُّ مَقَالَ صَدَقٍ لَمْ يَزَلْ يَجْرِي عَلَى الْأَسْمَاعِ وَالْأَفْوَاهِ

^(٢٣٩) السميّط: الذي لا طيلسان عليه، ويقصد هنا التارك لدينه، حَمَصَتْ طَمَأَنْت، وسكنت نفسه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي: سمط وحمص.

^(٢٤٠) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 70/9-76.

^(٢٤١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 32/7.

^(٢٤٢) ابن تغري بردي، م.ن، 33/7.

^(٢٤٣) صفي الدين الحلي، الديوان، ص526.

من غابَ عنكم أصلُهُ، ففعاله تنبيكم عن أصله المتناهي
وسفرتَ عن أفعالِ سُوءٍ أصبحتَ بين الأنامِ قليلةً الأشباهِ
وتقول: إنك من سلالة حيدرٍ أفانتَ أصدقُ أم رسولُ الله؟! (٢٤٤)

ج الزنادقة

يقول صفي الدين الحلي في زنديق معتبرًا الضعف الذي يرى بعضهم آتاه في جسمه،
إنما هو في عقيدته، وهو منحرف حائد عن الطريق القويم، وعيبي (٢٤٥)!

(الوافر)

وقالوا: عندَ عبدِ الله ضعفٌ فقلتُ: نَعَمْ، ولكن في اليقينِ
فقالوا: ما يعيشُ؟ فقلتُ عدلٌ كذا هو في الحياة بغيرِ شينٍ (٢٤٦)

د -المتشعبة

يرى ابن الوردي في وفاة رجل كان يدعو إلى التشيع ويسب الصحابة، أن الله أراح الدين
منه، وخلص أعراض الصحابة بموته (٢٤٧):

(الوافر)

وقام لنصرِ مذهبه عظيمًا وحددَ ظفره وأطال نابه
تبارك من أراحَ الدينَ منه وخلصَ منه أعراضَ الصحابه

ه المتصوفة

يتحدث فتح الدين بن سيد الناس (٢٤٨)، عن الصوفي، فيرى أن له شروطاً ستة كي يكون
صوفياً، منها معاشره المردان، ومعاقره الخمر، وأكل الحشيشة، والرقص والغناء، والقيادة، وينتقد
عقيدة بعض الصوفية التي تنص على القول بوحدة الوجود، واستباحة المنكرات، والتي إذا ما قال
بها أحدهم أصبح شيخ الشيوخ، يقول (٢٤٩):

(٢٤٤) المقصود بحيدر: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حدر.

(٢٤٥) صفي الدين الحلي، الديوان، ص531.

(٢٤٦) عدل: حائد عن الطريق، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة عدل. عي (عيش بغير شين).

(٢٤٧) ابن الوردي، الديوان، ص483.

(٢٤٨) هو محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، ابن الفقيه أبي عمرو اليعمرى (ت 734هـ)، تعانى الأدب والشعر، ينظر: الكتبي،

فوات الوفيات، 284/2-288؛ الصفي، الوافي بالوفيات، 219/1-220؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 223/9.

(٢٤٩) الكتبي، فوات الوفيات، 287/2.

(الخفيف)

ما شروطُ الصوفيِّ في عصرنا اليَوْمِ سوى ستّةٍ بغيرِ زيادَةٍ
وهي نيكُ العُلوقِِ والسُّكْرِ والسطرُ لهُ والرَّقْصُ والغنا والقيادةُ
(٢٥٠)
وإذا ما اهتدى وأبدى اتحاداً وجميلاً من خُلوّةٍ وأعادتهُ (٢٥١)
وأتى المنكراتِ عقلاً وشرعاً فهو شيخُ الشيوخِ ذو السجّادِ

ويقول الشريف النَّاسخ الحسيني (٢٥٢)، في أحد المتصوفة، وهو حسين الصواف، وكان
يلازم رجلاً مقدسياً، مستهزئاً به، ويقوله أن الأرض تطوى له فيصلي وهو في دمشق ببيت
المقدس (٢٥٣)؛

(الكامل)

يهنيكمُ الصّوّافُ أصبحَ عابداً للربِّ غيرَ مدهنٍ ومُدّلسٍ
طويّت له الأرضُ الفسيحةُ فاغتنى تحتَ المهامِهِ في ظلامِ الحنّاسِ
فهو المقيمُ بجِلْقٍ وركوعِهِ وسجّوده أبداً ببيت المقدسِ

ومن النّقدِ الموجّه للصوفية، ما قاله الشّاعر السراج المَحَار (٢٥٤)، عمر بن مسعود، في
الشيخ بُراق الصوفي (٢٥٥) الذي قدم دمشق ومعه جماعة " سنة 705هـ، وكان في الأصل مريداً
لبعض الشيوخ في البلاد الرومية، وظهرت منه أعمال غريبة. وكان شعاره حلق الذقن وترك
الشارب، وحمل الجوكان (٢٥٦) على الكتف وقرنا لُبّاد يشبهان قرني الجاموس، وهو مقلد بحبل
كعاب بقرة محناة، وعليه وعلى أتباعه الأجراس، وكل منهم مكسور التنيّة، فنظم فيه المَحَار
قصيدة من الزجل بلغة العامة المحكية، بلغت واحداً وأربعين بيتاً، يصف فيها مظهره ومظهر
أتباعه، ويعدّهم خوارج على سنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهم لا يعرفون آداب النَّاس، ولا

(٢٥٠) السطلة: البله، والمسطول الأبله، وهي عامية، ينظر، المنجد، مادة سطل، العُلوق: ما يتعلّق به الإنسان لنفسته، ويقصد به هنا
المردان، والقيادة هي العمل دلالاً لطالبي الفواحش.

(٢٥١) اتحاداً: وهو القول بوحدة الوجود عند الصوفية.

(٢٥٢) محمد بن رضوان السيد الشريف العلوي الحسيني النَّاسخ توفي 671هـ، له يد في النظم والنثر، ينظر: الكتبي، م س، 336/2..
الصفدي، الوافي بالوفيات، 56/3. ابن تغري بردي، م س، 671/7

(٢٥٣) الكتبي، م س، 336/2.

(٢٥٤) عمر بن مسعود، سراج الدين المحار الحلبي شاعر مشهور، توفي 711 هـ أو 712هـ، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة،
270/3-271. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 156/7. الزركلي، الأعلام، 66/5.

(٢٥٥) الصفدي، م.س، 66/10-76.

(٢٥٦) جوكانو: العصا المعقوفة الطرف، يلعب بها الكرة، ينظر: سعدي ضنّاي، المعجم المفصل في المعرّب والدخيل، ص170.

حسن الأخلاق، ونختار منها هذه الأبيات، التي يقول فيها بأنهم جاءوا دمشق من بلاد الروم
ولهم قرون مثل قرون الثيران، يفرّ منها إبليس خوفاً، ولحاهم مخلوقة، وشواربهم مطوّلة، وهذا
أمر غريب، لم يره النَّاس ولم يسمعه، ولم يأمر به الله، ولا يرضاه رسوله عليه الصلاة
والسلام^(٢٥٧)!

(زجل)

جِئْنَا عَجَمَ مِنْ جُورِ الرُّومِ صَوَّرَ تَحِيرَ فِيهِمُ الْأَفْئَارِ
لَهُمْ قُرُونٌ مِثْلُ الثِّيْرَانِ إبْلِيسُ يَصْرِيحُ مِنْهُمْ زَنَهُارُ^(٢٥٨)
حَاكِلٌ وَاحِدٌ لَوْ شَارِبٌ طَوِيلٌ وَدَقْتُوْهُ مَحْلُوقَهُ
كُنُوْهُ عَلَى فَمِ عَشْرَةِ بِلَا خِيَاطَةِ مَلْزُوقِهِ
شَيْءٌ مَا نَظَرْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا سَمَعْنَاهُ فِي الْأَخْبَارِ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ وَلَا رَضِيَ عَنْهُ الْمُخْتَارِ

ومخالفتهم للدين بهذا المظهر هو إغواءً من الشيخ براق، الذي ألبس المرید قرنين، وجعل
له قلادة من الأجراس، وجعل سُبْحَهُ مِنَ الْكِعَابِ الْمَصْبُوعَةِ، يقول: ^(٢٥٩)

(زجل)

الشيخ براق أغواهم واختار لهم هذا الحلاس
أكسى المرید منهم قرنين وأعطاه قلادته من أجراس
وأما الكعاب المصبوغة قال: هي سُبْحُ هَذِي الْأَجْناسِ
ولهم أصوات عند التسبيح كصوت الفأر، ولهم زمزمة تشبه أصوات أهل النَّار أثناء
ضربهم بالمقارع، يقول: ^(٢٦٠)

(زجل)

وَإِنَّمَا مَكَانٌ حَلَّوْا فِيهِ يَسْبِيحُوا تَسْبِيحَ الْفَارِ
وَإِنْ زَمَزَمُوا تَسْمَعُ أَصْوَاتَ مِقَارِعِ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ

^(٢٥٧) الصفدي، الوافي بالوفيات، 67/10.

الزجل: فن شعري، وفد إلى مصر والشام من الأندلس والمغرب، وكان قد عرف هناك على يد ابن قزمان، واتخذ أشكالاً مختلفة، ينظر:
زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 429-420/3.

^(٢٥٨) زنهار: الخوف أو التظلم، ينظر: سعدي ضناوي، م س، ص 262.

^(٢٥٩) الصفدي، م.س، 67/10.

^(٢٦٠) الصفدي، م.س، 68/10.

ومن صغارهم أنّهم لا يعرفون آداباً للطعام، فقد تعودوا لحس أواني الطعام، وقد بلغ الشاعر أنّ أميرهم أو مربيهم تربى على أيدي خمّار، يقول: (٢٦١)

(زجل)

خد من صغره عودهم لحس الزبادي والأوراق
ما يعرفوا آداب الناس ولا إيش يكون حسن الأخلاق
ومحتسبهم، قال لي إنسان، كان تربية واحد خمّار
ويعدّ الشاعر هذا الشيخ من المبتدعين، إذ لم يُر، على الرغم من أنّه يدّعي الدين، في
المساجد، خلا أيام الجمعة، يقول: (٢٦٢)

(زجل)

يا شيخ براق والله إنك قد جيت في الدنيا بدعه
وما رأيناك في جامع صلّيت سوى إن كان يوم جمعة
وجيت ليهم في حاله ظهر عليك فيها إنكار
ثم يصف الشاعر هيأتهم وهم يسيرون في الطرقات ويتقدّمهم رجل له قرون، ويضع على
كتفه العصا المعقوفة التي تُلعب بها الكرة، ويحمل سيف خشب، وخلفه سبعون رجلاً يدقّون
الطبول والدفوف، وينفخون بالمزمار، وهذا منظر مضحك، ولكنّه غير مُرضٍ، يقول: (٢٦٣)

(زجل)

(٢٦٤) وما رأينا قبلك فقير بسبعين جوكندار
يا من لا يتحقق شكلو أقف نُقل لك كيف وصفو
إنسان قرونو فوق راسو وجوكانو من فوق كتفو
وسيف خشب مغمود ماعو والطبخاه من خلفو
يصنجوا بالصينية والطبل مَّه والمزمار
شي تضحك الناس من فعلو وقط ما يرضي الحضار

(٢٦١) الصفدي، الوافي بالوفيات، 68/10.

(٢٦٢) الصفدي، م.ن، 68/10.

(٢٦٣) الصفدي، م.ن، 68/10.

(٢٦٤) جوكندار: من يحمل الجوكان، ينظر: سعدي ضنّاي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص170.

ثم يدعو الشاعر الشيخ إلى التزوّد بالتقوى، إن كان يعدُّ نفسه صوفياً وصاحب طريقة،
يقول: (٢٦٥)

(زجل)

يا شيخ براق إن كان تعمل شغل الفقيري من حقا
تقوي من زاد التقوى واركب طريق أهل الخرقا
ولا تغرّك ذي الدنيا والآخرة خير لك وأبقى

ثم يختم المحار قصيدته هذه، التي يعدّها أفضل فنّاً ممّا جاء به هذا الشيخ، بل صورت
ما جاء به الشيخ أحسن تصوير، حتى إنّه لا يسمع بها إنسان إلّا طلبها، فضمن لها ذلك الخلود
بين النَّاس، ويشير إلى أنّ أبياتها تضمّنت كنيته، يقول: (٢٦٦)

(زجل)

أنت الغريب جيت في فنك ونا الوحيد جيت في فني
نظمت أحسن ما ينقل عنك وما يُروى عني
قطعه ما يسمعها إنسان إلّا ويطلبها مني
تبقى على مر الأزمان تدور على روس الأدوار
وكنيتي ما حلا ماجت مخفيه بين هذي الأسطار

٣ ما تعلق بأحكام الدين والعقيدة

كان الدين، عقيدة وأحكاماً، الأساس الذي تقوم عليه الحياة في المجتمع المملوكي، وأيّ
مخالفة للأحكام أو العقيدة كانت تلقى من بعض الشعراء النّقد المباشر وغير المباشر، وقد درست
ذلك على الوجه الآتي:

أ - تسجيل مظاهر الفساد

أبطلت المسكرات في أيام السلطان حسام الدين لاجين الذي تولى السلطنة سنة
696هـ^(٢٦٧)، فعطلت بهذا الأمر، كل مظاهر الفساد والفسق، وانتقد ابن دانيال هذا القرار على
لسان إبليس، الذي جاءه في النوم حزينا، باكياً، وحوله عصبه، قليلة العدد، ولكنها كثيرة في

(٢٦٥) الصفدي، الوافي بالوفيات، 69/10.

(٢٦٦) الصفدي، م.ن، 69/10.

(٢٦٧) ينظر، المقرئزي، السلوك، 307/2.

الفسق والفجور، من كلّ أمرد مثل البدر في جماله، أو شمس الضحى، له أَلحَاظ لا تخطئ،
 ممشوق القدّ مثل غصن النقا، يُبذل في وصله كلّ مال، ومن كلّ أمة ساحرة تغالب شمس
 الضحى في جمالها، ومن خمّار في يده كأس وعلى عاتقه جرّة خمر، ومن كلّ حشّاش مسطول،
 تبدو خضرة الحشيشة على شاربه، ومن كلّ زانٍ مُفْرِطٍ في الزنا، ومن كلّ ممثّل مطرب وزامر،
 يقول: (٢٦٨)

(السريع)

- (٢٦٩) رأيتُ في النومِ أبا مُرّة وهو حزينُ القلبِ في مرّة
 وعينه العوراءُ مقروحةٌ تقطرُ دمعاً قطرةً قطره
 يصيحُ واويلاه من حسرتي تلك التي ما مثلها حسره
 وحولهُ من رهطه عُصبةٌ فيهم على قلتهم كثره
 (٢٧٠) من كل علقٍ مثلِ بدرِ الدجى قِيَمْتُهُ في واحدٍ بَدْرُه
 مُظفّرُ اللحظِ بعشّاقِه وإنما في جَفْنِه كَسْرُه
 (٢٧١) شمسُ ضحى، غصنُ نقا قدّه وظلّه من خلفه الشعره
 يهونُ وزنُ المالِ في وصلِه طالعه الميزانُ والزهره
 ومن سحورِ العينِ فتانَةٌ خُوذْ لها شمسُ الضحى ضره
 وكلّ خمّارٍ وفي كفه كأسٌ على عاتقه جرّه
 (٢٧٢) ومن حشيشي سطيّلٍ على شاربه قد بَقَلْتُ خُضْرُه
 (٢٧٣) ومن بني حامٍ له مِرزةٌ صفى له صاحبه المِرزه
 (٢٧٤) وكلّ بغاءٍ به أبنَةٌ مبادلٌ أبغى من الإبره
 وكلّ جلاّدٍ على خلوّةٍ عميرةٌ هاجتُ به عُمره
 (٢٧٥) ومن خياليّ ومن مطربٍ وزامرٍ قد جاء في الزمره

(٢٦٨) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 119-120.

(٢٦٩) أبو مرة: إبليس. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة مرّ.

(٢٧٠) بدره: كيس فيه المال ألف أو عشرة آلاف، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة بدر.

(٢٧١) يعني انه نحيف الجسم لذا ترى ظله مثل الشعرة.

(٢٧٢) أي تلتخ شاربه بخضرة الحشيشة.

(٢٧٣) بني حام: السودان، المِرزة: من المزر وهو نبيذ الشعير والحنطة وغيرها، ينظر: ابن منظور، م.س، مادتي: حوم، مزر.

(٢٧٤) أبنَةٌ: العيب في الكلام، أو العار، وأصلها عيب في الخشب وهو العقدة، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة أبن.

(٢٧٥) خيالي: الذي يعرض خيال الطيف.

ثم يأخذ الشاعر في محاورته، فيسأله عن سبب بكائه، وانزعاج أتباعه الأغبياء، فيناديه إبليس بـ "ماني"، قاصداً بذلك نسبته إلى المانوية في استحلال كلِّ حرام، ويأخذ بتعداد ما حلَّ به وبعبثته، فقد قَلَّت أعداد أتباعه الفسّاق، وفقد منصبه، وعصاه النَّاس، وما عاد الخَمَار يقتني جرّة خمر أو كوز شُرب، وأصبحت مصانع الخمر خاوية، ومُنَع الحشاشون من الحشيشة، وأغلقت بيوت الدعارة، وكذلك أغلقت حوانيت القمار، فكسدت سوق المعاصي، وذهبت جهود إبليس سدى، فلم ينل أجراً ولا أجره، يقول:

(السريع)

فقلت يا إبليسُ ماذا الذي أسأل من مقلتك العبره
وما الذي أزعج أشياعك الذن نوكي، وإن كانوا ذوي شره
(٢٧٧) فقال: يا ماني أنت الذي وقعت في ... أخت ما أكره
قلت جيوشي ووهي منصبي وعُدت لا أمر ولا إمره
وأصبح الخَمَار لا يقتني في بيته كوزاً ولا جرّه
(٢٧٨) ومنزل المزارِ صفرٍ وقد علته من ذلته صفره
(٢٧٩) وبات قلبي الفار في حسرة وقلبه يُقلَى على جمره
وكاد أن يسطو الحشيشي وأن يخرج بالخنجر والشفره
وسائر السئات من أكثرهن اليوم في الحجره
يطلبن أزواجاً فلا منهن إلا أصبحت حره
(٢٨٠) وكلُّ ساكوسٍ قمارٍ وقد أجاد بالعفق بها مهره
كم جهد ما أعوي وأعوي وكم أصفق المقصوص والطره
وكم أرى العينين مكحولةً لمن رُمى بالعين والنظره
وكم وكم أسهر في خدمة الـ عُشاق في الليل إلى بكره

(٢٧٦) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص120-121.

(٢٧٧) ماني: من أتباع ماني، مؤسس المانوية، ينظر: المنجد في الأعلام، مادة مان.

(٢٧٨) منزل المزار: الخمارة، أي منزل بائع نبيذ الذرة.

(٢٧٩) الفار: الوعاء، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة فور.

(٢٨٠) الساكوس: المدمن، ينظر: الصفي، م.س، حاشية ص120. العفق: كثرة الرجوع والإقبال والإدبار، ينظر: ابن منظور، م.س،

قد كسدت سوق المعاصي فلا شرب ولا قصف ولا عشره
هذا على أتي من عيتي أقد لا أجر ولا أجره

فينصحه ابن دانيال أن يسافر به ويطول الغيبة، فمصر لمتلهم لا تسكن في ظل حكم
هذا السلطان العادل المبارك الطلعة، الذي شاع مرسومه بتجريس وجلد من يرتكب مثل هذه
المعاصي، يقول ابن دانيال:

(السريع)

فقلت يا إبليس سافر بنا وطول الغيبة والسفره
إياك أن تسكن مصرأ وأن تقربها إن كنت ذا خبره
فإن فيها صاحباً عادلاً مبارك الطلعة والغره
قد علم السلطان من نصحه لملكه ما شاع بالشهره
جزاء من خالف مرسومه تجريسه والضرب بالدره

وتعد هذه القصيدة سجل لمظاهر الفساد التي سادت مصر قبل القرار السلطاني بنزعها.

ب في قاضٍ حكم بغير ما أنزل الله

مدح الشاعر ابن الخوام العراقي (٢٨٢) أحد الوزراء بأنه رب السماء، فقدم للقضاء بتهمة
الكفر، إلا أنه رشا الحاكم، فحكم بحقن دمه، فانتقد محمد العلوي (الناسخ الحسيني) هذا الحكم،
مبشراً حزب إبليس بأن فتاهم الخوام قد نجا من الحد (القتل)، بعد أن كفر، وحكم له بأنه مسلم،
والحق أنه لم يسلم، بل رشا القاضي، يقول:

(السريع)

يا حزب إبليس ألا فابشروا أن الفتى الخوام قد أسلما
وكان مما قال في كفره أن رشيد الدين رب السما
وقال لي شيخ خبير به: ما أسلم الشيخ بل استسلما

(٢٨١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص121.

(٢٨٢) هو عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق الحريوي ابن الخوام العراقي، شهد عليه بالكفر، بمدحه رشيد الدولة لم يذكر له تاريخ وفاة،
ينظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 2/400-401؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 17/318؛ الزركلي، الأعلام، 4/126.

(٢٨٣) الكتبي، فوات الوفيات، 2/401.

ج في ذم التنجيم

لا يكاد يخلو عصر من التنجيم والمنجّمين، وكلّما قلّ فقه النّاس بدينهم، ووعيهم على أحكام عقيدتهم، واقترن ذلك بكثرة مصائبهم وسوء معاشهم، ازداد تعلقهم بالبحث عن الغيب وما تخفي لهم الأقدار، فتنتعش بذلك ظاهرة التنجيم، ويكثر من يقول بها من أهل الضلال والدّجل. لذا ليس غريباً أن تكون هذه الظاهرة حاضرة في العصر المملوكي، فتستدعي من ينتقدها وينهى عنها، فيها هو علاء الدين الشّاعر المنجّم اليشكري^(٢٨٤)، تدهمه الخطوب وتعصف به المصائب، فيلجأ إلى الأفلاك مستعيناً بها، باحثاً عن سعدة، فيزداد بها حيرة وقلقاً، ولا يجد فيها نفعاً، فيدرك أنها لا تعقل فتتفع، فيثوب إلى رشده ويتوجه إلى ربه في حاجته، يقول^(٢٨٥):

(الطويل)

ولمّا دهاني الخطبُ من كلّ وجْهَةٍ وأصبحَ حالي حائلاً متبدّلاً
عكفتُ على الأفلاكِ أَرْجُو معونةً بها أو بسعدٍ في الكواكبِ يُجتلى
أُخاطبُ منها المشتري بَعْدَ زهرةٍ فما ازددتُ إلا حيرةً وتقلّلاً
أما والعلا لو كنتُ خاطبتُ عاقلاً لأصغى إلى ما قلته وتأملاً
ولكنّ خطابي أطلّساً غيرِ سامعٍ مقالِي له
فلا فلكُ التدويرِ للقولِ يرعوي ولا الكوكبُ الدريّ يفهمُ مقولاً
وليس سوى الخلاقِ جلّ جلاله أوجّه وجهي نحوه متوسّلاً

د في أهل الذمّة

وهم رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين من يهود ونصارى، ممن لهم عهد ودمّة، يدفعون بموجبها الجزية، ولهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، إلّا حقوقاً وواجبات تتعلق بالعقيدة والعبادات. وقد عاش هؤلاء في الدولة الإسلامية حياة كريمة، لم يظلموا فيها أو تهضم حقوقهم، وذلك وفاء من المسلمين بالذمّة.

وقد كانت الدولة تستخدمهم في الوظائف الإدارية والمالية، وذلك لما عرف عنهم من مهارة في الحساب، ولمّا كان عصر المماليك توسعوا في استخدامهم في دواوين الجباية والأموال،

^(٢٨٤) هو علي بن محمود بن حسن بن نيهان، أبو الحسن اليشكري، البغدادي، الشّاعر المنجم (ت 680هـ). ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 2/146-147؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 22/116؛ الزركلي، الأعلام، 5/20.
^(٢٨٥) الكتبي، م.س، 2/147.

وأطلقوا أيديهم في جمع الأموال بحق وغير حق، فوقع منهم ظلم كبير للناس، يحمل وزره الأوفى
سلاطين الممالك، الذين كان همهم الأول الثراء وجمع الثروة، فيروى أن الفقيه البكري قال
للسلطان الناصر لما راجعه في قول غليظ بدا منه بحق السلطان، قال له: إن أفضل الجهاد
كلمة حق عند سلطان جائر، فقال له السلطان، وقد اشتد غضبه: أنا جائر؟ فقال: نعم، أنت
سلّطت الأقباط على المسلمين وقويت دينهم..^(٢٨٦).

وقد تصدى الشعراء لمثل هذه الظاهرة، وكان حامل لواء الحملة على استخدامهم
وتسليطهم على رقاب المسلمين، الشاعر الكبير البوصيري، فقد أطل الحديث عن المستخدمين
ومنهم الأقباط، وقصّل في جرائمهم، ما جعل شعره في هذا الجانب سجلاً تاريخياً لهذه الظاهرة،
وقد اقتطفنا منه قصائد، تفي بالغرض، في الجانبين السياسي والاقتصادي، وعلى الرغم من
الطابع السياسي والاقتصادي الذي انطبعت به قصائد البوصيري فيهم، إلا أنها لم تخل من
الإشارات العقديّة، وبخاصة في معرض تحريض السلطان عليهم، فنراه يذكره بالغيرة على
الإسلام، ويكشف له حقدهم على الإسلام والمسلمين، إذ لا يروق لهم أن يروا له كتاباً مهراً من
غير القبط، ولا يحبّون إلا أبناء دينهم، ويبغضون كلّ مسلم، ولا يوادّون إلا أهل دينهم، وقد
تأصّلت فيهم هذه العداوة للمسلمين وحكامهم، يقول

(الطويل)

إذا كان سلطان البسيطة منهم يغار على الإسلام فالله أغير
وبالرغم منهم أن يروا لك كاتباً وما أحد في فنه منه أمهر
ويعجبهم من جدّ جدّيه بظرس ويحزنهم من جدّ جدّيه جحدر
بأنّ النصارى يرغبون لبعضهم ومن غيرهم كلّ يراع ويذعر
عداوتهم للملك ما ليس تنقضي وذنّب أخي الإسلام ما ليس يغفر

وفي موضع آخر، يناشد السلطان ألا يقربهم، فهم أعداء الله وأعداء الدين، ويدعوه إلى
ترك مجاهدة التتار والفرنجة، والتفرغ لمجاهدة عامل أسوان ومن حوله من موظفي القبط، إذ

^(٢٨٦)العسقلاني، الدرر الكامنة، 224/3.

^(٢٨٧)البوصيري، الديوان، ص280.

جهادهم واجب تُنال به الجَنَّة، يقول

(٢٨٨)؛

(البيسط)

لا تَأْمَنَنَّ عَلَى الْأَمْوَالِ سَارِقَهَا وَلَا تَقْرَبْ عَدُوَّ اللَّهِ وَالِدَيْنِ
وَخَلَّ غَزَوْ هُلَاكُو وَالْفَرَنْسِ مَعاً وَانْهَضْ بِفِرْسَانِكَ الْغُرَّالْمِيَامِينَ
وَاعْزُرَنَّ عَامِلَ أَسْوَانَ تَنَالُ بِهِ جَنَاتٍ عَدَنِ بِإِحْسَانٍ وَتَمَكِينٍ
وَكَلُّ أَمْثَالِهِ فِي الْقَبْطِ أَعْزُهُمْ فَالْغَزْوُ فِيهِمْ حَلَالُ الدَّهْرِ وَالْحَيْنِ

وقد كان لقرب البوصيري منهم، موظفًا في دواوين الجباية، أثر كبير في حملته هذه عليهم، فقد شهد منهم من الظلم والخيانة، ما لم يشهده غيره من الشعراء. وهو ما يفسر كثرة تعرضه لهم.

ونجد البوصيري يقرن بينهم وبين اليهود وقضاة المسلمين في استباحة أموال المسلمين ونهبها، يقول (٢٨٩):

(الوافر)

وما أَخْشَى عَلَى أَمْوَالِ مِصْرٍ سِوَى مِ مِعْشَرٍ يَتَأْوَلُونَا
يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَنَا حَقُوقٌ بِهَا، وَلَنَحْنُ أَوْلَى الْأَخْذِينَا
وَقَالَ الْقَبْطُ: إِنَّهُمْ بِمِصْرَ الـ مَلُوكٌ وَمِنْ سِوَاهُمْ غَاصِبُونَا
وَحَلَّتْ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبْتٍ لَهُمْ مَالُ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينَا

والمقصود بقوله (بحفظ سبت): أنهم استحلوها في غير يوم السبت.

ولم يلق اليهود ما لقيه النصارى من النَّقْد، وبخاصة في مصر، ذلك لأنهم لم يشغلوا وظائف في الدواوين والجباية كالنصارى، ولم يكونوا من المقربين لدى الحكام وربما يعود هذا إلى قلة عددهم في مصر قياساً إلى الأقباط، أو لأنهم، وكما هو معروف عنهم، يميلون إلى التجارة وامتهان الصياغة، أكثر من ميلهم للوظائف الحكومية، وعلى الرغم من هذا لم يسلموا من لسان البوصيري، يقول الشاعر متفكهاً: (٢٩٠)

(مخلع)

(البيسط)

(٢٨٨) البوصيري، م.ن ، ص 486.

(٢٨٩) البوصيري، الديوان، ص 468-469.

(٢٩٠) البوصيري، م.ن، ص 210.

يهودُ بلبيسِ كلِّ عيدٍ أفضلُ عندي من النصارى
أما ترى البغلَ وهو بعلٌ في فضله يفضّلُ الحمارا

ثم يعتذر للنصارى عن هذا ذاماً لليهود، قائلاً^(٢٩١):

(مخلع البسيط)

ما للنصارى إليّ ذنبٌ وإنما الذنبُ لليهودِ
وكيف تفضيّلهم، وفيهم سرُّ الخنازيرِ والقروذِ
ويقول في الطائفتين مذكراً بخلق التحريف والتزوير الذي طبعنا عليه^(٢٩٢):

(الكامل)

إنّ النصارى واليهودَ معاشرٌ جُبِلُوا على التّحريفِ والتّبديلِ
لو أنّ فيهم عوراً عن باطلٍ أبقوا على التوراةِ والإنجيلِ^(٢٩٣)

هذا في مصر، أمّا في الشام، فيبدو أنه كان لليهود في حلب في ذلك العصر شأن ورفعة، مما دفع الشّاعر ابن أبي السّفاح الحلبي^(٢٩٤)، إلى القول في هذه المدينة، وقد هجرها^(٢٩٥):

(الطويل)

أرضى حمى الشهباءِ داراً وقد علّت عليها لأبناءِ اليهودِ سناجقُ^(٢٩٦)
فإنّ نُكستْ أعلامهم أنا راجعٌ إليها وإلاّ فهي مني طالقُ

وبأمر من السلطان الملك الناصر محمد، أغلقت الكنائس بمصر والقاهرة، وألبس اليهود عمائم صفراً، والنّصارى عمائم زرقاً، وإذا ركب أحد منهم بهيمة ألزم بكفّ إحدى رجليه، وطردها من الوظائف السلطانية، وشمل هذا دمشق أيضاً، وكان هذا سنة 700هـ^(٢٩٧).

^(٢٩١) البوصيري، م ن، ص 209.

^(٢٩٢) البوصيري، م ن، ص 416.

^(٢٩٣) عور: ضعف أو إديار، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة عور.

^(٢٩٤) عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف. كاتب الإنشاء في حلب (ت 764هـ)، ينظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة،

417/2؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 15/11.

^(٢٩٥) العسقلاني، م.س، 417/2.

^(٢٩٦) جمع سنجق وهو اللواء أو البيرق، كلمة تركية، ينظر: الضناوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص 291.

^(٢٩٧) ينظر: ابن تغري بردي، م.س، 109/8.

فقال الشعراء في ذلك شعراً، منه قول علاء الدين الوداعي، معتبراً هذه العمائم شاشات ذلّة، وهي زيادة في لعنة الله عليهم، وهي ليست عمائم بل نعال بالية^(٢٩٨):

(الطويل)

لقد أُلزِمَ الكفّارُ شاشاتِ ذلّةٍ تزيدُهُم من لعنةِ الله تشويشاً
فقلتُ لهم ما ألبسوكم عمائمًا ولكنَّهُم قد أُلزِموكم
براطيشاً^(٢٩٩)

وقال أيضاً معتبراً تغيير زيّهم جزاءً لهم بما غيّرُوا من صفاتِ النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في كتبهم، فألبسوا النعال البالية، وإن سُمّيت عمائم^(٣٠٠):

(الخفيف)

غيّروا زيّهم بما غيّروه من صفاتِ النبي ربِّ المكارمِ
فعليلهم كما ترونَ براطٍ شٌ ولكنّها تُسمّى عمائم

وقال شمس الدين الطيبي^(٣٠١)، في اختلاف ألوان هذه العمائم التي ألبسها اليهود والنصارى والسامريون، والتي بدت كأنّ النسور انسهلت في السماء فوق ذرقها على رؤوسهم^(٣٠٢):

(البسيط)

تعجّبوا للنّصارى واليهود معاً والسامريين لمّا عمّموا الخرقا
كأنّما باتت بالأصباغ منسهلاً نسرُ السماء فأضحى فوقهم ذرقاً^(٣٠٣)

^(٢٩٨) ابن تغري بردي، م.س، 110/8.

^(٢٩٩) براطيش: جمع برطوش، وهو اسم للنعل الخلق، واللفظ عامي، ينظر: ابن تغري بردي، حاشية النجوم الزاهرة، 110/8.

^(٣٠٠) ابن تغري بردي، م.س، 110/8.

^(٣٠١) هو شمس الدين أحمد بن يوسف بن يعقوب الطيبي، كاتب الإنشاء بطرابلس، (ت 717هـ)، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 196-193/8؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 365-363/1؛ ابن تغري بردي، م.س، 171/9.

^(٣٠٢) العسقلاني، م.س، 364/1.

^(٣٠٣) الذرق: خُرءُ الطائر. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة ذرق.

وخلصه هذا الجانب، هي أنّ الشّعر رصد ظواهر دينية متعددة، منها: ما تعلّق بالأشخاص، ممّن لهم علاقة مسيسة بالدين، عقيدة وأحكاماً، وما تعلّق بأحكام هذا الدين وبخاصة في التطبيق، وما تعلّق بالفرق التي شدّت عن عقيدة الإسلام، وما تعلّق بأهل الذّمة. وكان منطلق الشّعراء في تناول الظواهر الدينية منطلقاً إسلامياً يستند إلى الكتاب والسنة، دين الدولة والنّاس، ولا يخرج عن هذا ابن دانيال، في قصيدته، التي جاءت على لسان إبليس، والتي جاءت في ثوب من الهزل والفكاهة، يشفّ عن نقدٍ لمظاهر هذا الفساد، فمثّلت نقدًا ضمناً، بعيداً عن المباشرة، فهي أبعد ما تكون عن الاحتجاج على منع هذا الفساد ومحاربة أسبابه.

وكانت الصورة العامة للحياة الدينية، التي نقلها هذا الشعر، لا تكاد تختلف عن الحياة الدينية في بعض العصور التي سبقت هذا العصر، أو التي لحقته، وممّا يلحظ أيضاً، أنّ هذا الجانب الديني كثيراً ما تشابك مع الجوانب الأخرى تأثراً وتأثيراً، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد الأقباط، وهم من أهل الذمة، قد نالوا قسطاً وافراً من نقد البوصيري، ضمن قصائد كان موضوعها الرئيس اقتصادياً وسياسياً.

سادساً- شعر النقد العمراني

وقف بعض شعراء هذا العصر على كثير من المظاهر العمرانية بالنقد والذم، مثلهم في ذلك مثل الشعراء في عصور سبقت، ومما نقدوه: البيوت، والحمامات، والأسواق، والمدن، وتناولتها كالاتي:

١ البيوت

انتقد بعض الشعراء حال بيوتهم، وما فعله الفقر بها، ومنهم: ابن دانيال، في قصيدة طويلة يشكو في مطلعها فقره، وضيق هذا المنزل، وقلة متاعه، إذ لم يبق فيه إلا حصيرة، ومخدة، ولحاف يطرح عليه محشو بقل، مثل السمس المنثور في حجمه وكثرته، يقول: (٣٠٤)

(الكامل)

أصبحتُ أفقرَ مَنْ يروخُ ويعتدي ما في يدي من فاقتي إلا يدي
في منزلٍ لم يحوِ غيري قاعداً فمتى رقدتُ، رقدتُ غيرَ مُمدِّدٍ
لم يبقَ فيه سوى رسومِ حصيرةٍ ومخدةٍ كانت لأُمِّ المهتدي
تُلقي على طرَاحَةٍ في حشوها قملٌ شبيه السُمس المتبدِّد (٣٠٥)

ثم يأخذ في تعداد ما فيه من حشرات، ويصف ما يفعله بعضها فيه، فالبق ورمت جلده، والبراغيث تعلقت بجلده مثل المحاجم، والبعوض يفصد عروقه إذا ما تمكن من جلده، أما الخنافس فكالزنوج، وقد قرنت بجمع من العقارب الجائمة كالحمام، ترفع زيانها كأصبع المتشهد في الصلاة، أما الأفاعي في انسيابها فتبدو كأموج الجداول، والفئران كالخيول المتسابقة، يأكلن خشب السقوف كفارات النجارة، والعنكبوت تنسج بيوتاً كأنها شعريّة في عين أرمده، وللحردون صوت مثل صوت الزناد الصُّلب، أما الخفّاش فيضره ضوء كلّ ذبالة، وأما الزنبيور، فكأنما ألبس حلّة موشاة بالعسجد، يترنم بين الذباب مغرداً، وهذه حشرات لو تُلقت جيشاً لهزمته، يقول: (٣٠٦)

(٣٠٤) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص154.

(٣٠٥) طرّاحة: كساء أو فراش يطرح على الحصير لينام عليه، ينظر: المعجم الوسيط، مادة طرح.

(٣٠٦) الصفي، م.س، ص154-156.

(الكامل)

والبقّ أمثال الصراصرِ خُلُقَةً من مُتْهِمٍ في حشوها ومُنْجِدٍ (٣٠٧)

يجعلن جلدي وارماً فتخاله من قرصهنّ به يذوبُ الجُلْمُدُ

وترى براغيثاً بجلدي عُقَّتْ مثلَ المحاجمِ في المساءِ وفي العَدِ (٣٠٨)

وكذا البَعُوضُ يطيرُ وهو بريشه فمتى تمكّنَ فوقَ عِرْقٍ يَفْصُدُ

وترى الخنافسَ كالزّنوجِ تصفّقت من كلّ سوداءِ الأديمِ وأسودِ

ولربّما قرنتُ بجمعِ عقاربٍ قتالةٍ قدرَ الحمامِ الرُّكْدِ

وتقيمُ لي عندَ المساءِ زبائنها فأراه وهو كإصبعِ المتشهدِ (٣٠٩)

هذا وكم من ناشِرٍ طاوي الحشا يبدو شبيهة الفاتكِ المُتَسَرِّدِ (٣١٠)

بيدي إذا ما انسابَ صفحةً جدولٍ عبثتُ به ريحُ الصِّبَا متجعِّد

والفارُ يركضُ كالخيولِ تسابقاً من كلِ جرداءِ الأديمِ وأجرِدِ

يأكلنُ أخشابَ السَّقوفِ كمثلِ فَا راتِ النَّجَارَةِ إذْ تُحَكُّ بمبردِ

وكانَ نسجَ العنكبوتِ وبيتهِ شعريّةً من فوقِ مقلةٍ أرمِدِ (٣١١)

وكذاك للحرذونِ صوتٌ مثله في مسمعي صوتُ الزّنادِ المُضَلِّدِ

وإذا رأى الخفّاشُ ضوءَ ذبالةٍ عندي أضرَّ بضوئها المتوقدِ

وكانما الزّنبورُ ألبسَ حُلَّةً مُوشِيَّةً، أعلامها، بالعَسْجِدِ

مُتَرَنِّمٍ بين الذبابِ مُغرِّدٍ لا كان من مترنِّمٍ ومُغرِّدِ

حشراتُ بيتٍ لو تلقّتْ عسكراً ولّى على الأعقابِ غيرَ مُرَدِّدِ

وفي مقطوعة شعرية من ستة أبيات، عاود ابن دانيال نقد منزله، إذ لا يوجد فيه ما يباع

ويشتري، بل كل ما فيه حصير مسوّى بالأرض وبقية نطع ممزق، تريق عليه البقّ دمه، حتى

أصبح على سواده، أحمر، وهو هذه المرة قبر موحش، أصبح فيه نسيّاً، بل القبر أفضل منه،

لأنّه مع ضيقه، لا يطالب ساكنه بالنوم، يقول (٣١٢):

(٣٠٧) متهم: من أتى تهامة، ومنجد: من أتى نجد، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي تهم، ونجد.

(٣٠٨) المحاجم: أداة الحجم، القارورة التي يجمع فيها دم الحجامّة، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة حجم.

(٣٠٩) الزبان: قرن العقرب، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة زين.

(٣١٠) ناشر: نوع من النعابين السامة ينشر رأسه فيكون كالمغرفة وهي مولدة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة نشر.

(٣١١) شعريّة: نسبة إلى الشّعرة: وهي انقلاب شعريّ من الهدب نحو المقلة يؤذي القرنية، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة شعر.

(٣١٢) صلاح الدين الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص151-152.

(الكامل)

لم يبقَ عندي ما يباعُ فيشتري إلا حصيرٌ قد تساوى بالثرى
(٣١٣) وبقيةُ النطع الذي ولعتُ به أيدي البلى حتى تمزَّقَ وانبرى
نطعٌ تُريقُ دمي عليه بقَّةٌ حتى تراه، وهو أسودُّ، أحمرًا
(٣١٤) في منزلٍ كالقبرِ قد شاهدتُ فيه نكيراً مقلتاي ومُنكرا
لو لم يكن قبراً لما أمسيتُ نساياً فيه حتى أني لم أذكر

وغير بعيد من وصف ابن دانيال لبيته وحشراتِه، نلتقي بـابن الأعمى (٣١٥) في مثل هذا،
فأقل صفات داره كثرة الحشرات التي تسببها حشراتِه، فالشرُّ محقق بها من جميع الجهات،
يقول: (٣١٦)

(الكامل)

دارٌ سكنتُ بها أقلُّ صفاتها أن تكثرَ الحسراتُ من حشراتِها
الخيرُ عنها نازحٌ متباعدٌ والشرُّ دانٍ من جميع جهاتها

ففيها البعوض الذي أبعَد النوم من أجفانه، والبراغيث التي ترقص على نغمات
البعوض، وذباب كالضباب يسد عين الشمس لكثرتِه، وطير الخطاف الذي أرهق الأبصار
بحركته، وأصمَّ الأسماع بأصواته، وفيها الخفافيش التي تطير نهارها مع ليلها مخالفة لعاداتها،
وفيها الجرذان التي يهرب منها أبو غزوان، ويتنحى عن طريقها أبو الحصين (الثعلب)،
(٣١٧) والخنافس التي هي كالطنافس، يقول:

(الكامل)

من بعض ما فيها البعوضُ عدمته كم أعدمَ الأجفانَ طيبَ سناتها

(٣١٣) النطع: بساط من الجلد، كثيراً ما يقتل عليه المحكوم بالإعدام، ينظر: المعجم الوسيط، مادة نطع.

(٣١٤) نكير ومنكر: اسما ملكين، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: نكر

(٣١٥) هو علي بن محمد بن المبارك، كمال الدين ابن الأعمى الشاعر، (ت 692هـ)، والده ظهير الدين الأعمى كان خطيب القدس،
ينظر: ابن شاکر الكتبي، فوات الوفيات، 140/2؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 89/6؛ الزركلي، الأعلام، 4/434.

(٣١٦) الكتبي، م.س، 141/2.

(٣١٧) الكتبي، م.س، 141/2-142.

وتبيئتُ تُسَعِدُهَا بِرَاغِيَتْ مَتَى غَنَّتْ لَهَا رَقِصَتْ عَلَى نَعْمَاتِهَا
وبها ذبابٌ كَالضَّبَابِ يَسُدُّ عَيْنَ الشَّمْسِ، مَا طَرَبِي سِوَى عَنَّا أَيْهَا
أَيْنَ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا مِنْ فَتْكِهَا فِينَا وَأَيْنَ الْأَسَدُ مِنْ وَثْبَاتِهَا
وبها مِنَ الْخَطَافِ مَا هُوَ مَعْجَزٌ أَبْصَارَنَا عَنْ حَصْرِ كَيْفِيَاتِهَا
تَعْشَى الْعَيُونَ بِمَرَّهَا وَمَجِيئِهَا وَتَصْمُ سَمْعَ الْخُلْدِ مِنْ أَصْوَاتِهَا
وبها خَفَافِيْشٌ تَطِيرُ نَهَارَهَا مَعَ لَيْلِهَا لَيْسَتْ عَلَى عَادَاتِهَا
شَبَّهَتْهَا بِقَنَافِذٍ مَطْبُوخَةٍ نَزَعَ الطَّهَاءُ بِنُضْجِهَا شُوكَاتِهَا
وبها مِنَ الْجُرْدَانِ مَا قَدْ قَصَّرَتْ عَنْهُ الْعِتَاقُ الْجُرْدُ فِي حَمَلَاتِهَا
فَتَرَى أَبَا غَزْوَانَ مِنْهَا هَارِباً وَأَبَا الْحَصِينِ يَرُوعُ عَنْ طَرَقَاتِهَا
وبها خَنَافِسُ كَالطَّنَافِسِ أُفْرِشَتْ فِي أَرْضِهَا وَعَلَّتْ عَلَى جَنَابَاتِهَا

وليست هذه الدار مسكن حشرات وحسب، بل أيضاً مسكن جنّ مختلف اللغات، ويختم الشاعر قصيدته الطويلة، التي بلغت ستة وأربعين بيتاً، بوصف مبيته فيها باكياً، ينتظر الصباح متشوقاً له، داعياً الله أن يبدله بهذه الدار التي هي جهنم في دنياه، جنّة الخلد في أخراه، وأن يجمعه بالأحبّة، وقد اخترنا منها هذه الأبيات، يقول^(٣١٨):

(الكامل)

دَارٌ تَبِيْتُ الْجَنُّ تَحْرُسُ نَفْسَهَا فِيهَا وَتَنْذُرُ بِاخْتِلَافِ لُغَاتِهَا
كَمْ بَتُّ فِيهَا مَفْرَداً وَالْعَيْنُ شَوْقاً لِلصَّبَاحِ تَسُحُّ مِنْ عِبْرَاتِهَا
وَأَقُولُ: يَا رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعَلَا يَا رَازِقاً لِلْوَحْشِ فِي خَلَوَاتِهَا
أَسْكَنْتَنِي بِجَهَنَّمَ الدُّنْيَا فَفِي أُخْرَايَ هَبْ لِي الْخُلْدَ فِي جَنَابَاتِهَا
وَاجْمَعْ بَيْنَ أَهْوَاهِ شَمْلِي عَاجِلاً يَا جَامِعَ الْأَرْوَاحِ بَعْدَ شَتَاتِهَا

أما ناصر الدين بن النقيب، فداره خراب، لا فائدة فيها ولا فرق بينها وبين قارعة الطريق، جمعت كل الصفات القبيحة، فهي آيلة للسقوط، وتهتز لهفوة نسيم، ويخشى أن يقرأ فيها سورة الزلزلة، فتقرأ هي الواقعة، بل يخشى أن يقيم الصلاة فتسجد حيطانها، يقول^(٣١٩):

^(٣١٨) الكتبي، م، ن، 142/2-143.

^(٣١٩) الغزولي، مطالع البدر في منازل السرور، 637/2.

(المتقارب)

ودارَ خَرَابٍ بِهَا قَدْ نَزَلْتُ وَلَكِنْ نَزَلْتُ إِلَى السَّابِعِ
فَلَا فَرْقَ فِيهَا بَأْتِي أَكُونُ بِهَا أَوْ أَكُونُ عَلَى الْقَارِعِ
فَوَاللَّهِ مَا نَمْتُ فِي أَرْضِهَا وَلَا طَلَعْتُ لِي بِهَا طَالِعَهُ
وَمَفْرَدَةٌ بِالصَّفَاتِ الْقَبَاحِ وَمَا هِيَ إِلَّا لَهَا جَامِعَهُ
تُشَاوِرُهَا هَفَوَاتِ النَّسِيمِ فَتُصْغِي بِإِلَاءِ أُنْ سَامِعَهُ
إِذَا مَا قَرَأْتُ إِذَا زَلَزَلْتُ بِهَا خَفْتُ أَنْ تَقْرَأَ الْوَاقِعَهُ
وَأُخْشَى بِهَا أَنْ أَقِيمَ الصَّلَاةَ فَتَسْجِدَ حَيْطَانُهَا الرَّكَعَهُ

وأما ابن لؤلؤ الذهبي^(٣٢٠)، فسوء حال بيته لا يتصور، بل يعجز عن وصفه البلغاء، ويوظف في وصفه مصطلحات علم العروض، وكأنه يصف بيتاً من الشعر، فلا عروض له، واستوى فيه القبض والضرب، وهو ليس من بحر الخفيف فكيف جاز فيه التشعيب والإقواء، قاصداً بذلك تصدعه، أما حشراتة فهي البراغيث والبق والذباب، ويخلص إلى أنه ليس ببناء، يقول^(٣٢١):

(الخفيف)

يَا جَمَالَ الْكُتَّابِ بَلْ يَا حَمِيدَ الذُّ ذِكْرٍ حَقًّا وَمَنْ لَهُ الْعِلْيَاءُ
لِي بَيْتٌ صَعْبٌ مُجَارِيَةُ الْفَكَرِ وَمَا أَنْ تَحْمَلَهُ الْبُلْغَاءُ
ظَاهِرُ الْعَيْبِ لَاعْرُوضَ لَهُ وَالضُّضْرِبُ وَالْقَبْضُ فِي ذِرَاهِ سَوَاءُ
لَا أَرَاهُ مِنَ الْخَفِيفِ فَلِمَ ذَا جَازَ فِيهِ التَّشْعِيبُ وَالْإِقْوَاءُ
لِلْبِرَاغِيثِ فِيهِ رَفْصٌ وَلِلْبَقِّ قِي زَمِيرٌ وَلِلذَّبَابِ غِنَاءُ
عَامِلٌ، لَا أَرَاكَ فِيهِ، وَهَذَا كَدَلِيلٌ أَنْ لَيْسَ فِيهِ بِنَاءٌ

^(٣٢٠) يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الذهبي، بدر الدين، من شعراء الدولة الناصرية بدمشق، أبوه أحد المماليك، 607-680 هـ. ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 122/29-131. الكتبي، فوات الوفيات، 672/2-684. الزركلي، الأعلام، 246/8.
^(٣٢١) الغزولي، مطالع البدر في منازل السرور، 639/2.

يُعدّ هذا العصر امتدادًا للعصور التي سبقتة في شيوع الحمامات وكثرتها، إلا أنّها لقيت في هذا العصر اهتمامًا زائدًا، من حيث زيادة الاهتمام ببنائها، وكثرة الزخارف، والخدمات التي يلقاها زائروها، وغير ذلك، وقد أكثر الشعراء من الحديث عنها ووصف متعلقاتها، ولكن وعلى الرغم من ذلك فإن بعضها لم يسلم من نقد بعض الشعراء، فكان لها نصيب لا بأس به من النقد، الذي انصب على وصفها بجهنّم، والعذاب والموت.

فهذا ابن الأعمى يُعدّد معاييب أحد الحمامات التي زارها، فهو موضع للعذاب؛ وذلك لظلمته التي عمّت كلّ نواحيه، وضيق بابه الذي يشبه طاقة السجن، ولقسوة الرجل القائم عليه، واسمه مالك، بل مالك خازن النار أرقّ منه وأرحم، وكلّما شكا الشاعر طول العذاب الذي يلقاه في هذا الحمام، أجابه هذا القيم، جواب خازن النار، وهو أن يخسأ فيه ولا يتكلّم، ولا يجد الشاعر لما رأى من شدّة حرارته، إلا أن يتعوّد من نار جهنّم، يقول ابن الأعمى: (٣٢٢)

(الخفيف)

إِنَّ حَمَامَنَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ قَدْ أَنَاخَ الْعَذَابُ فِيهِ وَخَيَّمَ
مِظْلَمُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالنَّوْاحِي كُلُّ عَيْبٍ مِنْ عَيْنِهِ يُتَعَلَّمُ
حَرَجٌ بِأَبِهِ كِطَاقَةَ سَجْنٍ شَهِدَ اللَّهُ مَنْ يَجْزُ فِيهِ يَنْدَمُ
وَلَهُ مَالِكٌ غَدَا خَازِنَ النَّارِ، بَلَى مَالِكٌ أَرْقٌ وَأَرْحَمُ
كَلَّمَا قُلْتُ: قَدْ أَطَلَّتْ عَذَابِي قَالَ لِي: اخْسَأْ فِيهِ وَلَا تَتَكَلَّمُ
قُلْتُ لَمَّا رَأَيْتُهُ يَنْتَلِظِي رَبَّنَا اصْرَفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ

وفي مثل هذا يقول ابن نباته، وقد دعاه صديق لحمامه، فأوقعه في عذابٍ أليم؛ وذلك

لقلة مائه، وشدّة حرارته (٣٢٣)؛

(المتقارب)

دَعَانِي صَدِيقٌ لِحَمَامِهِ فَأَوْقَعَنِي فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ
فَشَرٌّ مَزِيدٌ، وَمَاءٌ قَلِيلٌ فَبئَسَ الصَّدِيقُ وَبئَسَ الْحَمِيمِ

ويقول صفي الدين الحلبي في حمام أحدهم، بأنّه ضمّ الحرارة الشديدة والموت، ولا يُقال فيه إلا ما يُقال في جهنم من أنّه ساء مُستقرًّا ومُقَامًا (٣٢٤):

(٣٢٢) الكتبي، فوات الوفيات، 145/2.

(٣٢٣) ابن نباته، الديوان، ص 479.

(مجزوء الرمل)

إِنْ حَمَامَكَ قَدْ ضَمَّ مَتَّ حَمِيمًا وَحَمَامًا
فَهِيَ مِثْلُ النَّارِ سَاعَتْ مُسْتَقْرًا وَمُقَامًا

٣ السوق

أمّا السوق فاخترت لها قصيدتين، هما لوصف حال السوق ومظاهر الحياة فيها، في ذلك العصر، أقرب منهما إلى نقدها، وإن كانت الفكرة التي دارت القصيدتان حولها هي ما يلقاه المارّ في السوق من معوقات وأذى تجعل المجازفة بعبورها لزيارة صديق، أمانة على حبه والوفاء له. لذا وجدنا الشاعرين يوجهانهما لأخلائهما، مبديين الحبّ والوفاء والإخلاص، الذي اضطرهما لاجتياز المخاطر في سبيل زيارتهم، فهذا تاج الدين الموصلّي الدمشقي الذهبي^(٣٢٥)، يعفي صديقه من زيارته، ويكف نفسه بالسعي إليه، والمثول بين يديه، ولم تمنعه من زيارته لا وعورة أرض ولا سهولتها، ولو كانت داره في نجد، يقول: (٣٢٦)

(الخفيف)

سَيْدِي مِنْ زِيَارَتِي أَنْتَ مُعْفَى وَعَلَيْنَا مَزَارِكُمْ وَالْمَثُولُ
أَنَا أَسْعَى إِلَيْكَ سَعْيَ مَحَبٍّ وَمَحَقٌّ بِفَعْلِهِ مَا يَقُولُ
لَوْ غَدْتُ دَارَكُمْ بِـ "تَجِدِّ" أَتَيْنَا لَمْ تَرَعْنَا حَزُونُهَا وَالسَّهْوُلُ

ويأخذ في تعداد مظاهر السوق، وأولها عربات تجرّها خيول جفول، تحمل صخوراً كبيرة، ورجال يحملون ذبائح تسيل دما، وآخرون يحملون مكاتل (قفاف) ملئن بأوساخ الجزارة والمسالخ، وكلاب قادمة من هذه المسالخ منتفضة غيظاً، وقد رابه محتسب يجلس على سرير تتحاشاه الأنظار، يقول:

(الخفيف)

وَالصَّخُورُ الْكِبَارُ بِالْعَجَلِ الْعَا جِلِّ وَالخَيْلُ إِذْ تَرَاهَا جُفُولُ
وَرِجَالٌ يَحْمِلْنَ مَا سَلَخَ الْجَزْ زَارُ، مِنْهُ الدَّمَاءُ سَحًّا تَسِيلُ

(٣٢٤) صفي الدين الحلي، الديوان، ص527.

(٣٢٥) هو مظفر بن محاسن بن علي، تاج الدين الموصلّي الأصل، الدمشقي المولد، الذهبي، (ت 686هـ)، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 519/2؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 145/5؛ الزركلي، الأعلام، 322/7.

(٣٢٦) الكتبي، م.س، 522/2.

(٣٢٧) الكتبي، م.س، 522/2.

وَمَكَالٍ مُلْنِنٍ مِنْ وَسَخِ الْمَسَا لِحِ مَا لِلدَّوَابِّ مِنْهُ حُمُولُ
وَبِقَلْبِي إِذَا الْكَلَابُ مِنَ الْمَسَا لِحِ وَأَقِينِ وَانْتَفِضْنَ غَلِيلُ
وَلَكَمْ رَابِنِي وَعَيْدُ سَرِيرٍ مِنْ جَرِيدٍ بِهِ النَّوَظِرُ حُمُولُ

أما ما تعرّض له من أذى، فالقوَالُ تسبب في قدّ قميصه، والسقّا الذي يرش السوق بلّ ذيل ثوبه، وحامل نبال جرح كتفه في الزحام، وحمير التراس تصدمه وهو غافل، ويتزاحم النَّاسُ على المزكّشين، وجمال الجند التي تحمل الحطب يسوقها أعجام جهلة، أما الشوّارون وباعة الزيت، فإن تلطخت الثياب بدهنهم أو زيوتهم فلن ينظفها غسّال، وهناك أنكاد آخر لو تناولها بليغ لطال شرحها. يقول: (٣٢٨)

(الخفيف)

(٣٢٩)

وقميصي من قطع بنتكة الفو وال، شلت يمينه، مشلول
ثم سقا يرش بالقربة السو ق سريعاً، ذيلي به مبلول
وزحام والجرح في كتف، المذ بل يجري ونصله مسلول

(٣٣٠)

وحمير التراس إذ زجروها حيث أنا عن صدمهن غفول
ودفوف المزكّشين للناس عليهم تزاحم ودخول (٣٣١)

وجمال الأجناد إذ تجلب الأحد طاب والسيروان فدم جهول (٣٣٢)
وطبالي الشواء م بطّة الزيت يات لم يثق طبعا الغاسول
ولو انّ البليغ يستوعب الأند كاد فيها لكان شرحاً يطول

فأجابه الحكيم شمس الدين بن دانيال، بقصيدة ابتدأها بما بدأ به الذهبي، مخاطباً

صديقيه، بأنه لا يصدّه عن زيارتهما قطعه لهذه السوق وما فيها من أهوال، يقول: (٣٣٣)

(٣٢٨) الكتبي، فوات الوفيات، 522/2.

(٣٢٩) نتكة: الجذب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نتك.

(٣٣٠) التراس: صانع الترس، أو صاحبه وحامله، ينظر: ابن منظور، م.ن، مادة ترس.

(٣٣١) زكلش: هو من ينشد الزكالشن، وهو نوع من الشعر الشعبي المسمى الكان وكان، ينظر: ابن طافر الأزدي ، بدائع البدانه ،

ص133.

(٣٣٢) القدم: العبي عن الحجة والكلام، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة قدم.

(٣٣٣) الكتبي، م.س، 522/2.

(الخفيف)

يا خليلي أنتما المأمولُ ومنائي من الوري والسَّوْلُ
بكما راقتَ الفضائلُ وانسا غتْ بطيبٍ كما تُساعُ الشَّمُولُ (٣٣٤)
عجباً منكما صديقين صدقاً لكما عن مزارِ كلِّ عُدولُ
لا يُصدُّ الخليلُ عن زورةِ الخُدْلِ إذا ما أتاه أمرٌ مهُولُ

ثم يفصل في أنكادها، فالنَّاس فيها متزاحمون، والحمير تحمل البلاط والجبس وتزاحم النَّاس، وحمائر يحمل القمامة فيتعثّر بها فتنتشر رائحتها المؤذية، وغبار النَّحَات والطرق يجعل دمع الشاعر منسكباً، ويتعثّر في قَبَان وِرَّان عجمي جهول، أما صانع السيوف الذي ينادي وسيفه مسلول فقد أُرهبه، وأما قدر الشرائحي، فسخامه لا يزول عن ثياب الشاعر، وكذلك سخام زمراق خُرَج به مطبخ السلطان، يقول: (٣٣٥)

(الخفيف)

لا ولا زحمةُ الخلائقِ في الأسواقِ كلُّ عليه جهلاً يميلُ
وحميرُ البلاطِ والجبسِ بالزَّبْلِ أمامي والريحُ ريحٌ قَبُولُ
وغبارُ النَّحَاتِ والسُّبُلِ المُنْدَى ودمني إذ قابَلتني همولُ (٣٣٦)
ولكم قد وقعتُ من طعنةِ القَبْ بَانَ حيثُ الوِرَّانُ فدَمَّ جهولُ
ومنادي السيوفِ أُرهبه حيثُ ينادي وسيفه مسلولُ
ولقدِرِ الشرائحيِّ سُخامٌ في ثيابي بالغسلِ لا يستحيلُ (٣٣٧)
وكذاك الزَّمراقُ من مطبخِ السلطانِ يجري بها الغلامُ العجولُ

ويعتلّ الشاعر من لمس المجذومين والبرص في الزحام، والمياه تتساقط على رأسه من الدور المحاذية للسوق، لا يدري أبول هي أم لا، وفتاة تلقي سلحة لطفلها المسهول، فتلطح رأسه، فيبدو كأنه يلبس عمامة ذمي صفراء، وخلفه حمار مُطْرَمَدٌ متعجل لو أصاب ظهره لقتله، ومجرى

(٣٣٤) الشمول: ربح الشمال، ينظر: ابن منظور، م.س، مادة شمل.

(٣٣٥) الكتبي، فوات الوفيات، 522/2.

(٣٣٦) المنكى: ذات الغبار، المقشور وجهها، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نكأ.

(٣٣٧) الشرائحي: طباخ في الأسواق، ينظر: قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ص137.

لماء الحمام ضاق ففاضت مياهه، والحجارة تتساقط من بنايات مهدّمة أصابت ذراعه، ورجال
يعتلون أثقالاً يزاحمون، ورجل يذبح الدجاج ويرميها في الطريق، فتسيح دماؤه، ورجل مجرّس
يدار به مقبلاً ومدبراً، أما الضرير فقد آذى كعبي الشاعر بعصاه، والطين العالق بها لطّخ ذيل
ثوبه، يقول: (٣٣٨)

(الخفيف)

وزحامُ المجدّمين مع البُر صِ بقلبي من لمسهنّ عليّ
ووقوعُ المياه من دارِ قومٍ فوقَ رأسي بالوه أو لم يبولوا
ولكمّ سلحةٍ من الطاقِ ترميها فتاةٌ إذ طفّلها مسهولُ
وحمارٌ مُطرْمِدٌ عَجِلُ إنْ نالَ ظهري إنّي إذن لقتيلُ (٣٣٩)
وسرابُ الحمامِ يحفرُ إذ ضاقَ ففيضُ المياهِ منه تسيلُ
وسقوطُ الأحجارِ من كلِّ هدمٍ وذراعي من وقعها مشلولُ
ورجالٌ قد زاحموني بأثقالٍ لهم عندَ عثّلها ترتيلُ
والذي يذبحُ الدجاجَ ويرميهُ هُنَّ والدمُ سائحٌ مطلولُ
وارتياعي إذا المجرّسُ وافى مقبلاً مدبراً به تكيّلُ
وعصاةُ الضريرِ تجرّحُ كعبيّ يَ وذيلي بطينها مبلولُ

وهكذا تكشف لنا هاتان القصيدتان، جانباً مهماً من الحياة في ذلك العصر، هي الحياة
في الأسواق، التي لم تكن على قدر كبير من التنظيم، فصورة الزحام التي استعرضها الشاعران
تشبه بضيق الطرق في هذه الأسواق، وبعض المظاهر التي تحدث عنها ابن دانيال تكشف قلة
المرافق، وبخاصة فيما يتعلق بالنظافة. وعلى أية حال فإنها مظاهر غير مستهجنة، قد تلقى
بعضها في أسواقنا اليوم، رغم التقدم المدني في هذا العصر.

(٣٣٨) الكتبي، فوات الوفيات، 522/2-523.

(٣٣٩) مُطرْمِدٌ: طرمذ؛ صَلَفٌ: له كلام وليس له فعل، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: طرمذ.

تعرّض بعض الشعراء لذم بعض المدن والبلدان، لا لذاتها بل لأمر أنف منها هؤلاء الشعراء، ومواقف ساءتهم من أهلها، أو حكامها، أو أويئة حلّت بها، أو غير ذلك، من هذا قول الطّوفي^(٣٤٠) في ذم دمشق، لأخلاق أهلها، وفساد هوائها ومائها، وزعورة أرضها، يقول^(٣٤١):

(الكامل)

قومٌ إذا دخلَ الغريبُ بأرضِهِم أضحى يفكّرُ في بلادِ مُقام
بثقالَةِ الأخلاقِ منهم والهوى والماءِ وهي عناصرُ الأجسام
وَزَعورَةَ الأَرْضينَ، فامننْ قَعْ ونم نومَ البعيرِ لعاجِلِ تمتامِ^(٣٤٢)
بجوارِ قاسيَونَ هم، وكأنّهم من جرمِهِ خُلِقوا بغيرِ خصامِ

وفي مصر يقول علي بن مراحل الحموي^(٣٤٣)، ذاماً أهلها، إذ طال به فيها المقام على ملق وحاجة، فلم يجد فيها من يرجّيه لنوال، أو يلقاه بوجهٍ طلق^(٣٤٤):

(البسيط)

أقولُ في مصرَ إذ طالَ المقامُ بها وساءَ من ملقٍ ملقي على حَلقي^(٣٤٥)
هلَ فيكمُ من يُرجّي للنوالِ ومنْ يلقى لوفدٍ بوجهٍ ضاحكٍ طَلقِ
فقبلَ ذلكَ مما ليس نعرفُهُ وإنّما سُفنُنا تجري على الملقِ

ويقول إبراهيم المعمار في باب زويلة^(٣٤٦)، متهماً بابها بالسفه وشرب الخمر، وسفك

الدماء، والسرقة، وهو إن لم يقصد ببابها الحاكم، فالمقصود أهلها^(٣٤٧):

^(٣٤٠) هو سليمان بن عبد القوي بن الصفي المعروف بابن أبي عباس الحنبلي، والمعروف أيضاً بالطوفي، مات في الخليل 716هـ، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 249/2-252؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 186/6-187؛ الزركلي، الأعلام، 127/3-128.

^(٣٤١) العسقلاني، م.س، 250/2.

^(٣٤٢) زعورة: قلة النبات، والتمتام: الذي لا يفصح في الكلام، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادتي زعر وتمم.

^(٣٤٣) ابن مراحل الحموي: علاء الدين علي بن عبد الرحيم الحموي، (ت 703هـ)، كان أديباً فاضلاً، كثير التقلّب في البلاد، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 153/21-154؛ العسقلاني، م.س، 131/3.

^(٣٤٤) العسقلاني، م.س، 131/3.

^(٣٤٥) الملق: الإفتقار والضعف، والملق: المرور في الأرض، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة ملق.

(السريع)

زويلةً بابك هذا سفيه يشرب ماء الخمر جهراً بفيه
ولم يزل يألف سفك الدما وكل ما يقطع الشرع فيه
ويقول فيها أيضاً، محذراً الماز بها من طعامها، ويقصد وباء حلّ بها^(٣٤٨):

(الكامل)

حاذر زويلة إن مررت ببابها وطعامها كن آيساً من خيره
يتوسط القتلى، يقول به انظروا من لم يمت بالسيف مات بغيره

ويقول تاج الدين اليميني^(٣٤٩) في مدينة عدن، أنّ من أقام بها فكأنما أقام بجهنم، إذ خلت
من كلّ فاضل، وأعيانها كأنهم أعجاز نخل خاوية، لا فائدة تُرجى منهم^(٣٥٠):

(الكامل)

عدن إذا رمت المقام بأرضها فلقد أقت على لهيب الهاويه
بلد خلا عن فاضل وصدوره أعجاز نخل إذ تراها خاويه

ويقول التلعفري^(٣٥١) في مصر، داعياً عليها ألا تُسقى غيثاً، إذ دخلها فرحاً مسروراً،
وخرج منها حزينا مغموماً^(٣٥٢):

(دوبيت)

مالي ولمصر لا سقاها ربي غيثاً عدفاً من ساريات السحب
بالروح دخلتها وبالقلب فلا بالروح خرجت لا ولا بالقلب

^(٣٤٦) باب زويلة، أحد أبواب القاهرة، بناه أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، وزير الخليفة المستنصر بالله، عام 485هـ، ينظر: المقريزي، الخطط، 380/1.

^(٣٤٧) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، 26/1.

^(٣٤٨) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، 26/1.

^(٣٤٩) هو تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد، المخزومي المكي، (ت 743 هـ)، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 598/1؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 423-425؛ الزركلي، الأعلام، 272/3.

^(٣٥٠) الكتبي، م.س، 599/1.

^(٣٥١) هو محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة، الشاعر شهاب الدين الشيباني، التلعفري، (ت 675هـ)، كان شاعراً خليعاً، ينظر: الكتبي، م.س، 455/2؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 494/5؛ الزركلي، م.س، 151/7.

^(٣٥٢) الكتبي، م.س، 462/2.

ويقول ابن الوردي في حلب وقد أصابها الطاعون، فأصبح المصاب يبصق دمًا، ثم يموت من فوره، فغدت هذه المدينة في نظر الشاعر حيّة سوء^(٣٥٣):

(مجزوء الرمل)

حَلْبٌ - واللّهُ يَكْفِي شَرَّهَا - أَرْضٌ مَشَقَّةٌ
أصبحتُ حيّةً سوءٍ تقتلُ النَّاسَ ببيزقهِ

ويقول صلاح الدين الصفدي في دمشق، وقد نُحِلَّ جسمه بعد دخولها، بأنَّ أيسر ما يمرّ به الغريب فيها الموت^(٣٥٤)!

(الوافر)

دخولُ دمشقَ يكسبنا نحولاً كأن لها دُخولاً في البرايا
إذا اعتادَ الغريبُ الخوضَ فيها فأيسرُ ما يمرُّ به المنايا
وفي حلب، وقد ارتفع فيها اليهود، يقول عبد الله بن أبي السفاح الحلبي، كاتب الإنشاء بحلب إنّه لن يدخلها ما دام لليهود فيها رفعة وعزة^(٣٥٥)!

(الطويل)

أَرْضِي حَمَى الشهباءِ داراً وقد علتُ عليها لأبناءِ اليهودِ سناجقُ
فإنَّ نكستَ أعلامهم أنا راجعٌ إليها، وإلاّ فهي منّي طالقُ

ونستطيع أن نقول، من خلال هذه المقطوعات، إنّ أغلب ما وجّه للمدن والبلاد من نقد كان لأسباب تتعلق بأهلها أو لمرض حلّ بها، فمصر لا يرحى من أهلها نوال، وباب زويلة تقترف فيه المعاصي، وعدن لا فاضل فيها، وحلب حلّ بها الطاعون أو صار لليهود فيها شأن، ودمشق يصاب الغريب فيها بالنحول، وهكذا لم تسلم هذه المدن من سهام النقد التي براها شعراء هذا العصر، ورموا بها كلّ شيء لم يرضوه.

^(٣٥٣) ابن الوردي، الديوان، ص 91.

^(٣٥٤) ابن كثير، البداية والنهاية، 555/9.

^(٣٥٥) العسقلاني، الدرر الكامنة، 417/2.

ومما سبق يتضح أنّ شعر نقد العمران كان وافراً، وإنّ الشعراء اهتموا بنقد أربعة مظاهر أساسية، هي الأوثق علاقة بحياة الإنسان، وأنّ هذا النقد انطلق من البيوت، وانتهى بالمدن، ولاحظت أنّ نقد هذه المظاهر العمرانية اتسم بسمات خاصة بكل مظهر، فنقد البيوت عكس حالة عمرانية ظهرت في ظل ظروف من الفقر والعوز، وإن كان لا يخلو من المبالغة، وبدا محاولة من الشاعر لإظهار قدرته في وصف هذه الحشرات. وما قيل في الحمّات عكس صورتها العمرانية، وأمزجة مرتاديتها وانطباعاتهم، وهي دائرة أوسع من البيت في حياة النّاس، أمّا الدائرة الأوسع من هذه وتلك، فهي الأسواق، التي وصف الشعر الحياة فيها والجانب العمراني وصفاً دقيقاً، وسجّل حركة الحياة فيها تسجيلاً حياً ومباشراً، أمّا المدن فلم نر في دواعي ذمّها وذمّ أهلها جديداً، وإنما هي انطباعات للشعراء؛ لدواعي طارئة ربما شهدتها في أعصر من قبل ومن بعد.

سابعًا- شعر نقد متعلقات الإنسان

يحتاج الإنسان في حياته الخاصة والعامة أشياء كثيرة، منها: اللباس، والمراكب، والطعام، ويتعرض في أحيان كثيرة للمرض، مما يجعله في حاجة للطب والأطباء. وقد انتقد عدد من الشعراء بعض تلك الأشياء، وقد درستها على النحو الآتي:

١ اللباس

اشترى ابن دانيال جبّة فوجد فيها من العيوب ما جَوّز له ردّها، فأرفقها بقصيدة، عدّد فيها عيوبها، فهي مخزّقة بالية من دقّ القصّار، فكأنها قطعة قماش أو غيرها مما يعد لإشعال النّار من الزناد، ولو مسّها على حالها هذه حر الشفق أو هبّة ريح السّموم لاحتقرت، بل يكاد العرق يحللها فكأنها الورق، يقول: (٣٥٦)

(مشطور الرّجز)

رَدَدْتُهَا ذَاتَ احْتِرَاقٍ فِي الْخِرْقِ
كَأَنَّهَا الْحَرَّاقُ إِذْ صَارَتْ حُرْقٌ (٣٥٧)
لَابِسُهَا لَوْ مَسَّهُ حَرُّ الشَّفَقِ
أَوْ لَفَحَةٌ مِنَ السَّمُومِ لَاحْتِرَقُ
كَأَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْوَرَقِ
يَكَادُ أَنْ يَحُلُّهَا مَاءُ الْعَرَقِ

أما لونها فشديد الصفرة، فهو حين يلبسها وقت الغسق تحسبه جماعة من الجراد واقعة على طبق طعام، وهي لا تحميه أيضاً من أدنى برد، كبرد قبيل الشفق، واعتلقت بها العنكبوت، ولو ادعت نسجها لصدّقها الشاعر، يقول: (٣٥٨)

(٣٥٦) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 179.

(٣٥٧) الحرّاق: ما تقع فيه النار عند القدح. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حرق.

(٣٥٨) الصفي، م.س، ص 179.

(مشطور الرّجز)

فلو رأيتها عليّ في العسّق
لقلت هذا طبّق فيه طبّق^(٣٥٩)
فبرّذها تحسبه بين الشّفق
من القبور الدائرات مُسترقّ
جاذبّيها العنكبوتُ واعتلق
لو ادعاها نسجه قلت صدق

وأما ريحها، ففيه تحكي بيت الخلاء، وزيادة على هذا أنه لما رآه النَّاس يلبسها حدّقوا
فيه، وراحوا يبصقون تقزّزاً، يقول: (٣٦٠)

(مشطور الرّجز)

يحكي الكنيف ريحها لمن نشق
لبسئها والنّاس ترنو بالحدق
فما رأني أحدٌ إلا بصق

ويختم بطلب ردّ الثمن، وإلا مات غيظاً، يقول (٣٦١)!

(مشطور الرّجز)

فاردد عليّ فضّتي البيض اليقّق^(٣٦٢)
كيلا أموت هالكاً من الحنق
واعتق فتى يراك خير من عتق

(٣٥٩) طبّق: جماعة من الجراد. ينظر: ابن منظور، م س، مادة طبّق.

(٣٦٠) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 179.

(٣٦١) الصفدي، م ن، ص 179.

(٣٦٢) اليقّق: شديد البياض، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة يقق.

ومراكب النَّاس في ذلك الزمان هي الدَّوابُّ من: حمير، وبغال، وبراذين، وخيول، ولم تسلم من نقد الشعراء، أو تسخيرهم لها في نقد غيرهم، وذلك باستنطاقها لكشف عوار صاحبها أو ظلمه، لذا رأينا أن نجعل الحديث عنها ذا شقين، الأول: نقد هذه الدواب، والثاني: اتخاذها وسيلة نقد.

أ - انتقاد الركوبة

يقول ابن دانيال في حمار حرون له، يركبه فلا تفتر رجلاه عن تمريته، حتى غدا من التعب وكأنه ماش لا راكب^(٣٦٣)؛
(الكامل)

وَلَقَدْ رَكِبْتُ مِنَ الْحَمِيرِ مَكْمَدًا مَكْرًا بَطِيًّا لِلْحِرَانِ مُصَاحِبًا
رَجُلَايَ فِي جَنْبِيهِ مِنْذُ رَكِبْتُهُ لَنْ يَفْتَرَا فَعْدُوْتُ أَمْشِي رَاكِبًا

ويقول مجير الدين بن تميم في جواد له تعب، حتى يكاد من الركض أن ينقطع، ولا يغنر بشبهه (برفعه يديه جميعاً) أحد، فإنه هرم
(البسيط)

تعبت حتى جوادي لا حراك به يكاد من هزه بالركض ينخدم^(٣٦٥)
فلا يغرنك منه شبه غلطاً إن الجواد على علاته هرم

أما ابن نباتة فيقول في بغل له لا يعرف الأكل ولا يقبل إلا على الشرب، حتى غدا قلّة ماء^(٣٦٦)؛
(الخفيف)

لِي بَغْلٌ لَا يَعْرِفُ الْأَكْلَ عِنْدِي غَيْرَ أَنَّ الْمِيَاهِ لِلشَّرْبِ سَهْلَةٌ
لَيْسَ فِي بَطْنِهِ سِوَى الْمَاءِ صِرْفًا إِنَّ بَغْلِي عَلَى الْحَقِيقَةِ قَلَّةٌ

^(٣٦٣) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص256.

^(٣٦٤) مجير الدين بن تميم، الديوان، ص116.

^(٣٦٥) ينخدم: ينقطع، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة خذم.

^(٣٦٦) ابن نباتة، الديوان، ص389.

ويصف ابن دانيال برذوناً له أصابه عمى وعرج، فيسير به وكأنه ينحط من درج، لذا لا يلام هذا البرذون إن رمى الشاعر فمات^(٣٦٧):

(البيسط)

قد كَمَلَ اللهُ برذوني بمنقصةٍ وشأنه بعد ما أعماه بالعرج
أسيرٌ مثلَ أسيرٍ وهو يعرجُ بي كأنه ماشياً ينحطُ من درجٍ
فإن رمانى على ما فيه من عرجٍ فما عليه إذا ما متُّ من حرجٍ

ويقول صفي الدين الحلبي ذاماً فرساً له جفول، يضرب فيها المثل في العضّ والرفس، وإذا ما جفلت في قرى دبرش (اسم موضع) فلا تقبض إلا في جوى فرس (اسم موضع)، وهي تعربد وقت الصباح، وتجفل في المساء من شفق الشمس، إلا أنها لا تجفل عند العليق، وهي بهذه الصفة لا تستحق الطعام، بل لو أنفق عليها حاتم الطائي، على كرمه، فلساً لندم عليه، ولو ركبها عنتر في معركة لقتل، وانهزمت جيوش بني عبس، يقول^(٣٦٨):

(الطويل)

ولي فرسٌ ليست شكوراً، وإنما بها تُضربُ الأمثالُ في العضّ والرفسِ
إذا جفلتُ بي في ضياعِ دبرشٍ فليس لها قبضٌ سوى في جوى فرسٍ
تُعربدُ في وقتِ الصّباحِ من الضّيا وتجفُلُ في الآصالِ من شفقِ
الشمسِ

(٣٦٩)

فيا ليتها، عند العليقِ جفولةٌ كما هي منكارٌ من الحسّ والجسّ
فلو شربتُ بالفلسِ من كفّ حاتمٍ لأصبحَ ندماناً على تلفِ الفلّسِ
ولو برزتُ في جحفلٍ تحتَ عنترٍ لجُدلَ وانفلتُ جيوشُ بني عبسِ

أما ابو الحسين الجزار، فقد رسم صورة ساخرة لحماره؛ إذ عدّه في جماعة الحمير حماراً؛ لكثرة كبواته، وتعثره، وجشعه، وبطنته، وعدم قدرته على حمل البضائع، يقول^(٣٧٠):

^(٣٦٧) الصفيدي، م.س، ص 80.

^(٣٦٨) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص 527-528.

^(٣٦٩) دبرش وجوى فرس: أسماء مواقع لم أعثر لهما على تعريف.

(الكامل)

هذا حمارٌ في الحميرِ حمارٌ في كلِّ خطوِ كَبوَةٍ وعثارُ
قنطارُ تبنٍ في حشاهِ شَعيرةٌ وشَعيرةٌ في ظهره قنطارُ

وينتقد ابن دانيال فرساً له، إذا ما ركبها أخذت تتراجع إلى الوراء، وتدور فيه كالبلبل، وهي تشبه سكاب - وهي فرس لعبيدة بن ربيعة^(٣٧١) - في الشكل لا في المحاسن، وإن كان سكاب لنفاستها لا تعار ولا تباع، فإن هذه لا تباع أو تشتري لسوئها، يقول^(٣٧٢):

(مجزوء الكامل)

فرسٌ تراه إذا سرى للضعفِ يمشي القهقري
يحكي سكابٍ سوى المحاسنِ لا يباع فيشتري
وكأنه الفتالُ يمشي في الطريقِ إلى الورا

ب شكوى الدواب من أصحابها وغيرهم

يقول ابن دانيال على لسان فرس اشتراه من مجلس للحرب، يشكو ما وجده من أذى من مهماز خطاف العمائم، وحرمانه الشعير في مجلس الحرب، ولما صار عند ابن دانيال ظن أنه سيشفق عليه ويرأف بحاله، ولكنه سلط عليه أبناءه يذهبون عليه، فزاد همّه، ولم يلق من يرّجل شعره، فتوجه إلى الأمير راجياً أن يرسم له بقوت، يقول^(٣٧٣):

(الطويل)

بليتُ بخطافِ العمائمِ برْهَةً يُحرقُ بالمهمازِ منه ضلوعي
وأمسيّتُ في حبسِ الولايةِ مُودِعاً تسيلُ على قضمِ الشعيرِ دموعي
وقلتُ لعليّ بالحكيمِ إذا رأى سقامي يداوي عِلّتي وخضوعي
فأمسى عليّقي نهبَ غلمانِ داره فضوعِفَ همّي عنده وقطوعي

^(٣٧٠) الجزار، الديوان، ص15.

^(٣٧١) ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة: سكب.

^(٣٧٢) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص140-141.

^(٣٧٣) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص226.

وورط شعري قلته المسح عنده إلى أن دعا بالحل منه جميعي
وقد جئت قصداً للأمير فإنه سيرسّم لي من فضله بربيعي

ومن مثل هذا، يتخذ تاج الدين بن حنا موت حمار للشاعر السراج الوراق، فرصة لاتهامه بالبخل، وتقريطه بحق هذا الحمار، الذي لم يجد تبناً ولا شعيراً، وألقى بنفسه في البئر من شدة الظمأ، ويقول مستهزئاً، بأن هذه شهادة من الحمار على وافر فضل السراج، وأن القوم الذين يموت حمارهم عطشاً يحقرون في كرمهم حاتم طيء، يقول ابن حنا^(٣٧٤):

(الكامل)

يفديك جحشك إذ مضى متردياً وبتالدٍ يفدى الأديبُ وطارفِ
عدمِ الشعيرِ، فلم يجده ولا رأى تبناً وراح من الظما كالتالفِ
ورأى البويرة غير خافٍ ماؤها فرمى حشاشةً نفسه لمخاوفِ
هذا الشهيد لكم بوافرِ فضلكم هذي المكارمِ لا حمامةً خاطفِ
قومٌ يموت حمارهم عطشاً لقد أزرؤا بحاتم في الزمانِ السالفِ

ومن هذا أيضاً قولُ صفي الدين الحلّي على لسانِ فرسه، حيث طلب منه، لما رأى اصطبل عيسى أن يقف عليه ليكي ذكرى الحبيب والمنزل، المنزل الذي لم يذق به طعم الشعير، وتقععت فيه أضلعه من برد الشتاء، وإذا ما حمحم قال له السؤاس: لا تهلك من الأسى وتجمّل بالصبر، وفي وقت الطعام يعول عليهم، ولكنهم رسم دارس لا يعول عليه، وقد اقتبس الشاعر الشطر الثاني من كل بيت من معلقة امرئ القيس، واستخدمها في رسم هذه الصورة الساخرة رسماً ماهراً، يقول الحلّي

(الطويل)

رأى فرسي اصطبل عيسى فقال لي "قفانك من ذكرى حبيبٍ ومنزل"

^(٣٧٤) الكنتي، فوات الوفيات، 260/2. والشاعر هو محمد بن محمد بن سليم المصري، صاحب تاج الدين ابن صاحب فخر الدين ابن الوزير بهاء الدين بن حنا، (ت 707هـ)، اشتغل في الحديث والأدب ونظم الشعر. ينظر: الكنتي، م.ن، 258/2-259.
^(٣٧٥) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، 510/2-511.

به لم أنقُ طعم الشعير كأنني "بسقط اللوى بين الدخول فحومل"
تُفَعِّعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ أَضَالَعِي "لِما نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ"
إِذَا سَمِعَ السُّوَّاسُ صَوْتَ تَحْمَمِي "يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَمَّلِ"
أَعْوَلُ فِي وَقْتِ الْعُلُوقِ عَلَيْهِم "وَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ"

٣ الطعام

يقول ابن الأعمى في صحن حلوة أهدي إليه، فوجده قليلاً يابساً، لا حلوة فيه ولا طلاوة عليه، بل عليه غشاء يشبه الغشاء الذي يغطي به وجه المولود، وهذه الهدية لا تحسب من الصداقة، بل تحسب من العداوة^(٣٧٦):

(الخفيف)

إِنَّ فِي صَحْنِكَ الْمَسْمَى حَلَاوَةً رَقَّةٌ تُورِثُ الْقُلُوبَ قَسَاوَةً
كَمْ حَفَرْنَا فَلَمْ نَجِدْ غَيْرَ أَرْضِ الصَّدِّ صَحْنٍ يَبْسًا كَمَثَلِ أَرْضِ السَّمَاءِ
لَسْتُ أَدْرِي مِنْ سَكَّرٍ كَانَ أَمْ مِنْ عَسَلٍ حِينَ لَمْ تَشْبَهُ نَدَاوَةً
شِبْهُهُ فِي الْعَيُونِ حِينَ أَنَا وَجْهٌ مَوْلُودَةٌ عَلَيْهِ غِشَاوَةٌ
لَا تَكُنْ تَحْسَبُ الصِّدَاقَةَ هَذَا لَيْسَ هَذَا صِدَاقَةً بَلْ عِدَاوَةٌ

وينتقد ابن نباتة كُنافة أهديت له، وكان مشتاقاً لها، ولكنّه وجدها غير محلّاة، والفسنق فيها غير مقشور، ولا رائحة لها، وبدا عليها سوء الصنع من طي ونشر، وتكلف الشاعر تحليتها، صابراً على الرغم من أنّه مغضب لسوء صنعها، ويختم الشاعر قصيدته بالدعاء لمن أهداها له، أن ينال ما يبتغي وزيادة، يقول: ^(٣٧٧)

(السريع)

يَا سَيِّدِي جَاءَتْكَ فِي صَدْرِهَا كَأَنَّهَا رُوحِي فِي صَدْرِي
كُنافةً بِالْحَلْوِ مَوْعُودَةٌ كَمَا تَقُولُ الْعَسَلُ الْمِصْرِي

^(٣٧٦) الكتبي، فوات الوفيات، 144/2.

^(٣٧٧) ابن نباتة، الديوان، ص 225.

قد خَنَقْتَنِي عِبْرَتِي كاسِمِهَا وبادرتُ من خلفِها تجري
ما خرجَ الفُسْتُقُ من قِشْرِهِ فيها وقد أُخْرِجْتُ من قِشْرِي
ونشرُها من طيبِها لم يَفُحْ فاعجبْ لسوءِ الطيِّ والنَّشْرِ
فهاكْ حُلُوقاً قد تكلفْتُهُ ولا تسَلْ عَنِّي وعنْ صبرِي
كأنَّها الدَّمِيَةُ لَكِنَّهَا لا نفحةَ العَرَفِ ولا القَطْرِ
لا زلتُ في الدَّهْرِ كما تبتغي وفوقَ ما تبغي مِنَ الدَّهْرِ

٤ المرض

انتشرت في هذا العصر كثير من الأوبئة والأمراض، التي حصدت أنفساً لا تعد ولا تحصى، وقد أحصاها قاسم عبده في كتاب "عصر سلاطين المماليك"، وذكر الأعوام التي وقعت فيها، ففي عام 672هـ انتشر في البلاد مرض وبائي كان أكثر ضحاياها من النساء والأطفال، وفي عام 694-695هـ، قضى الوباء على أعداد كبيرة من السكان، أدى إلى خلخلة البناء السكاني في الريف، وفي 716هـ حدث وباء في بلاد الصعيد عقب هبوب ريح سوداء تلاها مطر، وفي عام 748-749هـ كان الفناء الكبير أو الموت الأسود. وفي عام 769هـ انتشر وباء استمر أربعة شهور، بلغ عدد ضحاياها في القاهرة والفسطاط حوالي مائة نفس يومياً، وكذا في عام 776هـ، أما عام 783هـ، فظهر وباء في الإسكندرية ثم عم البلاد، وكان عدد ضحاياها في القاهرة حوالي 300 نسمة في اليوم الواحد^(٣٧٨)، وترك انتشارها آثاراً مؤلمة على المجتمع، فما كان من الشعراء إلا أن رصدوها، وانتقدوها، وخصوصاً وباء عام 748-749هـ، ومن ذلك قول ابن نباتة يناشد طالب العيش أن يرحل بهم عن دمشق، التي رخصت فيها أنفس الناس بهذا الطاعون، حيث يُقتل الإنسان بحبة تظهر في جسمه^(٣٧٩):

(الخفيف)

سِرْ بنا عن دمشق يا طالبَ العيشِ فما في المقامِ للمرءِ رغبة
رُخِصَتْ أنفُسُ الخلائقِ بالطاءِ عونِ فيها فكلُّ نفسٍ بحبِّه

^(٣٧٨) ينظر، قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ص 167-169.

^(٣٧٩) ابن نباتة، الديوان، ص 50.

ويرى ابن حبيب هذا الطاعون رجلاً ظلوماً حسوداً يطوف البلاد شرقاً وغرباً، ويسوق أهلها إلى القبور، يقول: (٣٨٠)

(الخفيف)

إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ يَفْتِكُ فِي الْعَا لَمْ فَتَكَ امْرِئٌ ظَلُومٍ حَسُودٍ
ويطوف البلاد شرقاً وغرباً ويسوق الخُلُوقَ نحو اللُحُودِ

ويعلل ابن الوردي هذا الوباء بانتشار الخطايا والسيئات بين النَّاسِ، يقول (٣٨١):

(مخلع البسيط)

قالوا فسادُ الهَوَاءِ يُرْدِي فَقلتُ يُرْدِي هَوَى الفَسَادِ
كَمْ سَيِّئَاتٍ وَكَمْ خَطَايَا نَادَى عَلَيْكُمْ بِهَا المُنَادِي
ويدعو ابن الوردي على أهل مدينة سيبس (٣٨٢) بهذا المرض لشماتتهم بما حلَّ بالمسلمين،
يقول (٣٨٣):

(الكامل)

سَكَانُ سَيْبَسَ يَسْرَهُمَ مَا سَاعَنَا وَكَذَا العَوَائِدُ مِنْ عَدُوِّ الدِّينِ
اللَّهُ يُنْفِذُهُ إِلَيْهِمْ عَاجِلًا لِيَمِزَّقَ الطَّاعُونََ بِالطَّاعُونَِ

ويبيدي إبراهيم المعمار الأسى على الأحبة الذين فتك بهم الطاعون، حيث بيعت أنفسهم
حبة تظهر في أجسادهم، فيموتون، يقول (٣٨٤):

(مجزوء الرمل)

قَبِحَ الطَّاعُونَُ دَاءً فَفُتِدَتْ فِيهِ الأَحِبَّةُ
بِيعَتِ الأَنْفُسُ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ بِحَبَّةٍ

ويقول مناشداً طالب الموت أن ينتبه، فهذا أوان الموت، إذ أصبح رخيصاً يناله كلُّ من
يَتَمَنَّاهُ (٣٨٥)!

(٣٨٠) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 167/10.

(٣٨١) ابن الوردي، م.س، ص92.

(٣٨٢) سيبس: مدينة في شمال بلاد الشام بين أنطاكية وطرسوس، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 297/3.

(٣٨٣) ابن الوردي، م.س، ص92.

(٣٨٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 168/10.

(السريع)

يا طالبَ الموتِ أفقُ وانتبه هذا أو أن الموتَ ما فاتا
قد رخصَ الموتُ على أهله وماتَ من لا عمرة ماتا

ويخاطب صلاح الدين الصفدي هذا المرض، الذي امتدَّ من غزّة إلى بيروت، بأنَّ ما فعله من إخلاء الشام من أهلها هو من أفعال الطواغيت، يقول^(٣٨٦):

(الكامل)

قد قلتُ للطاعونِ وهو بعزّةٍ قد جالَ من قَطِيا إلى بيروت
أخليتَ أرضَ الشّامِ من سكانِها وأتيتَ يا طاعونُ بالطاغوتِ
ويرى الصفدي هذا المرض منغصًا لحياة النَّاسِ، ومُشتتًا لشملهم، فكثيرٌ من المنازل، أهلها كالشَّمعِ أطفالهم في نفخة واحدة، يقول^(٣٨٧):

(السريع)

قد نغصَ الطاعونُ عيشَ الوري وأذهلَ الوالدَ والوالدةَ
كم منزلٍ كالشَّمعِ سكانُه أطفالهم في نفخةٍ واحدة

ويصف القبور، وتهافت النَّاسِ موتى عليها، فيشبهها بضوء شمعة، والنَّاسِ كالفراش يتهافتون عليها، يقول^(٣٨٨):

(الخفيف)

لا تتقِ بالحياةِ طرفةَ عينٍ في زمانٍ طاعونُه مستطيرُ
فكأنَّ القبورَ شُعلةَ شمعٍ والبرايا لها فراشٌ يطيرُ

هذا في الطاعون كوباء، أما غيره من الأمراض، فنلقى ابن نباتة ليحدثنا عن جريه، الذي شقي به، فكأنَّه بهذا الجرب خلُق من الحصى لا من التراب، يقول^(٣٨٩):

^(٣٨٥) ابن تغري بردي، م.ن، 168/10.

^(٣٨٦) الصفدي، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، ص 17.

^(٣٨٧) الصفدي، م.ن، ص 18-19.

^(٣٨٨) الصفدي، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، ص 19.

^(٣٨٩) ابن نباتة، الديوان، ص 357.

(الخفيف)

آه كم قد شقيتُ من جَرَبِ الجسمِ، وكم ذا حالي به مفروقُ

خُلِقَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ تَرَابٍ وَكَأَنِّي مِنَ الْحَصَى مَخْلُوقُ

ويقول مُشَبِّهًا هذا الحَبَّ في جسمه بتطريز الثوب، وشاكياً لنباته هذا الأذى، وراجياً

الرحمة والشفاء من الله تعالى^(٣٩٠)؛

(السريع)

رأت بناتي حبَّ جسمي الذي من طُرزِهِ عِنْدِي أَدَى مَوْلَمُ

فقلت: ما تطريزُ هذا الأذى فقلن: هذا الخلطُ و البلغمُ

يا ربُّ رُحْمَاكَ فَمِنْكَ الشِّفَا مِنْ كُلِّ مَا يَخْفَى وَمَا يُعْلَمُ

ويقول الجزائر مخاطباً شيخاً جرب وادّهن بالكبريت، وجلس قريباً من النَّارِ، يحذّره من

الاقتراب منها^(٣٩١)؛

(الخفيف)

أَيُّهَا الشَّيْخُ دَعُوهُ مِنْ مَحَبِّ وَخَلِيلِ خَالٍ مِنَ التَّنَكُّيْتِ

أنت شيخٌ وقد قُرَيْتَ مِنَ النَّارِ فَكَيْفَ أَدَّهَنْتَ بِالْكَبْرِيتِ

ويعاني ابن نباتة من صنان يخرج من إبطه، فيتوارى بسببه من النَّاسِ، فيبدو كأنه لصٌّ

يتخفى، حاملاً ما سرق تحت إبطه، يقول^(٣٩٢):

(الخفيف)

لِي صِنَانٌ أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا أَوَارِي إِبْطِي بِهِ وَأُعْطِي

فَكَأَنِّي فِي النَّاسِ لَصٌّ مُرِيبٌ أَتَخْفَى وَعَمَلْتِي تَحْتَ إِبْطِي

وفي مثل هذا يقول ابن الوردي في صديق له صنان من إبطيه، شاب له قرنا زوجته،

حتى قالت: زوجي تأبّط شراً^(٣٩٣)؛

(الخفيف)

لِي صَدِيقٌ صِنَانٌ إِبْطِيهِ صَعْبٌ عَمَلَةٌ تَحْتَ إِبْطِهِ حَيْثُ مَرَّ

^(٣٩٠) ابن نباتة، م.ن، ص474.

^(٣٩١) الجزائر، الديوان، ص31.

^(٣٩٢) ابن نباتة، الديوان، ص287.

^(٣٩٣) ابن الوردي، الديوان، ص409.

عَرَسُهُ مِنْ صَنَانِهِ شَابَ قَرْنَا هَا فَقَالَتْ: بَعْلِي تَأْبَطُ شَرًّا

٥ الطب والأطباء

ويقودنا الحديث عن المرض إلى رحاب الطبِّ والأطباء، لنجدَ له نصيباً من شعر النَّقْدِ المجتمعي، وقد جاء ما قاله الشعراء فيه في نتف، يقول ابن دانيال الحكيم، وكان كحَّالاً، أي طبيب عيون، في طبيب يكتى بابتن أبي صادق، فيرميه بالجهل والزيغ، وأن تصانيفه في مضمار الطب ما هي إلا إساءة للطب وصفح له بخفي حنين. يقول^(٣٩٤):

(السريع)

إِيَّاكَ طَبَّ ابْنِ أَبِي صَادِقٍ فَإِنَّهُ فِي الطَّبِّ زَوْرٌ وَمَيِّنٌ
وَانظُرْ تَجْدُهُ فِي تَصَانِيفِهِ قَدْ صَفَعَ الطَّبَّ بِخَفِي حَنِينٌ

ويسخر ابن دانيال من طبيب آخر اسمه أبو علي، يعالج العيون فيضرها، فيعدُّ ابن دانيال تضييعه ألف عين كل يوم سماحة وجوداً بسطت به يداه، يقول^(٣٩٥):

(الوافر)

يَقُولُونَ الطَّبِيبُ أَبُو عَلِيٍّ بِيذْلِ الْجُودِ مَبْسُوطِ الْيَدَيْنِ
فَقُلْتُ عَلِمْتُ ذَلِكَ وَهُوَ سَمَحٌ يُضَيِّعُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ عَيْنٍ

وقال في الموفق الكحال، الذي لم يُوفِّق في مهنته؛ إذ يعالج العيون بالقلع مثل الأسنان^(٣٩٦)!

(الطويل)

طَبِيبٌ غَدَا فِي الْكَحْلِ غَيْرَ مَوْفِقٍ لَهُ حِكْمَةٌ تَجْنِي عَلَى الْعَيْنِ وَالسَّمْعِ
إِذَا أَرْمَدَ وَافَاهُ يَشْكُو تَأَلُّمًا مِنَ الْعَيْنِ دَاوِي الْعَيْنِ كَالضَّرْسِ بِالْقَلْعِ

^(٣٩٤) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص246-247.

^(٣٩٥) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال ، ص246-247.

^(٣٩٦) الصفي، م.ن، ص93.

ويقول مجير الدين بن تميم في كحال، وهو ابن دانيال، ناصحاً الناس أن يدعوه، فإنَّ له
كفاً تسوق إلى الأعين السليمة العمى، فترك سوادها بياضاً^(٣٩٧):

(الطويل)

دَعُوا "الشَّمْسَ" من كُحْلِ العَيونِ فَكُفَّهُ تسوقُ إلى الطَّرْفِ الصَّحيحِ الدَّواهِيا
فكم ذهبُ من ناظرٍ بسوادهِ وخَلَّتْ بياضاً خَلْفَها وماقِيا

ويقول صفي الدين الحلي في طبيب جاهل، يتسبب في موت الأصحاء، ويحمي المرضى
عن الشفاء والصحة، فهو في طبه كالموت يخبط خبط عشواء، من يعالجه يموت، ومن يسلم من
علاجه يعمر إلى أن يهرم^(٣٩٨)!

(الطويل)

أرى فيك يا عيسى الطبيب فضيلةً هي الضدُّ من أفعالِ عيسى بنِ مريم
تُمِيتُ لنا الأحياءَ من غيرِ عِلَّةٍ وتُغني وتُغني باليدين وبالفمِ
وتحمي ولكن عن شفاءٍ وصِحَّةٍ وتحقنُ إلا للحياءِ وللدمِ
فما أنتِ إلا خبطُ عشواءٍ من تُصبِ ثُمتهِ، ومن تخطيءُ يُعمرُ فيهرمِ

٦ البَرْدُ وأحوالُ الجَوِّ

كثيراً ما يضيق الناس ذرعاً بأحوال الجو، من: أمطار، وضباب، وتلوج، وما يصحبها من
برد، وبخاصة إذا ما زادت عن حدّها المألوف، وقد انتقد شعراء هذا العصر بعض الظواهر
الجويّة، التي درستّها على النحو الآتي:

أ - الأمطار

يقول صلاح الدين الصفدي، وقد كثرت الأمطار في دمشق وزادت عن حدّها، فصوّر
دمشق إنساناً يبول على الناس من ميازيب البيوت^(٣٩٩):

(الخفيف)

^(٣٩٧) مجير الدين ابن تميم، الديوان، ص 91.

^(٣٩٨) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 531.

^(٣٩٩) الصفدي، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، ص 234.

أضجرتنا دمشقُ لماً توالَتْ هاطلاتُ السحابِ فيها لدينا
لم نرَ الصحوَ مُدَّةً فلهذا بميازيبها تبولُ علينا

ب - الضباب

ويقول الصفدي في يوم كثير الضباب، حُجبت فيه الشمس، فضاقت به الأنفس^(٤٠٠)؛

(الطويل)

ولم أنسَ يوماً حُجِبَتْ فيه شَمْسُهُ فَأَذَنَ إذ غابت بضيقِ نفوسنا
وسدَّ علينا الجوَّ نَشْرُ ضبابه كأنَّ مثارَ النقعِ فوقَ رؤوسنا

ج - الثلج

ويضيق الصفدي بكثرة الثلوج في دمشق، فكأنَّ السماء من بُغضها لأهل دمشق تبصق في
وجوههم هذا الثلج، يقول^(٤٠١)؛

(السريع)

تبا لها من بلدةٍ لا أرى فيها مقامي واضحِ النهجِ
كأنها في وجهِ سُكَّانِها من بُغْضِهِمْ تَبْصِقُ بالثلجِ

د - البرد

يقول الشاعر الجزار في برد ألجأه إلى أن يحسد المجوس في عبادتهم النار^(٤٠٢):

(الكامل)

واعذُرُ فتى حَسَدَ المجوسَ لبرده في دينهم وهو الحنيفُ المسلمُ
إذْ يَعْبُدُونَ النارَ طُوقَ حياتِهِمْ ومصيرُهُمْ بعدَ المماتِ جهنَّمُ

(٤٠٠) الصفدي، م.ن، ص 234.

(٤٠١) الصفدي، م.ن، ص 249.

(٤٠٢) الجزار، الديوان، ص 71.

ويناشد الجَزَّار بعض من يطمح في نوالهم أن يدركوه بالثياب، فقد اشتدَّ به البرد حتى التهب جوفه من شدة الهَمِّ، وجعلته أطماعه بنوالهم يتوهَّم نفسه لابساً فرى وثياباً، وهو في الواقع عارٍ، حتَّى إنَّه كلَّما ازرقَّ جسده من البرد تخيَّل أنَّه يلبس السنجاب (نوع من الثياب)، يقول^(٤٠٣)؛

(الخفيف)

أدركوني فَبِي من البردِ هَمٌّ ليس يُنسى وفي حَشَايَ التهابُ
ألبستني الأطماعُ وهَمًّا فها جسمي عارٍ ولي فرى وثيابُ
كلَّما ازرقَّ لونُ جسمي من البردِ دِ تخيَّلتُ أنَّه سِنجابُ

ويصوِّر الجَزَّار حالة الفقير في فصل الشتاء، إذ يتلقَّاه هو بغير ثياب، وغيره يتلقَّاه بالفري، وفي الوقت الذي يتمنَّى فيه لباساً من الصوف، أو القطن، تجدُّ غيره لا يرضى بأفخر الألبسة، ويطول عليه نهار الشتاء، فكأنَّه يوم صيام في شهر آب؛ وذلك لشدة معاناته، ولو رآه عدوّه عند المساء ومفاصله ترتعد، وأسنانه تصطك من شدة البرد لرثى لحاله، يقول^(٤٠٤):

(الخفيف)

أتلقَى الشَّتا بجلدي وغيري يتلقَّاه بالفرا السِّنجابِ
وأودُّ المُشاقَّ والقطنَ والصوفَ وغيري لم يرضَ بالعتابي^(٤٠٥)
جُبَّتِي في الأمطارِ جلدي ولبَّاءِ دي ثوبي وبغلتِي قُبَّابِي
ونهارُ الشتاءِ أطولُ عندي من نهارِ الصيامِ في شهرِ آبِ
لو يراني عندَ العُدُوِّ عدوي لَرثَى لي ورقَّ مما يرى بي
إذ يرى سائرَ المفاصلِ منِّي راقصاتٍ إذ صَفَّقَتْ أنيابِي

ويشتد البرد بابين نباتة فيتوجه إلى أحد الأمراء مستغيثاً، في قصيدة بلغت ستة عشر بيتاً، يصف فيها سوء حاله، ويصور هذا البرد سلاحاً بيد كلِّ صبح، يروم به ذبحه، لهذا تراه ينادي

^(٤٠٣) الجَزَّار، م.ن، ص29.

^(٤٠٤) الجَزَّار، م.ن، ص28.

^(٤٠٥) العتابي: نوع من الثياب.

بعبارة "الله أكبر"، وكلما شكاه ازدادت وطأته عليه، فقد ألبسه ثوباً من العذاب، ألوانه زرقة جسمه وبياض هذا الثلج، يقول: (٤٠٦)

(الخفيف)

أيُّها البحرُ نائلاً وعلوماً وبأهلِ الرِّجاءِ، يا أيُّها البرز
والذي كُفُّهُ من الغيْثِ أُنْدَى والذي لفظهُ من الرّوضِ أنضُرُ
ما ترى العبدَ كيفَ أصبحَ ما أسدُ وأُ حالاً وما أذلُّ وأحقَرُ!
كلُّ صبحٍ يرومُ بالبردِ ذبحي فلهذا يقولُ: اللهُ أكبرُ
وَإِذا ما اشتكيتُ بَرْداً كَساني كُسوةً منه، ما أشدَّ وأنكرُ!
زرقةَ الجسمِ وِابيضاضِ ثلوجِ ألبساني ثوبَ العذابِ مُشَهَّرُ

أما مظهر هذا الثلج فهو شيب اعترى وجه الأرض، وأما مخبره فوجع في مفاصله. فهذه السماء ترمي به عبرة وعظة وهو نقمة، رمياً كرجع يدي الغريب الجائع عند الأكل، ويتعجب الشاعر من برده في الجسم، وحرّه وحرقتة في النفس، يقول: (٤٠٧)

(الخفيف)

أيُّ ثلجٍ شابِتٌ به الأرضُ مرأى حينَ شابِتٍ به المفاصلُ مَخْبِرُ
تندِفُ القطنَ عبرةً وهو قطنٌ هكذا يندفُ الغريبُ المقتَرُ
عجباً منه يشتكي جسدي البردَ لديه ومهجتي تشتكي الحر

ويصل الشاعر بهذا الوصف وهذه الشكوى إلى طلب قفةٍ من الفحم، يطرد بحرهما كلب البرد، ويدعو هذا الذي يطلب منه الفحم أن يتعجل، فهو في حالة من الضعف لا تحتمل التأخير، وقد كتب هذه الأبيات وهو في فراشه، حيث حلت به أشياء لا تُذكر، يقول: (٤٠٨)

(الخفيف)

زادَ برداً فلو تولَّعَ بالشعرِ لقلنا الصلاحُ أو هو أشعرُ
لا تقلُ لي أكثرتَ في الحالِ وصفاً فالذي بي من شدةِ الحالِ أكثرُ

(٤٠٦) ابن نباتة، الديوان، ص 235.

(٤٠٧) ابن نباتة، م.ن، ص 235.

(٤٠٨) ابن نباتة، الديوان، ص 235.

فتصدّق وابعثْ بفقّةٍ فحمٍ إنّ فحمي مضى وكبري تغير
هاتها كالشبابِ في العينِ يثني كلبَ البردِ حرّها أن تُسعرَ
وإذا ما الشتا تجمّرَ في القولِ أتاه منها أشدُّ وأجمرُ
وتعجّلُ هذا المرادَ فما يحـ ملُّ حالي الضعيفُ أن يتأخرُ
كتبَ العبدُ خطّه وهو في الفرشِ وما كلُّ ما جرى منه يُذكرُ

والخلاصة أنّ شعراء هذا العصر، تناولوا من الأشياء المتعلقة بحياة الإنسان أهمّها وأكثرها تعلقاً به، من: لباس، ومراكب، وطعام، ومرض، وأحوال الجو، وجاء أكثر شعرهم في نقدها موزعاً بين القصائد والنتف، وقد اكتملت بهذه الأشعار صورة هامّة لحياة المجتمع في ذلك العصر.

الفصل الثالث - شعر النّقد المجتمعي في العصر المملوكي الاول: دراسة فنيّة.

أولاً- شكل القصيدة وبنائها.

ثانياً- اللغة.

ثالثاً- الموسيقى.

رابعاً- الصنعة البديعية.

خامساً- الصورة الشعرية.

سادساً- أسلوب الفكاهة.

أولاً- شكل القصيدة وبنائها

1- شكل القصيدة

جاء شعر النَّقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول على ثلاث صور، هي:
أ - قصائد مستقلة، وكانت متفاوتة في حجمها، وأكثرها طولاً في هذا الجانب قصيدة
للبوصيري في نقد المستخدمين وذمهم، بلغت تسعة وتسعين بيتاً، ومطلعها^(٤٠٩)؛

(الوافر)

تُكَلِّتُ طوائفَ المستخدمينَ فلم أرَ فيهم رجلاً أميناً

ومنها قصيدة صفي الدين الحلي في وصف لصوص سَطوا على بيته ونقدهم، وقد بلغت
خمسة وخمسين بيتاً، ومطلعها^(٤١٠)؛

(الكامل)

خطبُ لسانِ الحالِ فيه أبكمٌ وهوىً طريقُ الحقِّ فيه مظلمٌ

ومن القصائد الطويلة أيضاً، قصيدة لابن الوردي في نقد عبده بهادر، بلغت سبعة
وأربعين بيتاً، مطلعها^(٤١١)؛

(الطويل)

بهادرُ عبدي لا بهاءَ ولا درٌ فما أنا حرٌّ يومِ قولي له: حرٌّ

ومنها قصيدة ابن الوردي في نقد سجّاني الشيخ ابن تيمية، التي يقول في أولها^(٤١٢)؛

(الوافر)

عنا في عرضه قومٌ سلاطٌ لهم من نثرِ جوهره التقاطُ

تقيُّ الدينِ أحمدُ خيرُ حَبِرٍ فُروِقُ المَفصَلاتِ به تخاطُ

وقد بلغت سبعة وعشرين بيتاً.

(٤٠٩) البوصيري، الديوان، ص 463.

(٤١٠) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 66.

(٤١١) ابن الوردي، الديوان، ص 421.

(٤١٢) ابن الوردي، م.ن، ص 266.

وهكذا تكثر القصائد المطولات في هذا الشعر، مثله في ذلك مثل الأغراض الشعرية الأخرى في ذلك العصر.

ب - الشكل الثاني، أن يأتي النّقد المجتمعي في ثنايا قصائد، أنشئت لأغراض أخرى مثل المدح، وقد اشتهر بهذا النوع البوصيري، فمن مثل هذا قصيدته في مدح عز الدين أيبك الفخري، وابنه سيف الدين، بلغت 160 بيتاً، مطلعها^(٤١٣):

(البسيط)

قد خُصَّ بالفضلِ قَطْلِجًا وأَيْدَمُرُ وطابَ منه ومنكَّ الأصلُ والثمرُ

واستغرق مدحه لهذا الأمير، أربعة وستين بيتاً، تعرّض بعدها لنقد الأعراب الذين ثاروا على المماليك في الصعيد، في ثمانية عشر بيتاً، ثم جاء على نقد المستخدمين في ثلاثين بيتاً، جاءت كلّها متتابعة، كأنما هي قطعة منفصلة، وتضمّنت موضوعاً واحداً، ثم عاد إلى مدح الأمير، بذكر أعماله الجليلة في حفظ أموال بيت المسلمين، وامتدح ابنه سيف الدين، وهون من الخلاف بينهما وعلّله، ثم ختمها الشاعر بامتداح شعره.

وهكذا لم تستغرق القضيتان اللتان تناولهما بالنقد إلا أقلّ من ثلث القصيدة، وهذا يعني أن القصيدة أنشئت ابتداءً في المدح، ومقام المدح هذا استدعى ذكر هاتين القضيتين، فتغلب الأمير على الخارجين من عرب الصعيد، جزء من مدحه، ونقد المستخدمين جاء مقدمة لذكر أعماله الجليلة في حفظ أموال بيت مال المسلمين.

وفي قصيدة أخرى أنشأها البوصيري، في مدح الوزير تاج الدين بن حنا، بلغت سبعة وستين بيتاً، جاء فيها على ذكر فقره، ونقد زوجته في تسعة أبيات فقط، أولها قوله:^(٤١٤)

(الخفيف)

مَنْ لَشَيْخِ ذِي عَلَّةٍ وَعِيَالٍ نَقَلْتُ ظَهْرَهُ بِغَيْرِ ظَهِيرِ

ومنها قوله:^(٤١٥)

(٤١٣) البوصيري، الديوان، ص 224-242.

(٤١٤) البوصيري، م.ن، ص 285.

(٤١٥) البوصيري، م.ن، ص 286.

(الخفيف)

وَعَتَّتْ أُمَّهُمْ عَلَيَّ وَلَجَّتْ فِي عُنُقٍ مِنْ كَبْرَتِي وَنُفُورِ

وقد جاءت هذه الأبيات متتابعة، ثمَّ جاء فيها على نقد رفاقه في خمسة أبيات متتابعة أيضاً، أولها قوله: (٤١٦)

(الخفيف)

كُلُّ يَوْمٍ مُنْعَصٍ بِطَعَامٍ أَوْ رَفِيقٍ مُنْعَصٍ بِشُرُورِ

ج - والشكل الثالث من شعر النَّقد المجتمعي جاء في مقطوعات، وهي ليست بالأمر المستحدث في الشعر العربي، فقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ بداية الشعر العربي كانت أبياتاً يقولها الشاعر بين يدي حاجته (٤١٧)، وشيوع مثل هذا الشكل في شعر النَّقد المجتمعي، يردّ أولاً إلى طبيعة النَّقد المجتمعي، الذي لا يقتضي في أغلب الأحيان التفصيل، وربما يؤدي التفصيل فيه إلى فقدان التركيز وجلب الملل، والحدّ من شيوعه. وكثيراً ما يقتضي الموقف النقدي الارتجال، ولا يحتمل الإعداد والتحرير، وعلى أية حال فإن كثرتها تعني شيوع ذوق فنّي، يميل إلى الإيجاز، الذي يختزل فيه المعنى، ومن أشهر الشعراء الذين أكثروا من المقطوعات، مجير الدين ابن تميم، وابن الوردية، والجزّار، وابن دانيال وابن نباتة، وأقلهم حظاً من المقطعات البوصيري.

د - الشكل الرابع من شعر النقد المجتمعي هو النتنف، وهو شكل شائع في هذا اللون من الشعر، والراجح أنّ معظم هذه النتنف مرتجلة، ولا يكاد يخلو منها شعر شاعر في النَّقد المجتمعي، إلا أنّ بعضهم قد أكثر منها، من مثل: ابن الوردية، ومجير الدين بن تميم، وابن نباتة، والجزّار.

وقد أوردتُ كثيراً من هذه النتنف في هذا البحث.

ومما يجدر ذكره أنّه لا يُظنُّ بأنّ هذه النتنف اقتطعت من قصائد؛ وذلك لثبوتها في مصادرها، ولأنّها استوفت المعنى بشكل موجز ومركّز، ولأنّها شكّل متعارف عليه في شعر ذلك العصر بأغراضه كافة.

(٤١٦) البوصيري، الديوان، ص288.

(٤١٧) ينظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 26/1.

2- بناء القصيدة

حرص الشعراء ومعهم النقاد، على الترابط والتسلسل بين أجزاء القصيدة، من مقدمة، وموضوع، وخاتمة، حتى عدّوها من فنون البلاغة، وأطلقوا على هذه الأجزاء حسن الاستهلال، والاستطراد، وحسن التلخيص وحسن الاختتام^(٤١٨).

ومن شواهد هذا في شعر النّقد المجتمعي في ذلك العصر، قصيدة البوصيري في نقد مستخدمي أسوان، التي بلغت تسعة وخمسين بيتاً، فقد استهلها بثلاثة أبيات عبرت عن مضمونها في دقة فائقة، وهيأت قارئها للدخول في التفاصيل، يقول موجهاً الخطاب لأحد الأمراء^(٤١٩):

(البسيط)

انظرُ بحقك في أمرِ الدواوين	فالكلُّ قد غيّرُوا وضعَ القوانين
لم يبقَ شيءٌ على ما كنتَ تعهدهُ	إلا تغيّرَ من عالٍ إلى دون
الكاتبون وليسوا بالكرام فما	منهم على المالِ إنسانٌ بمأمون

ثم يأخذ الشاعر بعد هذه الأبيات في تفصيل خياناتهم وجرائمهم وظلمهم للناس، ثم ينتقل في تلمّظ شديد إلى التفصيل في الوجوه التي ينفقون فيها هذه الأموال، وفي انتقال غير مفاجئ، يتوجه إلى مخاطبة الأمير مرة أخرى فيحرّضه عليهم، وهنا يخصّ مستخدمي الأقباط بالذكر، مع أنهم جزء من المستخدمين الذين تحدث عنهم من قبل، والذي اقتضى إفرادهم بالذكر هو حرص الشاعر على استفزاز الأمير لقتالهم، بإثارة مشاعره الدينية، إذ تحدّث عنهم كنصارى أعداء للدين والمسلمين في المقام الأول.

ثم يحسن الشاعر الختام بأبيات ثلاثة ينفي فيها عن نفسه شبهة الدافع الشخصي لمثل هذا النقد والتشهير بهم والتحريض عليهم، فيقول^(٤٢٠):

(البسيط)

وقال قومٌ: لقد أحصى منالهم	وقامَ فيها بمفروضٍ ومسنونٍ
فقلتُ: والله ما وصفي لأنشرها	فيما يقومُ به شرحي وتبييني
وإنما ذاك مجهودي ومقدرتي	وطاقتي في ججانات الثعابين

(٤١٨) ينظر: العلوي اليمني، الطراز، ص 360، 404، 568.

(٤١٩) البوصيري، الديوان، ص 481.

(٤٢٠) البوصيري، م، ن، ص 487-488.

ومن شواهد هذا أيضاً، قصيدة لابن دانيال ينتقد فيها ما آل إليه من فقر وسوء حال أعجزه عن توفير أضحية لأهل بيته، ويستعطف فيها أحد السلاطين فيبدوها بمدحه، قائلاً^(٤٢١):

(المجتث)

يا من أياديه تهمني	إن ضنَّ غَيْثٌ ووسمي
وسمِّي جودٍ رأى النا	سُ مثله موضعَ اسمي
ويا ملكك البرايا	وابن الملك الجضم
يا غيث يا ليث في حا	لتي نزالٍ وسلم

فبهذه الأبيات الأربعة افتتح قصيدته، وانتقل منها إلى غرضه بالبيتين الآتين:

(المجتث)

العبدُ يهنئُ مقالاً فاصفح وخذه بحلم
واسمع حديثاً ظريفاً واعجب لقلّة قسّمي

ثم أخذ في بيان وتفصيل ما هو عليه من فقر، فاستغرق منه تسعة أبيات. أما الخاتمة، فحتم بثلاثة أبيات، اثنين مدح فيهما الأمير بذكر فضائله عليه، والثالث طالبه فيه بجزيل العطاء، يقول:

(المجتث)

فيا ملكك البرايا ويا دواءً لمدمي
لولاك ضاعَ ثنائي وبارَ نثري ونظمي
فدُمّ جزيلَ العطايا بنائلٍ منك سجم

ومن الشعراء الذين اهتموا بهذا التقليد الفني، صفي الدين الحلبي، ففي قصيدة له بلغت خمسة وخمسين بيتاً، ينتقد فيها تغافل الحاكم عن قضية له، سرق فيها للصوص بيته، وإهماله لإقامة الحدود على مرتكبي الجرائم، يقدم لها بقوله^(٤٢٢):

(الكامل)

(٤٢١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 69-70.

(٤٢٢) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص 69-72.

خطبُ لسانِ الحالِ فيه أبكمُ وهوىَ طريقِ الحقِّ فيه مُظلمُ
وقضيةٌ صمتُ القضاةِ ترفعاً عن فصلِها والخصمُ فيها يحكمُ

فلخص بهذين البيتين مضمون القصيدة، ثم أخذ في وصف تجاهل القضاة لقضيته، وأثر هذا التجاهل والتغافل على نفسه، وبعدها توجه إلى وصف حال الولاة والقضاة في ماردين، وتقصيرهم في معاقبة المفسدين، ثم يتوجه إلى الملك مادحاً ومعاتباً ومنتقداً حالة الضياع وفقدان الأمن، ثم يأخذ الشاعر في الحديث عن الحدود، وأهميتها شرعاً وعقلاً، ويحشد الأدلة من الكتاب والسنة، وسيرة الخلفاء، وأقوال الشعراء إلى أن يصل إلى خطاب هذا الملك^(٤٢٣):

(الكامل)

فافتك بهم فتك الملوك، ولا تلتن فيصح ما قال السواد الأعظم

ويخرج الشاعر من قصيدته هذه بأربعة أبيات، يعتذر فيها عما بدا منه في ثنايا هذه القصيدة مما قد يسيء للملك، ويظهر أسفه على بعده عن هذا الملك لا على المال المنتهب، وبييت في الحكمة: مضمونه أن المال يفنى والذكر يبقى، ويختتم بقوله: والله أعلم بالصواب وأحكم، وهذه مقولة تعرف عن تصدروا للإفتاء ودروس الفقه، يقول:

(٤٢٤)

(الكامل)

واعذُرُ مُحِبًّا لم يسيءْ بقريضه أديباً، ولكن الضرورة تحكم
والله ما أسفي على مالٍ مضى إلا على استلزامٍ بعدي عنكم
فالمال مكتسبٌ على طول المدى والذكر يُجْدُ في البلاد ويْتَهُمُ
هذي العبارة للمحقق عبرة والله أعلم بالصواب وأحكم

وهكذا نسج الشاعر صفي الدين الحلبي قصيدته، نسجاً محكماً، في تسلسل منطقي، حافظ فيه على التقليد الفني أيما محافظة.

ومن الراجح أن هذه النماذج الثلاثة التي عرضنا لها، وهي قصيدة البوصيري، وقصيدة ابن دانيال، وقصيدة صفي الدين الحلبي، ترسم صورة للبناء الفني لقصيدة النقد المجتمعي، تتسحب على سائر الشعراء في قصائدهم مطولة وغير مطولة، ويستثنى من هذا المقطعات.

(٤٢٣) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص72.

(٤٢٤) صفي الدين الحلبي، م.ن، ص72.

ثانياً - اللغة

1- اللغة بين الركاكة والجزالة

تأثرت لغة الشعر في العصر المملوكي الأول بمؤثرات عدة، جعلتها متباينة في مستواها تتردد بين البساطة، التي تغلب عليها في بعض الأحيان العامية، والجزالة، التي تميل إلى المحافظة على التقاليد اللغوية الموروثة، "ويمكن القول بأن لغة الشعر لم تكن لغة واحدة، بل تعددت مستوياتها، فلغة الكتاب أو شعر الكتاب، غير لغة شعر الفقهاء والعلماء، غير لغة الحرفيين والعوام الذين دربوا على النظم سماعاً وتلقيناً لا علماً وتحصيلاً" (٤٢٥).

أ - الركاكة

وهنا لا بدّ من أن نستعرض نماذج لمستويات لغة الشعر المختلفة في جانب النّقد المجتمعي، فمن مستوى الإغراق في البساطة، الذي يصل إلى حدّ الركاكة، قول الشاعر ابن دانيال، وكان كحالا يعيش في أوساط العامة (٤٢٦):

(مخلع البسيط)

أصبحت في الكاتبين فرداً	وأنت كنز لكل راج
لا كشف الله منك راسي	ودمت عزّي ودمت تاجي
مولاي قد ساعني افتقاري	وسرّ حسّادي احتياجي
فالزيت قد قلّ في فتيلي	وكاد أن ينظفي سراجي
وبات فوق التراب أهلي	تلتقط الحب كالدجاج
عساک بالله يا هلالی	تكتب رزقي على الخراج

فتغلب على لغة هذه القصيدة البساطة، التي تناسب أقل الناس معرفةً بالعربية. ويذهب ابن دانيال إلى أبعد من هذا في لغته، حيث يقول (٤٢٧):

(السريع)

كم جهد ما أعوي وأعوي وكم	أصِفُّ المقصوص والطّره
وكم أرى العينين مكحولةً	لمن رُمي بالعين والنظرة
وكم وكم أسهر في خدمة الـ	عشّاق في الليل إلى بكره

(٤٢٥) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 80/3.

(٤٢٦) الصفي المختار من شعر ابن دانيال، ص 122-123.

(٤٢٧) الصفي المختار من شعر ابن دانيال، ص 121.

قد كسدت سوقُ المعاصي فلا شُرِبَ ولا قصفٌ ولا عشره
فقلت يا إبليسُ سافرْ بنا وطوّل الغيبةَ والسّفرة

هذا مثال على الميل إلى البساطة في اللغة، التي كادت تصل إلى مستوى اللغة المحكية، بل استخدمت فيها بعض التراكيب العامية الشعبية، من مثل: رُمي بالعين والنظرة، وأسهر في الليل إلى بكره، وطوّل الغيبة والسّفرة.

ب - الجزالة

أما مستوى الجزالة فهو ملحوظ في شعر كثير من شعراء التّقد المجتمعي في هذا العصر، ولكن أكثر من مال إليه هم من عانوا الفقه وعلوم الدين. فهذا ابن دقيق العيد، وهو فقيه محدث، يقول، وقد نصح بالرحيل الى مصر لينال حظوةً عند السلطان^(٤٢٨):

(الطويل)

يقولون لي هلا نهضت إلى العلا فما لذّ عيشُ الصابر المتقّع
وهلا حدوت العيسَ حتى تحلّها بمصر إلى ظلّ الجنابِ المرفّع
ففيها من الأعيانِ مَنْ فيضُ كفه إذا شاء روى سيئه كلّ بلقع

وهي قصيدة بلغت ثلاثة عشر بيتاً، امتازت ألفاظها بالجزالة، فقد ارتفعت عن البساطة والركاكة، وفي الوقت نفسه ابتعدت عن الوحشية والغرابية.

ومن أمثلة الجزالة أيضاً، قول ابن الوردي^(٤٢٩):

(الوافر)

عنا في عرضه قومٌ سلاطٍ لهم من نثر جواهره التقاطُ
تقي الدين أحمد خير حبرٍ خروقُ المُفصلاتِ به تُخاطُ

وقد بلغت سبعة وعشرين بيتاً، امتازت ألفاظها وتراكيبها بالجزالة، وربما اقتضى الموقف الذي قيلت فيه مثل هذه الجزالة.

ومن مثل هذا قصيدة صفي الدين الحلبي التي أنشأها ينتقد سكوت السلطان عن لصوص سرقوا بيته، وتعطيله لحد السرقة، والتي مطلعها^(٤٣٠):

(الكامل)

خطبُ لسانِ الحالِ فيه أبكمٌ وهوى طريقِ الحقِّ فيه مظلمٌ

(٤٢٨) ينظر: علي صافي حسين، ابن دقيق العيد، حياته وديوانه، ص 179.

(٤٢٩) ابن الوردي، الديوان، ص 266.

(٤٣٠) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص 69.

وقد بلغت القصيدة خمسة وخمسين بيتاً، وكانت لغتها في جزالتها تناسب الموضوع الذي عالجتة، فقد أكسبتها المعاني الشرعية والمواقف التاريخية، والحجج العقلية، تلك الجزالة.

ج - العامية

إنّ شيوخ الألفاظ والتراكيب العامية في بعض أشعار الشعراء، إذا ما جاءت نقفاً غير مستكثر منها، أمر له في بعض الأحيان ما يبرره، فعيش الشاعر في أوساط العامة، أو حرصه على أن يفهم الناس شعره ليشيع فيهم، يدفعه الى استخدام بعض الألفاظ أو التراكيب العامية، وكذلك ميل الشاعر الى أسلوب الفكاهة يقتضي أن يملح شعره ببعض هذه الألفاظ والتراكيب، ليضفي عليه شيئاً من النكتة والفكاهة.

ومن الأمثلة على استخدام التراكيب العامية، قول ابن الوردي في اللحي التي تخلق: "ما بقيت تلحق أن تنبتا" معبراً عن كثرة الاحتفالات بتتصيب الأمراء والنواب وتواليها، يقول (٤٣١):
(السريع)

كم ملك جاءَ وكم نائبٍ يا زينةَ الأسواقِ حتى متى
قد كرّروا الزينةَ حتى اللحي ما بقيت تلحق أن تنبتا

ومنه قوله مستخدماً كلمة "برطل" وهي من العامية (٤٣٢):

(مجزوء الخفيف)

قيل لي برطل الذهب تتولى قضا حلب

ومن هذا القبيل قول البوصيري (٤٣٣):
(البسيط)

وطالما قُطِعَ أذنان الكلاب لهم فاستخدموا بعد تقطيع المصارين

فاستخدم عبارتين "قُطِعَ أذنان الكلاب" و "بعد تقطيع المصارين"، وهما عبارتان تستخدمان في لغة العامة الأولى بمعنى الطرد، والثانية معناها الخوف والحزن.

ومنه قول البوصيري (٤٣٤):
(السريع)

أحدت المولى الحديث الذي جرى لهم بالخيط والإبرة

فاستخدم عبارة "بالخيط والإبرة" كناية عن التفصيل، وهي عبارة عامية.

(٤٣١) ابن الوردي، الديوان، ص 485.

(٤٣٢) ابن الوردي، م، ن، ص 370.

(٤٣٣) البوصيري، الديوان، ص 481.

(٤٣٤) البوصيري، م، ن، ص 221.

2- شيوع المعرب والدخيل في لغة الشعر

عرف هذا الأمر في الشعر القديم، وكان للنقاد منه موقف بيّن، وهو أن لا يستكثر منه، ولا يؤتى به إلا تظرفاً. يقول ابن رشيق: "للشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها،... إلا أن يريد الشاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي مستعملة في الندرة، وعلى سبيل الخطرة، كما فعل الأعشى قديماً، وأبو نواس حديثاً فلا بأس بذلك" (٤٣٥).

وقد شاعت هذه الظاهرة في شعر النّقد المجتمعي في ذلك العصر، وهذا الشيوع اختلف حجمه باختلاف الشعراء وبيئاتهم، ويعود هذا في الأصل إلى تزايد اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، الذي توجّج في ذلك العصر بوصول الترك إلى سدة الحكم في مصر وبلاد الشام، ومن الأمثلة على هذه الظاهرة، قول البوصيري متحدثاً عن ظلم الجباة والمستخدمين، ومخاطباً أحد السلاطين (٤٣٦):

(الوافر)

أَتَطْلُقُ جَامِكِيَّاتٍ لِقَوْمٍ وَتَنْفِقُ فِيَّ قَوْمٍ آخِرِينَا

فلفظة "جامكيات"، تعني رواتب الموظفين، مفردها جامكيّة، وهي من اللغة الفارسية (٤٣٧). وقوله أيضاً (٤٣٨)؛

(البيسط)

وَلِلْمَنَادِيلِ فِي أَوْسَاطٍ مِنْ مَلِكُوا وَلِلْمَنَاطِقِ فِيهَا وَالْهَمَائِينَ

والهمايين جميع هميان، وهو شداد السراويل أو التكة، وهي فارسية أيضاً (٤٣٩).

(الكامل)

وقوله أيضاً (٤٤٠)؛

كَمْ قَلْتُ إِذْ سَمِعَ الْوَلَاةُ كَلَامَهُمْ أَتْرَى الْوَلَايَةَ تَفْسُدُ الْكَيْمُوسَا

والكيموس: الحالة التي يكون عليها الطعام بعد فعل المعدة فيه، وجاءت في البيت كناية عن طبع الإنسان، وهي من اللغة اليونانية (٤٤١).

(المجتث)

ومنه قول ابن دانيال (٤٤٢)؛

(٤٣٥) ابن رشيق، العمدة، 2/24.

(٤٣٦) البوصيري، الديوان، ص 467.

(٤٣٧) ينظر: سعدي ضناوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص 143.

(٤٣٨) البوصيري، م.س، ص 484.

(٤٣٩) ينظر ابن منظور لسان العرب، مادة همى.

(٤٤٠) البوصيري، م.س، ص 301.

(٤٤١) ينظر: المعجم الوسيط، مادة كيم.

(٤٤٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 70.

ترى الحكيمَ حمانا التَّ تَزْفِيرَ دَفْعاً لِسُقْمِ

والتزفير: أكل الزَّرْفَر، وهو اللحم واللبن، وهي سريانية^(٤٤٣).

ومنه قول الجزار^(٤٤٤)؛ (الكامل)

ماذا يضرُّ الخشكنانُ لو أنَّه في العيدِ يخبرني بما في قلبه
والخشكنان نوع من المعجنات كالفطير والبقلاوة^(٤٤٥).

ويقول نجم الدين القحفازي^(٤٤٦)؛ (الرجز)

جاء يُرَجِّي مثلها ثانيةً فانقلب الدّست عليه فانكسر
والدّست، هو الديوان ومجلس الوزارة أو الرئاسة، وهي من الفارسية^(٤٤٧).

ويقول البوصيري^(٤٤٨)؛ (الخفيف)

وعياطٌ تُدوى الدواوين منه لا بمعنى كأنه طنجهرة
وطنجهرة أو طرجهرة، شبه كأس يشرب بها، وهي فارسية^(٤٤٩).

هذه بعض الشواهد على ظاهرة انتشار الألفاظ الأعجمية في شعر النّقد المجتمعي في

ذلك العصر.

(٤٤٣) ينظر، المنجد في اللغة، مادة زفر.

(٤٤٤) الجزار، الديوان، ص 290.

(٤٤٥) ينظر: سعدي ضناوي، المعجم المفصل في المعرب والدخيل، ص 192.

(٤٤٦) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 118/3.

(٤٤٧) ينظر: سعدي ضناوي، م.س، ص 215.

(٤٤٨) البوصيري، الديوان، ص 212.

(٤٤٩) ينظر: سعدي ضناوي، م.س، ص 338.

3- توظيف المصطلحات المتعلقة بالمهن والعلوم

وهي من الظواهر اللافتة في شعر النّقد المجتمعي في ذلك العصر، يقول زغلول سلّام: "وعرفت لغة الشعر مصطلح العلوم المختلفة العربية، كالنحو والعروض، ومصطلح الحديث والفقهاء ويتصل بها أسماء الكتب وكذا مصطلح العلوم الأخرى كالفلك والفلسفة والعلوم الطبية والطبيعية^(٤٥٠)". وقد عاملوها في شعرهم معاملة أشعار الفحول التي ضمّنها أشعارهم، إذ جاءوا بها في سياقات جديدة، وعبروا بها عن دلالات غير دلالاتها الأصلية، وكثير منها ما كان يجري مجرى التورية، يقول زغلول سلّام: "وأجرى الشعراء ألفاظ المصطلحات في سياقات جديدة مع تعديل أو تغيير أو تحويل للدلالة الأصلية حتى تتوافق مع السياقات الجديدة، وقد يجري بعض الشعراء هذه المصطلحات مجرى التورية^(٤٥١)". ومن استخدام مصطلحات علم العروض قول ابن العطار^(٤٥٢):

(الوافر)

بَدَتْ أَجْزَاءَ ابْنِ عَرَامٍ خَلِيلٍ مَقْطَعَةً مِنَ الضَّرْبِ الثَّقِيلِ
وَأَبَدَتْ أَبْحَرَ الشَّعْرِ المَرَاثِيَّ مَحْرَّرَةً بِتَقْطِيعِ الخَلِيلِ

فالألفاظ: أجزاء، ومقطّعة، والضرب الثقيل، وتقطيع الخليل، كلّها مصطلحات عروضية جاءت في سياقات جديدة، أجريت مجرى التورية. ومن مصطلحات النحو، قول ابن دانيال^(٤٥٣):

(الوافر)

وَعَلِمَ النِّحْوِ فِيهِ النِّصْبُ فَنِيَّ عَلَى مَنْ كَانَ ذَا جَاهٍ وَمَالٍ

فالنّصب مصطلح نحويّ وظّفه الشاعر بمعنى الاحتتيال والخداع.

ومن النحو أيضاً، قول شرف الدين الأوسي الحموي واصفاً نفسه عند انقطاع أصحابه وعودته عنه بالاسم الموصول "الذي"^(٤٥٤):

(المتقارب)

فَأَصْبَحْتَ فِي النِّقْصِ مِثْلَ (الذي) وَلَا صِلَةَ لِي وَلَا عَائِدَ

(٤٥٠) محمد زغلول سلّام، الأدب في العصر المملوكي، 3/ 86.

(٤٥١) محمد زغلول سلّام، م.ن، 3/ 86.

(٤٥٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11/ 151.

(٤٥٣) صلاح الدين الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 274.

(٤٥٤) ابن تغري بردي، م.س، 7/ 188.

فالصلة، الجملة التي تتبع الاسم الموصول، والعائد هو الضمير، وقصد الشاعر بها صلة الأقارب والأصحاب وعيادتهم.

ومن المصطلحات البلاغية، قول ابن نباتة^(٤٥٥):

(البسيط)

خَيْرٌ وَخَيْرٌ وَجِبْرٌ بَعْدَمَا نَطَقْتُ فَلِلْمَحَامِدِ تَجْنِيسٌ وَتَصْحِيفٌ

وقصد بالتجنيس والتصحيف وتجنيس خبز وخير وجبر لتحمل دلالات أخرى.

ومن العروض أيضاً، قول بدر الدين يوسف الذهبي في وصف بيته^(٤٥٦):

(الخفيف)

يا جمالَ الكُتَابِ بلِ يا حميدَ الذُّ	ذِكْرٍ حَقًّا وَمِنْ لَهُ العُلياءُ
ليَ بيتٌ صعبٌ مجاريهُ الفك	رٍ وما أن تحمله البلغاءُ
ظاهرُ العيبِ لأعروضٍ له والض	ضْرَبُ والقَبْضُ في ذراه سواءُ
لا أراه من الخفيفِ فلمِ ذا	جَارَ فيه التشعيبُ والإقواءُ

والعروض والضرب والقبض والخفيف والتشعيب والإقواء، مصطلحات عروضية، استخدمت في غير دلالتها الأصلية، وذلك لإظهار عيوب هذا البيت الذي شبّهه ببيت الشعر. ومن مصطلحات الفقه قول ابن دقيق العيد في أحدهم^(٤٥٧):

(السريع)

قالوا: فلانٌ عالمٌ فاضلٌ فأكرموه مثلَ ما يرتضي

فقلت لِمَا لم يكن ذا تُقى تعارضَ المانعِ والمقتضي

فالمانع مصطلح فقهي وهو وصف ظاهر يستلزم وجوده عدم الحكم، والمقتضي مصطلح فقهي أيضاً، وهو السبب الذي يفضي إلى المسبب (العقوبة مثلاً) لولا وجود المانع، ومثاله القتل يقتضي القصاص، ولكن كون المقتول ابن القاتل مانع من القصاص. وفي قول ابن دقيق العيد المعنى أن العلم يقتضي الإكرام، وعدم التقوى تمنعه فتعارضاً^(٤٥٨).

(٤٥٥) ابن نباتة، الديوان، ص 326.

(٤٥٦) الغزولي، مطالع البذور في منازل السرور، 2/ 639.

(٤٥٧) ابن نباتة، م.س، ص 225.

(٤٥٨) ينظر: الشوكاني، إرشاد الفحول إلى علم الأصول، ص 11.

ومن توظيف أسماء العلماء والفلاسفة، قول الأدفوي في الدرس العلمي في ذلك العصر^(٤٥٩):

(الكامل)

وَمُحَدَّثٌ قَدْ صَارَ غَايَةً عِلْمِهِ أَجْزَاءَ يَرُويهَا عَنِ الدِّمِيَاطِيِّ
وَفَلَانَةٌ تَرُوي حَدِيثًا عَالِيًا وَفَلَانٌ يَرُوي ذَاكَ عَنِ أَسْبَاطِ
وَالْفَاضِلُ النُّحْرِيُّ فِيهِمْ دَأْبُهُ قَوْلُ أَرَسْطَا طَالِيْسٍ أَوْ بُقْرَاطِ

فالدمياطي، أحد المحدثين في ذلك العصر، وأسباط، عدد من المحدثين ممن نقلوا أو رووا الحديث عن أجدادهم، وأرسطو وبقرط فلاسفة يونانيون.

أما المهن فأشهر من وظف ألفاظها ومصطلحاتها الجزار، وابن دانيال، فالأول كان يمارس الجزارة، والثاني كان يمارس الكحالة (طب العيون)، فوظفا ألفاظهما توظيفاً واسعاً وجميلاً، يقول الجزار^(٤٦٠):

(البسيط)

فَالْحَمُّ وَالْعِظْمُ وَالسَّكِينُ تَعْرِفُنِي وَالخَلْعُ وَالقَطْعُ وَالسَّاطُورُ وَالوَضْمُ

فهذه ألفاظ سبعة متعلقة بالجزارة.

يقول ابن دانيال في طبيب^(٤٦١):

(الوافر)

يَقُولُونَ: الطَّبِيبُ أَبُو عَلِيٍّ بِبِذْلِ الجُودِ مَبْسُوطُ اليَدَيْنِ
فَقَلْتُ عَلِمْتُ ذَلِكَ وَهُوَ سَمْحٌ يُضَيِّعُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ عَيْنٍ

فالحديث في البيت الأول يتعلق بجود هذا الطبيب وسماحته، وابن دانيال يوظف عبارة: (يضيع كل يوم ألف عين) موزياً، فالمتبادر للذهن أنه ينفق ألفاً من الذهب، والمعنى المقصود هو أنه يلحق الضرر بأعين الناس لجهله بالطب.

ويخاطب ابن دانيال أحد المسؤولين قائلاً^(٤٦٢):

(الخفيف)

أَيُّهَا النَّاطِرُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ بِالْعينِ مِنْهُ يُغْنِي يَدَ الكَحَالِ

(٤٥٩) العسقلاني، الدرر الكامنة، 72/2-73.

(٤٦٠) الجزار، الديوان، ص 72.

(٤٦١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 246-247.

(٤٦٢) الصفدي، م، ن، ص 198.

فالناظر، والعين، والكحال، ألفاظ من مهنة الكحالة، ولكنه يقصد هنا بالناظر ناظر
الدواوين، والعين الذهب، والكحال ابن دانيال.
ومثل هذا كثير^(٤٦٣)، وإن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على مدى شعبية هؤلاء الشعراء،
وحرصهم على توفير شيء من الفكاهة والظرافة في أشعارهم، وتباريهم في إجادة التورية.

4- تأثير الشعر بلغة القرآن

كان للثقافة الإسلامية، التي تركزت في هذا العصر، وقامت عليها المدارس التي انتشرت
انتشاراً واسعاً، أثر كبير على الشعر في اللغة والمعاني، وبخاصة القرآن الكريم، الذي نصّ
علماء البلاغة على أهمية حفظه، والمداومة على قراءته في تهذيب ملكة الشعر والخطابة
وتتميتها، وغيرهما من فنون الأدب، واستخدام الشعراء لألفاظ القرآن كان استخداماً مباشراً، في
المعنى القرآني الأصلي، أو بتعديل وتحوير يحمل إشارات رمزية. يقول زغلول سلام: "وظلت
الاستعانة بلغة القرآن من تقنيات الإنشاء والشعر في العصر، وتعددت صور تلك الاستعانة،
واختلفت مستويات توظيفها في الأساليب شعراً أو نثراً بطرق مباشرة أو غير مباشرة"^(٤٦٤).

ومن صور استخدام ألفاظ القرآن، قول البوصيري في المستخدمين^(٤٦٥):

(الوافر)

أرى المستخدمين مشوا جميعاً	على غير الصراط المستقيم
معاشر لو ولوا جنات عدن	لصارت منهم نار الجحيم
فما من بلدة إلا ومنهم	عليها كل شيطان رجيم
فلو كان النجوم لها رجوماً	إن خلت السماء من النجوم

فوظف الشاعر الألفاظ؛ الصراط المستقيم، وجنات عدن، ونار الجحيم، وشيطان رجيم،
والرجوم، دون أن يغير أو يبدل في دلالتها.

ومن صور هذا الاستخدام أيضاً، توظيف الخياط (الضفدع) لأسماء سور القرآن، إذ
يقول^(٤٦٦):

(السريع)

بغلة قاضينا إذا زلزلت كانت له من فوقها الواقعة

(٤٦٣) ينظر: الصفحات، 42، 99، 112، 142، 196 من هذه الدراسة.

(٤٦٤) زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 82/3.

(٤٦٥) البوصيري، الديوان، ص 454.

(٤٦٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 231/9.

تكاثر ألهاه من عجبِهِ حتى غدا ملقى على القارعة

فوظف الأسماء زلزلت، والواقعة، وتكاثر، والقارعة، وهي أسماء سور من القرآن، وجعل لها دلالات مختلفة عن دلالاتها الأصلية.

وينقل ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة قصيدة لأحد الشعراء لم يذكر اسمه، قيلت في السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، وقد حشد فيها أسماء ما يقارب من تسع عشرة سورة، في أسلوب من التورية والرمزية، بدت ثقيلة على النفس، إذ فيها مبالغة ظاهرة ينفر منها الذوق السليم، يقول^(٤٦٧):

(الكامل)

لَمَّا أَتَى لِلْعَادِيَاتِ وَزَلَزِلَتْ	حَفِظَ النِّسَاءَ وَمَا قَرَأَ لِلْوَاقِعِ
فَلَأَجَلِ ذَاكَ الْمَلِكِ أَضْحَى لَمْ يَكُنْ	وَأَتَى الْقِتَالَ وَفَصَّلَتْ بِالْقَارِعَةِ
لَوْ عَامَلَ الرَّحْمَنَ فَازَ بِكَهْفِهِ	وَبِنَصْرِهِ فِي عَصْرِهِ فِي السَّابِعِ
مَنْ كَانَتْ الْقَيْنَاتُ مِنْ أَحْزَابِهِ	عَطَّعَ بِهَ الدُّخَانَ نَارًا لَامِعِهِ
تَبَّتْ يَدَا مَنْ لَا يَخَافُ مِنَ الدَّعَا	فِي اللَّيْلِ إِذْ يَغْشَى يَقَعُ فِي النَّازِعِ

ومن صور استخدام الألفاظ القرآنية قول صفي الدين مخاطباً أحد الأمراء في إقامة الحدود على لصوص سرقوا ماله^(٤٦٨):

(الكامل)

عَقَرْتُ ثَمُودَ لَهُ قَدِيمًا نَاقَةً وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنِ الْوَرَى وَالْمَنْعَمُ
فَأَذَاقَهُمْ سَوْطَ الْعَذَابِ، وَإِنَّهُمْ بِالرَّجْزِ يَخْسِفُ أَرْضَهُمْ وَيُدْمِدِمُهُمُ

فالشاعر عبر عن هذه الحادثة بالألفاظ نفسها التي عبر القرآن بها عنها، بل إن هذا يعدّ من الاقتباس أكثر من كونه توظيفاً للألفاظ.

ومما اشتهر في هذا قول ناصر الدين بن النقيب، في بيت له آيل للسقوط^(٤٦٩):

(٤٦٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 229/10.

(٤٦٨) صفي الدين الحلي، الديوان، ص 71.

(٤٦٩) الغزولي، مطالع البدر في منازل السرور، 637/2.

(المتقارب)

إذا ما قرأتُ إذا زلزلت
وأخشى بها أن أقيم الصلاة
بها خفتُ أن تقرأ الواقعة
فتسجدَ حيطانها الراكعه

ويقول ابن الأعمى في حمّام، موظفاً بعض العبارات القرآنية^(٤٧٠):

(الخفيف)

وله مالكٌ عدا خازنَ النا
كلما قلتُ: قد أطلتَ عذابي
ر، بلى مالكٌ أرقٌ وأرحمُ
قال لي: اخساً فيه ولا تتكلمُ
قلتُ لما رأيتُه يتلظى
"ربّنا اصرفِ عَنَّا عذابَ جهنّم"

فابن الأعمى وظف الألفاظ: مالك، وخازن، وعبارة: اخساً فيه ولا تكلم، ويتلظى، واقتبس الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾^(٤٧١)، وكلها ألفاظ تعلقت بصور العذاب الواردة في القرآن الكريم.
ويقول تاج الدين اليميني في مدينة عدن^(٤٧٢):

(الكامل)

عدن إذا رمت المقامَ بأرضها فلقد أقيمت على لهيب الهاوية
بلدٌ خلا عن فاضلٍ، وصدوره أعجازُ نخلٍ إذ تراها خاوية

فوظف الشاعر ألفاظاً مثل: الهاوية، وأعجاز نخل، وخاوية، وهي ألفاظ قرآنية.

ويظهر من خلال هذه النماذج أن توظيف بعض الشعراء لمثل هذه الألفاظ والتراكيب القرآنية، جاء بقصد التفكّه وإضفاء روح الظرافة على شعرهم، فهو أبعد ما يكون عن التأثير الذي يأتي عفو خاطر، أو التوظيف الذي يقتضيه المقام كما في قصيدتي البوصيري وصفي الدين الحلي، والإفراط فيه يعدّ عيباً، لما فيه من ثقل، وضياح للفكرة.

(٤٧٠)الكتبي، فوات الوفيات، 145/2.

(٤٧١) سورة الفرقان، 65/25.

(٤٧٢)الكتبي، م.س، 599/1.

ثالثاً - الموسيقى

أجمع العلماء في القديم والحديث على أن من أهم ما يميز الشعر من النثر، الأوزان والقوافي، وهذا ما يسمى بالموسيقى، وهي نظام من الأنغام والألحان منضبط لا يمكن الخروج عنه، وقد تتوافر هذه الموسيقى في النثر، ولكنها لا تصل إلى درجة الانضباط والدقة والالتزام التي يتطلبها الشعر.

وتكون الموسيقى خارجية ممثلة في الأوزان والقوافي، وقد لمسها القدماء وعرفوا الشعر بأنه كلام موزون مقفَى^(٤٧٣)، وداخلية، وهي نابعة من الكلمات وتلاؤم حروفها وحركاتها، وفي هذه الموسيقى الداخلية تفاوت الشعراء وتفاضلوا في شعرهم. وقد تنبه العلماء في القديم إلى مثل هذه الموسيقى، يقول أبو هلال العسكري: "وتخيّر الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التثام الكلام، وهن من أحسن نعوته وأزين صفاته"^(٤٧٤).

وتناولت في دراسة الجانب الموسيقي، البحور والقوافي في شعر النّقد المجتمعي في ذلك العصر، وصورتين من صور البديع اللفظي هما الجناس، ورد الأعجاز على الصدور.

1- البحور

شاعت عند العرب أوزان ألفتها الأسماع، واستطابتها النفوس، فالتزمها الشعراء، ليضمنوا القبول والذيق لشعرهم، يقول إبراهيم أنيس: "فليس يختص الشاعر بوزن خاص، ولا يحاول الشاعر اختراع وزن خاص كما قد يخترع المعاني ويختص بها"^(٤٧٥). ويرى إبراهيم أنيس أن هناك علاقة بين بحر الشعر والغرض الذي يقال فيه، فأشهرها شيوعاً البحر الطويل، إذ كانوا يؤثرونه في الأغراض الجدية والجليلة الشأن، فهو لكثرة مقاطعه يتناسب مع هيبة الفخر والهجاء. يقول: "تستطيع، ونحن مطمئنون، أن نقرر أنّ الشاعر في حالة اليأس، والجزع، يتخير عادة وزناً طويلاً كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عن حزنه وجزعه، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية"^(٤٧٦).

(٤٧٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (المقدمة)، 656/1.

(٤٧٤) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص159.

(٤٧٥) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص186.

(٤٧٦) إبراهيم أنيس، م.ن، ص177.

ونجد من علماء هذا العصر من خالف إبراهيم أنيس، في ربطه بين المعنى والوزن الشعري، منهم شوقي ضيف، إذ يرى أن واقع القصيدة العربية ينفي هذه الحقيقة، فالقصيدة الواحدة، التي لم تعرف في الغالب الوحدة الموضوعية، كانت تنظم في وزن واحد، وتعددت الموضوعات في الوزن الواحد، كما تعددت الأوزان في الموضوع الواحد.

يقول شوقي ضيف: "فحقائق شعرنا ينقضن ذلك نقضاً تاماً، إذ القصيدة تشتمل على موضوعات عدة، ولم يحاول الشعراء أن يخصصوا الموضوعات بأوزان لها، لا تنظم إلا فيها، فكل موضوع نظم في أوزان مختلفة، وكل وزن نظمت فيه موضوعات مختلفة"^(٤٧٧).

وإذا ما جئنا العصر المملوكي الأول، وهو امتداد للعصور الأدبية التي سبقته، وجدنا شعر النّقد المجتمعي فيه، لم يختص ببحر دون بحر آخر، فقد نظم الشعراء شعرهم النقدي في جوانبه المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها على معظم البحور، التام منها والمجزوء، فلو أخذنا الجانب السياسي من شعر النّقد المجتمعي لوجدنا شعره، الذي أوردته في بحثي هذا، نظم في البحور الآتية: الطويل، والخفيف، والوافر، والسريع، والمجتث، والبسيط، والرجز، والمنسرح، والكامل، والرمل، ومجزوء الكامل، ومجزوء الخفيف، ومجزوء الرمل، ومخلّع البسيط.

ولو أخذنا شعر شاعر بعينه في النّقد المجتمعي، كالبوصيري، وهو من أشهر شعراء النّقد المجتمعي في ذلك العصر، ومعظم شعره من القصائد المطولات، لوجدناه نظم مطولاته على البحر الخفيف أربع قصائد، وعلى البحر الطويل قصيدتين، واثنين من المنسرح، واثنين من السريع، واثنين من البسيط، واثنين من الكامل، وواحدة من المجتث، وأخرى من الوافر، أما مقطوعاته فهي قليلة، وجاءت اثنتان من الوافر، وواحدة من الكامل، وأخرى من الرمل. أما ابن الوردي، وهو من شعراء النّقد المجتمعي المشهورين في ذلك العصر، ولكن أكثر شعره في هذا الجانب من الننتف والمقطوعات، فقد أوردت له في بحثي أربعين ننتفة ومقطوعة، وجدتها موزعة على البحور الآتية: تسع مقطوعات على بحر السريع، وثمانية على بحر البسيط، وأربعاً على بحر الوافر، وثلاثاً على بحر الكامل، واثنين على بحر الرمل، واثنين على بحر الخفيف، وواحدة على المجتث، والمتقارب، والمنسرح، والرجز، والطويل، وثلاثاً على مخلع البسيط، واثنين على مشطور الرجز، وواحدة على كل من مجزوء الكامل، ومجزوء الخفيف.

وبهذه النماذج الثلاثة، ما قيل في الجانب السياسي، وقصائد البوصيري، ومقطعات ابن الوردى، نستطيع القول إنّ شعر النّقد المجتمعي لا يختص ببحر دون الآخر، وأنّ الموضوع أو المعنى المطروق لا علاقة له في اختيار الشاعر لبحر الشعر. فقد خاض الشعراء في معظم بحور الشعر، على تفاوت غير منضبط.

2- القافية

تعدّ القوافي الركن الثاني من موسيقى الشعر بعد الأوزان، وهي مجموعة أصوات تكون مقطعاً موسيقياً، يركز عليه الشاعر في البيت الأول، ثم يكرره في نهايات أبيات القصيدة كلها مهما كان عددها، هذا إذا كانت القوافي مفردة، أما في القوافي المزدوجة فيكرر هذا المقطع الموسيقي في كل بيت بين شطره وعجزه^(٤٧٨).

ولم يخلُ شعر النّقد المجتمعي في هذا العصر من القوافي المزدوجة، قال حسن الغزي في نقد أحد القضاة^(٤٧٩):

(مخمس الرجز)

قاضي على الأيام سلّ صارما بحدّه يلتقط الدراهما
وسنّ من أولاده لها دما جرّدهم فانتهكوا المحارما
والشُّبْلُ في المخبرِ مثل الأسدِ
وابنه بدريّ خطيبٌ جلقِي بامرأةِ الكاملِ مشغوفٌ شقي
بادره بالعزل فليس يرتقي منابر الإسلام إلا متقي
متّزّر ثوب العفاف مرتد

فجاءت الأشطر الأربعة من كل قفل مصرّعة، ففي القفل الأول، كانت قافية الشطر الأول من كل بيت، نفس قافية الشطر الثاني، وهي الميم التي أشبعت فتحتها ألفاً، وفي القفل الثاني، أيضاً، كانت قافية الشطر الأول من كل بيت نفس قافية الشطر الثاني، وهي الياء الساكنة.

(٤٧٨) ينظر: عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه، ص 168.

(٤٧٩) المقرئزي، السلوك، 237/3.

أ - القوافي المطلقة

وهي أوضح في السمع، وأذوقاً في الأذن؛ إذ تعتمد على حركة قد تستطيل في الإنشاد، ومن الأمثلة عليها قولُ الشارمِاساحي^(٤٨٠):

(البسيط)

ولَّى المظفَّرَ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفَرُ وناصِرُ الحقِّ وافي وهو منتصرُ
وقد طوى اللهُ من بينِ الوري فتناً كادتْ على عُصبةِ الإسلامِ تنتشرُ
فقلِّ لبيبرس إنَّ الدهرَ ألبسه أثوابَ عاريةٍ في طولها قصرُ
فأظهر الشاعر حركة الراء، وهي الضمة، فاستطالت حتى بدت كأنها واو مدّ.
ومنها أيضاً قول السامرّي^(٤٨١):

(الكامل)

اسمُ الولايةِ للأميرِ وماله فيها سوى الأوزارِ والآثامِ
وجبايةِ القتلى وكلِّ مصيبةٍ تجنى منافعها إلى الهَمِّامِ
حيث أظهر حركة الميم، وهي الكسرة، فزاد القافية نغماً.

ب - القوافي المقيدة

ومن القوافي المقيدة، قول ابن الوردّي^(٤٨٢):

(المجتث)

هذي أمورٌ عظامٌ من بعضها القلبُ ذائبٌ
ما حالُ قُطرٍ يليه في كلِّ شهرين نائبٌ
فسكّن الشاعر الروي، فتناسب هذا مع الوزن القصير.

ومنها قول صلاح الدين الصفدي، حيث قيد القافية بتسكين حرف الراء^(٤٨٣):

(المجتث)

حانَ الردى للمظفَّرِ وفي الترابِ تعفَّرِ
كم قد أبادَ أميراً على المعالي توفَّرِ
وقاتلُ النفسِ ظلماً ذنوبُهُ ما تُكفَّرِ

(٤٨٠) العسقلاني، الدرر الكامنة، 1/174.

(٤٨١) الكتبي، فوات الوفيات، 1/177.

(٤٨٢) ابن الوردّي، الديوان، ص482.

(٤٨٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 10/139.

فقيّد الشاعر القافية، بتسكين حرف الراء، والتزم بفتح الحرف الذي سبقها.
ومنها قول نجم الدين القحفازي^(٤٨٤):

(الرجز)

لما غدا قازانُ فخَّاراً بما قد نالَ بالأمسِ وأغراه البطرُ
جاء يُرَجِّي مثلها ثانيةً فانقلب الدست عليه فانكسرُ
فقيّد القافية بتسكين حرف الراء، إلا أنه التزم بفتح الحرف الذي قبل القافية.

ج - الوصل

وهو: حرف ناشيء عن إشباع حركة الروي في القوافي المطلقة، أو هاء تلي الروي المطلق، تكون مفتوحة، أو مضمومة، أو مكسورة، أو ساكنة، بشرط أن يكون ما قبلها متحرك^(٤٨٥)، وقد اهتم شعراء النقد المجتمعي في هذا العصر بالوصل، بهدف إثراء موسيقى شعرهم.

ومن الأمثلة على هذا، قول صفي الدين الحلبي، وقد جعل من فتحة حرف الروي حرف مدّ، فاستطال هذا الصوت فزاددت به الأبيات موسيقى^(٤٨٦):

(الطويل)

أدرها بلطفٍ، واجعل الرفقَ مذهباً وحيّ به كأساً من الرّاحِ مُذهباً
ولا تطعْ في حثِّ الكؤوسِ لأننا شربنا لنحيا، ما حيننا لنشربا

ومنه قول البوصيري، جاعلاً من فتحة السين حرف مد^(٤٨٧):

(الكامل)

لي صاحبٌ سرَقَ اللصوصُ ثيابه
وشكا لوالي الحربِ سارقَ بيته
وكأنه قاضٍ يقولُ لخصمه
هذا غريمُك أثبتتِ التفليسا
ليلاً فباتَ ببيته محبوساً
فكأنما يشكو له افرنسيسا

ومنه قول ابن نباتة^(٤٨٨):

(٤٨٤) العسقلاني، الدرر الكامنة، 118/3.

(٤٨٥) عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه، ص 171.

(٤٨٦) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص 412.

(٤٨٧) البوصيري، الديوان، ص 301.

(السريع)

ماذا أقولُ اليومَ إنْ أكثرَ الـ عالمُ عن جودِكَ تسألِي
وقيلَ هل أجدي المديحُ الذي حَبَّرته في مجدهِ العالِي
إنْ قلتَ لا كذَّبني النَّاسُ أو قلتُ نَعَمْ كذَّبني حالي

فالوصل كان حرف الياء الساكنة (ياء مدّ) جاءت بعد كسر حرف الروي اللام.
ومثال الهاء التي تلي الروي، وتكون ساكنة ما قبلها متحرك، قول البوصيري^(٤٨٩):

(السريع)

إليك نشكو حالنا، إننا عائلةٌ في غاية الكثرة
أحدتُ المولى الحديثَ الذي جرى لهم بالخيطِ والإبرة

فسكّن الشاعر الهاء، وحرك حرف الروي بالفتحة.

د - الردف

وهو: حرف مدّ أو حرف لين ساكن قبل الروي مباشرة سواء أكان الروي مطلقاً أو مقيداً،
ويجوز أن يتعاقب فيه الواو والياء إذا كانا حرفي مد، وإن كانا حرفي لين فلا يجوز أن
يتعاقبا^(٤٩٠)، وقد اهتم به شعراء النقد المجتمعي؛ لتوفير أكبر قدر من الجو الموسيقي المؤثر في
السامع. ومنه قول البوصيري^(٤٩١):

(البسيط)

انظرُ بحقِّك في أمرِ الدَّواوينِ فالكلُّ قد غيَّروا وضعَ القوانينِ
لم يبقَ شيءٌ على ما كنتَ تعهدهُ إلاّ تغَيَّرَ من عالٍ إلى دونِ
ففي هذين البيتين جاء حرف الردف حرف مد، وكان مرةً ياء، وأخرى واواً.
وكذا في قول ابن الوردي^(٤٩٢):

(السريع)

قلبي، لعمرُ الله، معلولٌ بما جرى للناسِ معَ لولو
يا ربُّ قد شرَّدَ عنَّا الكرى سيفٌ على العالمِ مَسْلولُ
وما لهذا السيفِ من مُغمدٍ سواك يا من لطفهُ السؤلُ

(٤٨٨) ابن نباتة، الديوان، ص 65.

(٤٨٩) البوصيري، الديوان، ص 221.

(٤٩٠) عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه، ص 174-175.

(٤٩١) البوصيري، م.س، ص 481.

(٤٩٢) ابن الوردي، الديوان، ص 498.

وجاء حرف الرفع في هذه المقطوعة واو مدّ، وباقتترانه بحرف مضموم سبقه، وروي مطلق مشبع الضمة، وقرّ مقطوعاً غنياً بالموسقى في كل بيت.

هـ - إشباع حركة هاء الوصل (الخروج)

وهو: إتباع الروي المطلق هاء متحركة، وقد أكثر الشعراء من استخدامه، طلباً للموسيقى، ومنه قول ابن تولوا^(٤٩٣):

(البسيط)

أما السّمّاحُ فقد أقوتُ معالمُهُ فما على الأرضِ من تُرجى مكارمُهُ

فلا يِعُرْنُكَ من يلقاكُ مبتسماً فطالما غرّ برقٌ أنتِ شائمُهُ

لا تتعبِ النَّفسِ في استخلاصِ راحتِها من باخِلِ لؤمِهِ في الجودِ لائمهُ

فأشبع الشاعر حركة هاء الوصل، التي هي الضمة، إضافةً الى القافية المطلقة، المتحركة بالضم، فزادها نغماً.

ومنه قول الجزار^(٤٩٤):

(الكامل)

يا أيها المولى الرئيسُ ومن له جودٌ يضاهاى الغيثَ حالَةً سَكْبِهِ

أشكو لعدلكَ جورَ دهرٍ لم أزلُ طولَ المدا غرضاً لأسهمِ خطبِهِ

فأشبع الشاعر كسرة هاء الوصل، وكان حرف الروي الباء مكسوراً، فاستطال الصوت، فبدت الهاء وكأنها حرف مدّ.

و - التأسيس

هو: الألف الساكنة التي يُفصل بينها وبين الروي بحرف متحرك لا يلتزم، ولكن حركته تلتزم، وقد لقي العناية من شعراء النقد المجتمعي، طلباً للموسيقى، ومنه قول ابن الوردي^(٤٩٥):

(الكامل)

أبرأ إلى الرحمنِ من بهتانِهِ وفجوره وعتوّهِ المتزايدِ

مَنْ ذا يجيزُ قضاءَ قاضٍ جاهلٍ بالعلمِ، في هذا الزمانِ الفاسدِ

فحرف التأسيس هنا هو الألف، وفصل بينها وبين الروي، في البيت الأول، بالياء، وهي هنا حرف لين، ولم يلتزم بالياء في البيت الثاني، فجاء بالسين بين الألف والدال، ولكنه التزم حركة الياء وهي الكسرة.

ومنه أيضاً قول الشارمساحي^(٤٩٦):

(٤٩٣) الكنتي، فوات الوفيات، 1/445.

(٤٩٤) الجزار، الديوان، ص28.

(٤٩٥) ابن الوردي، الديوان، ص158.

(الطويل)

يموتُ عديمُ القوتِ بالجوعِ حسرةً ويشبُعُ بالأوقافِ أهلُ الطيالسِ

فما أحدٌ إلا وحشُو حسابِه من الغبنِ نارٌ دونها نارُ فارسِ

فجاء الشاعر بألف التأسيس، الذي بينه وبين الروي حرف اللام في البيت الأول، والراء في البيت الثاني، إلا أنه التزم الكسر في الحرفين الواقعين بين ألف التأسيس والروي.

ز - التصريح

وهو تصيير مقطع آخر المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة وبعد كل سبعة أبيات، مثل قافيتها، زيادةً ونقصاناً، ويعرفه ابن رشيقي: "ما كانت عروض البيت فيه تابعه لضربه تنتقص بنقصه وتزيد بزيادته"^(٤٩٧)، وإن جاء في القصيدة وفصل بينه سبعة أبيات، عدّ ذلك مقبولاً، وإن قلت الأبيات عن سبعة عدّ عيباً.

وقد عدّه العلماء دليلاً على قدرة الشاعر وسعة فصاحته، إلا أنهم كرهوا الإكثار منه، وعدّوه تكلفاً، يقول ابن رشيقي: "هو دليل على قوة الطبع، وكثرة المادة، إلا أنه إذا كثّر في القصيدة دل على التكلف"^(٤٩٨).

وقد لاحظت أنّ التصريح، في شعر النّقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول، كان في المقطوعات قليلاً، وفي النتف نادراً، بينما كان كثيراً في القصائد. ومن النتف المصرّعة، قول الأدفوي^(٤٩٩):

(الخفيف)

إنَّ يومَ الاثنينِ يومٌ سعيدٌ فيه لا شكَّ للبريةِ عيدٌ

أخذَ اللهُ فيه فرعونَ مصرَ وغدا النيلُ في رباه يزيدُ

فصرّع الشاعر البيت الأول إذ جعل آخر مقطع من الشطر الأول، وهو ثلاثة حروف (العين والياء والدال) بحركاتهن نفس القافية (عيد)، وفي هذا وفرة موسيقية.

ومنه قول ابن زيان^(٥٠٠):

(مجزوء الخفيف)

تُبُّ عن الخمرِ في حَلْبٍ والنزمِ العقلِ والأدبِ

حدُّها عند بيبغا بالمساميرِ والخشبِ

(٤٩٦) العسقلاني، الدرر الكامنة، 172/1.

(٤٩٧) ابن رشيقي، العمدة، 173/1

(٤٩٨) ابن رشيقي، م.ن، 174/1

(٤٩٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 104/9.

(٥٠٠) ابن تغري بردي، م.ن، 229/10.

فوقع التصريع في البيت الأول بتكرار الباء الساكنة، في قافية الشطر الأول والشطر الثاني، والتزم أيضاً بفتح الحرف الذي قبل الروي، فكان لذلك وقع موسيقيّ. ومن المقطوعات المصرّعة قول الشارمساخي، حيث صرّع مطلعها^(٥٠١):

(البيسط)

وَلَى الْمَظْفَرُ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفَرُ وَنَاصِرُ الحَقِّ وَافَى وَهُوَ مُنْتَصِرُ
وَقَدْ طَوَى اللهُ مِنْ بَيْنِ الوَرَى فِتْنَةً كَادَتْ عَلَى عَصْبَةِ الإِسْلَامِ تَنْتَشِرُ
فصرع الشاعر البيت الأول من مقطوعته، حيث جعل آخر حرف في عروض البيت مثل حرف الروي، راء مضمومة. و قول معين الدين بن تولوا في مقطوعة بلغت ستة أبيات، مطلعها^(٥٠٢):

(البيسط)

أَمَّا السَّمَا حُ فَقَدْ أَقْوَتْ مَعَالِمُهُ فَمَا عَلَى الأَرْضِ مَنْ تُرْجَى مَكَارِمُهُ
فصرع الشاعر مطلعها هذا بتكرار هاء الوصل المشبعة، وحرف الروي المضموم، وكسر الحرف الذي سبق الروي، فكان لهذا أثر موسيقي ملحوظ. ومن القصائد التي التزم الشعراء بتصريع مطالعها، قول البوصيري^(٥٠٣):

(البيسط)

انظُرْ بِحَقِّكَ فِي أَمْرِ الدَّوَابِّينِ فَالْكَلُّ قَدْ غَيَّرُوا وَضَعَ القَوَانِينِ
لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ عَلَى مَا كُنْتَ تَعْهَدُهُ إِلا تَغْيِيرٌ مِنْ عَالٍ إِلَى دُونِ
فصرع البيت الأول بتكرار عدد من حروف وحركات آخر الشطر الأول في قافية الشطر الثاني، فجاء البيت مقفًى في الشطرين، دون تغيير أو نقص في التفعيلة، وفي هذا غنى موسيقي. وقول سيف الدين السامريّ حيث جعل آخر مقطع في الشطر الأول مثل القافية، في قصيدة بلغت ثلاثة عشر بيتاً^(٥٠٤):

(الكامل)

وَرَدَ البَشِيرُ بِمَا أَقْرَّ الأَعْيُنَا فَشَفَى الصَّدُورَ وَبَلَغَ النَّاسَ المُنَى
وَاسْتَبَشَرُوا وَتَزَايَدَتْ أَفْرَاحُهُمْ فَالْخُلُقُ مُشْتَرِكُونَ فِي هَذَا الهِنَا

وكذا يقال في مطلع قصيدة ابن دانيال^(٥٠٥):

(٥٠١) العسقلاني، الدرر الكامنة، 174/1.

(٥٠٢) الكتبي، فوات الوفيات، 55/2.

(٥٠٣) البوصيري، الديوان، ص481.

(٥٠٤) الكتبي، م.س، 176/1.

(الخفيف)

صاح لولا عناء قبض الغلال ما قبضنا في هذه الأغلال

ومما سبق نجد أن الشعراء استخدموا التصريح في مطالع النتف، والمقطعات، والقصائد، لكنني لاحظت أن بعضهم لم يوفق في استخدام التصريح، حيث جاء في أقل من سبعة أبيات، ومنه قول ابن تولوا^(٥٠٦):

(البيسيط)

فما على الأرض من ترجى مكارمه	أما السماح فقد أقوت معالمه
فطالما عرّ برق أنت شائمه	فلا يعزتك من يلقاك مبتسماً
من باخل لؤمه في الجود لائمه	لا تتعب النفس في استخلاص راحتها
ويصحب الذل من عزت دراهمه	آخي المذلة إعرزاً لدرهمه
غنى ومات بسيف الفقر عالمه	ماذا أقول لدهر عاش جاهله
وحارب الفضل حتى ما يسالمه	قد سالم النقص حتى ما يحاربه

فقد صرّح الشاعر مطلع القصيدة ثم عاد إلى التصريح بعد ثلاثة أبيات، وهذا أمر مذموم عند النقاد؛ وذلك لمخالفته للتقاليد الموسيقية المتعارف عليها.

وربما يعلل قلة التصريح في المقطوعات وندرته في النتف، بأنها مرتجلة في مواقف عارضة، وعلى أية حال فإن الشعراء قد حافظوا على هذا التقليد الفني، والتزموا فيه بذوق النقاد.

(٥٠٥) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 195.

(٥٠٦) الكندي، فوات الوفيات، 55/2 - 56.

3- عيوب القافية

لم تخلُ قوافي الشعر من العيوب، ومنها:

أ - الإقواء

وهو اختلاف حركة الروي بكسرة مرة، وضم في أخرى^(٥٠٧)، ومثال هذا، قول ابن دانيال^(٥٠٨):

(الكامل)

أصبحت أفقر من يروح ويغتدي ما في يدي من فاقتي إلا يدي
في منزل لم يحو غيري قاعداً فمتى رقدت رقدت غير ممدد

فابتداً قصيدته بكسر الروي، إلا أنه في ثناياها يأتي ببيتين الروي فيه مضموم، يقول^(٥٠٩):

(الكامل)

يجعلن جلدِي وارماً فتخاله من قرصهن به يذوب الجلمد
وكذا البعوض يطير وهو بريشه فمتى تمكن فوق عرق يفصد

ومن مثل هذا قول ابن نباته^(٥١٠):

(المتقارب)

دعاني صديقاً لحمامه فأوقعني في العذاب الأليم
فشرّ مزيداً، وماءً قليلاً فبئس الصديق، وبئس الحميم

فالحميم، من حقه الضم، لأنه فاعل بئس، والروي في البيت الأول مكسور لأنه نعت لمجرور.

ب الإيطاء

وهو إعادة كلمة الروي بلفظها ومعناها قبل مرور سبعة أبيات على استخدامها^(٥١١)، وقد وجدناه قليلاً فيما استشهدنا به من شعر النقاد المجتمعي في ذلك العصر يقول البوصيري^(٥١٢):

(٥٠٧) عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي، ص 188.

(٥٠٨) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 154.

(٥٠٩) الصفدي، م.ن، ص 154-155.

(٥١٠) ابن نباته، الديوان، ص 479.

(٥١١) عبد الرضا علي، م.س، ص 189.

(٥١٢) البوصيري، الديوان، ص 485.

(البسيط)

كلُّ ترى كاتباً للسوءِ يُنظِّره لنهبهم كمَّ كذا عامٍ وكم حينٍ

ويعود بعد أربعة أبيات ليكرر (الحين) فيقول:

(البسيط)

وكلُّ أمثاله في القبطِ أَعْزَمُ فالغزوُ فيهم حلالُ الدهرِ والحينِ

فالبيت الأول قافيته (حين) ومعناها الوقت، والبيت الثاني، وترتيبه في القصيدة الرابع قافيته (الحين) ومعناها الوقت أيضاً وهذا يعد إيطاءً.

ج -التضمين أو المبتور

سماه قدامة بن جعفر " المبتور"، وعدّه من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معاً (٥١٣)، ويقول ابن حجة الحموي: "والعيب المسمى بالتضمين هو أن يكون البيت متوقفاً في معناه على البيت الذي بعده" (٥١٤)، وهو غير التضمين بمعنى الإيداع الذي سيأتي ذكره، ومنه قول البوصيري (٥١٥):

(الخفيف)

حسبتُ علّتي تزولُ، فقالت: يا كثيرَ التهوينِ والتهويرِ

كلُّ داءٍ له دواءٌ، فعجّل بمداواةِ داءِ عضوٍ خطيرِ

فلم يكتمل ما قالته زوجته إلا في البيت الثاني، وهذا يعد من عيوب ائتلاف المعنى والوزن، الذي سمي المبتور أو التضمين.

ومن هذا قول السامري (٥١٦):

(الوافر)

إذا ما قيلَ مَنْ بالكرخِ نذلٌ لئيمُ الأصلِ مذمومُ الفعالِ

أجبتهمُ إجابةً لودعيِّ هما النذلانِ خالُ أبي وخالي

فجاء السؤال في البيت الأول، وجوابه في البيت الثاني، فتوقف البيت الأول في المعنى

على البيت الثاني.

وكذلك قول الجزار (٥١٧):

(٥١٣) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 209.

(٥١٤) ابن حجة، خزنة الأدب، 311/2.

(٥١٥) البوصيري، الديوان، ص 285.

(٥١٦) الكندي، فوات الوفيات، 174/1.

(الهزج)

ألا قل للذي يسأل عن قومي وعن أهلي

فقد تسأل عن قوم كرام الفرع والأصل

ففي البيت الأول أمر بإجابة من يسأل عن قومه وأهله، وفي البيت الثاني جاء نص الجواب المأمور به، فلم يكتمل المعنى المراد، إلا في البيت الثاني.

ومن هذا أيضاً قول صفي الدين الحلبي^(٥١٨):

(البسيط) لَمَّا تَطَاوَلَ بِي إِفْرَاطُ مَطْلِكِ لِي وَضَاعَ وَقْتِي بَيْنَ الْعُذْرِ وَالْعَذْلِ

أَيَقْنَتْ أَنْ لَسْتَ إِنْسَانًا لِفَعْلِكَ ذَا لِقَوْلِهِ "خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ"

فجاءت "لما" وفعلها في البيت الأول، وجاء جوابها في البيت الثاني، فتوقف البيت الأول في معناه على البيت الثاني، وهذا بترٌ كما سماه قدامة.

وما يجدر ملاحظته أن التضمين في هذه الأبيات هو تعلق البيت الأول كله بالبيت الثاني في المعنى، وليس تعلقاً للقافية بالبيت الثاني، وهذا الأخير لم أقع عليه فيما جمعت من شعر النقاد المجتمعي.

4- المحسنات اللفظية

يعد البديع اللفظي وثيق الصلة بموسيقى الألفاظ، إذ هو تفنن في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم وموسيقى، فهذه الأصوات التي تتكرر في حشو البيت إذا ما أضيفت إلى ما يتكرر في القافية، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعدّدة النغم^(٥١٩). وأهم ألوان المحسنات اللفظية، ذات الأثر الموسيقي البين: الجناس، ورد العجز على الصدر.

أ- الجناس

الجناس أو التجنيس هو أن يتفق اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى، وقد تكون الكلمتان اسمين أو فعلين، أو إحداهما اسماً والأخرى فعلاً، وهو قسمان تام وناقص^(٥٢٠) وقد اهتم به شعراء العصر المملوكي اهتماماً بالغاً، وذلك كغيره من باقي فنون البديع اللفظي والمعنوي؛

(٥١٧) الجزار، الديوان، ص70.

(٥١٨) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص529-530.

(٥١٩) ينظر، إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص44-45.

(٥٢٠) ينظر: فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، 2/229.

ولما له من أثر موسيقي لأن ترديد الأصوات في البيت الواحد يزيد من النغم، ويسترعي الأذان بألفاظه كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه^(٥٢١).

١ - الجنس التام

فمن الجنس التام، قول الشارمساحي مجانساً بين تولّى: بمعنى أصبح والياً، وتولّى بمعنى قفل ورجع^(٥٢٢):

(البسيط)

لما تولّى تولّى الخيرُ عن أممٍ لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا

وبهذه المجانسة بين لفظي (تولّى) تكررت الحروف فأحدثت زيادة في النغم.

ويجانس ابن دانيال بين الحدّ، وهو العقوبة، والحدّ بمعنى الغاية، فيقول^(٥٢٣):

(الطويل)

فلما بدأ المصلوبُ قلتُ لصاحبي ألا تُبْ فإنَّ الحدَّ قد جاوزَ الحدَّ

والمجانسة بين هذين اللفظين (الحد) و (الحدّ)، زاد من النغم في الشطر الثاني، كما لفت

الانتباه بمعناه.

ويقول ابن النقيب مجانساً بين ناظر - و هي رتبة إدارية -، وناظر اسم الفاعل من

نظر، وبين مسح الأرض بمعنى قياسها، ومسح الأطراف في الوضوء^(٥٢٤):

(الكامل)

قالوا فلانٌ ناظرٌ، فأجبتُ ما هو ناظرٌ إلا إلى أعطافه

لم يدرِ مسحِ الأرضِ، قلتُ أزيدكم أخرى: ولا مسحٌ على أطرافه

وجاء هذا الجنس التام بين ألفاظ موزعة على أشطار البيت، فكان له أثر موسيقي واضح.

ويجانس الكاشغري الصوفي، بين الفعلين، تكفيني، من الكفاية، وتكفيني، من الكفن،

فيقول^(٥٢٥):

(البسيط)

وخرقةٌ من جريشِ الثوبِ تسترني حياً، وإنِ متُّ تكفيني لتكفيني

فجاء الجنس بترديد هذه الحروف الستة، بشكل متوالٍ في نهاية الشطر الثاني، ليشكل مقطعا

موسيقياً غنياً.

(٥٢١) ينظر: إبراهيم انيس، م.س، ص 45.

(٥٢٢) العسقلاني، الدرر الكامنة، 1/174.

(٥٢٣) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 105.

(٥٢٤) الكتبي، فوات الوفيات، 1/316.

(٥٢٥) العسقلاني، م.س، 2/361.

ويجانس ابن دانيال بين كلمتي قبض بمعنى تسلّم، وقبض بمعنى الانتقباض، وبين شغل
بمعنى العمل، وشغل بمعنى الهَمّ، فيقول^(٥٢٦):

(الخفيف)

هو قبضٌ لكنّه قبضٌ قلبٍ وهو شغلٌ لكنّه شغلٌ بال

فجعل الشاعر في كل شطر كلمتين متجانستين، فتكرار نفس الحروف في كل شطر ضمن للبيت
وفرة في النغم.

ويجانس أيضاً بين الأغلال، بمعنى ما يجمع من الثمار، والأغلال، بمعنى القيود،

فيقول^(٥٢٧):

(الخفيف)

صاح لولا عناء قبض الأغلالِ ما قبضنا في هذه الأغلالِ

فوقع الجناس ناقصاً بين (قبض) و (قبضنا) ، في الشطرين فوفر للبيت شيئاً من
الموسيقى، ووقع تماماً بين (الأغلال) في آخر الشطر الأول، و(الأغلال) في آخر
الشطر الثاني، فأصبح البيت بشطريه مقفى، وهذا من أساليب التقنن الموسيقي في
مطالع القصائد.

٢- الجناس الناقص

ومن الجناس الناقص قول البوصيري مجانساً بين كلمتي "العمّال" و "العَدّال"، يقول^(٥٢٨):

(الخفيف)

إنّ خُلُقَ الشّهودِ والعمّالِ مثلُ خُلُقِ العِشّاقِ والعَدّالِ

وقد وفرّ هذا الجناس شيئاً من الموسيقى الداخلية، وبخاصة أنّ هاتين الكلمتين وقعتا في
أواخر شطري البيت.

ويقول البوصيري أيضاً^(٥٢٩):

(الخفيف)

كلُّ عدلٍ مضايقٌ في وصولِ كعدولٍ مضايقٍ في وصالِ

(٥٢٦) الصفدي، م.س، ص 195.

(٥٢٧) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال ، ص 195.

(٥٢٨) البوصيري، الديوان، ص 414.

(٥٢٩) البوصيري، م.ن، ص 414.

فجانس بين أكثر من كلمة في الشطرين، إذ جانس بين (عدل) و (عدول)، و(وصول) و (وصال)، وإذا ما أضفنا هذا الى تكرار كلمتي (مضايق في) في الشطرين ، وجدنا أكثر حروف الشطرين مكررة، ما وفر تناغماً للمقاطع الموسيقية.

ويجانس بين الحسبة والنسبة، فيقول^(٥٣٠): (المنسرح)

لا تظلموني وتظلمو الحسبة فليس بيني وبينها نسبه

فوقع الجناس بين اللفظين في نهاية كل شطر، فضمن لهذا المطع وفرّة موسيقية. وكذا يقال في مجانسته بين كلمتي "فطنة" و "فطرة" حيث يقول^(٥٣١):

(السريع)

وكيف يخلو الطفل من فطنة وكل مولود على الفطره؟

ويقول ابن دانيال مجانساً بين كلمتي "سُبْح" و "شَبَح"^(٥٣٢): (البسيط)

شيخُ غدا في رباط النُّسكِ مرتباً فيا ليها سُبْحاً كانت له شَبْحاً

فجانس بين كلمتي (سبحاً) و (شبحاً) في الشطر الثاني، فكرر حروف القافية في هذا الشطر، فوفر تناغماً موسيقياً ، زاده جمالاً التقارب الصوتي بين السين والشين.

ويقول ابن دانيال مجانساً بين الشعر والسعر، والرسم بمعنى المرتب، والرسم بمعنى ما

تبقى من آثار المنزل^(٥٣٣):

(المجتث)

أم ليس للشعر سعراً والرسم أقوى كرسماً

فكرّر بهذا الجناس الناقص في كل شطر مجموعة من الحروف، فزاد من نغمة البيت الموسيقية، وبخاصة بتكرار حرف السين في البيت أربع مرات.

ويجانس الزملكاني، بين الطمّ والرّم، والجنّ، والحنّ، والبنّ، فيقول^(٥٣٤):

(البسيط)

بالطمّ والرّمّ جاءوا لا عديداً لهم فالجنّ بعضهم، والحنّ والبنّ

(٥٣٠) البوصيري، م.ن، ص119.

(٥٣١) البوصيري، م.ن، ص222.

(٥٣٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص189.

(٥٣٣) الصفدي، م.ن، ص70.

(٥٣٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 102/8.

فالتناسق في تكرار الميم الساكنة تتلوها الميم المتحركة بالكسر، مرتين في بداية البيت،
والتناسق في تكرار النون الساكنة تتلوها النون المتحركة بالضم مرتين في آخر البيت، وقر
مقاطعاً موسيقية تروق للسامع.

وحسبنا بهذه الأمثلة شاهداً على اهتمام الشعراء وتقصدهم للتجنيس، طلباً للموسيقى، و
تلبية للذوق الفني في ذلك العصر، الذي فتن بفنون البديع المختلفة والموسيقى الغنيّة.

ب- ردّ العجز على الصدر

وهو أن تأتي بلفظين مكررين أو متجانسين فتجعل أحدهما في أول الجملة والآخر في
آخرها، أو أن يكون أحدهما في الشطر الأول من الشعر والثاني في الشطر الآخر (٥٣٥)، وله
أهمية موسيقية كالجناس، من حيث أن تكرار الأصوات وترديدها في حشو البيت، مضافةً الى ما
يتكرر في القافية، يجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعدّدة النغم (٥٣٦).
ومثاله قول شهاب الدين بن غانم في فقيه معتكف (٥٣٧):

(الخفيف)

هو شهر تُعَلِّ فيه الشياطين ولاشك أنه شيطان

فقد كرر كلمة الشياطين في حشو البيت وقافيته، فزاد التكرار من نغمة البيت الموسيقية.
وقول ابن الوردي (٥٣٨):

(البسيط)

الله الله لا تقوه في حلبٍ يا أهل مصرَ وفينا راقبوا الله

فتمتاز لفظة الجلالة "الله" في أول الشطر الأول، وفي آخر الشطر الثاني أعطت البيت

جواً موسيقياً غنياً.

وكذا يقال في قول ابن دانيال (٥٣٩):

(السريع)

رأيتُ في النوم أبا مرّه وهو حزينُ القلبِ في مرّه

(٥٣٥) فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، 309/2.

(٥٣٦) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 45.

(٥٣٧) الكتبي، فوات الوفيات، 169-168/2.

(٥٣٨) ابن الوردي، الديوان، ص 160.

(٥٣٩) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 119.

فرد كلمة (مرة) في القافية، على كلمة (مرة) في الشطر الأول، فكرر حروف القافية فزاد موسيقى البيت نغماً.

وقوله أيضاً^(٥٤٠): (السريع)

يُصِيحُ وَاوِيْلَاهُ مِنْ حَسْرَتِي تِلْكَ الَّتِي مَا مِثْلَهَا حَسْرَةٌ

حيث ردّ (حسرة) في القافية على (حسرتي) في آخر الشطر الأول، فكان لتكرار الحروف الثلاثة في (حسر) بحركاتها وقعاً موسيقياً ملحوظاً.

وقوله كذلك^(٥٤١): (السريع)

مِنْ كُلِّ عَلَقٍ مِثْلٍ بَدْرِ الدُّجَى قَيْمَتُهُ فِي وَاحِدٍ بَدْرُهُ

فردّ كلمة (بدر) في عجز البيت، على (بدر) في حشو الشطر الأول، فكرر هذه الحروف الثلاثة بحركاتها، فزاد من الموسيقى الداخلية.

وكذا يقال في قوله^(٥٤٢): (السريع)

وَمَنْزِلِ الْمَزَارِ صِفْرٌ وَقَدْ عَلْتَهُ مِنْ ذِلَّتِهِ صُفْرُهُ

ومن هذا القبيل قول البوصيري^(٥٤٣): (الطويل)

وَيَعْجَبُهُمْ مِنْ جَدِّ جَدِّيهِ بِطَرَسٍ وَيَحْزَنُهُمْ مِنْ جَدِّ جَدِّيهِ جَحْدَرٌ

حيث ردّ عبارة (من جدّ جدّيه) في الشطر الثاني على عبارة (من جدّ جدّيه) في الشطر الأول، ووقعت العبارتان متماثلتين في الوزن، فازدادت بهما موسيقى البيت الداخلية.

ويقول علاء الدين الوداعي، راداً تشويشاً على شاشات^(٥٤٤):

(الطويل)

لَقَدْ أُلْزِمَ الْكُفَّارُ شَاشَاتٍ ذِلَّةً تَزِيدُهُمْ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ تَشْوِيشًا

فردّ (تشويشاً) في عجز البيت على (شاشات) في حشو الشطر الأول، فازداد هذا البيت وقعاً موسيقياً، بتكرار حرف الشين.

ومن هذا قول ابن نباته^(٥٤٥): (الكامل)

أَسْفِي لَشَعْرِ بَارِعٍ نَظْمَتُهُ تَحْتَاجُ بَهْجَتَهُ لِرَفْدِ بَارِعٍ

(٥٤٠) الصفي، م.ن، ص119.

(٥٤١) الصفي، م.ن، ص119.

(٥٤٢) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص119.

(٥٤٣) البوصيري، الديوان، ص280.

(٥٤٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/110.

(٥٤٥) ابن نباته، الديوان، ص340.

دُرُّ يَتِيمٍ قَدْ تَضَوَّعَ نَشْرُهُ يَا مَنْ يَرِقُّ عَلَى الْيَتِيمِ الضَّاعِ

حيث رد (بارع) في عجز البيت الأول على (بارع) في حشو الشطر الأول من البيت، ورد (اليتيم) في البيت الثاني على اليتيم في الشطر الأول، و(الضائع) على (تضوَّع)، فكان لتكرار هذه الحروف أثرٌ موسيقيّ جليّ.

ومن هذا قول ابن دانيال^(٥٤٦):
(الرجز)

مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي النَّاسِ ذَا أَدِيَّةٍ تَخَافُ مِنْهَا أَوْقَعُوهُ فِي الْأَذَى

كَمْ صَوَّبَ النَّاسُ خَطَا ذَوِي الْغِنَى وَزَعَمُوا مَا قَالَ ذُو الْفَقْرِ الْخَطَا

حيث رد (الأذى) في عجز البيت الأول على (أذية) في آخر الشطر الأول، وردّ كلمتي (ذوو) و(الخطا)، على كلمتين (خطا) و (ذوي)، فكان لمثل هذا الردّ وقع موسيقي غير خافٍ.

ومنه قول الجزار^(٥٤٧): (الوافر)

وَإِنَّ الشَّعْرَ دُونَ غُلَاهُ قَدْرًا وَلَا سِيْمَا إِذَا مَا كَانَ شِعْرِي

وَعَيْشِكَ، لَسْتُ أُدْرِي، مَا طَحَاهَا وَقَدْ أَقْرَرْتُ أَنِّي لَسْتُ أُدْرِي

وَذَا خُبْرِي وَلَوْ كَشَفْتَ عَنِّي لَصَغَّرَهُ بَعْلَمِ الْجَهْلِ خُبْرِي

فوظف هذا الفن في أبياتٍ ثلاثة متوالية، في البيت الأول كرر كلمة (الشعر)، وفي البيت الثاني كرر كلمة (أدري)، وفي البيت الثالث كرر كلمة (خبري)، فكان لمثل هذا الردّ للأعجاز على الصدور تنغيماًً متناسقاً بين بدايات الأبيات وأواخرها. ونخلص، من بعد هذه الإطلالة، التي تناولنا فيها البحور والقوافي وبعض المحسنات اللفظية، إلى أنّ شعر النّقد المجتمعي، قد لقي عناية وحرصاً هامّين من الشعراء في جانبه الموسيقي، فطلبوا له كلّ العناصر التي توفر له ثراءً موسيقياً، يتناسب مع روح العصر، وذوق الناس، الذي مال إلى التزويق، و الخفة، والغناء.

(٥٤٦) الصفدي، م.س، ص222.

(٥٤٧) الجزار، الديوان، ص46.

رابعاً - الصنعة البديعية

لقيت بعض أصناف البلاغة في العصر المملوكي الأول اهتماماً كبيراً من الشعراء، وكان على رأسها البديع، الذي انتشر انتشاراً واسعاً، وغدا مضمار تنافس ومباراة بين الشعراء والأدباء، وقد توج هذا الاهتمام الكبير، بظهور فن البديعيات^(٥٤٨)، التي التزم الشعراء فيها بأن يكون كل بيتٍ منها شاهداً على نوع منه بمفرده، ليس له تعلق بما قبله ولا بما بعده^(٥٤٩).

ومن هؤلاء الشعراء صفي الدين الحلبي، الذي نظم قصيدة من مائة وخمسة وأربعين بيتاً في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، اشتملت على مائة وواحد وخمسين^(٥٥٠) نوعاً من محاسن البديع، وسمّاها الكافية البديعية في المدائح النبوية^(٥٥١).

ويرد بعض الباحثين شيوع هذه الظاهرة في أدب العصر المملوكي الأول إلى ميل الناس الاجتماعي إلى الزخرفة والتنميق والصنعة^(٥٥٢)، والتأثر بالمتقدمين؛ إذ مال الدرس العلمي في هذا العصر إلى اجترار الموروث.

ولم يكن الإفراط في البديعيات يروق الجميع، فهناك من النقاد من عاب هذه الظاهرة، مثل ابن خلدون، حيث قال: "هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو للكاتب، فيقبح أن يستكثر منها، لأنها من محسنات الكلام ومزيناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه، يحسن بالواحد والاثنتين منها، ويقبح بتعدادها"^(٥٥٣).

ومن الفنون البديعية التي حظيت باهتمام زائد في العصر المملوكي الأول، الجنس، والتورية، والتضمين (الإيداع)، وغيرها، وقد تناولت الجنس عند دراسة المستوى الموسيقي، لما له من أهمية في ذلك الجانب، أما في هذا المستوى فتناولت التورية، والتضمين.

(٥٤٨) هي قصائد أنشئت في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، التزم الشعراء في كل بيتٍ من أبياتها وجهاً من وجوه البديع، وكانت تنظم غالباً على بحر البسيط وقافية الميم، ومن أوائل شعراء البديعيات ابن أبي الأصبع (ت 654 هـ)، ينظر: عمر موسى الباشا، تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي، ص 302.

(٥٤٩) ينظر: بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي، 267-268.

(٥٥٠) ينظر: عمر موسى الباشا، م، ص، ص 301.

(٥٥١) ينظر: صفي الدين الحلبي، الديوان، 567-581.

(٥٥٢) ينظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 88/3.

(٥٥٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المقدمة، 674/1.

1- التورية

للتورية في شعر النّقد المجتمعي أهمية خاصة، تكمن في أمرين: الأول، أنها تصبغ الشعر بنوع من الظرافة والفكاهة، التي تبعد الملل، وتساعد على لصوق هذا الشعر بالنفس، وتستدعي شيوعه، وبخاصة إذا ما كانت العبارات والألفاظ سهلة وخفيفة، و الثاني، وهو التعبير عن معانٍ خطيرة، لا يستطيع الشاعر في أحيان كثيرة أن يعبر عنها تعبيراً مباشراً، خشية نقمة المنتقدين من حكام وغيرهم، لذلك لا يستغرب أن تعجّ المطوّلات، بل والمقطعات أيضاً، بمثل هذا الضرب البديعي، وقد وظف الشعراء في تورياتهم الألفاظ من كل جانب، من أسماء الأعلام، والأعداد، وأسماء سور القرآن، والمصطلحات العلمية وغيرها.

قال نجم الدين القحفازي مورياً في كلمة فخار، وعبارة " انقلب عليه الدّست فانكسر" (٥٥٤):

(الرجز)

لَمَّا غَدَا قَازَانُ فَخَّارًا بِمَا قَد نَالَ بِالْأَمْسِ وَأَغْرَاهِ الْبِطْرُ
جَاء يُرْجِي مِثْلَهَا ثَانِيَةً فَانْقَلَبَ الدَّسْتُ عَلَيْهِ فَاَنْكَسَرَ

فالمعنى القريب "لفخّار" هو كثير الفخر، قاد إليه قوله "بما قد نال بالأمس" والمعنى البعيد المورّي به هو المادة التي تصنع منها الأواني، دلّ عليه قوله "فانقلب الدّست عليه فانكسر"، وورّي أيضاً في قوله: "انقلب الدّست عليه فانكسر" فالمعنى القريب أنه خسر الوزارة (الدّست)، والمعنى البعيد أنه انقلب عليه الدّست، بمعنى الصحن، فانكسر لأنه فخار.

ويورّي السّنجاري الحلبي مستخدماً بعض أسماء الخيل، فيقول (٥٥٥):

(الطويل)

أَغَارَ عَلَى الشَّقْرَاءِ فِي قَيْدِ جِهْلِهِ لِكِي يَرْكَبَ الشَّهْبَاءَ فِي الْمَلِكِ قَطْعًا
فَلَمَّا عَلَا فِي ظَهْرِهَا كَانَ رَاكِبًا عَلَى أَدْهِمٍ لَكِنَّهُ كَانَ مُوثَّقًا

فورّي بـ "الشهباء" إذ المعنى القريب لها، وهو غير مراد، هو فرس، والمعنى البعيد، وهو المراد، هو "حلب"، دلّ على ذلك قوله "في الملك"، وقوله "علا في ظهرها"، معناه القريب أنه ركب الفرس الشهباء، والمعنى البعيد أنه بلغ ظاهر حلب، والمعنى القريب لـ "أدهم" هو الحصان الأسود، والمعنى البعيد الذي اقتضاه قوله "لكنه كان موثقاً"، هو القيد.

(٥٥٤) العسقلاني، الدرر الكامنة، 118/3.

(٥٥٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 139/10.

ويوظف ابن العطار، مصطلحات عروضية، في توريته، حيث يصف مقتل ابن عَرَام
واسمه الخليل فيقول^(٥٥٦)؛
(الوافر)

بَدَتْ أَجْزَا ابْنِ عَرَامٍ خَلِيلٍ مَقْطَعَةً مِنَ الضَّرْبِ الثَّقِيلِ
وَأَبْدَتْ أَبْحَرُ الشَّعْرِ المَرَاثِي مَحْرَرَةً بِتَقْطِيعِ الخَلِيلِ

فوقعت التورية في "مقطعة" إذا المعنى القريب هو التقطيع العروضي للبحر الشعري،
والمعنى البعيد هو تقطيع أجزاء ابن عرام، "والضرب الثقيل" معناه القريب المصطلح العروضي
المعروف، وهو التفعيلة في آخر الشطر الثاني، والمعنى البعيد هو الضرب بالسيوف. ولقوله
"بتقطيع الخليل" معنى قريب هو تقطيع الخليل ابن أحمد، والمعنى البعيد، وهو المقصود، هو
تقطيع أوصال ابن عَرَام واسمه الخليل.

ومن توظيفهم لأسماء السور القرآنية، قول أحد الشعراء، فيما ذكره ابن تغري بردي، في
السلطان حسن بن محمد بن قلاوون^(٥٥٧):

(الكامل)

لَمَّا أَتَى العَادِيَاتِ وَزَلْزَلَتْ	حَفِظَ النِّسَاءَ وَمَا قَرَأَ لِلوَاقِعَةِ
فَلَأَجَلِ ذَاكَ المُلْكِ أَضْحَى لَمْ يَكُنْ	وَأَتَى القِتَالَ وَفُصِّلَتْ بِالقَارِعَةِ
لَوْ عَامِلَ الرَّحْمَنِ فَازَ بِكَهْفِهِ	وَبِنَصْرِهِ فِي عَصْرِهِ فِي السَّابِعَةِ

فالعاديات وزلزلت، في المعنى القريب، سورتان من القرآن، وفي المعنى البعيد،
المصائب والبلايا، "والنساء" في المعنى القريب سورة النساء، والمعنى المقصود أنه كان مولعاً
بالنساء. والمعنى القريب لـ "الملك" هو سورة الملك، والمعنى البعيد حكم مصر، وقوله "أضحى"
في معناها القريب سورة الضحى، والمعنى المراد هو الفعل الناقص أضحى، والمعنى القريب لـ
"لم يكن" هو سورة البيّنة، والمعنى البعيد هو أنه انقضى أمره، وهكذا في ألفاظ "القتال"، و
"فصلت" و "القارعة"، أما قوله "ولو عامل الرحمن" فمعناها القريب لو قرأ سورة الرحمن، ومعناه
البعيد لو اتقى الله، "وفاز بكهفه" يتبادر إلى الذهن سورة الكهف، ولكنه قصد فاز برحمته وهكذا
في "نصره"، و "عصره".

ويوري الشاعر علاء الدين الوداعي، مستخدماً العدد سبعة، فيقول^(٥٥٨):

(٥٥٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 151/11.

(٥٥٧) ابن تغري بردي، م.ن، 247/10.

(الطويل)

رمتنا صنوفُ الذَّهرِ حقاً بسبعةٍ فما أحدٌ منا من السَّبِّعِ سالمٌ
غلاءً وغازانٌ وغزوّ وغارةٌ وغدرٌ وإغبانٌ وغمٌّ ملازمٌ

فالمعنى القريب لقوله "السبع" هو الحيوان المفترس، والمعنى البعيد هو المصائب التي عددها في البيت التالي.

ويوري ابن دانيال باسمه، فيقول^(٥٥٩): (الخفيف)

أيّها الناظرُ الذي لم يزلْ بالـ عَيْنٍ منه يعني يدَ الكحّالِ

فالمعنى القريب للبيت كله: أنه يخاطب رجلاً يبغى علاج عينه عند الكحّال، والمعنى البعيد أنه يخاطب الناظر (المحافظ) يطلب منه المال.

فالناظر تحتل معنيين، قريب هو اسم الفاعل من نظر، و بعيد وهو المحافظ، والعين تحتل معنيين أيضاً، قريب هو العين الباصرة، و بعيد هو الذهب. والكحال، تحتل أن يكون طبيب العيون، وهو المعنى القريب، والمعنى البعيد هو ابن دانيال.

ومن توريات ابن دانيال أيضاً قوله^(٥٦٠): (السريع)

ما حالٌ من درهمٍ إنفاقه يأخذه من أعين الناسِ

فالمعنى القريب: أنه يأخذه أجرة على معالجة الأعين، والمعنى البعيد أنه لا يحصله إلا بصعوبة رغماً عن الناس.

ويوري ابن نباته مستخدماً كلمة الحميم، فيقول في حمام لصديقه^(٥٦١):

(المتقارب)

فشرٌّ مزيدٌ، وماءٌ قليلٌ فبئسَ الصديقُ، وبئسَ الحميمُ

فالمعنى القريب لـ "حميم" هو الصديق، والمعنى البعيد هو الماء الحار.

(٥٥٨) ابن تغري بردي، م.ن، 102/8.

(٥٥٩) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، 195-198.

(٥٦٠) الصفدي، م.ن، ص93.

(٥٦١) ابن نباته، الديوان، ص479.

ويقول الجرّار في شيخ جرب فتدّهن بالكبريت، وجلس بالقرب من الموقد^(٥٦٢):

(الخفيف)

أَيُّهَا الشَّيْخُ دَعُوهُ مِنْ مَحَبِّ وَخَلِيلِ خَالٍ مِنَ التَّنَكُّيْتِ

أَنْتَ شَيْخٌ، وَقَدْ قَرَّبْتَ مِنَ النَّارِ فَكَيْفَ ادَّهَنْتَ بِالْكَبْرِيتِ

فلقوله: "قربت من النار" معنى قريب وهو موقد النار طلباً للدفاء ومعنى بعيد هو نار

جهنّم.

ويقول ابن أبي الإصبع في مدعي فقه^(٥٦٣):

(السريع)

وَهُوَ فُقَيْهٌ ذُو اجْتِهَادٍ وَقَدْ نَصَّ عَلَى التَّقْلِيدِ فِي دَرْسِهِ

فِيْحَسِنُ الْبَحْثِ عَلَى وَجْهِهِ وَيُوجِبُ الدَّخْلَ عَلَى نَفْسِهِ

فالمعنى القريب لعبارة "البحث على وجهه" هو إحسان البحث في الفقه، والمعنى المراد

هو حثو التراب على وجهه.

ويقول ابن الوردي في قاضي^(٥٦٤):

(المجتث)

فَقَالَ: أَقْضِي بَعْلَمِي قَلْنَا: سَتَقْضِي بِجَهَاكَ

المعنى القريب لأقضي هو من القضاء، أي قضّ الخصومات، والمعنى البعيد المراد هو

الموت.

ويقول الجرّار، في نسبه^(٥٦٥):

(الهزج)

قَدْ تَسَأَلُ عَنْ قَوْمِ كِرَامِ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ

تُرَجِّبُهُمْ بَنُو كَلْبٍ وَيَخْشَاهُمْ بَنُو عَجَلٍ

فالمعنى القريب المتبادر إلى الذهن هو أنّ "بنو كلب وبنو عجل" قبيلتان عربيتان،

والمعنى البعيد المراد، هو أنهم جرّارون.

(٥٦٢) الجرّار، الديوان، ص31.

(٥٦٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 34/7.

(٥٦٤) ابن الوردي، الديوان، ص158.

(٥٦٥) الجرّار، م.س، ص70.

2- التضمين (الإيداع)

ويقال له الإيداع، وهو أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره، أو نصف بيت أو ربع بيت، بعد أن يوطئ له توطئة تناسبه، بروابط ثلاثمه، بحيث يظن السامع أن البيت بأجمعه له، وأحسن الإيداع ما صرف عن غرض الناظم الأول^(٥٦٦)، وهو غير التضمين الذي وردّ عند الحديث عن عيوب القافية الذي هو بمعنى المبتور^(٥٦٧).

وشاع التضمين في ذلك العصر وانتشر، وبالغ فيه بعض الشعراء، حتى غدا ظاهرة بيّنة، فعبر عن هذا الشاعر مجير الدين بن تميم قائلاً^(٥٦٨):

(الوافر)

أطالعُ كلَّ ديوانٍ أراه ولم أجزَ عن التضمينِ طيري
أضمّنُ كلَّ بيتٍ نصفَ بيتٍ فشعري نصفُه من شعرٍ غيري

ويعود انتشاره إلى ما شاع في ذلك العصر من اتجاه عام نحو الحفاظ على التراث القديم وبعثه، ونظرة التقدير التي حظي بها التراث الشعري، وربما الإفراط فيه يعود إلى سعي الشاعر لإظهار أنه متقف، ومتضلع من التراث وبخاصة الأدبي منه.

يقول مجير الدين بن تميم مضمناً شعره شطر بيت من شعر زهير، حيث وظفه في غير معناه الأصلي^(٥٦٩):

(البسيط)

تعبتُ حتى جوادِي لا حراكَ به يكادُ من هزّه بالركضِ يتخذُمُ

(٥٧٠)

فلا يغرّنكُ منه شِبُه غَلطاً (إنَّ الجوادَ على علاتِه هرم)

وهذا صفي الدين الحلبي ينظم خمسة أبيات في فرسٍ له، ويضمن الشطر الثاني من كل بيت شطراً من معلقة امرئ القيس، وهو يصرفها عن غرض الناظم الأول، يقول^(٥٧١):

(٥٦٦) ابن حجة الحموي، خزنة الأدب وغاية الأرب، 311/2.

(٥٦٧) ينظر: ص 247 من هذا البحث.

(٥٦٨) مجير الدين ابن تميم، الديوان، ص 107.

(٥٦٩) مجير الدين ابن تميم، م.ن، ص 116.

(٥٧٠) أبو العباس ثعلب، شرح شعر زهير، ص 119.

(٥٧١) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص 466.

(الطويل)

رأى فرسي اصطبّل عيسى فقال لي
به لم أذُق طعم الشعير كأنني
تَفَعَّعُ من برد الشتاء أضالعي
إذا سَمِعَ السُّوَّاسُ صوتَ تحمحي
"قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل"
"بسقط اللوى بين الدخول فحومل"
"لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل"
"يقولون لا تهلك أسي وتجمل"
"وهل عند رسمِ دارسٍ من مُعَوَّلٍ"^(٥٧٢)

ويقول ابن الوحيد مضمناً شطر بيت للمتنبي^(٥٧٣):

(البيسط)

فجاءني منه مدحٌ صيغٌ من ذهبٍ مُرَصَّعاً بلُ أتى أبهى من الذهبِ
فكدتُ أنشدُ لولا نورُ باطنه "أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي"^(٥٧٤)
ويقول صفي الدين الحلبي مضمناً شعره بيتاً من معلقة زهير بن أبي سلمى^(٥٧٥):

(الطويل)

أرى فيك يا عيسى الطبيبُ فضيلةً
تميتُ لنا الأحياءَ من غيرِ علةٍ
فما أنتَ إلا "خبطُ عشواءٍ من تصبٍ
هي الضدُّ من أفعالِ عيسى بن مريم
وتُضني وتُغني باليدين وبالفم
تُمته، ومن تخطيءُ يُعَمَّرُ
فيهم"^(٥٧٦)

فزهير جاء بهذا البيت في المنايا، ووظفه الشاعر هنا في التعبير عن جهل عيسى الطبيب.

ويضمّن ابن الأعمى جزءاً من آية وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾^(٥٧٧)، يقول في وصف الحمام^(٥٧٨):

(الخفيف)

إن حمامنا الذي نحن فيه قد أناخ العذاب فيه وخيم

(٥٧٢) الأعجاز الخمسة من معلقة امرئ القيس، ينظر: الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص11-13

(٥٧٣) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص167.

(٥٧٤) ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ص363.

(٥٧٥) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص531.

(٥٧٦) الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص91.

(٥٧٧) سورة الفرقان، 25 / 65.

(٥٧٨) الكنتي، فوات الوفيات، 145/2.

قلت لما رأيته يتلظى "ربنا اصرف عنا عذاب جهنم"

ويضمن ابن نباته في وصف متشاعر ثقيل الشعر، بيتاً لامرئ القيس في وصف حصانه، يقول^(٥٧٩):

(الطويل)

أتاني عليّ البالسي بشعره فيا لك من شعرٍ ثقيلٍ مطوّلٍ
"مكّرٍ مفّرٍ مديّرٍ مُقبِلٍ معاً كجلمودٍ صخرٍ حطّه السيلُ من
علٍ"^(٥٨٠)

ويضمّن صفي الدين الحلبي في وصف صاحب له بخيل، شطر بيت للشنفرى فيقول^(٥٨١):

(الطويل)

ولي صاحبٌ يسترجعُ الناسُ كلما ذكرتُ لهم أوصافه ونعوتهُ
لقد ألبستني صحّةُ الجسمِ دارهُ بفرطِ الحمى لما حَلَّتْ بيوتهُ
وما علّمتني حكمةً غيرَ أنني "أديمُ مطالَ الجوعِ حتى أميتهُ"^(٥٨٢)

فالشنفرى جاء بهذا المعنى معبراً به عن صبره وتغلبه على الجوع إباءً وأنفةً، أما الحلبي فوظفه في غير معناه، إذ يصبر على الجوع راغماً؛ وذلك ليدخل صاحبه الذي لم يُضَيّفه. ويقول صفي الدين الحلبي في ماطل وعد، مضمناً جزءاً من آية^(٥٨٣):

(البسيط)

لما تطاولَ بي إفراطُ مطلقِ لي وضاعَ وقتيَ بينَ الغدرِ والعَدْلِ
أيقنتُ أن لست إنساناً لفعلكَ ذا لقوله: "خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ"^(٥٨٤)
فوظف الشاعر الآية في المعنى نفسه الذي وردت فيه، وهو أنّ الإنسان طبع على العجلة والتسرع، وهذا الماطل الذي لم يتعجل في الوفاء بوعده خرج عن هذا الطبع الذي طبع عليه البشر، فنفى عنه الإنسانية. ويقول الجزار في قوم يمارسون اللواط، مضمناً بيت شعر للأخطل^(٥٨٥):

(٥٧٩) ابن نباته، الديوان، ص426.

(٥٨٠) الزوزني، شرح المعطقات السبع، ص32.

(٥٨١) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص537.

(٥٨٢) الشنفرى، لامية العرب، ص74.

(٥٨٣) صفي الدين الحلبي، م.س، ص529.

(٥٨٤) سورة الأنبياء، 7/21.

(البسيط)

مَنْ قَالَ بِالْمَرْدِ فَاحْذَرْ أَنْ تَصَاحِبَهُ فَإِنْ فَعَلْتَ فَتَقْ بِالْعَارِ وَالنَّارِ
بِضَاعَةٌ مَا اشْتَرَاهَا غَيْرَ بَائِعِهَا بئس البضاعةُ والمبتاعُ والشاري

إلى أن يقول:

"قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ"^(٥٨٦)

وقد استخدمه الأخطل في مدح أقوام ينشغلون عن نسائهم بالحرب، أما الجرّار فاستخدمه في ذم قوم يتركون معاشرّة نسائهم، إلى لواط الغلمان.

ويلاحظ أن الشعراء كانوا حريصين في تضمينهم على توظيف هذه الأشعار المضمنة في غير معناها أو دلالاتها الأصلية، أو التورية بها، ولكنّ بعضهم لم ينجح في جعل هذه الأبيات جزءاً من قصائده، فبدت ناشزة غريبة، وكانت المبالغة في التضمين في أشعار بعضهم عيباً ظاهراً، كما في تضمين صفي الدين الحلي، لأعجاز أبيات من معلقة امرئ القيس، جاءت متواليّة، ولم تكن متساوقة مع المعنى الجديد الذي وظفها فيه. والتضمين يعكس مدى ميل الشعراء إلى التتميق والزخرفة اللفظية، الذي كان يمثّل ذوق عصر لا ذوق فرد، ويعكس مدى إعجابهم بالشعر القديم وفحوله، فالتضمين جُلّه من فحول الشعراء أمثال امرئ القيس، وزهير، والأخطل، والشنفرى، والمنتبي، وغيرهم.

(٥٨٥) الجزار، الديوان، ص318.

(٥٨٦) الأخطل، الديوان، ص84.

خامساً - الصورة الشعرية

الصورة الشعرية عنصر أساسي في الشعر بعامة، وفي شعر النّقد المجتمعي بخاصّة، فيها ينقل الشاعر إحساسه إلى المتلقي ليؤثر في فكره وجدانه، فيضمن استجابته، ذلك لأن شعر النّقد المجتمعي له رسالة معينة، تتمثل في الوقوف على عيوب المجتمع، وتعريفها، ونقدها والسعي في تغييرها، فإن خلا هذا الشعر من الصورة الشعرية غداً كلاماً لا يفترق عن كلام الناس وتعليقاتهم على كل ما يسوؤهم، إلا في ترتيب الألفاظ وإقامة الوزن؛ لذا احتفل الشعراء في شعر النّقد المجتمعي بالصورة الشعرية، معتمدين على التشخيص، وعلى التجسيم، وأدواتهم في رسم صورهم الشعرية مستمدة من فروع علم البيان: التشبيه، والاستعارة، والكناية، وغيرها.

١ - التشخيص

وهو إضفاء الحياة على الظواهر الطبيعية، والجمادات، والانفعالات الوجدانية، فهذا ابن الوردي يجعل من الأحداث والمصائب التي عظمت في أحد الأعوام، إنساناً جباراً يتصرف في الملوك ويتخطفهم دونما رادع، كما يتصرف قاض قليل الأمانة والدين في أموال الأيتام، وهذه صورة مستوحاة من البيئة التي يعيش فيها الشاعر، شخّص بها هذه العظائم، يقول (٥٨٧):

(الوافر)

عجائبُ عامنا عظُمت وجمتُ أعاماً كان أم مائتين عاماً
تصولُ على الملوكِ صيالٍ قاضٍ قليلِ الدّينِ في مالِ اليتامى

ويجعل الشارمساحي من الدهر رجلاً ومن الحكم أثواباً قصيرة، فيكسو هذا الرجل بيبيرس هذه الأثواب القصيرة عارية، يقول (٥٨٨):

(البسيط)

فقل لببيرس إنَّ الدهرَ ألبسه أثوابَ عاريةٍ في طولها قصراً

ويجعل من الخير إنساناً يهرب لما تولى بيبيرس الحكم، يقول (٥٨٩):

(البسيط)

لما تولى تولى الخيرُ عن أممٍ لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا

(٥٨٧) ابن الوردي، الديوان، ص500.

(٥٨٨) ابن الوردي، م.ن، 1/174.

(٥٨٩) العسقلاني، الدرر الكامنة، 1/174.

ويجعل من الأحوال ركوبة لبيبرس هذا، ولكنها حرونة لم تمش به، يقول^(٥٩٠):

(البسيط)

وكيف تمشي به الأحوال في زمنٍ لا النيل أوفى، ولا وافاهم قطر

وقد جاءت هذه الصور في مقطوعة واحدة لم تتجاوز ستة أبيات، وقد اعتمدت التشخيص، الذي اتخذ من الاستعارة أداة له، وكلها صور مستمدة من البيئة ومألوفة لا جديد فيها.

ويرسم البوصيري صورة دقيقة للحالة النفسية التي يعيشها في صحبة رجل لا يأمنه، فهو يباسطه، وفي الوقت ذاته يحذره، ويشبه هذه المعاشرة بمعاشرة السباع، فيقول^(٥٩١):

(الوافر)

أبَاسِطُهُ وَأَحْذَرُهُ كَأَنِّي أَمَارِسُ مِنْ خِلَائِقِهِ السَّبَاعَا
فَلَا أَنَا آمِنٌ مِنْهُ ضَرَارًا وَلَا هُوَ آمِلٌ مِنِّي انْتِفَاعًا

أما ابن حبيب فيصور الطاعون رجلاً ظلوماً حسوداً، يطوف في شرق البلاد وغربها، ويسوق الناس نحو القبور، يقول^(٥٩٢):

(الخفيف)

إِنَّ هَذَا الطَاعُونَ يَفْتِكُ فِي الْعَا لِمَ فَتَكَ أَمْرِيَّ ظُلُومِ حَسُودِ
وَيَطُوفُ الْبِلَادَ شَرْقًا وَغَرْبًا وَيَسُوقُ الْخُلُوقَ نَحْوَ اللَّحُودِ

ويرى ابن نباتة الصبح رجلاً متسلحاً بالبرد، يبتغي ذبحه، لذا تراه يقول: الله أكبر، وكلما اشتكى البرد، زاده منه كسوة، فمزج الشاعر الصوت بالحركة، يقول^(٥٩٣):

(الخفيف)

كُلُّ صَبْحٍ يَرُومُ بِالْبَرْدِ نَبْحِي فَلِهَذَا يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ
وَإِذَا مَا اشْتَكَيْتُ بَرْدًا كَسَانِي كَسَوَةً مِنْهُ، مَا أَشَدَّ وَأَنْكَرُ

^(٥٩٠) العسقلاني، الدرر الكامنة، 1/174.

^(٥٩١) البوصيري، الديوان، ص308.

^(٥٩٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 10/167.

^(٥٩٣) ابن نباتة، الديوان، ص235.

٢ - التجسيم

وهو جعل المعاني المجردة أجساماً محسوسة، فالبوصيري يجعل من الوحشة التي لقيها من رفاقه سوراً يمنع من نيل أنسهم، فيقول^(٥٩٤):

(الخفيف)

كلّما رمّت أنسهم ضربوا من وحشة بينهم وبينني بسور

أما الشارمساحي فيجعل من الفتن بساطاً أو رداء يطوى وينشر، يقول^(٥٩٥):

(البسيط)

وقد طوى الله من بين الورى فتناً كادت على عصبه الإسلام تنتشر

ويجعل ابن الوردي من الودّ الذي يتحول نذالة وغدراً، شيئاً مادياً يتحول من حال إلى حال، فيشبهه ضمناً بالخمير التي تتحول خلاً، أو الطعام الذي يتحول زبلاً، يقول^(٥٩٦):

(مخلع البسيط)

يا صاحباً كان لي وفيّاً وبي حفيّاً، فعادَ نذلاً

قد يستحيلُ المُدامُ خلاً ويستحيلُ الطعامُ زبلاً

ويجسم ابن دقيق العيد الأيام فيجعلها إنساناً له يد تجرح الناس، وسلاحها المصائب، فيعتمد الاستعارة في صورته الشعرية هذه، يقول^(٥٩٧):

(السريع)

قد جرّحتنا يدُ أيامنا وليس غيرُ الله من آسي

ويجعل سعد الدين الفارقي، للظلم والقهر الذي شهدته الشام عند عزل ابن خلكان عن قضائها مذاقاً، فكأنه الطعام أو الشراب. ويجعل الخير الذي عمه بعودته نبلاً تفجّر من كفيه،

يقول^(٥٩٨):

(الوفر)

(٥٩٤) البوصيري، الديوان، ص288.

(٥٩٥) العسقلاني، الدرر الكامنة، 1/174.

(٥٩٦) ابن الوردي، الديوان، ص418.

(٥٩٧) صافي حسين، ابن دقيق العيد، حياته وديوانه، ص175.

أذقت الشام سبع سنين جدبا غداة هجرته هجراً جميلاً
فلما زرتته من أرض مصرٍ مدتت عليه من كفيك نيلاً

وهذه الصورة، التي جاء بها الفارقي، تقليدية، مستوحاة من التراث الشعري القديم، فقد تداول الشعراء تشبيه العطاء والجود والخير بالماء، وتشبيهه الجواد والبالذل للخير بالبحر أو النهر، وجعلوا أيضاً للظلم والقسوة والمصائب طعماً وكأنها الطعام أو الشراب.

ويصور الجزار صداقته لقوم، لا يستطيع الانفكاك منها، مشبهاً إياها بالكتابة في الطروس، حيث يسهل القيام بها، ولكن يتعذر محوها، وإذا ما لجأ الكاتب إلى كشطها، فإن آثارها تبقى ماثلة، يقول (٥٩٩):

(مجزوء الكامل)

صَادِقْتُهُمْ وَأَرَى الْخُرُوجَ مِنْ الصَّدَاقَةِ يَعْسُرُ
كَالْخَطِّ يَسْهَلُ فِي الطُّرُوسِ وَمَحْوُهُ مُتَعَدِّرٌ
وَإِذَا أَرَدْتُ كَشَطْتَهُ لَكِنَّ ذَاكَ يُوَثِّرُ

وبما أن شعراء ذلك العصر قد التفتوا إلى القديم التفاتة تقدير وإعجاب، فليس من المستغرب أن يشبهوا الكرى بإنسان أو كائن حي يطرده عنهم ويشرده، ويشبهوا الحاكم الظالم بالسيف المشهر على الناس، والتكنية عن كبح جماحه بالإغماد، يقول ابن الوردي (٦٠٠):

(السريع)

قَلْبِي، لِعَمْرِ اللَّهِ، مَعْلُولٌ بِمَا جَرَى لِلنَّاسِ مَعَ لَوْلُو
يَا رَبِّ قَدْ شَرَّدَ عَنَّا الْكِرَى سَيْفٌ عَلَى الْعَالَمِ مَسْلُولٌ
وَمَا لِهَذَا السَّيْفِ مِنْ مُغْمَدٍ سِوَاكَ يَا مَنْ لَطْفُهُ السُّؤْلُ

(٥٩٨) ابن كثير، البداية والنهاية، 165/9.

(٥٩٩) الجزار، الديوان، ص30.

(٦٠٠) ابن الوردي، الديوان، ص498.

3- عناصر الصورة الشعرية

تتشكل الصورة الشعرية من عناصر عدة أهمها: الصوت، واللون، والحركة، وقد حرص شعراء النقد المجتمعي على إظهار هذه العناصر الثلاثة، ومن ذلك قول ابن دانيال في إظهار لون وجهه وقد انعكس عن الماء^(٦٠١):

(الخفيف)

شيخ سوءٍ كالتلج ذقناً ولكن وجهه في سواده كالقار

فهذه ذقن شديدة البياض كالتلج، في وجه شديد السواد كالقار، فالبياض أظهر شدة السواد، وكذلك السواد أظهر شدة البياض.

ويقول الشاب الظريف في إظهار لون آثار الحشيشة على وجه آكلها، مستخدماً ثلاثة ألوان ظاهرة في الوجه، والرابع يظهر في الكبد، هي: الأصفر، والأخضر، والأحمر، والأسود، يقول^(٦٠٢):

(البيسط)

ما للحشيشة فضلٌ عند آكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رشده
صفراء في وجهه خضراء في فمه حمراء في عينه، سوداء في كبده

وابن نباته يجعل من البرد ثوباً كسيه يجمع بين لونين، زرقة الجسم وبيضاى التلج، فيقول^(٦٠٣):

(الخفيف)

وإذا ما اشتكيتُ برداً كساني كسوة منه، ما أشدَّ وأنكرُ
زرقة الجسم وبيضاى ثلوجِ ألبساني ثوب العذاب مُشَهَّرُ

أما الصوت، فقد عني به بعض الشعراء في صورهم الشعرية، فابن دانيال لا يغفل عن وصف الأصوات عند الحديث عن حشرات بيته وهوامه، فيشبه صوت الحردون بصوت الزناد، ويجعل صوت الزنبور تغريداً، يقول^(٦٠٤):

(الكامل)

وكذاك للحردون صوتٌ مثله في مسمعي صوت الزناد المُصنَدِ
وكأنما الزنبورُ ألبس حلةً مُوشِيَّةً، أعلامها، بالعسجدِ

(٦٠١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص163.

(٦٠٢) الشاب الظريف، الديوان، ص144-145.

(٦٠٣) ابن نباته، الديوان، ص235.

(٦٠٤) الصفدي، م.س، ص156.

مترنم بين الذباب مُغرّد لا كان من مترنم ومغرّد

ويصور ابن دانيال الألبان منعشة للهو، والأنغام موقظة للعشق، في حالتي الشرب في الصباح والمساء، فيقول على لسان إبليس، حيث يخاطب شيخاً نقض توبته^(٦٠٥):

(البسيط)

إذا تركتكَ، مَنْ في النَّاسِ يَخْلُفُنِي وَأَنْتَ لِي أَكْبَرُ الْأَعْوَانِ وَالنَّصِاحِ
وَتَنْعِشُ اللَّهُوَّ بِالْأَلْحَانِ مَغْتَبِقاً وَتَوْقِظُ الْعِشْقَ بِالْأَنْغَامِ مِصْطَبِحاً

وفي قصيدة أخرى على لسان إبليس أيضاً، يحرص ابن دانيال على إظهار الصوت واضحاً في صورته، حيث يقول واصفاً إبليس^(٦٠٦):

(السريع)

يَصِيحُ وَأَوِيلَاهُ مِنْ حَسْرَتِي تِلْكَ الَّتِي مَا مَثَلُهَا حَسْرَهُ

فهو يصيح، والعبارة التي يصيح بها هي: واويلاه من حسرتي...

(السريع)

ويقول على لسان إبليس^(٦٠٧):

كَمْ جَهْدٍ مَا أَعْوِي وَأَعْوِي وَكَمْ أَصَفَّفُ الْمَقْصُوصَ وَالطَّرَةَ

فكّر الفعل المضارع (أعوي) ما خيل للقارئ صوت إبليس وهو يعوي.

أما البوصيري فيجعل من كلام وأوامر الناظر عياطاً وصياحاً غير مفهوم، فكأنه دويٌّ

(الخفيف)

كأس ترتطم بالأرض، يقول^(٦٠٨):

وعياطٌ تُدَوِّي الدَّوَابِينَ مِنْهُ لَا بِمَعْنَى كَأَنَّهُ طَنْجَاهُ

أما عندما يضرب بالدرّة على رأسه فلها طنين كصوت النقارة، يقول: ^(٦٠٩)

(الخفيف)

وسليمانُ كلِّما قرع القر عةً طنَّتْ كأنَّها نقّاره

وهذا صفي الدين الحلبي يصف حال ماردين، حيث تعرض فيها للسرقة، ولا ينسى أن

(الكامل)

يمزج الصوت بالصورة، فيقول^(٦١٠):

أَرْضٌ بِهَا يَسْطُو عَلَى اللَّيْثِ الطَّلَا وَيَعُوْثُ فِي غَابِ الْهَزِيرِ الْأَرْقَمِ

(٦٠٥) الصفي، المختار من شعر ابن دانيال، ص188.

(٦٠٦) الصفي، م، ن، ص119.

(٦٠٧) الصفي، م، ن، ص121.

(٦٠٨) البوصيري، الديوان، ص213.

(٦٠٩) البوصيري، م، ن، ص214.

(٦١٠) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص70.

حالت بها الأشياء عن عاداتها فالخيل تنهق، والحمير تحمم

فهذا التحول الذي شهدته ماردين لم يقتصر على الأفعال، حيث أصبح صغير الظبي يهاجم الأسد، وتعوث الأفاعي في غاب الأسد، بل شمل أيضاً تبديلاً في الأصوات، فالخيل تنهق كالحمير، والحمير تحمم كالخيل.

أما الحركة في صورهم فكانت حاضرة، وأمثلتها في هذا الشعر مستفيضة، منها وصف ابن دانيال حركة البق في فرشته صعوداً وهبوطاً، فيقول^(٦١١):

(الكامل)

والبِقُ أمثالُ الصراصيرِ خلقَةً من مُتَهَمٍ في حشوها ومُنَجِّدِ

ويشبه انسياب الثعبان بوجه الماء المتموج بفعل الرياح، يقول^(٦١٢):

(الكامل)

بيدي إذا ما انساب صفحة جدولٍ عبثت به ريحُ الصَّبَا متجدِّدِ

فالثعبان ينساب في حركة ملتوية خفيفة، لا يقربها إلى الذهن إلا تشبيهها بوجه جدولٍ تهب عليه الريح، فتحرك فيه أمواجاً متعرجةً معوجةً.

ويمزج بدر الدين الذهبي الحركة بالصوت في وصف حشرات بيته، فيقول^(٦١٣):

(الخفيف)

للبراغيث فيه رقص وللبقِ زميرٌ وللذباب غناء

فالبراغيث ترقص، والبق يزمر، والذباب يغني، فصوّر بالحركة والصوت هذه الحشرات وكأنها في حفل غنائي.

ويصور البوصيري شجاراً بينه وبين زوجته بعد زيارتها لأختها، وكانت قد حرصتها

عليه، فيستخدم في تصوير الحركة حشداً من الأفعال الماضية، المتوالية، يقول^(٦١٤):

(السريع)

فهوئنتُ قدرِي في نفسها فجاءتُ الزوجةُ محتره

فاستقبلتني فتهددتُها فاستقبلتُ رأسي بأجره

وبهذا الأسلوب يعبر ابن دانيال عن غضبة لزوجته، فيقول^(٦١٥):

(٦١١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص154.

(٦١٢) الصفدي، م، ن، ص155.

(٦١٣) الغزولي، مطالع البدر في منازل السرور، 2/639.

(٦١٤) البوصيري، الديوان، ص224.

(الخفيف)

فاكفهرت ثم اشرايت وولت وهي تسطو بكل هذ ورعد

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أنّ بعض الشعراء لجأوا أحياناً إلى بعض الصور والتشبيهات السوقية، التي لا تخلو من بذاءة، من مثل قول البوصيري، مشبهاً أفعال المحتسب المخزية في السوق، بفعل كلب يلحق كلبه، وربما يكون الداعي إلى مثل هذا، هو إمعان من الشاعر في التنفير منها، يقول (٦١٦)؛

(المنسرح)

لم أر في قبح فعلها حسناً كالكلب في السوق يلحق الكلبه

ومن هذا قول ابن دانيال مشبهاً نفسه بالسلحة التي رآحتها تردّي (٦١٧):

(الخفيف)

قلت لا يستطيع حبسي قاضي وأنا خرية وحبسي يردّي

ومنه قول الصفدي، وقد كثرت الأمطار في دمشق، فشبها بإنسان يبول على الناس من خلال ميازيب البيوت (٦١٨):

(الخفيف)

أضجرتنا دمشق لما توالث هاطلات السحاب فيها لدينا

لم نر الصحو مدةً فلهذا بميازيبها تبول علينا

ومنه أيضاً قول الشاعر ابن الحنبلي الفرجوطي، حيث يشبه شعر متشاعر بغائط يخرج من الفم (٦١٩):

(السريع)

وشاعر يزعم من غرة وفرط جهل أنه يشعُر

يُصنّف الشعر ولكنه يُحدّث من فيه ولا يشعُر

ويشبه ابن دانيال من لا حظ له بين الناس بالقذر (٦٢٠):

(٦١٥) الصفدي، م س، ص 238.

(٦١٦) البوصيري، الديوان، ص 120.

(٦١٧) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 238.

(٦١٨) الصفدي، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، ص 234.

(٦١٩) العسقلاني، الدرر الكامنة، 16/5.

(٦٢٠) الصفدي، م س، ص 222.

(السريع)

ومن يكن في الناسٍ لاحظَ له راح وجاء بينهم كالـ... .

ولعل ابن دانيال أكثر من توسع في مثل هذه التشبيهات، والعبارات البديئة والسوقية المبتذلة، وربما يعود هذا إلى كونه قد عاش بين العوامّ، ويُرَدُّ ميل بعض الشعراء في بعض شعرهم إلى مثل هذه الظاهرة، إلى طلبهم للهزل والفكاهة، أو الشعور بالمرارة والحرقه، التي قد تدفع لاستخدام مثل هذه الصور أو العبارات.

يتّضح من حديثي عن الصورة الشعرية أنّ شعر شعراء العصر المملوكي الأول، الذين قالوا في النّقد المجتمعي، عنوا بالصورة الشعرية، وتوسلوا إليها بالتشبيه، والاستعارة، والكناية، وغيرها من فنون علم البيان. وكانت الصور الشعرية في أغلب الأحيان تستمد عناصرها من البيئة المحيطة بالشاعر، فكان للأحوال السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والطبيعية أثر ملحوظ فيها، وكذلك كان التقليد ومحاكاة القدماء فيها ظاهرًا.

سادساً - أسلوب الفكاهة

شاع بين شعراء هذا العصر كثير من الأساليب الفنية، التي لا يجد الباحث عناء في التماسها، ولا يحتاج الى جهد كبير للوقوف عليها، منها ما يتعلق باللغة ومنها ما يتعلق ببناء القصيدة وشكلها، ومنها ما يتعلق بالصنعة البديعية، وغير ذلك، ولعل أسلوب الفكاهة كان من أبرز الأساليب الشائعة والملحوظة في شعر النقد المجتمعي.

الفكاهة ظاهرة إنسانية اجتماعية، فهي جزء من التكوين النفسي الذي فُطر عليه الإنسان، تتجلى فيما يسمى الضحك، والميل إلى الدعابة أو التهكم، أو النكتة أو غيرها. وهي أيضاً ظاهرة اجتماعية، لا يخلو منها تجمّع بشريّ أو مجتمع، ومادتها الأساسية مستوحاة من الحياة الاجتماعية، والعلاقات السائدة بين الناس، وفي الوقت الذي تكون فيه أداة للترويح النفسي، أو التواصل بين الناس، تكون أيضاً أداة ردع وزجر، فيما يسمى بالأسلوب الساخر. وتعتمد الفكاهة على عوامل جمّة، منها الثقافة السائدة في المجتمع، وشخصية الإنسان المتفكّه، وربما يكون أكثر الناس قدرة على الفكاهة من أوتوا نصيباً من الفنّ، ومنهم الشعراء، وبخاصة الذين امتلكوا القدرة على الصياغة اللفظية، وابتداع الصور والأخيلة.

وإذا ما نظرنا في تاريخ الشعر العربي، وجدنا الفكاهة فيه حاضرة غير مغيبّة، فلا يكاد يخلو منها عصر من عصور الشعر، ولكن لا ينكر تفاوتها بين عصر وآخر، وشاعر وآخر، وذلك تبعاً لاختلاف ظروف الحياة والمكونات الفكرية والنفسية للشعراء؛ فالعصر العباسي شهد من شعر الفكاهة ما لم تشهده عصور سبقت، ويعود ذلك إلى عوامل سياسية واجتماعية وثقافية، اقتضت أن تتخذ السخرية وسيلة ترويح وتلهّي وربما تجديد، أو وسيلة نقد وتغيير. أما التفاوت بين الشعراء فبيّن، إذ هناك عوامل شخصيّة، منها النفسي، والخلقي، والفكري، تجعل من الشاعر شاعراً فكاهياً متهزلاً، ولا بجانب الصواب إن قلنا إنّ أكثر الشعراء فكاهة هم الهجّاءون، ومثال ذلك الحطيئة، إذ العلاقة بين الفكاهة والهجاء وثيقة.

وبما أن الشعر في العصر المملوكي هو امتداد لشعر العصور التي خلت، وبخاصة العصر العباسي، فإنه ورث، فيما ورث عن هذا العصر، أسلوب التفكّه والتهزّل، وإذا ما أضفنا إلى هذا ما شهدته ذلك العصر من ظلم سياسي واقتصادي، فإننا نجد معظم شعر النّقد المجتمعي، مترعاً بالهزل والفكاهة، حتى إنّ القارئ ليظنّ لأول وهلة، أنّ هذا الشعر ما أنشئ إلا للمداعبة والتسلية، ولكن ما إن يمعن النظر، حتى يراه أسلوباً نقدياً لاذعاً، يعكس مرارة تختلج نفس الشاعر، ومن الأمثلة الساطعة على هذا قول البوصيري في جماعة أحضرهم أحد الأمراء،

أنكم رحمتُم إليه مرصفاً	أخبروني غضبةً وصلفاً
قلتُ: لا بدَّ لها أن تُخلفا	ثم قالوا عن ذقون حُلقتُ
يا بني الأعمام من أن تنتفا	إن حلقَ الذقنَ خيرٌ للفتى
كان من الأحكام عدلاً منصفاً	والذي حَلَقَ أنصافَ اللَّحى
وعفا بالنِّصفِ عما سلفاً	حلقَ النَّصفَ بذنبٍ حاضرٍ

فهذا نقد لاذع لمثل هذه العقوبة جاء في ثوب من السخرية والتهمك، فالقوم يشكون للشاعر هذه العقوبة المؤلمة الشاذة، فيطمئنهم بقوله: "لا بد لها أن تخلفا"، فالتهوين من شأن هذه العقوبة، هو بحد ذاته تفكّه وسخرية، ثم يقول لهم: إن حلق الذقون خير من نتفها، وهذه سخرية تحمل نقداً لمثل هذه العقوبات، أما قوله بأن من حلق أنصافها كان عادلاً منصفاً، وذلك بأن حلق نصف لحاهم بذنبٍ حاضر، وترك النِّصف الآخر عفوًا منه عن ذنبٍ سابق، فهي أيضاً سخرية وتهكم بهذا الحاكم خاصة. وهكذا يرسم الشاعر صورة مضحكة في ظاهرها، مؤلمة في باطنها.

واعتمد الشعراء أساليب فنيّة مختلفة في رسم الصورة الفكاهيّة، منها استنطاق الحيوان، أو الجماد، أو الشخصيات الغيبية، لبيان بعض عيوب الحكام أو كشف سوء الأحوال، أو غير ذلك، ومن أمثلة هذا ما أنشأه البوصيري على لسان حمارة له استعارها ناظر الشرقية، وأبى أن يعيدها إليه، يقول الشاعر على لسان هذه الحمارة^(٦٢٢):

(المنسرح)

ألفاظُهُ لي بأنّه فاضِلٌ	يا أيها السيّدُ الذي شهدتُ
وأنت بالرزق فيه لي كافِلٌ	حاشاك من أن أجوعَ في بَلَدٍ
من شرطها أن تُردَّ في العاجِلِ	ألم تكن قد أخذتَ عاريةً
أجملَ من أن أساقَ للحاصلِ	وكان عزمي عند الوصولِ بكم
قطّ ولكنّ سيدي جاهِلٌ	ما كان مثلي يُعيّره أحدٌ
لقلتُ غيظاً عليه: يستاهِلُ	لو جرّ سُوهُ عليّ من سفهِ
والشوقُ داءٌ - لا دُفْتَهُ - قاتل	قد طالَ بي شوقٌ إلى وطني

(٦٢١) البوصيري، الديوان، ص 310.

(٦٢٢) البوصيري، الديوان، ص 314-315.

وبغيتي أن أكون سائبةً
لا تطمعوا أن أكون عندكم
وبعد هذا فما يحلُّ لكم
من بلدي في جوانب الساحل
فذاك ما لا يرومه العاقل
ملكي، فإني من سيدي حامل

فجعل البوصيري من الحمارة إنساناً عاقلاً، ذا حجة وبيان، وقدرة على الإقناع، فكان هذا فكاهاة وهزلاً، يحملان نقداً لاذعاً، استرد به الشاعر حمارته، وختم الشاعر قصيدته بمعنى مضحك، حيث تقول الحمارة:

وبعد هذا فما يحلُّ لكم ملكي فإني من سيدي حامل

ومن مثل هذا أيضاً محاورة ابن دانيال لإبليس، وقد منعت الخمر وبأقي المنكرات، وبيدوها برسم صورة لإبليس، وقد جاءه في المنام، في ملامح شخص حزين، عينه عوراء، تقطر دمعاً متوالياً، يصيح ويولول، وحوله عصابة من رهطه، المردان والقيان، والخمارين، وغيرهم من الفساق، وهذه صورة كاريكاتورية مضحكة، وقد تعد صورة منفرة، يقول (٦٢٣):

(السريع)

رأيتُ في النَّومِ أبا مرّه
وعينه العوراء مقروحةً
يصيحُ واويلاه من حسرتي
وحوله من رهطه عُصبةٌ
من كلِّ علقٍ مثلِ بدرِ الدّجى
وهو حزينُ القلبِ في مرّه
تقطرُ دمعاً قطرةً قطرةً
تلك التي ما مثلها حسرة
فيهم على قلتهم كثرة
قيمتُه في واحدٍ بدره

وينتقل بعد تعدادهم الى محاورة إبليس، مستخدماً بعض الألفاظ والعبارات الظريفة، التي يصل بعضها الى حدّ البذاءة ويزداد المشهد بحواره ظرافة وفكاهاة، يقول:

(السريع)

فقلتُ: يا إبليسُ، ماذا الذي
وما الذي أزعج أشياحك الذئ
فقال: يا ماني، أنت الذي
قلتُ جيوشي ووهي منصبي
أسأل من مقلتِك العبره
نوكى، وإن كانوا ذوي شره
وقعت في... أخت ما أكره
وعدتُ لا أمر ولا إمره

ويمضي إبليس في تفصيل مصيبتة إلى أن يقول:

(السريع)

قد كسدت سوق المعاصي فلا شرب ولا قصف ولا عشره
هذا على أي من غيتي أقود لا أجر ولا أجره

فلا يجد الشاعر إلا أن ينصح إبليس بالبعد عن هذه البلاد:

(السريع)

فقلت يا إبليس سافز بنا وطول الغيبة والسفره

وقد استخدم الشاعر، فضلاً عن أسلوب الحوار، عبارات مضحكة من مثل وصفه
للعصاة والفساق بالأشياء النوکی (الحمقى)، وقول إبليس له يا ماني، واستوحى صوراً لحالة
إبليس مع فساقه من الواقع السياسي والاقتصادي فصوره أميراً على جيوش من الفساق، قد قَلَّوا،
ففقد سلطانه عليهم، وجعل للمعاصي سوقاً قد كسدت بضاعتها، ويصور إبليس فاعلاً للخير،
متطوعاً في إغواء الناس، لا يبتغي جزاء ولا شكوراً.
وهكذا رسم ابن دانيال بالصورة الشعرية، والألفاظ المنتقاة التي تناسب المقام، وبأسلوب
الحوار، صورة مضحكة لإبليس وحالته النفسية، التي سببها منع السلطان للمنكرات، التي تصل
الى حد التنفير.

ويعتمد ابن دانيال في أسلوبه الساخر أكثر ما يعتمد الصورة الشعرية، الظريفة
المضحكة، فاليهودي الرشيد الذي أسلم كالكلب إذا اغتسل، يقول^(٦٢٤):

(الكامل)

قالوا: اليهودي الرشيد قد اهتدى رشداً وعن كفر اليهود قد انتقل
فأجبتهم ما رام في إسلامه إلا احتمال ماثم لا تحتمل
لا يخذ عنكم غرة إسلامه فالكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل

ومن هذا القبيل قول ابن نباتة في انتقاد ما عليه من فقر، حيث يستخدم الصورة
الشعرية، فيجعل من الغلة كعبة، ومن أبنائه عُفاة يسعون عندها ويطوفون بها، ويجعل منها فتاة
جميلة المبسم مغرية بالتقبيل، ويجعل من الرزق شخصاً يدق بابه وهو ناشر نافر، يقول^(٦٢٥):

(البيسط)

(٦٢٤) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص 93.

(٦٢٥) ابن نباتة، الديوان، ص 326.

وغلة طاف أولادي فقلت لهم
سمرأ حنطية يفتّر مَبْسَمُها
دقت يد الرزق بابي وهي ناشزة
هذا هو الخير يا أجناد أدعية

اسعوا لها يا عفاة البيت أو طوفوا
فكلها بشفاه اللثم مرشوف
فقلت:..... رزق فيه تعسيف
وفي المجاريب حرب الليل مصفوف

وقد لجأ بعض الشعراء الى أسلوب التورية في تفكهم، يقول عبد الرحمن السنجاري الحلبي في ببيغا، الذي خرج على السلطان فاعتقل وقتل^(٦٢٦):

(الطويل)

بغى ببيغا بغى الممالك عنوة
أغار على الشقراء في قيد جهله
فلما علا في ظهرها كان راكباً

وما كان في الأمر المراد موقفاً
لكي يركب الشهباء في الملك قطعا
على أدهم، لكنه كان موثقاً

فقد وقعت التورية في قوله: "بغى، على الشقراء، الشهباء، وعلا في ظهرها، أدهم"،
فاختلاف الدلالة بين قريبة وبعيدة، أضفى على هذه الأبيات جواً من الهزل والتفكه.

ومنه قول ابن العطار في ابن عرام^(٦٢٧):

(الوافر)

بدأت أجزاء ابن عرام خليل
وأبدت أبحر الشعر المراثي

مقطعة من الضرب الثقيل
محزرة بتقطيع الخليل

فورى الشاعر بالألفاظ: "أجزاء، مقطعة، الضرب الثقيل، تقطيع الخليل"، فالمعاني القريبة لها المتبادرة إلى الذهن أنها في علم العروض، والمقصود البعيد هو أنها فيما حلّ بابن عرام من عقوبة وتنكيل، وهذا مثار فكاهة وهزل.

واستخدم بعض الشعراء أيضاً بعض الأسماء لإضفاء روح الظرافة والنكتة على الموقف،
يقول أحدهم^(٦٢٨):

(مجزوء الرمل)

(٦٢٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 10 / 222.

(٦٢٧) ابن تغري بردي، م.ن، 11 / 151.

(٦٢٨) ابن تغري بردي، م.ن، 7 / 123.

ظهرت للناس عاما
قاضياً زادت ظلاما

بدمشق آيةً قد
كلما وليّ شمس

ومن هذا قول ابن تولوا^(٦٢٩):

(السريع)

تقدّم القاضي لنوابه بقطع رزق البر والفاجر
ووفّر الجزار من بينهم فأعجب للطف التيس بالجازر

فاستغل لقب الشاعر (الجزار) في وصف هذا القاضي بالتيس، فكان في المعنى غير
قليل من الظرافة والفكاهة.

واستغل بعض الشعراء ألفاظاً من القرآن والعلوم والمهن في التفكه والهزل، يقول الخياط
(الضفدع) في أحد القضاة، وقد وقع عن بغلته، فمات^(٦٣٠):

(السريع)

بغلةً قاضينا إذا زلزلت كانت له من فوقها واقعه
تكاثر ألهاه من عجبِهِ حتى غدا مُلقى على القارعه
فأظهرت زوجته عندها تضايقاً بالرحمة الواسعه

فوظف الألفاظ القرآنية: زلزلت، واقعه، تكاثر، ألهاه، القارعه، في دلالات غير دلالاتها
القرآنية، ثم اعتبر موته رحمة واسعة، فكسا مقطوعته ثوباً من الظرافة.
ويقول الجزار، وقد عيره بعضهم بمهنته^(٦٣١):

(البسيط)

صدقتهم بقريضي في الذي شتموا
عني فهل غيرُ هذا القول عندهم
بالفخر قبلي فإني لست أتهم
والخلعُ والقطعُ والساطورُ والوضمُ

مولاي إن رام شتمي معشرٌ فلقد
أقررتُ أنّي جزارٌ كما ذكروا
وإن يكنُ أحمدُ الكنديّ متهماً
فالحمُ والعظمُ والسكينُ تعرفني

(٦٢٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7 / 311 - 312.

(٦٣٠) ابن تغري بردي، م.ن، 9 /

(٦٣١) الجزار، الديوان، ص 72.

فألغاف البيت الأخير أفاظ مجلوبة من مهنة الجزارة، فجمعها محاكاة لقول المتنبي^(٦٣٢)!

(البسيط)

الخيْلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

فتمت له الظرافة بهذه المحاكاة المضحكة.

وعمد بعض الشعراء إلى التضمين لتوفير جَوٍّ من الظرافة، يقول ابن الأعمى في

حمام^(٦٣٣):

(الخفيف)

ر، بلى مالك أرق وأرحم

قال لي: اخساً فيه ولا تتكلم

"ربنا اصرف عنا عذاب جهنم"

وله مالك غدا خازن النا

كلما قلت: قد أطلت عذابي

قلت لما رأيته يتلظى

فاستخدم الشاعر أفاظاً من قوله تعالى: ﴿ اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون ﴾^(٦٣٤)، وضمّن

البيت الأخير قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾^(٦٣٥)، فوَقَّر لمقطوعته شيئاً من

الفكاهة.

ويقول صفى الدين الحلبي مضمناً أشطار أبيات من معلقة امرئ القيس في غير

دلالاتها^(٦٣٦):

(الطويل)

"قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل"

"بسقط اللوى بين الدخول فحومل"

"لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل"

"يقولون لا تهلك أسى وتجمل"

"وهل عند رسمِ دارسٍ من مَعَوْلٍ"

رأى فرسي اصطبل عيسى فقال لي

به لم أدق طعم الشعير كأنتي

تقعقع من برد الشتاء أضالعي

إذا سمع السؤأس صوت تحمحي

أعول في وقت العلوq عليهم

(٦٣٢) ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ص 364.

(٦٣٣) الكتبي، فوات الوفيات، 145/2.

(٦٣٤) سورة المؤمنین، 108 / 23.

(٦٣٥) سورة الفرقان، 65 / 25.

(٦٣٦) صفى الدين الحلبي، الديوان، ص 466.

والفكاهة ليست في استنتاج هذا الفرس وحسب، بل هي أيضاً في نقل هذه الأبيات من دلالتها الأصلية في معلقة امرئ القيس، إلى دلالة جديدة في غرض آخر، يعدّ قياساً إلى ما قيلت فيه هابطاً.

وهكذا نرى أنّ الفكاهة قصدت قصداً في هذا الغرض الشعري، ولم تأت عفواً الخاطر، فكان منها ما هو متكلف، ومنها ما هو غير متكلف، وقد لجأ الشعراء في توفيرها إلى أساليب فنية كثيرة، منها الصورة الشعرية، واستنطاق الحيوان، والجماد، والشخوص الغيبية، والتورية، والتضمين، وغيرها. وقد كانت الفكاهة سمة ظاهرة في أشعار بعض الشعراء من أمثال ابن دانيال والجرّار.

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين، الذي بفضلته تتمّ الصالحات، وبحمده يبتدأ ويختم كلّ أمر ذي بال، والصلاة والسلام على رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، الذي بذكره يبارك كلّ عمل، ويستدعى له التوفيق والنجاح، وبعد

فقد درست "شعر النّقد المجتمعي في العصر المملوكي الأول"، دراسة موضوعية وفنيّة، ومن خلال دراستي يمكنني أن أضع نتائج وتوصيات عدّة، وفق الآتي:

أولاً- النتائج

توصلت في دراستي إلى ست نتائج رئيسة، هي:

١- إنّ "النّقد المجتمعي" غرض شعري قائم بذاته، يفارق شعر الهجاء والوصف والشكوى في أوصاف كثيرة، وإنّ النقي معه في بعض الأوصاف، وقد عرف هذا الغرض منذ العصر الجاهلي، وله في أشعار الجاهليين، والإسلاميين، والعباسيين، أمثلة بارزة وكثيرة، ولا ينفي وجوده أن يسمّى عند الأقدمين هجاءً أو شكوى أو وصفاً، وعند أغلب المحدثين "شعر النّقد المجتمعي"، فمفهومه واحد وإنّ اختلافات التسميات، ثمّ إنّ هذه التسمية "شعر النّقد المجتمعي"، هي تسمية مستحدثة من الراجح أنّها وليدة التأثير بمذاهب النّقد الأدبي التي ظهرت في غير العرب، ولها صلة وثيقة بمفهوم الالتزام.

٢- إنّ العصر المملوكي الأول قد غلب عليه الصراع السياسي الداخلي بين المماليك على الحكم، والخارجي بينهم وبين الفرنجة والتتار، وغلب على هذا العصر التردّي الاقتصادي، الذي يعود إلى بعض سياسات الحكام الجائرة، وصراعمهم على الحكم، وكثرة الكوارث من أمراض وزلازل وقحط وغيرها، وقد ترك هذان الأمران: الصراع السياسي، والتردّي الاقتصادي آثاراً ملموسة على حياة الناس. إلّا أنّ الحياة الثقافية في هذا العصر قد شهدت ظواهر أوحّت بالانتعاش الثقافي، منها: كثرة العلماء والفقهاء، التي ترتب عليها كثرة التآليف والتصنيف، وبخاصة التآليف الموسوعي، الذي جمع فيه تراث الأمّة، وكثرة الشعراء، التي أوحّت لبعض الباحثين بأنه عصر ابتذل فيه الشعر، وهوى إلى الدرك الأسفل من الانحطاط، وهذا حكم ينقضه وجود شعراء مجيدين، أمثال: البوصيري، وابن دانيال، وابن نباتة، وابن الوردي، وصفي الدين الحلبي، والشاب الظريف، والجزّار، وغيرهم. وهذا لا يعني عدم وجود المتشاعرين، والداخلين إلى هذا

المضمار من غير أهله. وربما يردّ هذا إلى طبيعة الحكام، الذين هم في أغلبهم لا يجيدون العربية الفصيحة أو لا يتذوقون فنونها، ويعود أيضاً إلى صعوبة الحياة الاقتصادية، التي ربما دفعت كثيرين ممن توفر لهم نصيب من الثقافة إلى ابتداء أسباب تكسب، كان منها الشعر.

٣- لم يقف شعراء ذلك العصر وبخاصة الكبار منهم، أمثال البوصيري وابن الوردي، والجزّار، وابن دانيال، وصفي الدين الحلي، وآخرين يطول ذكرهم، موقف صمت مما يدور في مجتمعهم من أحداث وظواهر خالفت الدين أو الأعراف أو طبع الإنسان، سواء أوقعت من الأفراد أم الجماعات أم الدولة، بل وقفوا منها موقف الناقد المحتج المطالب بالتغيير، واتخذوا من الشعر منبراً رفعوا فوقه عقائدهم ناقدين ومحتجين. فانتعش شعر النّقد المجتمعي في ذلك العصر، وربما طال كلّ ظاهرة شاذة أو مخالفة للمتعارف عليه، والمقبول مجتمعياً.

٤- كان الظلم والفقر هما المحوران اللذان دارت حولهما معظم أشعار النّقد المجتمعي، بل إنهما الخيط الذي انتظمت فيه أشعار الجانب الاجتماعي، وخصوصاً فيما يتعلق بالمرأة والأصدقاء وغيرهم.

٥- جاء شعر النّقد المجتمعي في نُنف ومقطعات وقصائد، منها المطوّلة، وجاء بعضه مقاطع واضحة في قصائد أنشئت في أغراض أخرى، ففي الشكل الأول وقع معظم شعر ابن الوردي في النّقد المجتمعي، وكان شعر البوصيري وشعر ابن دانيال مثالين في القصائد المطوّلة.

٦- احتفل الشعراء في مطوّلاتهم ببنية القصيدة العربية التقليدية، واعتنوا اعتناءً كبيراً بالجانب الموسيقي في أشعارهم، ولم أجد شعر النّقد المجتمعي اختص ببحر أو بحور معينة، بل نُسج في جوانبه المختلفة في معظم البحور.

٧- أما لغة هذا الشعر، فراوحت بين الجزالة والبساطة، بل إنّ منها ما وصل إلى حد الركاكة، وقد تأثرت لغة الشعر بألفاظ القرآن والسُنّة، ويعود هذا إلى تركيز الثقافة الدينية في ذلك العصر، كما شاعت في لغتهم ألفاظ وتراكيب معرّبة ودخيلة، وأحياناً عامية، كما في شعر ابن دانيال.

٨ - واعتنى الشعراء بالمحسنات البديعية في شعر النّقد المجتمعي وبخاصة الجناس والمقابلة والتضمين، وهذا أمر غير مستهجن في عصر شاع فيه ذوق يميل إلى التتميق والتزويق في كل شيء، ومال فيه الشعراء إلى استلهاهم ما ورث عن العصور السابقة، وبخاصة العصر العباسي. أما الصورة الشعرية، فلم تخلُ منها أشعارهم، ولكنها كانت في الغالب مستوحاة إما من البيئة السياسية والاقتصادية والطبيعية، وإما من الشعر القديم.

٩ - وغلب على معظم الشعراء في هذا الغرض الشعري الأسلوب الفكاهي الذي وُظفت له كلّ الأسباب الفنيّة، من تلاعب بالألفاظ، أو استخدام للألفاظ والعبارات المحكية، أو التورية، أو الجناس، أو صور شعرية، بلغت في بعض الأحيان حدّ الإسفاف.

وأخيراً وثّق شعر النقد المجتمعي كثيراً من الأحداث السياسية، وصوّر بعض جوانب الحالة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، في ذلك العصر، فلا يقلّ في أهميته التاريخية عما سجّله المؤرّخون في كتبهم. وهو جزء من تراثنا، الذي يجب علينا أن ننتقل كنوزه، لا لننفي عنه تهمة الانحطاط وحسب، بل لسدّ الفراغ في مسيرة الأدب العربي، الذي يعاني منه طلاب العلم ممّا، فهو ما زال الحلقة المفقودة في بعض مناهجنا، ودراساتنا الأدبية.

ثانياً - التوصيات

من خلال هذه الدراسة يمكنني أن أوصيَ غيري من الباحثين بأن يتناولوا كثيراً من القضايا التي درستها في هذا الموضوع، مواضيعَ وعناوين لدراساتهم العلمية، من مثل: وصف العمران، ووصف الحمّامات، والشعر الديني، وغيرها.

كما يمكنني أن أوصي بدراسة الموضوع نفسه في العصر المملوكي الثاني؛ إذ هو امتداد لما ورد في هذا البحث، كما يمكنني أن أوصي بعمل دراسات مقارنة في هذا الموضوع بين عصرين، أو بين شعراء في عصور مختلفة.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

أولا- المصادر

- ١ - الأخطل، غياث بن غوت، (ت 90هـ)، الديوان: شرح إيليا سليم الحاوي ، بيروت: دار الثقافة، 1968.
- ٢ - الأزدي، ابن ظافر (ت 613هـ)، بدائع البدائة ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة الأنجلو-مصرية، 1970.
- ٣ - الأصفهاني، أبو الفرج (ت 365هـ)، الأغاني، بيروت: منشورات صلاح يوسف الخليل ودار الفكر للجميع، 1970/1390.
- ٤ - الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت 216هـ)، الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاعر وعبد السلام هارون، ط5، بيروت: د.ت.
- ٥ - البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت 429هـ) الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار المعرفة، د.ت.
- ٦ - البغدادي، عبد القاهر بن عمر (ت 1093هـ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ط1، المطبعة الأميرية، بولاق، د.ت.
- ٧ - البوصيري، محمد بن سعيد (ت 698هـ): الديوان ، شرح وتعليق محمد التونجي، ط 1، بيروت: دار الجيل، 2002.
- ٨ - ابن تغري بردي، يوسف الأتابكي، (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تقديم محمد حسين شمس الدين، ط، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992/1413.
- ٩ - التلمساني، محمد بن عفيف الدين سليمان (ت 688هـ)، ديوان الشاب الظريف ، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، بيروت: دار الكتاب العربي، 2004/1424.
- ١٠ - أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ)، الديوان: شرح إيليا حاوي ، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1981.
- ١١ - ابن تميم، مجير الدين (ت 684هـ)، الديوان، تحقيق هلال ناجي وناظم رشيد، ط 1، بيروت: عالم الكتب، 1999/1420.

- ١٢ ثعلب، أبو العباس (ت 291هـ)، شرح شعر زهير بن أبي سلمى. تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت: دار الفكر، ط1، 1996/1417.
- ١٣ الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255هـ)، الحيوان، شرح وتحقيق يحيى الشامي، ط 3، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1997.
- ١٤ الجرجاني، علي بن عبد العزيز (ت 392هـ)، الوساطة بين المتنبى وخصومه، تحقيق وشرح أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة البابي الحلبي وشركاه، 1966/1386.
- ١٥ جرير، حذيفة بن عطية اليربوعي (ت 110هـ)، الديوان، تحقيق نعمان محمد أمين طه، مصر: دار المعارف، د.ت.
- ١٦ الجزائر، أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم (ت 679هـ)، الديوان، جمع وتحقيق محمد زغلول سلام، الإسكندرية: منشأة المعارف، د.ت.
- ١٧ - ابن جعفر، قدامة، (ت 337هـ)، نقد الشعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، القاهرة: مكتبة الكلية الأزهرية، 1978/1398.
- ١٨ - الجلالين، جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، دمشق: مكتبة الملاح، د.ت.
- ١٩ - الجمحي، محمد ابن سلام (ت 231هـ)، طبقات فحول الشعراء، قراءة وشرح محمود محمد شاكر، مصر: دار المدني، د.ت.
- ٢٠ - الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن البغدادي (ت 597هـ)، تلبيس إبليس، القاهرة: مكتبة المتنبى، د.ت.
- ٢١ - ابن حجر، شهاب الدين العسقلاني (ت 852هـ): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة: أم القرى للطباعة والنشر، د.ت.
- ٢٢ - الحطيئة، جرول ابن أوس (ت 30هـ)، الديوان، بيروت: دار صادر، 1964/1384.
- ٢٣ - الحلبي، صفي الدين (ت 755هـ)، الديوان، تحقيق هلال ناجي وناظم رشيد، ط 1، بيروت: عالم الكتب، 1999/1420.
- ٢٤ - الحموي، ابن حجة (ت 873هـ)، خزنة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شيتو، ط 2، بيروت: دار مكتبة الهلال، 1991.
- ٢٥ - الحموي، ياقوت (ت 626هـ)، معجم البلدان، بيروت: دار إحياء التراث، د.ت.
- ٢٦ - الحنبلي، ابن العماد (ت 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط 1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998/1419.

- ٢٧ - ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 808هـ)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992/1413.
- ٢٨ - ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1968.
- ٢٩ - دار المشرق، المنجد في اللغة والأعلام، ط37، بيروت: دار المشرق، 1998 م.
- ٣٠ - الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط17، بيروت: دار العلم للملايين، 2007.
- ٣١ - الزوزني، الحسين بن أحمد (ت 486هـ)، شرح المعلقات السبع، ط1، عالم الكتب، 1990/1412.
- ٣٢ - السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت 911هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997/1418.
- ٣٣ - الشنتريني، ابن بسام (ت 542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1979/1399.
- ٣٤ - الشنفرى، الديوان، إعداد وتقديم طلال حرب، بيروت: دار صادر، 1996.
- ٣٥ - الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ)، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت: الدار الثقافية العربية، د.ت.
- ٣٦ - الشوكاني، محمد بن علي، (ت 1255هـ)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1994/1414.
- ٣٧ - الصفدي، صلاح الدين بن أبيك (ت 764هـ):
 أ - الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه ، تحقيق هديل ناجي ووليد بن أحمد الحسين، بريطانيا: سلسلة إصدارات الحكمة، 1999/1420.
 ب المختار من شعر ابن دانيال، تحقيق محمد نايف الديلمي ، الموصل: مكتبة بسام، 1979/1399.
 ج نكت الهميان في نكت العميان، مصر: المطبعة الجمالية، 1911/1329.
 د - الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط 1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000/1140.
- ٣٨ - الضبّي، المفضل بن محمد بن محمد بن يعلى (ت 168هـ)، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاکر، وعبد السلام محمد هارون، ط6، بيروت: د.ت.

- ٣٩ ضنّاوي، سعدي، المعجم المفصل في المعرّب والدخيل، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004/1424.
- ٤٠ ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي (ت 345هـ)، عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الستار، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992/1402.
- ٤١ الطبري، ابن جرير (ت 310هـ)، تاريخ الأمم والملوك، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997/1417.
- ٤٢ طرفة بن العبد، الديوان، تحقيق فوزي عطوي، بيروت: دار صعب، 1980.
- ٤٣ أبو العتاهية (ت 211هـ)، الديوان، بيروت: دار صادر، 1964/1384.
- ٤٤ العسكري، أبو هلال الحسن بن سهل (ت 395هـ)، الصناعتين - الكتابة والشعر، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1989/1409.
- ٤٥ العلوي، يحيى بن حمزة اليميني (ت 729هـ)، الطراز، مراجعة وضبط محمد عبد السلام شاهين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995/1415.
- ٤٦ الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله (ت 815هـ)، مطالع البدور في منازل السرور، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2006/1426.
- ٤٧ الفرزدق، همام بن غالب (ت 110هـ)، الديوان، بيروت: دار صادر، 1966/1386.
- ٤٨ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت: د.ت.
- ٤٩ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 206هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط2، القاهرة: دار الحديث، 1998/1418.
- ٥٠ القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، ط1، بيروت: دار الفكر، 1987/1407.
- ٥١ القيرواني، ابن رثيق (ت 456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، بيروت: دار الجيل، 1972.
- ٥٢ الكتبي، ابن شاعر (ت 764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000/1421.
- ٥٣ ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق صدقي العطار، ط1، بيروت: دار الفكر، 1996/1416م.
- ٥٤ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- ٥٥ الكوفي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت 675هـ)، الديوان، تحقيق ناظم رشيد، ط1، عمان: دار الضياء، 2006/1427.

- ٥٦ -المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد النحوي (ت 285هـ)، الكامل، بيروت: دار الفكر للطباعة، د.ت.
- ٥٧ -مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، إخراج إبراهيم أنيس وآخرين، دار الفكر، د.ت.
- ٥٨ -المرزباني، محمد بن عمران (ت 384هـ)، معجم الشعراء، تحقيق فاروق اسليم، ط 1، بيروت: دار صادر، 2005/1425.
- ٥٩ -ابن المعتز، عبد الله بن المعتز بن المتوكل (ت 296هـ)، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط2، مصر: دار المعارف، د.ت.
- ٦٠ -المعري، أبو العلاء (ت 449هـ):
- أ -ديوان لزوم ما لا يلزم ، شرح كمال اليازجي، ط 1، بيروت: دار الجيل، 1992/1412.
- ب شرح ديوان حماسة أبي تمام ، دراسة وتحقيق حسين محمد نقشة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991/1411.
- ٦١ -المقريزي، أبو العباس أحمد العبيدي (ت 845هـ):
- أ -إغاثة الأمة في كشف الغمة، سوريا: طبع دار الوليد، 1956.
- ب -السلوك لمعرفة الدول والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997/1418.
- ج -المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت: دار صادر، د.ت.
- ٦٢ -ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ)، لسان العرب، القاهرة: دار الحديث، 2006/1427.
- ٦٣ -ابن نباتة، جمال الدين الفارقي المصري (ت 767هـ)، الديوان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- ٦٤ -ابن الورد، عروة، الديوان، (ديوانا عروة والسموأل)، بيروت: دار صادر، 1964/1384.
- ٦٥ -ابن الورد، عمر بن المظفر (ت 749هـ)، الديوان، تحقيق أحمد فوزي الهيب، ط 1، الكويت: دار القلم، 1986/1407.
- ٦٦ -اليازجي، الشيخ ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ضبط عمر الطباع، بيروت: دار الأرقم، د.ت.

ثالثاً - المراجع

- ١ - أمين، بكري شيخ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، ط4، بيروت: دار العلم للملايين، 1986.
- ٢ - أمين، فوزي محمد، أدب العصر المملوكي الأول - قضايا المجتمع والفن، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1993.
- ٣ - إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر، ط3، دار الفكر العربي، 1978.
- ٤ - أنيس، إبراهيم، موسيقى الشعر، ط5، 1981.
- ٥ - الأيوبي، ياسين، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، ط1، طرابلس: جروس برس، 1995/1415.
- ٦ - جاشا، عمر موسى:
 - أ - تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي ، ط1، بيروت: دار الفكر المعاصرة، 1919/1419.
 - ب ابن نباتة أمير شعراء المشرق، القاهرة: دار المعارف، 1963.
- ٧ - جدوي، أحمد أحمد، الحركة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة: مكتبة نهضة، د.ت.
- ٨ - جكار، يوسف حسين، بناء القصيدة العربية، القاهرة: دار الثقافة، 1979/1379.
- ٩ - حسين، علي صافي، ابن دقيق العيد حياته وديوانه، مصر: دار المعارف، د.ت.
- ١٠ - الخواجة، إبراهيم شحادة، عروة بن الورد - حياته وشعره ، ط2، نابلس: مطبعة النصر، 1987.
- ١١ - سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي ، الإسكندرية: منشأة المعارف، د.ت.
- ١٢ - الشكعة، مصطفى، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، قسم الأدب، ط15، بيروت: دار العلم للملايين، 2004.
- ١٣ - ضيف، شوقي:
 - أ - تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، القاهرة: دار المعارف، ط4، 1990.
 - ب تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول ، ط6، مصر: دار المعارف 1966.
 - ج الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط9، مصر: دار المعارف، د.ت.

- د -في النقد الأدبي، ط7، مصر: دار المعارف، د.ت.
- ١٤ عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها ، علم البيان والبديع، ط 9، عمان: دار الفرقان، 2004/1424.
- ١٥ عتيق، عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس ، ط2، بيروت: دار النهضة العربية، 1976/1396.
- ١٦ علي، عبد الرضا، موسيقى الشعر العربي، قديمه وحديثه، ط1، عمان: دار الشروق، 1997.
- ١٧ الفقي، محمد كامل، الأدب في العصر المملوكي، الهيئة المصرية للكتاب، 1976.
- ١٨ قاسم، عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك ، ط1، القاهرة: دار الشروق، 1994/1415.
- ١٩ هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، بيروت: دار العودة ودار الثقافة، د.ت.
- ٢٠ الهيب، أحمد فوزي، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، ط1، 1986/1406.

فهرس الأعلام

الصفحات	الاسم
1، 5، 28، 74، 112، 161، 162، 164، 242، 268	محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم
	(أ)
11	١. ابن الأثير = نجم الدين
250	٢. الأخطل
44، 45، 137، 139، 219، 230	٣. الأدفوي
61	٤. آدم
122	٥. الإريلي = الحسن بن زفر
102	٦. الإريلي = أبو الربيع
137	٧. أرسطاطاليس
31	٨. الأزدي = ابن سعد
29، 30	٩. الأسدي = إسماعيل بن عمّار
121	١٠. الأسدي = شهاب الدين أحمد
104	١١. الإسكندراني = ابن القوية
20، 21	١٢. إسماعيل = عز الدين
60	١٣. أسندمر
67	١٤. ابنة الأشرف
16	١٥. الإشبيلي = محمد بن أحمد الأبيض
155، 246	١٦. ابن أبي الإصبع
152	١٧. الأصمعي
9، 88	١٨. الأعرج = ابن مخلوف السعدي المؤدب
215	١٩. الأعشى
177، 180، 194، 222، 248، 266	٢٠. ابن الأعمى
29	٢١. ابن أعي
25	٢٢. أمامة = زوجة الجميح
151، 194، 247، 249، 250، 266	٢٣. امرؤ القيس

5	٢٤ . أمير حاج
74	٢٥ . الأمين = الخليفة العباسي
17	٢٦ . الأندلسي = ابن خفاجة
224 ، 223	٢٧ . أنيس = إبراهيم
217 ، 122	٢٨ . الأوسي الحموي = شرف الدين الأنصاري
46	٢٩ . إينال
46	٣٠ . أينبك
75	٣١ . ابن الأيهم = جبلة
49	٣٢ . ابن أيوب = محمد بن محمود المنصور
4	٣٣ . أيوب = نجم الدين
5	٣٤ . ابن أيوب = نور الدين علي
19 ، 18 ، 11	٣٥ . الأيوبي = ياسين
4	٣٦ . الأيوبي = صلاح الدين يوسف
	(ب)
19 ، 7 ، 1	٣٧ . الباشا = عمر موسى
249	٣٨ . البالسي = علي
17	٣٩ . البجاني = محمد بن مسعود
164 ، 163	٤٠ . براق = الشيخ الصوفي
144	٤١ . ابن برّي
90 ، 59 ، 47 ، 46 ، 5	٤٢ . برقوق = الجركسي
47	٤٣ . بركة
137	٤٤ . بقراط
140 ، 134	٤٥ . ابن البققي
25	٤٦ . بكر (قبيلة)
170	٤٧ . البكري = الفقيه
55	٤٨ . البليائي = عمر بن محمد
113	٤٩ . البليقي = أبو البركات ابن الحاج
251 ، 226 ، 134 ، 53 ، 48 ، 41 ، 40 ، 8 ، 6 ، 5	٥٠ . البندقاري = الظاهر ببيرس
206 ، 115	٥١ . بهادر = عبد ابن الوردي

49	٥٢. بهاطن = خير الدين
1, 2, 16, 19, 40, 50, 53, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 70, 71, 77, 78, 79, 81, 82, 85, 86, 88, 91, 106, 108, 109, 119, 120, 127, 128, 140, 141, 171, 172, 174, 207, 208, 209, 211, 214, 215, 216, 220, 222, 224, 225, 227, 228, 231, 233, 234, 237, 240, 252, 253, 256, 257, 258, 261, 262, 268, 269, 271	٥٣. البوصيري
46, 48, 49, 230, 264	٥٤. ببيغا أروس
	(ت)
44	٥٥. ابن التاج = موسى
4, 5, 7, 8, 39, 77, 78, 108, 207	٥٦. التركماني = عز الدين أيبك
2, 6, 49, 221, 244	٥٧. ابن تغري بردي
25	٥٨. تغلب
159, 160, 161	٥٩. ترقية
160	٦٠. التقي العطار
154	٦١. التكريتي = وجيه الدين
186	٦٢. التلعفري
126	٦٣. التلمساني = جمال الدين محمد بن عبد الله
34	٦٤. أبو تمام
49, 89, 114, 123, 144, 146, 191, 200, 208, 247	٦٥. ابن تميم = مجير الدين
4, 40	٦٦. توران شاه
53, 102, 161, 229, 231, 232, 260	٦٧. ابن تولوا = معين الدين الفهري
68, 206	٦٨. ابن تيمية = أحمد
	(ث)
6, 78	٦٩. ثعلب = حصن الدين
41	٧٠. الثقفي = الحجاج بن يوسف

74	٧١. ثمود
27	٧٢. أمّ ثواب الهزانية
	(ج)
43	٧٣. الجاشنكير = الظاهر بيبرس المنصوري
53	٧٤. ابن جبارة
15	٧٥. الجرجاني
160	٧٦. الجرّنع
31، 15	٧٧. جرير
79	٧٨. الجزري = عز الدين عبد الغني
2، 11، 16، 53، 94، 99، 100، 101، 106، 111، 114، 120، 138، 149، 192، 202، 208، 219، 246، 250، 265، 267، 268، 269	٧٩. الجزار
54	٨٠. ابن جعفر = شمس الدين محمد
234، 235	٨١. ابن جعفر = قدامة
88، 58	٨٢. ابن جماعة = بدر الدين
229	٨٣. الجمحي
25	٨٤. الجميح
158	٨٥. ابن جنّي
155، 156	٨٦. ابن الجوزي
	(ح)
47، 48، 252	٨٧. ابن حبيب = طاهر
109	٨٨. الحرافيش
28، 29، 37، 260	٨٩. الحطيئة
173، 187	٩٠. الحلبي = ابن أبي السّاقح
10	٩١. الحلبي = الشهاب محمود
2، 68، 71، 103، 113، 123، 124، 125، 126، 134، 135، 151، 161، 162، 180، 192، 194، 200، 206، 210، 211، 213، 222، 227، 235، 242، 247، 248، 249، 250، 256، 266	٩٢. الحلّي = صفّي الدين

269 ، 268	
234	٩٣ . الحموي = ابن حجّة
185	٩٤ . الحموي = علي بن مراحل
79 ، 78	٩٥ . الحن والبن
102	٩٦ . ابن الحنبلي = أحمد بن محمد بن جمعة
104	٩٧ . ابن الحنبلي = ابن الحبال القاضي
2	٩٨ . الحنبلي = ابن العماد
119 ، 91	٩٩ . ابن حنّا = بهاء الدين علي
207 ، 193	١٠٠ . ابن حنّا = محمد بن سليم
	(خ)
75 ، 74	١٠١ . ابن الخطّاب = عمر
12	١٠٢ . الخفاجي
242 ، 53 ، 12 ، 7	١٠٣ . ابن خلدون = عبد الرحمن
253 ، 54	١٠٤ . ابن خلكان
244	١٠٥ . الخليل ابن أحمد
89	١٠٦ . الخليلي = جركس
169	١٠٧ . ابن الخوّم = العراقي
145	١٠٨ . ابن الخياط = أحمد بن الحسن
149	١٠٩ . الخياط = مجاهد بن أبي الربيع
265 ، 220 ، 55	١١٠ . الخياط = محمد بن يوسف الضفدع
	(د)
2 ، 48 ، 49 ، 83 ، 93 ، 95 ، 96 ، 97 ، 105 ، 106 ، 109 ، 112 ، 121 ، 129 ، 135 ، 134 ، 136 ، 147 ، 148 ، 150 ، 159 ، 160 ، 169 ، 175 ، 176 ، 177 ، 182 ، 183 ، 189 ، 191 ، 192 ، 193 ، 199 ، 200 ، 208 ، 210 ، 212 ، 215 ، 219 ، 231 ، 233 ، 236 ، 238 ، 239 ، 240 ، 245 ، 255 ، 256 ، 257 ، 258 ، 262 ، 263	١١١ . ابن دانيال
150	١١٢ . الدريدية (قصيدة)

37، 35، 5	١١٣. دعبل الخزاعي
2، 56، 123، 129، 138، 140، 155، 156، 213، 218، 253	١١٤. ابن دقيق العيد
83	١١٥. الدلاصي
219، 137	١١٦. الدمياطي
	(ذ)
68	١١٧. ابن ذئب = نجيب الدين
22	١١٨. ذبيان (قبيلة)
100	١١٩. الذهبي = ابن حسام الافتخاري
182، 181	١٢٠. الذهبي = تاج الدين الموصللي دمشقي
257، 218، 179	١٢١. الذهبي = بدر الدين يوسف
	(ر)
192	١٢٢. ابن ربيعة = عبيدة
263	١٢٣. الرشيد = اليهودي
156	١٢٤. الرياحي المالكي
	(ز)
55	١٢٥. الزرزاري = شهاب الدين
238، 78	١٢٦. الزملكاني
145	١٢٧. الزين دمشقي = عمر بن أبي الحرم
230، 48	١٢٨. ابن زيّان = شرف الدين حسين
	(س)
231، 226، 154، 113، 90، 67، 66، 60	١٢٩. السامريّ = سيف الدين
11	١٣٠. السبكي = تقي الدين
192	١٣١. سكاب (فرس)
17، 16، 1	١٣٢. سلامّ = محمد زغلول
251، 248، 22، 15	١٣٣. ابن أبي سلمى = زهير
17	١٣٤. السميسر = خلف بن فرج
22	١٣٥. ابن سنان = هرم
71، 70	١٣٦. السنجاري = شمس الدين

79، 78	١٣٧. السنجاري = صفي الدين
264، 243، 46	١٣٨. السنجاري = عبد الرحمن بن الخضر الحلبي
6	١٣٩. سنجر = علم الدين
60	١٤٠. سنجر = علم الدين الجاولي
90	١٤١. ابن سويد = وجيه الدين
86	١٤٢. بنو يوسف
8	١٤٣. السيوطي = جلال الدين
162	١٤٤. ابن سيد الناس = فتح الدين
	(ش)
255، 133، 2	١٤٥. الشاب الظريف = ابن عفيف التلمساني
251، 236، 231، 229، 226، 88، 58، 43، 253	١٤٦. الشارمساحي = شهاب الدين
149، 129، 88	١٤٧. شافع بن علي
157، 156	١٤٨. الشافعي = الإمام
39، 5، 4	١٤٩. شجرة الدر = أم خليل
192	١٥٠. ابن شداد = عنتر
12	١٥١. الشكعة = مصطفى
33	١٥٢. أبو الشمقمق
15	١٥٣. الشنتريني = ابن بسام
250، 249، 23	١٥٤. الشنفرى
148، 11	١٥٥. ابن شهاب الدين = محمود
164	١٥٦. الشيرازي
	(ص)
104، 44	١٥٧. ابن الصائغ = شمس الدين
50	١٥٨. ابن الصاحب = بهاء الدين
136	١٥٩. ابن الصاحب المصري = ابن شكر
74	١٦٠. النبي صالح علي السلام
258، 226، 201، 197، 187، 45، 12، 10، 2	١٦١. الصفدي = صلاح الدين

7	١٦٢. صلاح الدين = ابن الملك الناصر
163	١٦٣. الصوّاف = حسين
	(ض)
22	ابن ضمضم، حسين
224، 20، 5	١٦٤. ضيف = شوقي
	(ط)
193	١٦٥. الطائي = حاتم
161، 68	١٦٦. ابن أبي طالب = علي
25	١٦٧. طرفة بن العبد
47	١٦٨. طشتمر
60	١٦٩. طوغان
185	١٧٠. الطوفي
95	١٧١. الطويل = تاج الدين
174	١٧٢. الطيبي = شمس الدين
	(ع)
41، 8	١٧٣. ابن عبد السلام = عز الدين
31	١٧٤. ابن عبد العزيز = عمر
45، 11	١٧٥. ابن عبد الظاهر = محيي الدين عبد الله العمري
30	١٧٦. العبدي = الصلتان
43	١٧٧. ابن عدلان
192، 22	١٧٨. عبس (قبيلة)
34	١٧٩. أبو العتاهية
17	١٨٠. عتيق = عبد العزيز
169	١٨١. العراقي = ابن الخوّام
264، 244، 217، 48، 47	١٨٢. ابن عزّام = خليل
71، 2	١٨٣. العسقلاني = ابن حجر
88	١٨٤. العسقلاني = شافع بن علي
223، 14	١٨٥. العسكري = أبو هلال

264 ، 244 ، 217 ، 100 ، 90 ، 89 ، 47 ، 46	١٨٦ . ابن العطار = الدنيسري
30 ، 29	١٨٧ . ابن عفان = عثمان
53 ، 51 ، 50	١٨٨ . ابن عمران = عامل الشرقية
32	١٨٩ . عمرو = حماد
22	١٩٠ . ابن عوف = الحارث
200	١٩١ . عيسى (الطبيب)
	(غ)
239 ، 154	١٩٢ . ابن غانم = شهاب الدين
2	١٩٣ . الغزولي
225 ، 128 ، 57	١٩٤ . الغزي = بدر الدين الحسن بن شنار
74	١٩٥ . غسان (قبيلة)
	(ف)
29	١٩٦ . ابن فاتك الأسدي
254 ، 253 ، 54	١٩٧ . الفارقي = سعد الدين بن مروان
112	١٩٨ . فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم
30	١٩٩ . ابن الفجاءة = قطري
258 ، 145	٢٠٠ . الفرجوطي = ابن الحنبلي
71	٢٠١ . ابن الفردة
31	٢٠٢ . الفرزدق
45	٢٠٣ . فرعون
11	٢٠٤ . الفقي = محمد كامل
236 ، 221 ، 178 ، 104 ، 50	٢٠٥ . الفقيسي = ابن النقيب (الحسن بن شنار)
67	٢٠٦ . الفندشي = بدر الدين لؤلؤ
	(ق)
82	٢٠٧ . قارون
257 ، 243 ، 89 ، 79 ، 43	٢٠٨ . قازان (غازان)
195 ، 10	٢٠٩ . قاسم = عبده قاسم
78	٢١٠ . قبجق = علاء الدين

243، 227، 206، 43	٢١١. القحفازي = نجم الدين
57	٢١٢. القزويني = جلال الدين محمد
57	٢١٣. القزويني = جمال الدين عبد الله بن محمد
11	٢١٤. القزويني = الخطيب
128	٢١٥. القزويني = ضياء الدين
30	٢١٦. القسري = خالد
55	٢١٧. ابن القطب
40، 6، 5	٢١٨. قطز = سيف الدين
88، 87	٢١٩. ابن قطيعة
45	٢٢٠. ابن قلاوون = حاجي بن محمد
244، 221، 49	٢٢١. ابن قلاوون = حسن بن محمد
5	٢٢٢. ابن قلاوون = الملك الأشرف شعبان
8، 5	٢٢٣. قلاوون = المنصور
173، 170، 44، 43، 9، 8، 6، 5	٢٢٤. ابن قلاوون = الملك الناصر محمد
45	٢٢٥. قوصون = ولي الدولة
230، 4	٢٢٦. القبرواني = ابن رشيق
139	٢٢٧. القيسي الحنفي = أحمد بن عبد القادر
	(ك)
134، 48	٢٢٨. ابن الكازروني
236، 103	٢٢٩. الكاشغري
29، 28	٢٣٠. الكاهلي
68	٢٣١. ابن كبش = شمس الدين
6	٢٣٢. كتبغا
2	٢٣٣. الكتبي = ابن شاکر
158، 11، 5، 2	٢٣٤. ابن كثير
42	٢٣٥. كجك = ولي الدولة
6	٢٣٦. كرجي الأشرف = سيف الدين
33	٢٣٧. ابن أبي كريمة
21	٢٣٨. كولردج

	(ل)
166، 9، 6	٢٣٩. لاجين = حسام الدين
40، 6	٢٤٠. لويس التاسع
	(م)
157، 156	٢٤١. مالك = الإمام ابن أنس
74	٢٤٢. المأمون = الخليفة العباسي (ابن مراحل)
21	٢٤٣. مايا كوفسكي
266، 265، 250، 248، 99، 75	٢٤٤. المتنبّي = أحمد بن الحسين الكندي
166، 163	٢٤٥. المحّار
43	٢٤٦. ابن المرّحل = زين الدين
30	٢٤٧. ابن مرة = الصلت
158	٢٤٨. المريني = حاكم المغرب
26	٢٤٩. المزرد = أخو الشماخ
141	٢٥٠. المسردي = بهاء الدين
143، 142	٢٥١. المسردي = شهاب الدين بن البهاء
74، 4، 3	٢٥٢. المستعصم بالله = الخليفة العباسي
29	٢٥٣. ابن معاوية = يزيد
74، 35	٢٥٤. المعتصم = الخليفة العباسي
37، 36، 15	٢٥٥. المعري = أبو العلاء
205، 193، 145، 117، 45	٢٥٦. المعمار = إبراهيم
67، 66	٢٥٧. المقدسي = محمد بن عبد الرحمن
59، 44، 9، 7، 6، 4، 3، 2	٢٥٨. المقرئزي
71	٢٥٩. أبو المكارم = ابن الملك المنصور
59	٢٦٠. المنصور = علي
11	٢٦١. ابن منظور
140، 54	٢٦٢. ابن المنير
200	٢٦٣. الموفق (كحال)
12	٢٦٤. ميكال = أندرية
	(ن)

169، 163	٢٦٥. الناسخ الحسيني = محمد العلوي
٢، ١٢، 94 ، 95، 100، 101، 106، 122، 146، 148، 180، 191، 195، 196، 198، 199، 203، 208، 218، 227، 233، 240، 249، 252، 255، 263	٢٦٦. ابن نباتة
44 ، 45	٢٦٧. النشو
215	٢٦٨. ابو نواس
11	٢٦٩. النويري
	(هـ)
63	٢٧٠. أبو هبيص = يوسف بن لطمين
30، 31	٢٧١. ابن هبيرة = أبو المثنى
113	٢٧٢. الهروي
20	٢٧٣. هلال = محمد غنيمي
60	٢٧٤. همّام = الشجاع
18	٢٧٥. الهيب = أحمد فوزي
	(و)
154	٢٧٦. واعظ تكريت
149 ، 248	٢٧٧. ابن الوحيد
9، 79، 89، 173، 240	٢٧٨. الوداعي = علاء الدين
24	٢٧٩. ابن الورد = عروة
25	٢٨٠. وردة = أم طرفة
٢، ١٢، 41، 42، 55، 59، 67، 68، 69، 90، 102، 106، 114، 115، 121، 122، 124، 128، 132، 156، 157، 158، 162، 206، 208، 213، 214، 224، 226، 228، 229، 239، 246، 251، 253، 254	٢٨١. ابن الوردي
16، 128 ، 193، 186، 196، 199	٢٨٢. الوزّاق = السراج
	(ي)
170	٢٨٣. اليشكري = الشاعر المنجم

101	٢٨٤ . يعقوب = شرف الدين
51	٢٨٥ . ابن يغمور
222 ، 186	٢٨٦ . اليمني = تاج الدين

فهرس الأماكن

	(أ)
88	أذنين
171 ، 65	أسوان
5	أنطاكية
4	أواسط آسيا
21 ، 20	أوروبا
	(ب)
78 ، 6	البحيرة
5	البرج الأحمر
40 ، 10 ، 6	بغداد
50	بلبيس
73	البويرة
163	بيت المقدس
197	بيروت
88	البيروق
	(ت)
154	تكريت
	(ج)
88 ، 58	جامع طولون
4	جزيرة الروضة
22 ، 14	جزيرة العرب
192	جوى فرس
	(ح)
49	حماة
، 156 ، 154 ، 59 ، 55 ، 49 ، 48 ، 46 ، 42 187 ، 186 ، 173 ، 157	حلب
	(خ)

68	خاراسان
24	خير
	(د)
192	ديرش
6، 11، 40، 43، 53، 54، 55، 66، 67، 68، 69، 71، 78، 79، 80، 89، 90، 154، 163، 164، 173، 185، 187، 196، 201	دمشق
40، 78	دمياط
	(ز)
187، 185	باب زويلة
	(س)
51	ساحل الشيخ
26	سلوق
197، 196	سيس
	(ش)
4، 5، 39، 40، 53، 54، 59، 62، 64، 65، 66، 72، 73، 74، 75، 85، 89، 154، 173، 197	الشام
6، 50، 78	الشرقية (مصر)
5	شقيف
18	شيزر
	(ص)
6، 64، 65، 78، 196	الصعيد
60	صنعاء
	(ط)
100	طرابلس
	(ع)
186، 222	عدن

العراق	31 ، 22
العرين	88
عين جالوت	6
(غ)	
غزة	197
(ف)	
فاقوس	88
الفسطاط	196
(ق)	
القاهرة	4 ، 10 ، 11 ، 49 ، 50 ، 66 ، 79 ، 108 ، 141 ، 173 ، 196
قطيا	197
قلعة حلب	46
قلعة دمشق	68
قيسارية	5
(م)	
ماردين	72 ، 211 ، 256 ، 257
مسجد الشيخ عبد الظاهر	141
المسجد النبوي	5 ، 161
مصر	2 ، 4 ، 6 ، 7 ، 8 ، 9 ، 11 ، 21 ، 40 ، 44 ، 45 ، 53 ، 54 ، 56 ، 59 ، 62 ، 64 ، 65 ، 66 ، 77 ، 78 ، 85 ، 89 ، 127 ، 144 ، 157 ، 158 ، 169 ، 172 ، 173 ، 185 ، 186 ، 187 ، 213 ، 215 ، 230 ، 239 ، 254
منزل حاتم	88
الموصل	90
(ن)	
النيل	44 ، 45

	(ي)
5	يافا